2251
.282
01

2251.282.01
Damascus.Université syri-
enne
al-Muhādarāt al-'āmmah

DATE ISSUED	DATE DUE	DATE ISSUED	DATE DUE

Princeton University Library
32101 073578781

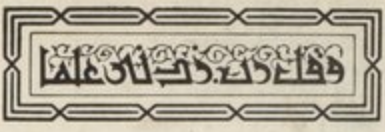

جامعة دمشق

المحاضرات العامة

خلال

العام الجامعي ١٩٦٠-١٩٦١

مطبعة جامعة دمشق

Damascus. Université syrienne

جامعة دمشق

al-Muḥāḍarāt al-ʿāmmah

المحاضرات العامة

خلال

العام الجامعي ١٩٦٠ - ١٩٦١

مطبعة جامعة دمشق

الفهرس

صفحة

كلمة مدير الجامعة ٣

الاستاذ الدكتور حكمة هاشم . . . . . .

١ – مؤتمران في العلوم الجنائية ٥

الاستاذ الدكتور محمد الفاضل . . . . . .

٢ – مأساة فلسطين وأثرها في الشعر المعاصر ٤٩

الدكتور صالح الاشتر . . . . . .

٣ – أخطار الاشعاعات الذرية (النووية) ٨٣

الاستاذ مأمون الكنانى . . . . . .

٤ – التطور الجنسي وآثاره النفسية ١٢١

الاستاذ الدكتور محمد شفيق البابا . . . . . .

٥ – العوامل النفسية في الأمراض الجسدية ١٤١

الدكتور عبد الله عبد الدائم . . . . . .

٦ – المشاريع الانتاجية في الاقليم السوري ١٧٩

المهندس عبد الباسط الخطيب . . . . . .

٧ – مبادىء الاسلام الدستورية في نواحي الحياة ١٩٩

الاستاذ الدكتور معروف الدواليبي . . . . . .

٨ – التعليم الابتدائي والثانوي في الاتحاد السوفياتي ٢٢٥

السيد ميرزا محمودوف . . . . . .

٩ – الحقيقة الفلسفية ٢٣٧

الدكتور بديع الكسم . . . . . .

2251
.282
.01

صفحة

١٠ – التدخين وسرطانات الرئة والحنجرة ٢٥٣
الاستاذ الدكتور طاهر المرادي . . . . . .
١١ – الشخصية السوية والشخصية غير السوية ٢٦٥
الاستاذ نعيم الرفاعي . . . . . .
١٢ – هجرة البويضة في جسم الحيوانات اللبونة ٢٨١
الدكتور س . غونتر . . . . . .
١٣ – القرويين أقدم جامعة في العالم ٣٠١
الاستاذ محمد المنتصر الكتاني . . . . . .
١٤ – المحاضرات باللغة الأجنبية (القسم الاخير من المجلد)

***

كلمة مدير جامعة دمشق

الأستاذ الدكتور حكمة هاشم

تواصل جامعة دمشق إصدار محاضراتها العامة التي تتجه بها إلى الجمهور العربي الأكبر خارج حظيرتها . وهذا جزء من نتاج مجهودها التثقيفي خلال العام الجامعي ١٩٦٠- ١٩٦١ .

إن نظرة يلقيها المرء على فهرس الموضوعات التي عالجها محاضرونا الفضلاء كفيلة بأن تطالعه بالآفاق الفسيحة الخصيبة المعروضة عليه . ونحن نعتقد أن هذه الآفاق خليقة أن تمتد إليها بصيرة المتطلع ، حتى إذا ما تعلق بها الطرف كان ذلك حادياً للذهن على ارتياد نواحيها واجتلاء أسرارها وخوافيها . وربما كان في تلك المغامرة العقلية الشيقة تحقيق لأنبل ما أوتي الكائن الإنساني من هبات ثمينة ، ونعني بذلك الاشرئباب الدائم للمعرفة واللذة الكبرى في اكتناه وجه الحق .

هذا ، والجامعة حريصة أشد الحرص على قيام التواصل بينها وبين الباحثين والدارسين . فإذا اتفق لنفر منهم منازع في الرأي تختلف ووجهات للنظر معروضة في زوايا هذه المحاضرات ، فليس عليهم من حرج في إبدائها ؛ وبوسعهم أن يثقوا من قبولها عندنا القبول الحسن .

١

مؤتمران في العلوم الجنائية

للدكتور محمد الفاضل

رئيس قسم القانون الجزائي وأصول المحاكمات الجزائية

في جامعة دمشق

سيداتي وسادتي :

تمهيد : لعلّ من مآثر هذا العصر الذي نحياه ، أو من مآسيه ، أنه يؤمن بالإنسان ، وبقدرته على إدراك الحقيقة ، وبلوغ الخير والسعادة والسلام في هذا العالم . هذا الإيمان القوي ، المبدع ، العنيد ، جعل العقل ينكبّ على ذاته يسبر أغوارها ويكتشف أسرارها ، وعلى الطبيعة يستخرج كنوزها ، ويتقرى قوانينها ، ويَصُدّ أخطارها ، ويحقق في الحالين هذه المكاسب العلمية والعملية الرائعة التي تؤلف تراث الإنسانية الحضاري في العصر الحديث . وبدافعٍ من هذا الإيمان ، وحافزٍ من هذه الانتصارات ، ازداد اهتمام المحافل والمؤسسات الحديثة من دولية وقومية في دعم البحث العلمي ، وفي بذل الوسائل الوافرة لتعزيزه ، وفي السعي لعقد اللقاءات الكبرى على الصعيد العالمي بين أرباب الاختصاص على اختلاف الألوان والأجناس والطبقات والمذاهب والنزعات : يضيفون خبرةً إلى خبرة ، وتجربة إلى تجربة ، وفكراً حرّاً مولّداً بحاثاً إلى فكر حرّ مولّد بحّاث .

الجريمة مشكلة دولية : والإجرام بلوى إنسانية عامة ، ومشكلة اجتماعية خطيرة ، حَفِيَ بها الناس قديماً وحديثاً ، ولطالما كان موضوع مكافحة الجريمة ومعاملة المجرمين – وما يزال – ميداناً رحباً نزلت على قِراه أنماط شتّى من التجارب ، وحلّت بساحه أنواع متعددة من الاختبارات . وقد حدا ذلك بالأمم المتحدة أن تستقطب حركة النضال ضدّ هذا الوباء العالمي المشترك ، وأن تضطلع بمهمة الاشراف على أوجه النشاط الدولي في هذا الصدد ، وان توجه منذ نشأتها قدْراً وافراً من عنايتها وقسطاً كبيراً من اهتمامها إلى مشكلة الاجرام ومعالجته تحقيقاً للأغراض الاجتماعية التي انطوى عليها ميثاق سان فرانسيسكو . وقد ورثت الأمم المتحدة أعباء اللجنة الدولية للقانون الجزائي والسجون التي كانت تتخذ من برن ، عاصمة الاتحاد السويسري ، مركزاً لأعمالها . وحُدّدت مهامُّ الأمم المتحدة واختصاصاتُها في هذا الميدان في عددٍ من القرارات ، لعلّ أهمها القراران اللذان أصدرتهما الجمعية العامة في الثالث عشر من شهر آب (أغسطس) عام ١٩٤٨ برقم ١٥٥ (٧) ، وفي الأول من شهر كانون الأول (ديسمبر) ١٩٥٠ برقم ٤١٥ (٥) ، وقد أقرّهما المجلس الاقتصادي والاجتماعي ، وقامت لجنة الشؤون الاجتماعية في صلب هذا المجلس بإعداد برنامج للعمل ، ورسم خطةٍ تسير عليها الأمانة العامة للأمم المتحدة في تنفيذ قراراتها الصادرة في هذا الموضوع . وسرعان ما أنشأت الأمانة العامة شعبة خاصة تتولى ممارسة هذه الاختصاصات ، وتقوم بالمهامّ الملقاة على عاتقها ، وقد أطلق عليها اسم : « **شعبة الدفاع الاجتماعي** » . وغنيّ عن البيان أن إلقاء هذه السلطات والمسؤوليات على الأمم المتحدة وهيئاتها المختصة لا يحرم كل دولةٍ من الدول الأعضاء على حدةٍ من الحق في تحديد السياسة التي تنتهجها لاستتباب النظام والأمن في داخل حدودها وفقاً لمبادىء السيادة والاستقلال .

ولطالما شعرت الدول بالمصاعب التي تعترض طريقها في حلّ مشكلة الاجرام ، وهي مشكلة سرمدية عسيرة مُعقّدة ، فرأت أن تَضمّ جهودها بعضها إلى

بعض ، وأن تفيد بعضُها من تجارب بعض في هذا المضمار ، كما تفعل في عددٍ من المجالات الأخرى ، فرغبت إلى الأمانة العامة للأمم المتحدة :

أولاً : أن تعمل على جمع المعلومات المفيدة المجدية في موضوع اتقاء الجريمة ومعاملة المجرمين ، وأن تقوم على تنسيقها وتركيزها ونشرها ، وأن تُصدر ، بغية تحقيق هذه الأهداف ، مجلةً أسمتها : « **المجلة الدولية للسياسة الجنائية** » .

ثانياً : أن تقوم الأمانة العامة للأمم المتحدة بأبحاث واسعة ودراسات مقارنة لبعض الموضوعات المحدَّدة في نطاق التشريعات والتجارب العملية الوطنية والاقليمية .

ثالثاً ـ أن تنظم الأمانة العامة ، أو تساعد على تنظيم اتصالات ولقاءات بين الهيئات الحكومية المختصة ، أو بين الخبراء من شتى البلدان .

رابعاً : أن تعمل الأمانة العامة على تنظيم مؤتمرات إقليمية أو حلقات دراسات محلّية في فترات منتظمة ، ودورات متعاقبه ، وأن تعمد ، بعد عقد هذه المؤتمرات والحلقات على الصعيد الإقليمي ، وجمع أعمالها وأبحاثها ومقرراتها ، ودراستها ومقارنتها بعضها ببعض ، إلى عقد مؤتمر عالمي تدعو إليه وتشرف عليه الأمم المتحدة مرةً في كل خمس سنوات ، وتوجه العناية فيه إلى استخلاص المبادىء المشتركة التي تصلح أساساً لرفع التوصيات العامة إلى حكومات الدول الأعضاء في هذه المنظمة العالمية .

حلقات الدراسات الإقليمية : وقد وُضعت هذه النقاط الأربع موضع التنفذ الفعلي ، فعُقدت حلقة دراسات للدول الأوروبية في مدينة جنيف في عام ١٩٥٢ ، كما عُقدت حلقة إقليمية ثانية لدول أمريكا اللاتينية في البرازيل في عام ١٩٥٣ ، وثالثة لدول آسيا والشرق الأقصى ، وعُقدت حلقة دراسات الشرق

الأوسط في القاهرة في ٥ – ١٧ كانون الأول (ديسمبر) ١٩٥٣ ، وأسهمت في هذه الحلقة جميع الدول العربية . وبعد أن تمّ عقد الحلقات الدراسية في شتى أصقاع المعمورة على الصعيد الإقليمي ، وأنجزت دراساتها وأبحاثها ، وانتهت إلى مقررات إيجابية واقتراحات محدّدة ، عمدت الأمانة العامة للأمم المتحدة إلى دعوة جميع الدول الأعضاء إلى عقد مؤتمر دولي لدراسة وسائل مكافحة الجريمة ومعالجة المجرمين ، والخروج من هذه المعضلة بتوصيات علمية واضحة في ضوء تجارب شتى الشعوب والبلدان التطبيقية واختباراتها .

المؤتمر الدولي الأول للوقاية من الجريمة ومعاملة المجرمين في جنيف عام ١٩٥٥ : وقد عُقد فعلاً أول مؤتمر عالمي للوقاية من الجريمة ومعاملة المجرمين في جنيف بدعوة الأمم المتحدة واشرافها ، فبدأ في الثاني والعشرين من شهر آب (أغسطس) ١٩٥٥ حتى الثالث من أيلول (سبتمبر) ١٩٥٥ ، وكان لي شرف تمثيل جامعة دمشق فيه . وحالف هذا المؤتمرَ العالميَّ الأول قدرٌ كبيرٌ من النجاح والتوفيق وأسفر عن طائفة من المقررات والتوصيات الهامة ، وفي طليعتها: مجموعة الحدّ الأدنى من القواعد التي تجب مراعاتها في معاملة المسجونين وهي بمثابة **بيان أو اعلان عالمي لحقوق «الانسان السجين»**، ثم مجموعة المبادىء التي ينبغي العمل بمقتضاها لانتقاء القائمين على شؤون المؤسسات العقابية واختيار موظفي السجون وإعدادهم وتدريبهم وتأهيلهم. وعالج هذا المؤتمر العالميّ أيضاً تطبيق المؤسسات الجزائية الحديثة من معاهد إصلاحية وسجون مفتوحة ومستعمرات زراعية ، ووضع طائفةً كبرى من القواعد لتنظيم العمل في السجون ، واتخذ عدداً من المقررات الهامة في ميدان الوقاية من جرائم الأحداث وطرق معالجتها . وقد قمتُ بوصفي عضواً في وفد الجمهورية حينذاك بتعريب التوصيات والمقررات التي أفضت إليها أعمال المؤتمر الدولي الأولي للوقاية من الجريمة ومعاملة المجرمين ، وأمر السيد وزير العدل بنشرها في مجلة « القانون » في عام ١٩٥٦ . وتقدم وفد

الجمهورية إلى المسؤولين وقتئذ باقتراحات عملية بغية وضع هـذه التوصيات والمقررات موضع التنفيذ ، كما قام الوفد بتوجيه الدعوة إلى عقد حلقة الدراسات الثانيـة لدول الشرق الأوسـط في دمشق . ولبّت الأمم المتحدة الدعوة ، وتقرر عقد الحلقة الاقليمية المذكورة في خلال عام ١٩٥٧ ، ولكن العدوان الغاشم على الاقليم المصري حال دون عقد الحلقة في أجلها الموعود ، ثم طرأت أحداث عقدت من بعدها حلقة الدراسات الثانية للوقاية من الجريمة ومعاملة المجرمين للدول العربية في كوبنهاغن في الدانمارك في خلال صيف العام الفائت ١٩٥٩ .

المؤتمر الدولي الثاني للوقاية من الجريمة ومعاملة المجرمين في لندن عام ١٩٦٠ : ودار الزمن دورته ، وانقضت خمس سنوات أخرى ، وسارعت الأمم المتحدة ، فدعت الى عقد المؤتمر العالمي الثاني للوقاية من الجريمة ومعاملة المجرمين في لندن في خلال شهر آب (اغسطس) المنصرم (١٩٦٠) ، ودام من الثامن حتى العشرين . وقد أسهمت فيه الجمهورية العربية المتحـدة ، كما اشتركت فيه لأول مرة دول الكتلة الشرقية والدول الافريقية والآسيوية الحديثة الاستقلال ، وكان المؤتمر تظاهرة علمية رائعة حشدت فيها المنظمة العالمية جميع إمكاناتها ، ووضعت زبدة خبراتها وتجاربهـا ، وكانت الموضوعات المطروحة على بساط البحث على جانب عظيم من الاهمية والمتعة ، وتتلخص في ست مسائل :

المسألة الأولى : جرائم الأحداث في أشكالها الجديدة : منشؤها ، وطرق الوقاية منها ، ووسائل معالجتها .

المسألة الثانية : الدور الذي يلعبه رجال الضابطة أو الأمن (البوليس) في الوقاية من جرائم الأحداث ، وتنظيم التعاون بين خدمات الضابطة ومصالح الدولة الأخرى في هذا الصدد .

المسألة الثالثة : أنواع الجرائم التي تنشأ عن التغيرات الاجتماعية ، أو ترافق

التقدم الاقتصادي في البلدان المتخلّفة اقتصادياً ، ومدى علاقة التحضّر بالإجرام ، ونوع الجرائم والمجرمين الذين هم نتاج التحضّر ، والتدابير المقترحة لاتقاء الإجرام الناشيء عن التطور الحضاري ، وأثر البرامج الخاصة بمعالجة هذه المشكلة .

المسألة الرابعة : الحبس القصير المدة ، والأنظمة الخاصة بتطبيق هذه العقوبة ، وأنواع المجرمين الذين يُحكمون بها ، وجدواها على المحكوم عليهم بها ، والأجزية الأخرى التي يمكن الاستعاضة بها عنها .

المسألة الخامسة : المعاملة الواجب تطبيقها على المسجونين قَبيْل الإفراج عنهم ، وتقديم المساعدة لأسرهم أثناء وجودهم في السجن ، ورعايتهم عقيب الإفراج عنهم ، وأصناف المجرمين الذين يجوز إخضاعهم للمعاملة الخاصة قَبيْلَ الإفراج ، ومدى استخدام وتطبيق هذه المعاملة الخاصة السابقة للإفراج عن المحكوم عليهم ، ومدى مساهمة المنظمات الحكومية والشعبية في برامج من هذا القبيل . ثم برامج المعونة الواجب إسداؤها للسجناء بعد خروجهم من السجن ، وأنواع المساعدات التي يمكن تقديمها للأشخاص الذين يعولهم المحكوم عليه ، والقواعد التي تُمْنَح بمقتضاها هذه المساعدات أو تُرْفَض .

المسألة السادسة : إدماج العمل في السجون في الاقتصاد القومي ، وصور هذا الإدماج ومظاهره المختلفة ، وتنظيم برامج العمل في السجون تنظيماً يؤول إلى منح السجين أكبر فرصة ممكنة لإيجاد عمل بعد خروجه من السجن ، ويفضي إلى زيادة عدد الأشخاص من ذوي المهارات الفنية الضرورية لتنمية الاقتصاد القومي . ثم الأجر الذي يُمنح للسجين لقاء عمله ، ووجوه الإفادة من هذا الأجر .

المؤتمر الدولي الرابع في علم الإجرام في لاهاي عام ١٩٦٠ : وقد أعقبَ

المؤتمرَ الدوليّ الثاني الذي عقدته الأمم المتحدة في لندن للوقاية من الجريمة ومعاملة المجرمين مؤتمرٌ دوليٌّ آخر في العلوم الجنائية دعت إليه **جمعيةُ علم الإجرام الدولية**، وعقدته في لاهاي ودام منذ الخامس حتى الحادي عشر من شهر أيلول (سبتمبر) ١٩٦٠ . وكما أسهمت الجمهورية العربية المتحدة في المؤتمر الدولي الثاني للوقاية من الجريمة ومعاملة المجرمين ، فكذلك اشتركت في المؤتمر الدولي الرابع في علم الإجرام . وجمعية علم الإجرام الدولية La Société Internationale de Criminologie هي أعظم المحافل الدولية العلمية المعنيّة بشؤون الجريمة والمجرمين ، والإفادة في هذا المضمار مما وصلت إليه علوم الإنسان من مُكْتَسَبات ومُكْتَشَفات . ولقد كانت موضوعات الأبحاث في مؤتمر لاهاي طافحة مليئة تتناول أعوص المشاكل في العلوم الجنائية ، ومن بينها : مسألة تطبيق الفحوص والاختبارات الطبية والنفسية والاجتماعية على الجُنَاة ، ومسألة التطورات الحديثة في فن التحقيق الجنائي العملي وفي الطب الشرعي ، ومسألة عوارض المسؤولية الجزائية من جنون وصَرْع وُعته وإدمان على الخُمور والمخدرات وعلاقة كل ذلك بالإجرام ، وبحث أنجع السبل وأحدثها في معالجة المجرمين الشواذّ والوقاية منهم ، وأوجه العلاقة بين الجريمة والسنّ ، ثم مسألة الجرائم الجنسية ، وجرائم السرقات في المخازن ، وأخيراً أحدث التطورات في العلوم العقابية .

• • •

سيداتي وسادتي :

أرجو أن تغفروا لي هذه الإطالة في عرض المعلومات الأولية عن هذين المؤتمرين : مؤتمري لندن ولاهاي في العلوم الجنائية والعقابية ، وقد عُقد كلاهما في صيف هذا العام ١٩٦٠ . وعذري في ذلك أنني شديد الحرص على استرعاء انتباهكم إلى الامور الرئيسية التالية :

الأمر الأول : أهمية المؤتمرين : إن مؤتمري لندن ولاهاي في هذا العام ، بما بُذِلَ فيهما من مجهودات علمية ضخمة ، وبما وصل اليه المؤتمرون فيهما من حلول إيجابية بنّاءة ، وبما دار من مناقشات وتبودل من آراء حول الوسائل والغايات ، وبما اصطرع فيهما من عقائد من الشرق وأخرى من الغرب ، يؤلفان كلاهما حدثاً هاماً في تاريخ العلوم الجنائية والعقابية ، وخطوة كبرى في تطورها وتقدّمها .

والأمر الثاني : إسهام المؤتمرين في حل أزمة الانسان الحديث : إن هذين المؤتمرين خرجا بالتشريع الجزائي الحديث من قوقعة النصوص الجامدة إلى آفاق الحياة الرحبة ، ومُصْطَرَع المذاهب والعقائد والنُّظُم السياسية والاقتصادية والاجتماعية . والواقع أن التشريع الجزائي الحديث لم يَعُدْ يُعْنَى بإيجاد الحلول للمسائل الخلافية في الفقه أو القضاء ، قَدْرَ عنايته بالمشاكل الكبرى يطرحها النضال ضدّ الإجرام في المجتمعات الحديثة التي اطّرد فيها التقدّم العلمي اطراداً مذهلاً ، بَيْنَما ركدت الأخلاق ، إذا لم تكن قد تردّت أكثر من ذي قبل . وهل أزمة الإنسان في العصر الحاضر في جوهرها غير هذه الهوّة السحيقة التي يحسّها العالم بين نموّ العقل وضمور الضمير ؟ . وهكذا سما المؤتمران بالتشريع الجزائي الحديث من نطاقه الإقليمي المحلّي الضيق إلى الصعيد العالميّ الانساني ليسهم في حلّ مشكلة الإنسان في الحضارة الحديثة التي نحياها في القرن العشرين .

والأمر الثالث : خطورة مشكلة الجريمة : **وأما الأمر الثالث الذي أودّ استرعاء الانتباه اليه فهو الشعور العميق الذي يسود جميع شعوب العالم ودوله بخطورة مشكلة الجريمة والمجرمين وضخامة الأعباء الناشئة عنها** . ولقد كانت الإحصاءات الجنائية التي تقدمت بها الوفود الرسمية إلى المؤتمرين لتكون أسساً للأبحاث مخيفةً مذهلةً . ويكفي للتدليل على ذلك أن نشير الى وجود أكثر من

مليون سجين في العالم بصورة دائمة ، أي بمعدّل سجين واحد تقريباً لكل ألفي نسمة ، وذلك في الأحوال العادية . وقد قدرت الأضرار المالية المباشرة وغير المباشرة الناجمة عن وقوع الجرائم في الولايات المتحدة مثلاً بثلاثة عشر ملياراً من الدولارات سنوياً . وبلغ عدد الجرائم الكبرى وحدها في السنة الواحدة في تلك البلاد ١,٧٦٣,٢٩٠ ، أي بمعدل جريمة واحدة كل ثماني عشرة ثانية ، أو بمعدّل أكثر من ثلاث جرائم كبرى في الدقيقة الواحدة .

ولما كانت الاحصاءات تقاس عادةً عند علماء الجريمة بنسبة عدد الجرائم المقترفة لكل عشرة آلاف من السكان ، فإن نسبة الاجرام تبلغ وسطياً في الولايات المتحدة حوالي ١٣ جريمة كبرى لكل عشرة آلاف نسمة من المواطنين الأمريكيين أو بمعدّل جريمة كبرى واحدة لكل ثمانين أمريكياً ، أما المخالفات فتبلغ في تلك الدولة من عشرة ملايين إلى خمسة عشر مليوناً في كل سنة . ويعتقد بعض العلماء أن ٧٥ ٪ من المواطنين الامريكيين لا يقضون نحبهم الا بعد أن يتعرضوا لاعتداء إجرامي من سرقة أو قتل أو اغتصاب أو إيذاء أو غير ذلك ، وان الربع الباقي من السكان يبلغ وحده آخر العمر بسلام . وكان مدير المباحث الجنائية الأمريكية ادغار هوفر يرى أن أكثر من ألف جريمة قتل تقع شهرياً في الولايات المتحدة وأن مايقرب من مليونين ونصف المليون من القتلة يسرحون ويمرحون في أرجاء الوطن الأمريكي يترقبون اهتبال فرص الانقضاض على ضحاياهم بين اللحظة واللحظة . وقدّر بعض علماء الإحصاء ان عدد المجرمين المسلّحين في الولايات المتحدة في أحد أعوام ماقبل الحرب العالمية الثانية كان يفوق عدد قواتها المسلّحة البرية والبحرية والجوية !.. والواقع ان الذين يحيون في دنيا الإجرام لايضعون سلاحهم مطلقاً ، ولا يعرفون معنى الهزيمة ، بَيْنَما يضع المحاربون في الدول المعادية أسلحتهم دوماً حينما تحيق بهم الهزيمة في ميادين القتال . وقد أثبتت الاحصاءات الجنائية الامريكية أن عدد

المواطنين الأمريكيين الذين قُتِلُوا قصداً أي الذين ذهبوا ضحايا جرائم القتل المقصود المقترفة في الولايات المتحدة في الفترة الواقعة بين عامي ١٩١٨ و١٩٤١ أي في فترة مابين الحربين اللتين خاضتهما الولايات المتحدة الأمريكية يفوق عدد المواطنين الأمريكيين الذين ذهبوا ضحايا المعارك في الحرب العالمية الاولى. فقد بلغ عدد القتلى الامريكيين في الحرب العالمية الأولى ١٢٦٠٠٠ قتيل بَيْنَمَا بلغ عدد القتلى من ضحايا الإجرام في تلك الفترة ١٢٧٥٠٥ قتلى. ولماذا كان أهل ضحايا الحرب قد عُوِّضوا عن أبنائهم مكافآت ومعاشات ومرتبات، فإن ذوي ضحايا الإجرام لم يُعَوَّضوا شيئاً إلاّ في القليل النادر.

ومن طريف مايذكر أنه حينما نوّه الوفد الأمريكي بهذه الإحصاءات وأمثالها في أحد الاجتماعات العامة في المؤتمر علّق أحد أعضاء الوفود العربية عليها بقوله: «إن الاحصاءات الجنائية الأمريكية - على دقّتها وتنوعها - ناقصة، فهي تخلو من بند أساسي هو بند جرائم المسؤولين من أبناء الولايات المتحدة الأمريكية عن تشريد مليون لاجيء عربي، ونهب أموالهم وأملاكهم وهدم دورهم وإحراق منازلهم وقتل أطفالهم وشيوخهم ونسائهم في فلسطين، ولو أن الاحصاءات الجنائية الأمريكية انطوت على هذا البند لازدادت نسبة الإجرام في الولايات المتحدة الأمريكية حتى الضعف، على الأقل. ولعلّ أصدق تعليل لحصول مثل هذا النقص هو أن تلك الاحصاءات تتناول الجرائم الآنية، أمّا تشريد اللاجئين العرب «فجريمة مستمرّة». ولفّ مطرقة الرئيس إعصارٌ من التصفيق أسهمت فيه جميع وفود الدول الأسيوية والأفريقية ودول الكتلة الاشتراكية وبعض أعضاء الوفد الأمريكي أنفسهم من أساتذة الجامعات!.

ومما لامرية فيه أن ماأوردناه لايمثل إلاّ بعض مظاهر الخسائر المادية للسلوك الإجرامي في مجتمع من المجتمعات، وهي الخسائر الفعلية المباشرة التي تلحق بهذا المجتمع من جراء ذلك السلوك. فإذا أضفنا اليها نفقات الوقاية، والحفاظ

على الأمن والنظام ، والملاحقة والتعقيب ، واستقصاء الجرائم والمجرمين وجمع الأدلة والتحقيق والمحاكمة وتنفيذ العقوبات في السجون وفي غير السجون ، فإن رقم الخسائر التي يفضي اليها النشاط الاجرامي يقفز الى مستوى يصعب على العقل تصديقه . وقديماً قال العالم البلجيكي كتله Quetelet : « إن ثمة ميزانية هائلة ثابتة ندفعها بصورة منتظمة ومستمرة : تلك هي ميزانية السجون » وقد جاء في احصاء إحدى الدول أن النفقات التي تستلزمها ملاحقة المجرمين وتنفيذ العقوبات في المحكوم عليهم جزائيا توازي أكثر من ١٠ ٪ من مجموع مايدفعه المواطنون من الضرائب . وهو رقم كما ترون غير يسير ، ولا تُحْسَب فيه طبعاً الخسائر التي تحلّ بالأفراد المجنيّ عليهم من جرّاء وقوع الجرائم . والجريمة — فوق ذلك كله — تزرع الشك والقلق والاضطراب في النفوس ، وتقضي على الاستقرار والهدوء والطمأنينة والسلام وهي أمور لامندوحة عنها ولابُدّ منها لنموّ المجتمع وازدهار مؤسساته . ولو أن الجهود التي يبذلها المجرمون في التفكير في الجريمة ورسم خططها وتنفيذها ، والجهود المادية والأدبية التي يبذلها المجتمع لمكافحة النشاط الإجرامي والقضاء عليه ، يُتاح تحويلها كلها أو بعضها الى ميادين أخرى في الإصلاح ورفع مستوى العيش لكانت الجدوى أكبر مما يتصوره الخيال الخَصْب .

وإذا ولينا وجوهنا شطر الجمهورية العربية المتحدة فلا نجد في ميدان الإحصاء الجنائي كبير أمر . وقد قُدّرت الخسائر التي يُصابُ بها المجنى عليهم في جرائم السرقة وحدها في الاقليم الجنوبي بما يقرب من مليون جنيه سنوياً على وجه التحديد . وتدلّ الإحصاءات الجنائية في ذلك الإقليم على أن هذا الرقم الذي يمثل أضرار السرقة ثابت تقريباً في كل عام .

وأما في الاقليم الشمالي : فإن الاحصاءات الجنائية كانت حتى ردح قريب من الزمن مفتقدة أو شبه مفتقدة . ولولا هذا الجهد الاحصائي المشكور الذي تبذله الأمانة العامة لشؤون الشرطة والأمن في وزارة الداخلية في تقريرها القيم

الذي تضعه سنوياً عن حالة الأمن العام في الاقليم السوري، وما تقوم به وزارة العدل في قسمها الإحصائي ، لما علمنا شيئاً يكاد يذكر عن واقع الإجرام في هذا الاقليم ، ولكنا في هذا الميدان أشبه بالنعامة التي تخفي رأسها في الرمل فلا تعود ترى أحداً ، وهي تحسب أنها لم يَعُدْ يراها أحد .

وإذا كانت مشكلة الجريمة والمجرمين على هذا القَدْر من الخطورة والصعوبة، أفلا تُعْذَرُ الأمم المتحدة وتُشْكَر إذا هي وضعتها على الصعيد العالمي ، وعقدت من أجلها الحلقات والمؤتمرات ، وبذلت الجهود ، وحشدت رجال الخبرة وأهل الاختصاص ؟.. والحقيقة أن الجريمة والحرب وجهان لمشكلة أزلية خالدة هي مشكلة توطيد دعائم الأمن والسلام بين أبناء الانسانية قاطبةً . فالجريمة في حقيقتها ليست سوى حرب من الداخل ، والحرب في واقعها ليست سوى جريمة من الخارج .

. . .

الحلول والصُّوَى : ولكن ماهي **الحلول** التي أقرّها أهل الخبرة والعلم في مؤتمري لندن ولاهاي في العلوم الجنائية ؟ وماهي **الصُّوَى** التي وضعوها على ذلك الدرب الطويل الشاق ، درب مكافحة الجريمة ومعاملة المجرمين ؟

إن ذلك ، أيها السيدات والسادة ، لايمكن أن يُسْتَوْفَى في محاضرة كهذه ، ولا في محاضرات ، إنه موضوع ضخم حافل ... ولقد قرأتُ في دلائل الإعجاز أن عبيد الله بن عبد الله بن طاهر سأل البحتري عن مسلم وابي نواس أيهما أشعر فقال : « أبو نواس » . فقال عبيدُ الله : « ولكن أبا العباس ثعلباً لايوافق على هذا » . وكان ابو العباس ثعلب من اللغويين النحاة ، وكان اللغويون النحاة هم قضاة الشعر في أواخر القرن الثالث ، إليهم يحتكم الشعراء ، وعنهم يأخذ الملوك والأمراء . فأجاب البحتري : « ليس هذا من شأن أبي العباس

ثعلب ممن يتعاطون علم الشعر دون عمله . إنما يعلم ذلك من دُفع في سلك طريق الشعر ومضايقه ، وانتهى إلى ضروراته » .

ونحن الذين حيينا أبحاث المؤتمرين ومقرراتها ، ودُفعنا في مضايقها ، وانتهينا مع من انتهى إلى ضروراتها ، نعلم أشد العلم أن المجال الآن لن يتسع لاستعراض جميع النتائج العلمية التي أسفرت عنها جهود الباحثين في المؤتمرين . وإنما نحن نودّ في مابقي لدينا من وقت قصير أن نلمعَ الماعةً وجيزة إلى الخطوط العامة الكبرى التي أفضت إليها أعمال المؤتمرين في المواضيع والمسائل التي كانت مطرح بحث .

. . .

أولاً — مقررات المؤتمر الدولي الثاني للوقاية من الجريمة ومعاملة المجرمين في لندن ١٩٦٠

المسألة الاولى : جرائم الأحداث في أشكالها الجديدة : منشؤها ، وطرق الوقاية منها ، ووسائل معالجتها :

لم تكن هذه هي المرة الأولى التي أولت فيها الأممُ المتحدة مسألةَ جرائم الاحداث عنايتها القصوى . فقد طرحت هذه المشكلة على بساط البحث في المؤتمر الدولي الأول الذي عُقدَ في جنيف في صيف عام ١٩٥٥ ، وتعددت منشورات الأمم المتحدة ودراساتها في هذا الموضوع . وقد رغب المجتمعون في مؤتمر لندن في صيف عام ١٩٦٠ أن يدرسوا ظاهرة جديدة مذهلة في جنوح الأحداث . فقد تكاثر عدد جرائم الأحداث في شتى البلدان ، وازداد عنفها ، واتخذت أشكالاً وصوراً جديدة لم يكن لمجتمعات هذه الدول سابق عهدٍ بها .

وقد رأى المؤتمر أن جرائم الأحداث لايمكن أن تدرس وأن يدرك كنهها وتعالج إلاّ في نطاق بنيان الدولة الاجتماعي ، وأن خصائصها الأساسية تظل كما هي في سائر أصقاع الدنيا ، سواء أظهرت في أشكالها التقليدية المعروفة أم اتخذت لها أزياء جديدة وصوراً مستحدثة .

والجدير بالذكر أن الازدياد الملحوظ في جرائم الأحداث منشؤه سببان: **الأول** : أن مرافق الوقاية والعلاج وخدماتها قد وصلت إلى حد كبير من الدقة والتنظيم بحيث لم تعد تغيب عنها أية حالة من حالات الجنوح . **والسبب الثاني** ولعلّه الأهم يتجلّى في أن كثيراً من الدول تشتطّ في إضفاء الوصف الجرميّ على عددٍ من أنماط السلوك الصبياني كالعصيان ، والخروج عن النظام ، وعدم التكيّف الاجتماعي وغير ذلك . ولهذا فليس ينبغي الغلوّ في أهمية ظاهرة الازدياد في عدد جرائم الأحداث . وتبدو هذه الظاهرة تارة في شكل جرائم العصابات ، وطوراً في صورة جرائم طائشة لاهدف لها ، وحيناً في التخريب والإتلاف ، وغير ذلك من ألوان السلوك المؤذي الذي ينمّ - ولاشكّ - عن خطر على النظام العام ، ولكنّه لاينمّ بالضرورة عن نزعات إجرامية متأصلةٍ خطورتها في نفوس الأحداث .

١ ــ وبناءً عليه ، أوصى المؤتمر بأنه يجب أن لانبالغ في أهمية المشكلة التي يطرحها جنوح الأحداث . وإذا لم يكن من المفيد إيجاد تعريف موحّد يصلح للدّلالة على جنوح الأحداث في جميع البلدان ، فلا أقل من أن نقصر عبارة « جنوح الأحداث » على التعبير عن الجرائم التي يعاقب عليها قانون العقوبات ، وأن لاندخل تحت طائلة نصوص التشريع الجزائي بعض التصرفات الشاذة التي يقوم بها الأحداث والتي لايعاقَب على ارتكابها البالغون .

٢ ــ ولاحظ المؤتمر أن المعلومات الاحصائيّة تدل دلالةً قاطعة على أن

بعض البلدان نشأت فيها أنواع جديدة من جرائم الأحداث ، وأن بعضها الآخر اطرّد فيها نمو هذه الأنواع أو ازداد خطرها على الرغم من الجهود الكبيرة التي تبذل في تلك البلدان لمنعها واتقائها . ورغبةً من المؤتمر في إدراك حقيقة مغزى هذه الظاهرة ، وهل تنمّ في الواقع عن ازدياد حقيقي في نسبة جرائم الاحداث ، وماهي الأسباب القائمة وراء ذلك ، وحرصاً منه على تسهيل وضع الخطط والبرامج ورسم السياسة الرامية إلى منع الجنوح ومعالجة الأحداث الجانحين ، فقد طالب المؤتمرُ الأممَ المتحدة بأن تدخل في برامج أعمال شعبة الدفاع الاجتماعي دراسة هذا الموضوع بالتعاون مع مؤسساتها المختصة ومع المنظمات غير الحكومية المعنيّة بهذه الشؤون .

٣ ــ وانتقد المؤتمر أسلوب معالجة العَوْد لدى الأحداث في تشريعات بعض البلدان ، ورأى أن العود لاتفيد فيه القسوة في الجزاء ، وإطالة أمد الاعتقال وإنما يُفيد فيه تنوع الأساليب وتعدد الطرق من وقائية وعلاجية ، كما يفيد فيه بنوع خاص أن تُمَهَّد في وجوه الأحداث المعتقلين في مراكز التأديب سُبُلُ الإفراج عنهم ، وأن تتخذ حيالهم الخطوات التي تكفل عودتهم إلى حظيرة الحياة الاجتماعية القويمة . ولا مندوحة إطلاقاً لتحقيق هذه الغاية عن إسداء المعونة لهم وتزويدهم بالمساعدات المنظّمة في الفترة التي تعقب الإفراج عنهم .

٤ ــ وخلص المؤتمر من ذلك كله إلى القول بأن ظاهرة نشوء أنواعٍ جديدة من جرائم الأحداث تستلزم القيام بأبحاثٍ ودراساتٍ علمية مستمرّة كما تتطلب الحرص الشديد على تطبيق الأساليب التجريبية المستحدثة والطرق التقليدية المعروفة في الوقاية والعلاج . واستنبط المؤتمر من هذا الرأي النتائج التالية :

آ ــ إن حلّ مشكلة الجرائم التي تقترفها جماعات الأحداث ، ولا سيما العصابات ، يبدُو رهيناً بتعاون الأجهزة والإدارات والجمعيات والمنظمات

الحكومية وغير الحكومية على بذل الجهود الرامية الى توجيه نشاط الأحداث وحيوياتهم الى مسالك إيجابية وأقنية بنّاءة . وتجب الاستعانة في تحقيق ذلك بالإكثار من المراكز الاجتماعية وإنشاء نوادٍ للأحداث من فتيان ومراهقين وللشباب من البالغين الصغار ، وتنظيم برامج للهو والتسلية البريئة ، وتمضية أوقات الفراغ ، وقضاء العطل والأعياد ضمن الأسر ، وتشجيع النشاط الرياضي والكشفي والندوات الثقافية وغير ذلك .

ب – إن الاهتمام ينبغي ألاّ يركّز على أصناف معينة من جرائم الأحداث أو من الاحداث الجانحين فحسب بل يجب أيضاً التّعمقُ في دراسة شخصيات الأحداث الجانحين وتاريخ نشوئهم الاجتماعي .

ج – إن التدابير التي يجوز اتخاذها بُغْيَةَ اتقاء جنوح الأحداث ومنعه ، وتأمين معالجة الأحداث الجانحين تختلف بعض الاختلاف من بلدٍ إلى آخر ، إذ يجب أن تراعى فيها البِيئَةُ الاجتماعية ، والنُّظُم الاقتصادية والسياسية . ومع ذلك فلا جدال في أن مشكلة جنوح الاحداث هي قبل كل شيء وفوق كل شيء مشكلة تربية في الأسرة وفي المدرسة ونعني بالتربية : التعليم والتهذيب معاً . أما التعليم فهو تزويد عقل الطالب بالمعارف ، وأما التهذيب فهو تزويد نفسه بالأدب والعناية بتكوين خلقه وصقل شمائله . وحينما ينعدم إرشاد الأهل أو تضعف رقابتهم ، أو لا يقوى الحدث على ضبط النفس ، يجب مضاعفة الجهود في المدرسة ، حيال القاصرين والبالغين على السواء ، من أجل تضييق شقة الخلاف بين أجيال الامة ، وتشجيع روح التفاهم والتعاطف بين أبنائها ، وتقوية حس المسؤولية الاجتماعية والخلقية لديهم .

د – إن بعض الأنواع من الافلام والمطبوعات والكتب الهزلية والأنباء المثيرة حول الجريمة والمجرمين ، وبعض الأنماط المتدنيّة من المنشورات والبرامج الاذاعية والتلفزيونية والقصص البوليسية تعتبر في بعض البلدان من العوامل التي

تفضي إلى جنوح الأحداث . ولذلك يجب على كل بلد وفق نظمه وعقائده في السياسة والثقافة والاجتماع أن يتخذ الخطوات والتدابير التي تكفل استئصال سوء الاستعمال في وسائل الاتصال بالجماهير من صحافة وإذاعة ونشر، وتحريم ما يمكن اعتباره منها سبباً حافزاً لظهور الانحراف في سلوك الأحداث ولارتكابهم الجرائم . كما يجب أيضاً على كل بلد أن يتخذ التدابير الكفيلة بتشجيع إنتاج أفلام ومطبوعات تعليمية تربوية بنّاءة تدعم في نفوس الناس جميعاً ، ولا سيما النشء الصاعد ، القيم الخلقية والأدبية، وتُنمي فيهم الحرص على رعاية التقاليد القويمة وعلى التحلّي بالفضائل والخصال الحميدة .

هـ – وألحّ المؤتمر على وضع نظام للتوجيه والتدريب المهنيَّين وإتاحة مجالات العمل المجدي المفيد أمام النشء عند مغادرة المدرسة لتفادي مساوىء الفراغ ومحاذير البطالة .

و – ولا غنى – في رأي المؤتمر – عن ايجاد تعاون وثيق بين المؤسسات الاجتماعية العامة والخاصة والمؤسسات المبنية على مبدإ التطوّع أو مبدإ التجنيد في ميدان الوقاية من جنوح الأحداث ومعالجة الأحداث الجانحين . فمجالس التنسيق الاجتماعية والمشروعات المحلية ، ومكاتب الشباب ، واللجان المختلفة المعنية بشؤون الأحداث ، وغيرها يمكن أن تعمل جميعاً على تحقيق هذا الهدف، وان تقوم بدور جدّ مفيد في هذا المضمار .

المسألة الثانية : الدور الذي يلعبه رجال الضابطة والأمن (البوليس) في الوقاية من جرائم الأحداث :

١ – لقد قرر المؤتمر أنه ينبغي على رجال الضابطة والأمن في نطاق ممارستهم اختصاصاتهم العامّة في منع الجرائم ودرئها واتقائها ، أن يُولوا جرائم الأحداث في أشكالها وصورها الجديدة عنايةً خاصةً . ويجب – على كل حال – أن لا

يذهبوا في عنايتهم هـذه شوطاً بعيداً يصلون فيه إلى حدّ القيام بمهامّ هي من صميم اختصاصات المصالح والدوائر الاجتماعية والتعليمية وغيرها .

٢ – ورأى المؤتمر أنه يجب على رجال الضابطة والأمن مراعاة القواعد التي تكفل حماية حقوق الإنسان عند قيامهم بالعمل الوقائي الذي يرمي إلى منع جرائم الأحداث .

٣ – واسترعى المؤتمر الأذهان إلى تقرير قيّم تقدمت به « منظمة الشرطة الجنائية الدولية International Criminal Police Organisation » إلى الأمانة العامة للأمم المتحدة ، ويتناول مسألة إنشاء أقسام خاصّة من رجال الضابطة والأمن تنحصر مهمتها في الوقاية من جنوح الأحداث . ويضع هذا التقرير القواعد الأساسية المفصلة لتحقيق الغاية المرجوّة . وقد اعتبر المؤتمر أن ما ورد في ذلك التقرير من دراسات وبيانات يصلح أن يكون أساساً تتخذه الدول في إنشاء شُعَب خاصة بجرائم الأحداث من رجال الشرطة والأمن .

٤ – وأبدى المؤتمر تحفظات شديدة حول أخذ بصمات الجانحين الأحداث ، وحول الأسلوب الذي يسير عليه رجال الشرطة في بعض البلدان في تصنيف المواطنين الى زمرتين : الصالحين والطالحين ، ووضع علامات سيئة لهؤلاء ، ومنح مكافئات لأولئك ! .

وعلق المؤتمر أهمية بالغة على التعاون الوثيق الذي تجب إقامته في مضمار مكافحة جرائم الأحداث بين رجال الشرطة ، وأجهزة الدولة الأخرى المختصّة ، والهيئات التي تمثل الرأي العامّ .

المسألة الثالثة : كيف نمنع ظهور أنماط الجرائم الناشئة عن التغيرات الاجتماعية ، والمرافقة للتقدّم الاقتصادي في البلدان المتخلّفة ؟

لقد أراقت هذه المسألة كثيراً من المداد ، وأثارت مناقشات حامية . وكان

فيها تقريران عامّان : أحدهما من الهند والثاني من الجمهورية العربية المتّحدة.

١ – وينبغي ان نبادر إلى القول بأن التطورات الاجتماعية التي تسير جنباً الى جنب مع التقدم الاقتصادي في البلدان المتخلفة لا تُفضي بصورة حتميّة الى وقوع أنماطٍ معينة من الجرائم . وليس من شأن التقدم الاقتصادي أو التبدل الاجتماعي أن يولد ايٌّ منها بحد ذاته وبحكم الضرورة الإجرام . بل إن التطورات الاجتماعية والاقتصادية أمر ترغب فيه جميع الدول وتسعى اليه ، وقد يؤول – اذا تحقق في ظروف ملائمة – الى انقاص نسبة الإجرام والمجرمين . وأصرّ المؤتمر على أن عبارة البلدان « المتخلّفة » انما تهدف الى التعبير عن مرحلةٍ معينة من مراحل النمو الاقتصادي فقط .

٢ – واتفقت كلمة أرباب الاختصاص في المؤتمر على أن أنواع الجرائم التي تنشأ عن التغيّرات الاجتماعية وتصاحب التقدم الاقتصادي في البلدان المتخلفة لم تنل في السابق ماتستحق من دراسة وعناية ، وأن أسس المشكلة ومُعْطياتها غير واضحة ولا دقيقة ، وأن التوصيات والنتائج التي انتهى المؤتمر الى صياغتها في هذا الموضوع ليست نهائية ولا قطعية ، وهي لاتعدو أن تكون بمثابة حصيلة من المعلومات المؤقتة التي يجب على رجال البحوث العلمية تمحيص صحتها وبيان مقدار الخطإ فيها والصواب .

٣ – ولا مِرية في أن الجرائم التي يُعزى السبب في وقوعها الى التبدلات الاجتماعية الناشئة عن التقدم الاقتصادي في البلدان المتخلّفة ليست ظاهرة جديدة ، ولا تنمّ عن أنماط من السلوك الإجرامي الذي لم تسبق معرفته أو الكشف عنه. فاذا ما حدثت تبدلات اجتماعية متولدة من تطوّر اقتصادي معين، فإن مايجب كشف النقاب عنه هو ، في الدرجة الاولى، مغزى ازدياد الجرائم بوجه عام ، وأما الاقتصار على دراسة هذا الصنف أو ذاك من أصناف الجرائم فأمر قليل الجدوى .

٤ – ومن المسلّم به أنه كلما كثرت فوضى التطور الاجتماعي، وازدادت التحوّلات الاجتماعية عمقاً ، واتّسعت شقة الزّمن بين انهيار المؤسسات الاجتماعية التقليدية ونشوء المؤسسات الجديدة ، تفككت الروابط التقليدية في المجتمع ، وازداد انحلال عوامل الضبط الاجتماعي الأولية ، وانعدم الاستقرار في أنماط العيش وطرائق الحياة ، وتجاذبت الناس تيارات متعارضة متضاربة من المفاهيم والقيم والسّنن والقواعد الاجتماعية . وهذه الأمور جميعها ترتبط بالإجرام برابطة السببية ، وتعتبر من عوامل نشوء الجريمة وزيادة عدد المجرمين .

٥ – ولا جدال في أن التطور الاجتماعي يمكن ضبطه ورسم مجاريه وإخضاعه إلى نوع من التخطيط على الصعيد القومي في إطار الدولة الواحدة .

٦ – ولطالما اعتبر بعضهم خطأ ان هجرة السكان وانتقالهم من مكان الى آخر في داخل البلاد سبب من أسباب الإجرام . وظاهرة الهجرة من الظواهر التي ترافق التغيرات الاجتماعية الناشئة عن التقدم الاقتصادي في البلدان المتخلفة . والواقع أن الهجرة بحدّ ذاتها لا يمكن أن تولّد جريمة ، وانما الذي يولّد الجريمة هو ما يتعرّض له المهاجر من القلق وعدم الاستقرار في طراز العيش واسلوب الحياة ، وتحلّله من الضوابط الاجتماعية الأولية التي كانت تشدّ وثاقه الى اتباع قواعد مجتمعه الأول ، وتدعوه الى مراعاة سنن الحياة وتقاليد العيش فيه . ثم هذه القواعد السلوكية المتضاربة التي تتجاذب المهاجر في مجتمعة الجديد ، وتتركه كريشة في مهبّ الريح عرضة لشتى التيارات وهدفاً لعوامل الشرّ والغش والإغراء . وإذا صحّ هذا في حالات التطورات الاجتماعية الناجمة عن التقدم الاقتصادي ، فإنه في حالات التصنيع وتعمير المدن أصحّ .

٧ – وغنيّ عن البيان أنه يمكن تفادي هذه الآثار السيئة الناشئة عن هجرة السكان السريعة إلى مناطق المدن . ويتم ذلك إذا نحن استطعنا أن نوجد وأن

نعمم في الأرياف الفوائد والمنافع التي يهاجر سكان الارياف سعياً وراءها وانتجاعاً لها في المدن .

٨ – ولا ريب في أن الفرد الذي يهاجر من الريف الى المدينة طلباً للعمل او العيش يتوقف اعتصامه بقواعد الشرف والفضيلة واحتفاظه بسلامة وضعه الاجتماعي على أمرين : **الأول** مدى التهيئة والإعداد الذي تلقاه الفرد المهاجر من أجل خوضه هذه التجربة الجديدة ، **والثاني** مدى تهيئة مجتمع المدينة واعداده لاقتباله واحتضانه . وفي الحالين يلعب نمو النظام التعاوني الدور الأول .فهو الذي يُعدُّ المهاجر إعداداً صحيحاً حتى يجتاز تجربة الهجرة ، ويتلاءم وحياته الجديدة بسلام. وهو الذي يهيء مجتمع المدينة لاقتبال العضو الجديد فيندمج فيه دون حرج ولا إحراج . والواقع ان النظام التعاوني يمكن أن يكون في المدن أداة هامة من أدوات الحيلولة دون وقوع الجرائم التي تنشأ من التبدلات الاجتماعية وتصحب التقدم الاقتصادي في البلدان المتخلفة . ولا بد في تهيئة مجتمع المدينة لاقتبال الضيوف الجدد من اقامة مرافق وخدمات للاستقبال والتوجيه ، وانشاء ملاجيء مؤقتة ، وتخطيط التنظيم العمراني على وجه يؤمن للسكان القادمين السكنى ، والتعليم ، والتدريب المهني ، واحداث مرافق وخدمات لحماية الأسرة ورعاية الطفولة .

٩ – وتُفصح الدراسات الاجتماعية العديدة التي قامت بها الأمم المتحدة بجلاء ووضوح عن أنه لامحيص للبلاد الآخذة بأسباب النمو السريع عن تجنب الأخذ بالجزئيات ، والإقبال فوراً على دمج الأغراض الاقتصادية والاجتماعية في تخطيط كلي شامل . وعملاً بهذا المبدأ ينبغي أن يُشرف على تنسيق الجهود والخطط الرامية الى منع الإجرام جهاز خاص من أرباب الكفاية الممتازة والتعمق في الاختصاص ، وأن يمارس هذا الجهاز مهامه في نطاق التخطيط الاقتصادي والاجتماعي الشامل .

١٠ – ولقد اعتاد الباحثون في دراسة مشكلة الإجرام وعلاقتها بالتغيرات الاجتماعية أن يركزوا اهتمامهم على المدن ، وهم في ذلك على شيء غير يسير من الصواب . بيد أن المؤتمر أوصى بضرورة دراسة الانعكاسات والآثار التي تحدثها التغيرات الاجتماعية في المناطق الريفيـة حتى يسهل على الباحثين إماطة اللثام عن حقيقة أسباب السلوك الإجرامي الذي ينشأ خصيصاً فيما بعد في أوساط المدن .

١١ – ومن المتفق عليـه أن أحكام التشريع الجزائي يجب أن تنسجم والتطور الاجتماعي وتعكس آثاره ونتائجه ، كما يجب ايضاً أن تقرّ قاعدة تفريد العدالة بغية تأمين قضاء قائم على العقل والمنطق لا يراعي النظام الاجتماعي فحسب ، وانما يراعي أيضاً الوضع الخاصّ بكل فرد .

١٢ – ولا مندوحة ألبتة – في رأي المؤتمر – عن المبادرة فوراً الى القيام ببحوث ودراسات تهدف الى تحقيق غرضين أساسيين : **الأول** : الكشف عن العوامل المتنوعة المتعددة التي تتألف منها عملية التطور الاجتماعي وتدفع عجلة سيره ، والتي تُفضي في الوقت ذاته إلى ارتفاع في نسبة الإجرام ، وهي عوامل لاغنى عن بيانها وايضاحها ، ولا معدى عن حصرها وتحديدها . **وأما الغرض الثاني** فهو تعيين التدابير الوقائية التي يجب اتخاذها لمنع هذه العوامل من احداث آثارها السيئة ، ولتخليصها من الشوائب التي ترافق ديناميكيتهـا ، وجعلها نقية خالصة لوجه خير المجتمع ورفاهة أفراده وتأمين النفع العام . ولا سبيل الى مثل هذه البحوث والدراسات مالم نعمد الى **تحسين مناهج الإحصاء ونظمه وأساليبه** ، وهو أمر لا بُدّ من استرعاء انتباه جميـع الدول الى ضرورته وفائدته ، ولا محيص عن بذل المساعدات الدولية بغية تحقيقـه . ولعلّ من الأهمية بمكان كبير استكمال مناهج البحث الاحصائي بإصدار كتب ورسائل خاصة في هذا الموضوع ، وبتكليف جماعات من الخبراء الأكفياء القيام بتجربات وتحقيقات محلية ، ووضع مشاريع دراسات نموذجية . ومن المستحسن أن تأخذ

الأمم المتحدة على عاتقها في أول الأمر مسؤولية اجراء هذه البحوث في المعاهد الاقليمية التي تنشأ بالاتفاق معها لمكافحة الجريمة ومعالجة المجرمين، أو أن تقوم هي بدراسات نموذجية بالتعاون مع الحكومات أو المؤسسات المختصة او المنظمات غير الحكومية او الجهات الأخرى المعنيّة بهذا الشأن . وغني عن البيان أن هذه البحوث والدراسات العلمية يجب أن تكون على قدر من السعة والشمول يتيح لها أن تتناول جميع العوامل من عالمية وإقليمية ومحلية.

المسألة الرابعة : الحبس القصير الأجل :

لقد تعالت أصوات كثيرة تطلب إلغاء عقوبة الحبس القصير المدة ، والاستعاضة عنها بأجزية أخرى، لأنه ثبت بالتجربة أن هذه العقوبة بسبب قصر مدتها لا تخيف الفرد ولا ترهبه فتمنعه او تردعه ، ولا هي تكفي لاصلاح المجرم وتقويمه . فهي إذن ليس فيها فضيلة الردع ولا فضيلة التأديب ، بل إن ضررها أكبر من نفعها .

١ - ولقد أقرّ المؤتمر أن الحبس القصير الاجل ضارّ في اكثر الأحيان، لانه يعرّض المحكوم عليه لمساوىء عدوى الاختلاط بغيره من المجرمين ومخاطرها، وقلما يُفسح المجال لمعاناة عملية إصلاح المجرم او تقويمه . ولذلك فإن الإكثار من استخدام هذه العقوبة أمر غير مستحبّ ولا مفيد .

٢ - بَيْدَ أن المؤتمر - على الرغم من اعترافه بضارّ الحبس القصير الأجل - لم يذهب الى حد مسايرة الذين يطالبون بإلغائه . وإنما ارتأى المؤتمر ان الإلغاء أمر لا يمكن تحقيقه عملياً ، وأن ثمة حالات لا بُدّ فيها من اللجوء إلى فرض عقوبة الحبس القصير الأجل تحقيقاً لأغراض العدالة .

والحلّ الواقعي الذي اوصى به المؤتمر دول العالم في صدد عقوبة الحبس القصير الأجل هو الاقلال من فرضها بل الامتناع عن استعمالها في القضايا التي تبدو فيها أنها غير مجدية ولا ملائمة ، ولا سيما حينما تكون الجريمة بسيطة ، او شكلية

صرفة purement formelle ، او حينما يفرض الحبس استيفاءً لعقوبة الغرامة التي تخلّف المحكوم عليه عن ادائها لعجزه او فقره أو إعساره.

٣ – والتقليل من اللجوء إلى عقوبة الحبس القصير الأجل يمكن تحقيقه بالاستعاضة عنها بتدابير وأجزية اخرى ، كالحكم بوقف التنفيذ ، او مراقبة السلوك ، او الغرامة ، او العمل الإجباري في المستعمرات الزراعية او المشاريع العامّة ، او بأي تدبير آخر لا يستلزم سلب حرية المحكوم عليه او حرمانه منها.

٤ – أما اذا اقتضت العدالة في حالات الضرورة القصوى الحكم بعقوبة الحبس القصير الأجل فيجب تنفيذ هذه العقوبة بالمحكوم عليهم بها في مؤسسات صالحة تسمح بفصلهم فصلاً تاماً عن المجرمين المحكوم عليهم بمدد طويلة ، وتتيح معاملتهم في خلال مدة حبسهم معاملة إيجابية بنّاءة ، تتلاءم – قدْر الإمكان – وشخصية كل فرد منهم. ولعل خير مكان لتنفيذ عقوبات الحبس القصير الأجل هو المؤسسات العقابية المفتوحة ، كالمستعمرات الزراعية وسواها .

٥ – واختتم المؤتمر مقرراته في صدد الحبس القصير الأجل بالتوصيات التالية :

آ – ينبغي على حكومات الدول الأعضاء في الامم المتحدة ان تبادر الى إصدار النصوص التشريعية اللازمة لوضع التوصيات السالف بيانها موضع العمل والتطبيق .

ب – يجب الاسراع بتنظيم بحوث علمية تهدف **اولاً** الى تحديد **الحالات التي** لايجوز فيها فرض عقوبة الحبس القصير الأجل ، وترمي **ثانياً** إلى تعيين **الأشخاص** الذين لايجوز الحكم عليهم بهذه العقوبة ، ثم ترسم ثالثاً برامج التصنيف وخطط التدريب والتعليم والتقويم التي ينبغي السير عليها .

ج – ولا معدى لاستكمال اسباب هذه الخطوات الإصلاحية عن إعداد الموظفين الذين يناط بهم أمر الإشراف على السجناء المحكومين بالحبس القصير الأجل ، ولابدّ من وضع برامج تعليمية نظرية وعملية خاصة بأولئك الموظفين.

د – وينبغي حثّ المحاكم الجزائية وحملها على الإعراض عن فرض عقوبات

الحبس القصير الأجل ، والاستعاضة عنها بالأجزية والتدابير الأخرى التي بيّناها آنفاً .

هـ ـ ويجب اخيراً ان يحاط الجمهور علماً بجميع هذه الآراء التي أعرب عنها المؤتمر ، وأن يقتنع الرأي العام بصحتها وجدواها .

المسألة الخامسة : رعاية السجين قبل الإفراج عنه ، وبعده ، ومساعدة الأشخاص الذين يعولهم :

١ ـ ان معاملة السجين معاملة خاصة في الفترة التي تسبق الإفراج عنه تؤلف جزءاً لا يتجزأ مما يتطلبه حسن تنفيذ الحكم القضائي العادل ومما يشتمل عليه البرنامج العام المطبق في داخل المؤسسة لتدريب السجين واعداده ومعالجته . ولما كان البرنامج العام المتضمن قواعد معاملة السجين في اية فترة من فترات عقوبته في داخل المؤسسة يجب ان يهدف دوماً الى تهيئته للعودة الى الحياة الحرة ، فإن بعض هذه الغايات لا يمكن تحقيقها على الوجه الأكمل إلا في الشطر الاخير من المدة التي قضي عليه بها . وهكذا فإن المعاملة الخاصة بالسجين في الفترة التي تسبق الإفراج عنه ـ وان كان يقتصر تطبيقها مبدئياً على السجناء المقضي عليهم بمدد طويلة ـ فإن ذلك لا ينبغي له ان يحول دون أن يفيد منها ايضا المحكوم عليهم بمُدَدٍ قصيرة .

٢ ـ **والحقيقة ان برامج رعاية السجين في الفترة التي تسبق مباشرة الإفراج عنه** يجب ان تتناول المشاكل الخاصة بهذه المرحلة الانتقالية التي ينبغي عليه اجتيازها بين الحياة في داخل السجن والحياة في المجتمع . ويُبنى على ذلك ان برنامج الرعاية قبل الإفراج عن السجين ينبغي ان يتضمن الأمور التالية :

آ ـ بحث النواحي العملية والشخصية الخاصة بمصير السجين وحياته المقبلة ، وجمع المعلومات عن هذه النواحي ، والعناية بالتوجيه .

ب ـ استخدام المناهج والاساليب الجماعية .

ج ـ منح السجين قسطاً أوفى من الحرية في داخل السجن .

د – نقل السجين من المؤسسة المغلقة الى مؤسسة مفتوحة (كالمستعمرات الزراعية مثلاً) .

ه – اعطاء الإذن للسجين بمغادرة السجن لأسباب معقولة وفي فترات مختلفة .

و – الترخيص للسجناء بالعمل في خارج السجن ، وينبغي ان تكون شروط العمل الذي يقومون به كشروط العمل الحرّ سواءً بسواء . واذا لم يعيّن لهؤلاء السجناء مقرّ يبيتون فيه في خارج السجن ، فيجب ان يقيموا في جناح خاص مستقل ومنفصل عن الاماكن التي يقيم فيها سائر السجناء الآخرين .

٣ – ولا ريب في ان برامج الرعاية قبل الافراج يجب ان تُراعى فيها أوضاع البلاد الاقتصادية والاجتماعية ، كما تراعى حاجات السجين المفرج عنه من حيث التعليم النظري والتدريب المهني ، والاستخدام ، وتأمين المأوى ، وضمان التوطين في المجتمع .

٤ – ولعلّ من أجدى الحلول العملية للمشاكل الاجتماعية والادارية الناشئة عن الحبس أن يؤخذ بأسلوب وقف الحكم النافذ La libération conditionnelle ، او الإفراج الشرطي ، وهو عبارة عن اخلاء سبيل السجين الذي قضى ثلاثة أرباع المدة التي حكم بها ، والافراج عنه ولو لم يكن قد أتمّ مدة عقوبته كاملةً . ولا بد من ان تكون السلطة التي تقضي بوقف الحكم النافذ اي بالافراج قبل انقضاء مدة العقوبة ذات خبرة واختصاص ، وان تكون القرارات الصادرة بهذا الصدد قد اتُخذت بعد اجراء مقابلة شخصية مع السجين ، وعلى أساس تحقيق وافٍ حوله .

٥ – ومن المسلّم به ان هذه السلطة التي تقضي بوقف الحكم النافذ او الإفراج الشرطي يجب أن تتمتع بقسط وافر من حرية التقدير ، وفقاً للتشريع النافذ في كل بلد .

وتنصبّ حرية التقدير على تعيين تاريخ الإفراج اي تعيين الزمن الذي يغدو فيه السجين أهلا لمنحة وقف الحكم النافذ . ومن المرغوب فيه التساهل

عند النظر في امر توافر شرط الاستخدام ، في البلدان التي تتطلب من اجل الافراج الشرطي ان يكون السجين في وسعه تأمين عمل لنفسه بعد الإفراج عنه . وينبغي التساهل ايضاً عند النظر في خرق السجين المفرج عنه الواجبات المفروضة عليه بمقتضى قرار وقف الحكم النافذ ، بحيث لا يُعادُ عند نقض وقف الحكم النافذ الى تنفيذ العقوبة او التدبير الاحترازي حتماً ، وانما ينبغي ان يكون من الجائز الاستعاضة عنها في هذه الحال بتدابير أخرى كالتنبيه ، او إطالة مدة المراقبة ، او تغيير نهجها ، او فرض الاقامة على المفرج عنه في أحد مراكز الرعاية .

٦ – ينبغي إعادة النظر في الاحكام والنصوص التي تمنع المحكوم عليه من مزاولة أعمال معينة او القيام ببعض الوظائف . ويجب على الدولة ان تجعل من نفسها قدوة حسنة لجميع أرباب الأعمال ، فلا توصد في وجوه السجناء المفرج عنهم اي باب من أبواب العمل الرسمي او الحر .

٧ – **أما الغاية من رعاية السجين بعد الافراج عنه** After-care فهي تأمين إعادة المجرم إلى حظيرة الحياة الاجتماعية الحرّة ، ومدّه بأسباب العون المادّي والأدبي ، والعمل على سدّ حاجاته العملية الضرورية من غذاء وكساء ومأوى ، ونفقات سفر ووثائق ، وإحاطته بجوّ من العطف ، ومساعدته في الحصول على عمل .

٨ – وغني عن البيان أن من واجبات الدولة الأولية ان تعمد الى تنظيم المرافق والأجهزة الصالحة لرعاية السجناء بعد الإفراج عنهم . وينبغي ان يفيد من خدمات الرعاية جميع الأشخاص المفرج عنهم من السجن ، فلا يُستثنى منهم أحد ، لأن الرعاية هي تتمة لا غنى عنها ولا بدّ منها للجزاء ، وهي جزء هام من عملية تقويم المجرم وإصلاحه وجعله عضواً نافعاً في المجتمع ، هذه العملية الملقاة – في الأصل – على عاتق الدولة .

٩ – ويرى المؤتمر أنه يتحتم – في تنظيم خدمات رعاية السجناء بعد الإفراج عنهم – ايجاد التعاون الوثيق مع الهيئات الخاصة سواء أكانت مؤلفة من المتطوعين ام من موظفي الخدمة الاجتماعية المختصين . كما ينبغي ايجاد تعاون وثيق أيضاً بين الدوائر الرسمية والجمعيات الأهلية في هـذا الصدد ، وتشجيـع الاشخاص المتطوعين للعمل في ميدان رعاية السجناء من أهل الفضل والإحسان . وعلى الدولة أن تزوّد الجمعيات الخاصة لرعاية السجناء بعد الإفراج عنهم بجميـع المعلومات ، وان تساعدها على الاضطلاع بأعباء مهامّها ، وأن تُيَسّر لها أمر زيارة السجين والاتصال به ولقائه والتحدث إليه ضمن الحدود والقيود المعقولة .

١٠ – ولعلّ من نافلة القول أن نذكر أن إعادة المجرم إلى حظيرة المجتمع الحرّ لايمكن ان تتم بنجاح إلا إذا ساعد على ذلك الجمهور . فمن الضروري تنوير الرأي العام وإقناعه بفائدة التعاون في مثل هذه الأمور ، واستعمال وسائل الصحافة والاذاعة والنشر والتلفزيون وجميـع طرق الاتصال الجماعي للحصول على مساعدة المجتمع بأسره في عملية اقتبال السجين المفرج عنه في أحضانه ، ولاسيما مساعدة الحكومة والنقابات وأرباب الأعمال . ومن الأصوب أن تمتنع الصحافة إطلاقاً عن تسليط الأضواء على شخص السجين المفرج عنه .

١١ – ويجب تشجيـع البحوث العلمية الرامية الى دراسة شؤون رعايـة السجناء في شتى وجوهها وجوانبها ، والوقوف على حقيقة شعور الجمهور ومسلكه حيال المجرم الذي أطلق سراحه ، وينبغي تعميم نتائج هذه البحوث والدراسات ونشرها على أوسع نطاق ، وتوزيعها على الناس ، ولاسيما على القضاة وغيرهم من الأشخاص الآخرين الذين يمارسون ولاية اصدار الأحـكام الجزائية أو يؤثرون في تحديد العقوبات وتعيين أنواعها ومقاديرها وتنفيذها من قريب أو بعيد .

١٢ – ولقد استرعى المؤتمر الانتباه إلى حالة المجرمين الشواذّ والمصابين

بالعاهات ، والمدمنين على الخمور والمخدرات ، وأوجب احاطتهم بألوان من الرعاية الخاصة التي تلائم أوضاعهم .

١٣ - **أما الأشخاص الذين كان يعولهم المحكوم عليه فيجب أن لا يضارّوا بسبب الزجّ بمعيلهم في السجن** . ومن واجب الدولة أن تبادر الى إسداء العون لهم كما تبادر الى اسداء العون الى أي شخص معوز . ومثل هذا العون لا محيص عنه ، ولا بُدّ من بذله فوراً للقاصرين .

١٤ - ومن الخير كل الخير ان تسمح الإدارة المختصة بإنشاء علاقات طيبة ، أو بصيانة العلاقات الطيبة القائمة ، بين السجين وذويه وأعضاء أسرته ، أو بينه وبين الأشخاص الذين يمكنهم مساعدته . وينبغي الاهتمام بدراسة أمر السماح للسجناء بالزيارات الزوجية لما ينشأ عن الترخيص بذلك من آثار طيبة .

١٥ - ويرى المؤتمر ضرورة تقديم التسهيلات الملائمة ، ومنح المساعدات المالية في بعض الحالات ، بغيةَ تأمين قيام أقرباء السجين بزيارته .

المسألة السادسة : ادماج العمل في السجون في الاقتصاد القومي ، والأجور التي يستحقها السجناء عن أعمالهم:

لقد أفاض المؤتمر الدولي الأول الذي عقدته الامم المتحدة في جنيف سنة ١٩٥٥ للوقاية من الجريمة ومعاملة المجرمين في تنظيم قواعد العمل في السجون ، وحدّد أحكامه وشروطه بالتفصيل ، وجاء المؤتمر الدولي الثاني للوقاية من الجريمة ومعاملة المجرمين في لندن في صيف هذا العام ١٩٦٠ ، وأعاد الكرّة في بحث بعض نواحي الموضوع ، لما له من أهمية كبيرة في الاتجاهات الحديثة للسياسة العقابية في عصرنا الحاضر .

ولقد اطلعتْ وفود المؤتمرين على مجموعة الأبحاث والمقررات والتوصيات

التي وضعها المؤتمر الدولي الأول في جنيف في عام ١٩٥٥ حول العمل في السجون ، ودارت مناقشات اتضح من جرائها ان اكثر هذه المقررات والتوصيات بقي حبراً على ورق ، ولمّا يوضع منها موضع التنفيذ العملي إلا القليل النادر . وقد عاد مؤتمر لندن في عام ١٩٦٠ فأصدر توكيداً للمبادىء العامة التي أقرها مؤتمر جنيف في عام ١٩٥٥ ، ثم انكبّ على دراسة ماورد في التقرير العام حول تحليل وضع المشكلة الراهن ، واستعرض المقترحات التي تقدمت بها الأمانة العامة للأمم المتحدة في تقريرها ، ثم انتهى من ذلك كله إلى إقرار المبادىء التالية :

١ – إن هذه المسألة لا يمكن أن يكون لها حلّ موحّد شامل ، ولا بُدّ من مراعاة الفروق والاختلافات الراهنة في الأوضاع الاقتصادية والاجتماعية القائمة في البلدان المختلفة .

٢ – إن الحرص على مماثلة العمل في السجون للعمل الحرّ ، وعلى مساواته به مَرَدّهُ أنّ السجين ماهو في الأعمّ الأغلب الاّ عامل حُرِم من حريته .

٣ – إن قيمة العمل في السجون من الناحيتين الاجتماعية والاخلاقية أو الأدبية لا يماري فيها أحدٌ ، ويجب ان ينظر إلى العمل الذي يقوم به الانسان السجين ، كما يُنظر إلى أي نشاطٍ عاديّ منتظم يقوم به الانسان الحرّ الطليق. ولا يغربنّ عن البال ان العمل في السجون يؤلف جزءاً لا يتجزأ من عملية المعالجة العقابية ، وينبغي ان يُدمج في التنظيم العام للعمل في البلاد ، وان يكون ملائماً لقابليات السجين وخصاله ورغباته ، حتى يغدو بذلك عاملاً من عوامل تهيئته للحياة الحرّة . ومن المسلّم به ان العمل لدى بعض طوائف السجناء كالمصابين بعاهات جسدية او عقلية يجب أن يُنظَر إليه من زاوية المداواة الطبية تحقيقاً للشفاء .

٤ – وعندما يُجيز التشريع الإفراج عن السجين قبل انقضاء عقوبته كاملة ، فإن العمل الذي يقوم به هذا السجين يجب أن يؤخذ بعين الاعتبار عند تقرير

اطلاق سراحه ، ويمكن ان يفضي العمل إلى تخفيض العقوبة تخفيضاً آلياً وبحكم القانون .

٥ – وينبغي ان تقترب مناهج العمل في السجون من مناهج العمل الحرّ حتى تصل إلى المماثلة فالدمج التامّ .

ولعلّ من المفيد ان تؤلّف في البلاد ، من أجل تحقيق ذلك ، لجنة مشتركة للتنسيق تضم ممثلين عن السلطات والهيئات المعنيّة بشؤون الإنتاج ، وممثلين عن الصناعة والزراعة والعمال .

٦ – وإذا كان العمل في البلاد خاضعاً للتخطيط ، فيجب ان يدمج العمل في السجون في الخطة العامة الشاملة المرسومة . ولقد قامت بعض البلدان باتباع اسلوب النظام التعاوني في إدارة العمل في السجون ، ومن الضروري ان يدرس هذا الأسلوب دراسة جديدة وأن يُولَى القسط الأوفى من العناية والاهتمام .

٧ – ويرى المؤتمر أنه لا مندوحة عن تنوير الرأي العام واطلاعه على طبيعة العمل في السجون ، وأهدافه وغاياته حتى يتسنى بذلك وضع هذه التوصيات والمقررات موضع التنفيذ .

٨ – ومن المتفق عليه أن المسائل الخاصة بإدماج العمل في السجون في الاقتصاد القومي يمكن بحثها من زوايا ثلاث : زاوية الإعداد أو التدريب المهني وزاوية العمل في السجون ، وزاوية التعويض الذي يجب أن يؤدّى إلى السجين لقاء عمله .

اولاً – التدريب المهني أو الاعداد الحرفيّ :

آ – ان التدريب المهني والتعليم اللازم لاكتسابه والحصول عليه هما أمران لا مندوحة عنهما لمنح طائفة من السجناء القدرة على العمل . وينبغي أن يجري

التدريب المهني والتعليم المرافق له وفق البرامج التي تطبق في المدارس ومراكز التدريب المهني في الحياة الحرة ، كما يجب أن يمنح السجناء في نهاية التدريب والتعليم الشهادات ذاتها التي تمنح للاشخاص الطلقاء في المدارس ومراكز التدريب المهني في الحياة الحرة . وعلى السلطات الادارية المسؤولة أن تسمح في بعض الحالات لهؤلاء السجناء في مرحلة التعليم والتدريب بزيارة تلك المدارس والمراكز القائمة في خارج السجن .

ب - وإذا كان ثمة سجناء بالغون اضطرتهم الظروف الى تغيير حرفتهم او مهنتهم فينبغي أن تطبق عليهم أصول التدريب المهني المستعجل الذي يُطبق على المحكوم عليهم بعقوبات قصيرة الأجل .

ثانياً - العمل في السجون :

آ - إن من واجبات الدولة أن تؤمن العمل لجميع السجناء القادرين عليه ، وأن تسُدّ بذلك احتياجات الادارات العامة .

ب - ويجب أن تكون شروط العمل في السجون مماثلةً لشروط العمل الحرّ من حيث المعدات الآلية ، وساعات العمل ، والحماية من الطوارىء ، كما يجب أن تطبق أحكام التأمين الاجتماعي على أوسع نطاق ممكن .

جـ - ومما يسهل القيام ببعض أنواع العمل السير بمقتضى نظام تشغيل الأفراد في شبه حرية ، ونظام قضاء العطلة الاسبوعية week-end في السجن . ولقد نَوّهَ المؤتمر في هذا الصدد بمزايا المؤسسات والسجون المفتوحة .

د - إن العمل الذي يجري في السجون سواء أقامت الإدارة بتنظيمه ، أم قام بذلك متعهدون من الخارج ، أو اشترك فيه السجناء أنفسهم يجب أن يشتمل على حِرَفٍ وأنواع من الأشغال تساير تقلب الحاجات وتطورها في

سوق العمل في الخارج . ومهما يكن النهج المتبع في تنظيم العمل فليس ينبغي أن يكون السجناء خاضعين أو تابعين لغير السلطة الادارية في السجون . وأوجب المؤتمر أن لا يتجاوز عددُ السجناء المفرزين للقيام بالخدمات المنزلية التي لا تتطلب أية مؤهلات الحدّ الأدنى الضروري .

هـ ـ ورأى المؤتمر أن تحقيق هذه الأهداف يستلزم أن تبادر الأمانة العامة للأمم المتحدة الى تنظيم تبادل في المعلومات على الصعيد الدولي واسداء المعونة الفنية في مضمار مناهج تنظيم العمل في السجون وأساليبه وكيفية تمويله في شتى البلدان .

ثالثاً ـ الأجور :

آ ـ لقد أقرّت المادة ٧٦ من مجموعة قواعد الحد الأدنى لمعاملة السجناء مبدأ التعويض عن العمل في السجون .

ب ـ فالاقتصار على منح اكرامية فقط للسجناء الذين يقومون بعمل منتج أمر يجافي العدالة ويخالف المفهوم الحديث للعمل في السجون .

جـ ـ ولذلك ينبغي على الأقل وضع حد أدنى للأجور لا يجوز النزول عنه في أي حال من الأحوال .

د ـ وأما الهدف الذي يجب أن يظل نُصْب الأعين بغية السعي للوصول اليه فهو أن يمنح السجين أجراً عادياً مساوياً للأجر الذي يناله العامل الحرّ شريطة أن يكون الانتاج متساوياً نوعاً وكمية . وعلى هذا الأساس ينبغي أن ينظم العمل في السجون وفق القواعد الاقتصادية والعلمية الصحيحة .

هـ ـ ان المتعهد الحرّ الذي يعمل السجناء لحسابه يجب أن يدفع لهم منذ الآن أجوراً كالأجور التي يتقاضاها العمال الأحرار .

و – ومن المقرر تطبيق نظام التعويض على جميع السجناء الذين يقومون بعمل منتج ، وكذلك على السجناء الذين يقومون بالخدمات المنزلية لأن الوفاء بهذه الخدمات يجب أن يرصد في عداد أعباء الميزانية العادية لنفقات السجون .

ز – ولا يعني منح السجين أجراً عادياً كأجر العامل الحر أن يسلّم كل المبلغ فعلاً إلى السجين ، بل يجب أن يظل للإدارة الحق في الإحتفاظ بأجزاء من مبالغ الأجور تخصّص بعضها لدفع التعويضات المدنية المحكوم بها للمجني عليه أو ذويه ، وبعضها الآخر لتغطية شيء من النفقات ، ويقتطع جزء منها أيضاً لإعالة أسرة السجين ، وجزء آخر تدخره الإدارة وتجمعه لتؤلف منه في النهاية مبلغاً تؤديه للسجين حين الإفراج عنه. وقد تخضع أجور السجناء للضريبة في بعض البلدان فيحسم منها لقاء ايفائها نسبة مئوية معينة . ومهما اقتُطع من أجر السجين وادُّخر وحُسم فلا بُدّ من تخصيص جزء من هذا الأجر يُسلّم للسجين وهو في السجن لينفقه في شؤونه الخاصة .

• • •

سيداتي وسادتي :

هذه هي الخطوط العريضة للمقررات والتوصيات التي أسفرت عنها أعمال المؤتمر الدولي الثاني المعقود في لندن عام ١٩٦٠ للوقاية من الجريمة ومعاملة المجرمين ، وهي ترتكز في كثير منها على المقررات والتوصيات التي سبق أن أقرها المؤتمر الدولي الأول الذي عُقد في جنيف عام ١٩٥٥ . وقد تخلل المؤتمر الدولي الثاني – كما تخلل المؤتمر الدولي الأول – مناقشات وأبحاث ومحاضرات سجلت ذروة ما وصلت إليه المعارف الجزائية في هذه المواضيع .

• • •

ثانياً ـ مقررات المؤتمر الدولي الرابع في علم الاجرام في لاهاي ١٩٦٠

ونحن نود الآن ـ وقد تقدّم بنا الوقت ـ أن نوجز الحديث عن المؤتمر الدولي الرابع في علم الإجرام ، وقد دعت إليه جمعية علم الإجرام الدولية ، وعقد في لاهاي في أوائل شهر أيلول ١٩٦٠ ، ولم يكن بين الزمن الذي عُقد فيه مؤتمر لندن والزمن الذي عُقد فيه مؤتمر لاهاي سوى ردحٍ قصير أفادت منه الوفود في دراسة النظم الجزائية وزيارة المؤسسات العقابية الحديثة في بعض البلدان ، وقد نظمت الأمم المتحدة بالتعاون مع حكومات الدول المختصة هذه الزيارات التي لم تكد تنتهي حتى افتتح مؤتمر لاهاي أعماله وبدأ أبحاثه . ونحن نود أن نوجز أهم هذه الأبحاث فيما يلي :

المسألة الأولى : لقد طرح المؤتمر مشكلة المجرمين المصابين بشذوذ عقلي والطرق الطبية والنفسية والاجتماعية المتبعة في فحصهم وتشخيص شذوذهم ومعالجتهم .

وأوضح المؤتمر الجهود العلمية الحديثة التي يبذلها علماء الطب الشرعي والتحقيق الجنائي الفني وعلم العقاب في ايجاد الحلول الصحيحة للمشاكل الناشئة عن صلة الشذوذ العقلي بالجريمة ، وكشف عن المساهمات الجدّية التي أفضت اليها التطورات الحديثة لهذه الفروع العلمية الثلاثة في ذلك المضمار .

١ ـ ولقد رأى المؤتمر ان مفهوم الشذوذ العقلي غامض مبهم حتى انه لم يعد يصلح أساساً لبناء الأحكام القضائية ولرسم خطة علمية في التشخيص والتنبؤ والعلاج.

٢ ـ ولذلك يتحتم فحص كلّ حالةٍ خطيرة ، وتشخيصها على حدة ، وبصورة إفرادية ، على ان يقوم بهذا الفحص والتشخيص جماعة من أهل الاختصاص والخبرة

في شتى ميادين المعرفة بُغْيَةَ التمهيد لإصدار القرار القضائي وما يلحق به من معالجة ملائمة .

٣ – ولا بُدّ في معرفة قيمة كل طريقة من طرق المعالجة والكشف عن مدى جدواها من القيام ببحوث علمية ودراسات طويلة المدى Follow-up Studies

٤ – وقرّر المؤتمر أن النظم العقابية تستهدف تحقيق غايات متنوعة وقد تكون في بعض الاحيان متعارضة . وبين هذه الغايات : الشفاء ، والقصاص ، والردع ، والتقويم الاجتماعي ، ودعم القواعد الخلقية من تكفير وتعويض ومصالحة الفرد والمجتمع .

وهذا التنوّع في أغراض الجزاء وأهدافه لم يصدر عن التناقضات العقائدية فحسب ولكنه جاء أيضاً ثمرة الاختلاف الجمّ في القواعد والاتجاهات التي اعتاد تطبيقها والعمل بمقتضاها أصحابُ الاختصاص في كل مهنة من المهن او فرع من الفروع العلمية المتعدّدة التي تتصدى لمعالجة مشكلة الإجرام .

ويبدو هذا الاختلاف جلياً واضحاً في جميع مراحل الدعوى ولا سيما في مرحلة إصدار الحكم الجزائي ومرحلة تنفيذه .

ومهمة السياسة العقابية في الدولة الحديثة ان تحاول التوفيق والتنسيق بين هذه الأهداف المتنوعة ، واستخلاص منهج منسجم للعمل الإيجابي البنّاء ، وطرح كل مالم يعد يتلاءم وروح العصر ، او يتناسب وما أسفر عنه التطور العلمي الصحيح . ولن يَتِمّ لنا ذلك مالم نُفِدْ من المفاهيم الجديدة التي تكشف عنها علم الإجرام ونُدْخلها في صلب دراسة التشريع الجزائي الوضعي وغيره من العلوم الأخرى ، ومالمْ يَطّلعْ الأطباء وغيرهم من أصحاب الاختصاصات المتصلة بمعالجة مشكلة الجريمة على المبادىء الأساسية في القانون الجزائي وعلم الإجرام . وينبغي ان نعمل على حثّ القضاة وغيرهم من رجال القانون الجزائي

على تفهم الخطوط الكبرى لعلم الإجرام ، وان نسعى الى تشجيع الأطباء وسواهم من اهل الاختصاصات المتصلة بميدان الوقاية من الجريمة ومعاملة المجرمين على تفهم مبادىء القانون الجزائي وعلم الاجرام معاً .

٥ - وإن ينسَ المؤتمر فلم يَنْسَ التوكيد على أهمية البنْيَة الأجتماعية للمؤسسات العقابية من سجون وسواها . ومقوّماتُ هذه البنْيَة لاتنحصر في الصلات التي يكوّنها النزلاء بعضهم بين بعض ، وانما تتناول أيضاً العلاقات بين النزلاء وموظفي المؤسسة اولاً ثم بين النزلاء وذويهم وأفراد أسَرهم ثانياً .

ولا مناص من الاهتمام بدراسة هذه المشكلات ومن بينها مشكلة الضغط الاجتماعي المتولّد في داخل المؤسسة العقابية ذاتها.

٦ - وقد أعرب مؤتمر لاهاي عن أمله في أن يزداد التعاون بين الاتجاهين القانوني والعلاجي في حلّ مشاكل الإجرام ، وان تهدف البحوث العلمية في المستقبل الى رسم القواعد لدمج الاتجاهين معاً في اتجاه مُوَحّد ، والى المزيد من الدراسات التحليلية والتجريبية في موضوع السياسية الجنائية .

المسألة الثانية ـ الصرع والاجرام : وعالج المؤتمر مسألة الصّرْع epilepsy وعلاقته بالجرائم المقترفة ضد الأشخاص ، وبحث وضع المجرم المصاب بالصرع من الناحيتين القانونية والعقابية ، وأفصح عن الإصلاحات الضرورية التي يستلزمها انشاء خدمات للإسعاف الطبي ملحقة بالمؤسسات العقابية كالسجون وسواها . وانتهى المؤتمر من أبحاثه في هذا الموضوع الى الأمرين التاليين :

أولاً : إن دراسة المجرم المصاب بالصّرع يجب ان تقوم على أساس التشخيص العام الشامل المتعدد الجوانب والأبعاد ، فلا يقتصر هذا التشخيص على ناحية دون أخرى ، بل ينبغي ان يتناول ـ في بعض مايتناول ـ قياس المخ كهربائياً

مراراً متعددة ، وفحص الأعصاب ، والنواحي الاجتماعية ، والامور المتصلة بالطب الشرعي .

ثانياً : لقد اتضح لأعضاء المؤتمر أن نسبة المجرمين بين الأشخاص المصابين بالصّرع ضئيلة جداً ، وهي على كل حال أقل بكثير من نسبة المجرمين بين المصابين بالأمراض العقلية والنفسية الأخرى .

المسألة الثالثة : الجرائم الجنسية : وتصدّى المؤتمر لبحث الجرائم الجنسية ، وثار حول ذلك نقاش صاخب تقارعت فيه حجج رجال الدين والقانون وعلماء النفس والاجتماع والطب ، واصطرعت الميول والعقائد والأفكار ، ودار جدل كبير حول الدور الذي تلعبه الأوضاع والظروف الاجتماعية والثقافية في تجريم السلوك الجنسي ومعاقبته . واستعرض المؤتمر الوسائل التي تساعد على محو العار الاجتماعي الذي يلحق بمرتكب الجرائم الجنسية ، وتسهل إعادة اعتباره إليه . وأسفر اصطراع الجدل إلى التوصيات التالية :

١ — يجب التفريق بين الجرائم الجنسية التي تؤلف خطراً menace على المجتمع وتلك التي لا تَعْدو أن تكون بمثابة إقلاق لراحته او مخالفة للذوق العام nuisance . ويستلزم هذا التفريق ان يعامل فاعلو الجرائم الجنسية الكبرى بغير مايعامل به مرتكبو الجرائم الجنسية الصغرى سواء من حيث التجريم أم من حيث المعاقبة وتنفيذ الأجزية والتدابير الأخرى .

٢ — وقرر المؤتمر أن كل سلوك جنسي لا يفضي الى إيذاء المجني عليه ولا يعدو أن يكون شأناً من الشؤون الخاصة بخلق الانسان الشخصي الصّرف لايجوز تجريمهُ والمعاقبة عليه .

٣ — ورأى المؤتمر أن تصنيف الانحرافات الجنسية على الوجه السالف بيانه يمكن ان يتخذ أساساً لإقامة ضابط او معيار ملائم لتصنيف الجرائم الجنسية .

٤ ــ وكلما ازداد العلم بحقيقة السلوك الجنسي ، وشاع بين العامّة فهمه أثّر ذلك كله في تثقيف الناس وتبديل موقفهم الاجتماعي مما يؤول في النهاية الى اجراء تعديل في التشريع النافذ .

المسألة الرابعة : سرقة المخازن : تؤلف جرائم السرقات المقترفة في المخازن الكبرى مشكلة هامة وواسعة النطاق في العواصم الكبرى وفي مراكز التجارة وأسواق المال والاقتصاد . وقد شاء مؤتمر لاهاي ان يبحث في صورها المتعددة وأشكالها المختلفة ، ويتحرّى مدى اطلاع رجال الأمن عليها ، ويقرّ عدداً من التدابير الوقائية التي يحسن اتخاذها لدرء وقوع هذا الصنف من أصناف الجرائم .

١ ــ ولقد ازداد الاهتمام في السنوات الأخيرة بدراسة جرائم السرقة في المخازن . ولعل مردّ ذلك الى التطور الذي اعترى أساليب البيع . وقد اتضحت في المؤتمر ضرورة القيام ببحث علمي لتعيين مدى الاعتياد أو الاحتراف في وقوع هذا النوع من أنواع جرائم الاعتداء على الأموال ، وانه من المفيد إقامة تعاون دولي وثيق لتبادل النتائج والمعلومات في هذا الصدد .

٢ ــ وثبت أن نسبة **الذكور** في السرقات التي يقترفها **الأحداث** في المخازن هي أعلى من نسبة الإناث ، وأن أكثر هؤلاء السارقين من القصّر لا يعانون اضطرابات خطيرة ، وأن قلةً منهم فقط عديمة التكيّف .

٣ ــ ولعلّ الفارق الكبير الذي يميز سرقة المخازن من غيرها من سائر الجرائم الأخرى ، ان الغالبية العظمى من مرتكبي هذه الجريمة من **البالغين** هي من **النساء** . وبعض هذه الجرائم ينمّ عن حالات مرَضية ، وبعضها الآخر ناشىء عن اضطرابات انفعالية ومصاعب عاطفية ويحتاج إلى دقة في التشخيص ، أو الى إرشادات ضابط السلوك ، أو معالجة طبية .

وأغلب جرائم السرقة المرتكبة في المخازن عادي، ولا ينطوي على دوافع معقدة . والعوامل البدنية لا شأن لها مبدئياً ولا أثر في ارتكابها .

٤ – وربما كان من المفيد الناجع إبلاغ رجال الأمن فوراً عن كل حادثة من حوادث السرقة التي تقع في المخازن ، لأن الصدمة التي يُحدثها في نفس فاعل الجريمة أولُ لقاء بينه وبين رجال الأمن أو السلطات القضائية هي غالباً ذات أهمية بالغة وجدوى أكيدة .

أما تكرار ارتكاب السرقة من المخازن فأمر يحتاج إلى عناية كبيرة وتفحّص دقيق شامل .

٥ – ومن المسلّم به أنه لا يمكن منع وقوع السرقات من المخازن منعاً باتاً ، لأن طرق البيع وأساليبه في تطور مستمرّ ، وهي قد تتعارض وما تستلزمه التدابير الوقائية من حذر وحيطة واحتراز .

وليس من خلاف في أن المراقبة الدقيقة أولى من تشديد العقوبة وتغليظها، وأكثر جدوى .

ويبدو أن الحاجة ماسّة إلى تثقيف الجمهور ، ولا سيما الآباء والأمهات ، حتى يقفوا من الأموال والأشياء التي لا يُعرَفُ مالكها الموقف الذي تمليه قواعد الاستقامة والخُلق السليم .

المسألة الخامسة – العمر والإجرام : وشاء المؤتمر أن يُبيِّنَ عن الصلة بين العُمْر – على اختلاف مراحله – والجريمة ، وعن أثر السنّ في السلوك الإجرامي الشاذّ .

١ – ومن الملحوظ أن موضوع صلة السنّ بالشذوذ العقلي غدا محطّ أنظار الباحثين والعلماء ومثار اهتمامهم . فقد آل التقدم الطبي والصحي إلى إطالة عمر الإنسان ، كما ألقى العلم الحديث الأضواء الساطعة على مرحلتي الطفولة والمراهقة ،

وأفضت الجهود العلمية القيمة المبذولة لدراسة الإنسان في هاتين المرحلتين الى الحصول على مجموعة من الاكتشافات والمعارف تطرح على الباحثين مشاكل جمّة وألغازاً مستعصية لم يقووا على حلّها وفكّ رموزها .

٢ – وفي طليعة هذه المشاكل المستعصية الصعوبات التي نواجهها في التفريق بين الشذوذ الذي هو ناشىء عن كل مرحلة من مراحل العمر وخاصٌّ بها دون سواها ، وبين هذا المقدار الذي تسهم به كل مرحلة من هذه المراحل في زيادة الشذوذ الموجود في الفرد في الأصل ، والذي ينمو بنموّ الإنسان وتقدمه في قطع أشواط العمر .

٣ – وخلاصة القول : إن حلّ المسألة يتطلب إجراء بحوث علمية شاملة ، ودراسات واسعة ترمي إلى تحقيق غايات ثلاث :

آ – تحديد عوامل الإجرام المنبعثة من السن .

ب – تعيين طرائق التشخيص ومناهج التصنيف .

ج – بيان أساليب المعالجة وكيفية تطبيقها على الأفراد .

المسألة السادسة : الاتجاهات الحديثة في دراسة شخصية المجرم المصاب بشذوذ عقلي : لقد أسفر الوضع الراهن للبحوث العلمية الرامية إلى دراسة شخصية المجرم غير السوي عن الاتجاهات التالية :

آ – إن اعتياد السلوك الإجرامي يمكن اعتباره عرَضاً من الأعراض المرَضية أو علامة ظاهرة تنمُّ بجلاء ووضوح عن وجود حالة مرَضية كامنة .

ب – وكما يُعتبر التكرار القسري في علم الطب من أعراض مرض العُصاب ، فكذلك يُعتبر الميلُ إلى العَوْد – في علم الجرائم – من أعراض الإجرام المرَضي .

ج – لا بدّ في دراسة شخصية المجرم غير السويّ من تسليط الأضواء على

مرحلة الخروج بالفكرة الجرمية المضمرة إلى حيّز التنفيذ ، ونعني بذلك المرحلة المفضية إلى الإقدام إذا كانت الجريمة إيجابيـة ، والمرحلة المفضية إلى الإحجام إذا كانت سلبية .

المسألة السابعة : العناية بالمجرمين غير الأسوياء دون أن يؤول ذلك الى حرمانهم من الشعور بالمسؤولية : — بحث المؤتمر كيف يمكن بذل العناية للمجرمين الشواذّ من غير أن نحرمهم من حِسّ المسؤولية ، واختتم أبحاثه في هذا الموضوع بإقرار النتائج التالية :

آ — إن التطور العامّ للسياسة الجنائية والاتجاه الحديث للطب العقلي يستلزمان أن يتطوّر ردّ الفعل الاجتماعي حيال المجرم غير السويّ ، من مجرد عزله عن الناس مادياً وحجره في مكان أمين ، نحو معالجته نفسياً بمداواته تمهيداً لإعادته إلى حظيرة المجتمع .

ب — ان البحوث العلمية التي تدور في عصرنا الحاضر حول المسؤولية تصوّب كل اهتمامها الى دراسة حس المسؤولية العملي — هذا الحس الذي يشعر به الانسان ويحياه في الواقع . إن أهمية هذا الشعور العملي بالمسؤولية ، وحقيقته من الناحية العلاجية قد حملتا المؤتمر على الإيمان بعدم جدوى النصوص القانونية التي تكتفي بإعلان انتفاء مسؤولية المجرمين غير الأسوياء ، أو بتقرير مسؤوليتهم المخففة .

ج — ومن معالم الاتجاهات الحديثة في هذا المضمار أن الخبرة المبنيّة على علمي الأمراض العصبية والعقلية لتقدير المسؤولية ، يستعاض عنها ، عند التحقيق عن الأسباب الخاصة بالمجرمين غير الأسوياء ، بملاحظة الشخصية من النواحي الطبية والنفسية والاجتماعية .

د — وثمة اتجاه حديث يهدف الى تولية أمر معالجة المجرمين غير الأسوياء الى عصبة من الاختصاصيين في علم الطب وعلم النفس وعلم الاجتماع ، ويتوقف

الأخذ بهذا الاتجاه على مشاركة الشخص رهين المعالجة ، وتعاونه الايجابي .

هـ - ولا سبيل إلى ضمان نجاح المعالجة إلاّ إذا نُظّمت المنشئات المعدّة للمجرمين غير الأسوياء تنظيماً يسمح بتطبيق جميع أنواع المداواة النفسية وإقامة وحدات شفائية .

و - وقد استصوب المؤتمر إحداث وتنمية نوع من المعالجة المتجوّلة التي تقوم على أساس مداواة المجرمين غير الأسوياء ، وهم في مَواطنهم ، بإخضاعهم لنظام الاختبار ، وتزويدهم بالاسعاف الطبي والنفسي والاجتماعي ، ووضعهم تحت إشراف أرباب هذه الاختصاصات ومراقبتهم .

ز - وأعرب المؤتمر عن اعتقاده بأن كل برنامج للعمل في هذا الصدد يستلزم تنفيذه ونجاحه تعاوناً وثيقاً بين البحث العلمي والتطبيق العملي ، كما يتطلّب تنوير الرأي العام حول المشاكل التي يطرحها إجرام الأشخاص غير الأسوياء .

وتوّج مؤتمر لاهاي أعماله ، واختتمها بالقرار الذي اتخذه مجلس إدارة الجمعية الدولية لعلم الاجرام والذي يقضي بإحداث معهد دولي لعلم الإجرام في باريس يشرف على إدارته العالم الايطالي الكبير دي توليو .

. . .

سيداتي وسادتي :

خاتمة : أراني تجاوزت الوقت ، فأنا أشكر لكم جميل صبركم عليّ ، واعتذر إذا كنت قد أثقلت ، ويقيني انكم تعلمون من هذه الامور التي ذكرت ، وأنتم جميعاً أهل خبرة وعلم وفهم ، مثلَ ما أعلم بل فوقَ ما أعلم . والحقيقة ان كل محاضر لا يعدو أن يكون كالشاعر ، وكل مستمع يشبه الخليل بن أحمد الفراهيدي واضع علم العَروض . وقد كان الخليل بن أحمد يقول : « انتم معشر الشعراء

تَبَعٌ لي ... إن قرّظتكم ورضيت قولكم نفقتم ، وإلاّ كسدتم » . وكل ما أرجوه أن لا أكون قد خرجت في ما قلت عن بحرٍ من البحور ، او أخللت بوزنٍ من الأوزان ، وبذلك وحده أحوز رضاكم ، فينفق قولي ولا يكسد. أما الزبد فيذهب جفاءً ، وأمّا ما ينفع الناس فيمكث في الأرض .

١٩٦٠ / ١١ / ٣٠

★ ★

٢

مأساة فلسطين وأثرها في الشعر المعاصر

للدكتور صالح الأشتر

الأستاذ المساعد للادب العربي بكلية الآداب

أيها السادة

يحلو لي أن أعود دائماً إلى ذلك الفصل الممتع من مقدمة ابن خلدون [١] الذي يقرر فيه أن للدولة ، كما للأشخاص ، أعماراً طبيعية ، ويرى أن عمر الدولة لا يعدو في الغالب ثلاثة أجيال من الناس: أما الجيل الأول فهم مؤسسو الدولة ، وكلهم عصبية لها ، فحدّهم مرهف ، وجانبهم مرهوب ، والناس لهم مغلوبون ! وأما الجيل الثاني فهم يميلون إلى الترف والكسل ، فتتكسر فيهم سَوْرة العصبية بعض الشيء ، حتى إذا جاء الجيل الثالث بلغ الترف فيهم غايته واستكانوا لغضارة العيش ولينه وأصبحوا عيالاً على الدولة وسقطت العصبية بالجملة فيهم ، فإذا هم غير قادرين على حماية الدولة من طمع الطامعين ، فيسلمونها بأيديهم إلى الانقراض !

هذه خلاصة ذلك الفصل المشهور من المقدمة وهو يحوي نظرة اجتماعية استقطرها ابن خلدون من دراسته تاريخ الدول التي قادت الأمة العربية وحكمتها خلال القرون إلى عصره ! ولقد تدبّرت نظرة ابن خلدون فرأيت أنها تظل

---

(١) – المقدمة : الفصل الرابع عشر

إلى اليوم صادقة مصيبة في خطوطها العريضة وهي أن من نواميس الحياة ألاّ تستطيع الدولة التي تبلغ ذروة المجد والحضارة الحفاظَ الدائم على أمجادها ، فلا بدّ من أن تتسرّب إليها عوامل الضعف والانحلال والتعفن ، لتزحزحها عن الذروة ، وتردّها ، هي والامةَ التي تسير في ركابها ، إلى السفح ، حيث يتوالى انحدارها شيئاً فشيئاً ... وعلى السفح المنحدر تتوالى ليالٍ مظلمات من النكبات والأحداث ، تلفّ في أحشائها أشباحاً هزيلة ، تتدافع نحو مصيرها الرهيب في خنوع واستسلام ! ومن أعماق الظلمة تنطلق أصوات مبحوحة ، تحاول عبثاً أن تهزّ النائمين لتفتح أعينهم على الخطر وتوقظَ فيهم العصبية لمجدهم الآفل وتغريهم بالصعود إلى الذروة من جديد !

تلك هي صرخة الأدب .. صرخة متمرّدة على حياة السفح والنوم والاستسلام ، تهيب بالأمة « المنحدرة » أن تدرك ذاتها وتعيَ مصيرها ، لتعاود الصعود إلى الذروة .

وكذلك ـ أيها السادة ـ عرفت أمتنا العربية ، أمتُنا التي ذاقت دول كثيرة فيها خلال القرون حياةَ المجد في الذروة ، عرفت فتراتٍ مظلمةً من حياة السفوح ، وتاريخ تلك الفترات السود مجبول بالمآسي والأهوال والدموع ، وأدبها هو أدب النكبات ، وهو جانب ضخم من جوانب أدبنا العربي في القديم والحديث ، ولا أدلّ على ضخامته من أن نذكّر بما قال الشعراء العرب في نكبتين اثنتين من نكباتنا الكثيرة خلال التاريخ وهما : مأساة الأندلس ومأساة فلسطين .

فأما مأساتنا في الأندلس فقد أغنت الأدب العربي بما قاله الشعراء في البكاء على المجد الضائع ورثاء الممالك المغصوبة ، وهو شعر كثير يفصّل أسباب النكبة الأندلسية ، ويحكي قصة العرب في إسبانيا وما كان جزاؤهم فيها بعد أن

أهدوا تربتها خير مايقدمه العقل النيّر واليد الصناع إلى الأرض ! وفي موسوعة مؤرخ الأندلس المقّري[١] نجد نماذج كثيرة لهذا الشعر الذي يسح بالآهات والعبرات والدموع ويعتصر منها أبلغ الدروس والعظات !

وأما مأساتنا في فلسطين فقد منحت الأدب العربي ديواناً دموياً ضخماً ، كتبت الحروب الصليبية صفحاته الأولى ، وهو لايزال إلى اليوم في تضخم مستمر ، وكلّما تضخّم الديوان ازدادت ملحمة الدم العربية في فلسطين غنى واتساعاً ، وموضوع حديثنا الليلة هو مأساتنا هذه في فلسطين الشهيدة وأثرُها في الشعر العربي المعاصر

* * *

أيها السادة

يخيّل لي أحياناً أن الله – جلّ شأنه – عندما شاء لهذه البقعة المطهرة من أرض البشر أن تُنبت النبوات ، وأن تصدح في أجوائها أصداء الرسالات السماوية السامية ، شاء أن يجعل أُمتنا العربية مالكة لهذه الأرض المقدسة قوّامة عليها ، حامية لها ، وكتب – جلّت مشيئته – على أُمتنا أن تدفع ثمن ذلك الامتياز العظيم بدلاً غالياً من حُرّ دمها ، تسقي به تربة فلسطين الطاهرة ، من دمها المظلوم ، يريقه في كل مرة ذؤبان معتدون يُقبلون على فلسطين من أقاصي الأرض ، يسوقهم إليها تعصب أحمق أرعن ، وتغريهم بها مطامع وشهوات ! وإن لم يكن ذلك ، فلِم تجمّع المعتدون الصليبيون في أواخر القرن الخامس الهجري من كل طرف ، وغزوا أرضنا ، فدمّروا الثغور والدروب ، وأحرقوا المساجد وهدموا الدور ، وأقاموا المجازر وأجروا أنهار الدم ؟ ولماذا ارتكبوا في القدس بعد استيلائهم عليها مايقشعر له من خجلٍ ضمير التاريخ ! !

---

(١) – نفح الطيب من غصن الاندلس الرطيب للمقري

يقول المؤرخ الأوربي ميشو [١] : « ارتكب الصليبيون في فتح القدس ألواناً من التعصب الأعمى لم يسبق له من قبلُ نظير ! »

ويقول المؤرخ العربي ابن الأثير [٢] : « وورد المستنفرون من الشام (بعد فاجعة القدس) في رمضان إلى بغداد ، فأوردوا في الديوان كلاماً أبكى العيون وأوجع القلوب ، وقاموا في الجامع يوم الجمعة فاستغاثوا وبكوا وأبكوا وذكروا مادهم المسلمين بذلك (البلد) الشريف المعظم من قتل الرجال وسبي الحريم والأولاد ، ونهب الأموال ؛ فلشدة ماأصابهم - يعني أهل بغداد من حزنهم على إخوانهم في القدس - أفطروا ... »

لقد أراق الصليبيون الدم العربي المظلوم في فلسطين ، فهزّت نكبتها ضمير العالم الاسلامي ، وتفطّرت قلوب البغداديين وسالت دموعهم ، وارتعش وجدان الشعر العربي ، وانطلقت أولى قصائد النكبة في ملحمة الدم في فلسطين من فم الشاعر أبي المظفر الأبيوردي [٣] :

مزجنا دماءً بالدموع السواجمِ ... فلم يبق منا عُرضةٌ للمراجمِ
وشرّ سلاح المرء دمعٌ يُفيضه ... إذا الحرب شُبَّت نارُها بالصوارم
فإيهاً بني الإسلام ! إنّ وراءكم ... وقائعَ يُلحقن الذرى بالمناسم
أتهويمةً في ظل أمنٍ وغبطة ... وعيشٍ كنوّار الخميلةِ ناعم
وكيف تنام العين ملءَ جفونها ... على هَبَواتٍ أيقظت كلَّ نائم
وإخوانكم بالشام يُضحي مَقيلُهم ... ظهورَ المذاكي أو بطونَ القشاعم
يسومهمُ الروم الهوانَ وأنتمُ ... تجرّون ذيل الخفضِ فعلَ المسالم

---

(١) - مجلة العالم الاسلامي ببغداد : السنة الاولى - الجزء ٥ و ٦ ص ٢٧٢
(٢) - الكامل في التاريخ : حوادث سنة ٤٩٢
(٣) - أوردها ابن الأثير في الكامل ولا نجدها في المختارات المطبوعة من ديوان الأبيوردي.

وكم من دماءٍ قد أُبيحت ومن دمىً ... تُواري حياءً حُسنها بالمعاصم
بحيثُ السيوفُ البيض محمرّةُ الظُبا ... وسمرُ العوالي داميات اللهاذم
وبين اختلاسِ الطعن والضرب وقعةٌ ... تظل لها الولدانُ شِيبَ القوادم
وتلك حروبٌ من يغيبُ عن غمارها ... ليسلمَ يقرعْ بعدها سنّ نادم
أترضى صناديدُ الأعاريب بالأذى ... ويُغضي على ذلٍّ كُماةُ الأعاجم
ويجتنبون النار خوفاً من الردى ... ولا يحسُبون العارَ ضربةَ لازم
فليتهمُ إذ لم يذودوا حميةً ... عن الدين ضنّوا غيرةً بالمحارم
وان زهدوا في الأجر إذ حمي الوغى ... فهلاّ أتوه رغبةً في الغنائم
لئن أذعنت تلك الحياشيم للسُبرى ... فلا عطسوا إلاّ بأجدعَ راغمِ!

وتوالت قصائد النكبة بعد صرخة الأبيوردي هذه ، وظلّت فلسطين تقاسي الأهوال ، ويسقي الدم المظلوم تربتها المقدسة ، وصبرت القدس على على المحنة قُرابةَ تسعين عاماً وهي تنتظر سيف الناصر صلاح الدين ، فلما لاح لها طيف القائد العظيم فوق بطاح حطين ، وارتدت إلى العرب أرضهم وكرامتهم ، وأُلقي بالذؤبان المعتدين إلى البحر ، فتطهرت من أرجاسهم أرض النبوات ، دوّى صوت الشعر بالفرحة العظمى ، بلسان الشاعر المصري ابن سناء الملك[١]:

لستُ أدري بأيّ فتحٍ تُهنّا ... يا مُنيل الإسلام ما قد تمنّى
أتُهنيكَ إذ تملكت شاماً ... أم تهنّيك إذ تملكت عدنا
قد ملكت الجنان قُطراً فقُطراً ... إذ فتحت الشآم حصناً فحصنا
إنّ دين الإسلام منّ على الخلـ ... ـق وأنت الذي على الدين منّا
لك مدح على السموات ينشا ... ومحلٌ فوق الأسنة يُبنى
قصدت نحوك الأعادي فرد الـ ... ـلهُ ما أمّلوه عنك وعنّا

---

(١) - أدب الحروب الصليبية للدكتور عبد اللطيف حمزة : ١٣٣ .

قد ملكت البلاد شرقاً وغرباً وحويت الآفاق سهلاً وحزنا
واغتدى الوصف في علاك حسيراً أيُّ لفظ يُقال أو أيّ معنى ؟

ولكن مأساة فلسطين لن تنتهي عند هذا النصر العظيم ، فتربة فلسطين ستظل مشوقة إلى الدم العربي المظلوم ، والذؤبان المعتدون سيظلون من وراء البحار يتحيّنون الفرصة للعودة إلى الأرض المقدسة ، فلنطو إذاً هذه الصفحة القديمة من ديوان النكبة ، ولنفتح صفحة جديدة لمأساة فلسطين في تاريخ العرب الحديث .

* * *

أيها السادة

لقد أقبل القرن العشرون والأمة العربية في سباتها العميق ، وكأنها استطابت حياة السفوح ، واستسلمت راضية إلى نوم كالموت ، وهي تعلم أن من ورائها ذؤباناً لا ينامون الليل ، تؤرّقهم هذه المرة أطماعٌ بالغة الخطر ، فهم يعلنون بلسان زعيمهم ز نكويل « أن فلسطين وطن بلا شعب ! فيجب أن تعطى لشعب بلا وطن ! » . وهم يزعمون أن فلسطين أرضهم ، كانوا قبل آلاف السنين فيها ، وهم اليوم موعودون بالعودة اليها ، وغاية مزاعمهم أن يقتطعوا من الكيان الأرضي العربي الموروث قطعة غالية يقيمون عليها وطناً قومياً لهم !

وكذلك كان وعد بلفور — أيها السادة — للورد اليهودي روتشيلد سنة ١٩١٧ خاتمة جهود مسعورة لذؤبان الصهيونية العالمية ، ومنذ صدوره تعلّقت به آمال يهود العالم الهاربين من نقمة الشعوب ، وأصبحوا ينتظرون يوم الهجرة إلى فلسطين !

وانتهت الحرب الكونية الأولى بنصر الحلفاء وغدرهم بالشريف حسين وثورته واقتسامهم مناطق النفوذ في العالم العربي ، واحتل الجيش الانكليزي فلسطين، وفي اليوم التالي لدخوله القدس وصلت الى فلسطين اللجنة الصهيونية لدراسة الوضع فيها ، ومن ثَمَّ بدأت الآلة الصهيونية تدور : تجمع المال وتشتري الأرض وتقيم عليها المستعمرات لأفواج المهاجرين ، وبدأت الخيوط الأولى للمأساة الجديدة تبرز لكل عين ، غير أن العرب لم يكونوا إلى ذلك اليوم ليحسوا بالخطر الرهيب إحساساً كافياً ، فهم لا يزالون متفرقين شيعاً وأحزاباً تتناحر وتتعادى ، واليهود يتابعون تحصين المستعمرات ويستعدون للمعركة المقبلة ، وجاءت الحرب الكونية الثانية فأعانتهم على إنشاء المصانع الضخمة وتدريب فتيانهم وتسليحهم ، وكانت دعايتهم الهائلة المنظمة تبني لهم سنداً في كل بلد ، من رأي عام يعطف على تشريدهم في الأرض واضطهاد النازية لهم ، فلما انتهت الحرب ثانية بنصر الحلفاء أصبحت لفلسطين الشهيدة قضية معروضة على منظمة الامم المتحدة ومن ورائها أصابع أميركا والصهيونية ، وأدرك العرب أنهم مقبلون على المأساة ، ولم تستطع دولهم السبع وجامعتهم العربية أن تمنع اصدارَ القرار بتقسيم فلسطين ، وتشريد عربها ، ودوّى الرصاص من جديد في الأرض المقدسة ليسيل فيها الدم العربي المظلوم ! ودخل جيش الانقاذ العربي إلى فلسطين بقيادة هزيلة وجند خليط وسلاح مفلول فتوالت عليه الضربات ، وشنّ اليهود عدواناً وحشياً مقصوداً على دير ياسين فنشروا به الذعر والخوف ، وبهذا السلاح الماحق من الرعب الجماعي وانهيار الأعصاب أجلى اليهود العرب عن طبريا وحيفا ويافا وعشرات المدن والقرى ، وتدفق اللاجئون على البلاد العربية المجاورة والضفة الغربية من الأردن ، حتى إذا أقبل اليوم المحدد لانسحاب الجيش الانكليزي من فلسطين ، في الرابع عشر من أيار عام ١٩٤٨ ظهر للعالم أن مجتمع العصابات اليهودية في فلسطين أصبح دولة قائمة ،

وأن المجتمع العربي فيها بدأ يلفظ أنفاسه ويتحول الى قطعان مذعورة من الغرباء اللاجئين الهائمين على الدوب !

عند ذلك أعلنت الدول العربية السبع الحرب على اسرائيل، وتخطت فرق قليلة من جيوشها حدود فلسطين للقيام بنزهة حربية في الأرض المقدسة ، ومرّ أسبوع وأسبوع والجيوش العربية تقتحم ما أقرّ التقسيم ابقاءه عربياً من الأرض الشهيدة ! كانت الجيوش العربية متفرقة متخاذلة ، قليلة العدد ، هزيلة الخبرة والتدريب والتنظيم والسلاح ، وأمامها عدو منظم مدرّب قد عبأ جميع قواه البشرية والمادية والعقلية والسياسية ، وفي يده أحدث الأسلحة وأمضاها ؛ ولهذا كان على الدول العربية أن تقبل الهدنة الأولى لمدة شهر تمكن اليهود خلاله من تعزيز قواهم ، والعرب سادرون في خلافاتهم ، فلما عادت الحرب برز الخلاف في الجبهة العربية للعيان، وانسحب الجيش الأردني من اللد والرملة ، وتبعه الجيش العراقي ، وخلا الميدان أمام القوات الاسرائيلية فاحتلت بيسر عدة مدن ومئات القرى ومساحات واسعة من الأرض العربية ، وهرب السكان على وجوههم هائمين ، وقد باغتهم العدو في دورهم وخلّفوا في أرضهم كل ما يملكون ، وارتفع عدد اللاجئين في البلاد العربية عشرات الآلاف .

وقبلت الدول العربية قرار مجلس الأمن بالهدنة الثانية ، وتفاقم الخلاف بين الحكومات العربية، وانتهى بإعلان حكومة عموم فلسطين في غزة لتقف أمام أطماع الملك عبد الله ، فردّ الملك بإعلان ضم الضفة الغربية من الأردن الى الشرقية ، وفاز بذلك من الغنيمة بنصيب الأسد !

ومضت أيام الهدنة الثانية والحكومات العربية ماضية في تناحرها وشقاقها، واغتنم اليهود الفرصة فجمّعوا قواهم وهاجموا بها الجيش المصري، وتمكنوا من محاصرة فرقة كبيرة منه في الفالوجة ! وكذلك شاء ربك أن يكون ، بين الجند المحاصَرين ضابط عربي شجاع ، هيأته عناية الله لدور حاسم في المأساة ،

وهناك في قلب المعركة والحصار التقى جمال عبد الناصر بتلك الفئة المؤمنة من الأبطال الأحرار الثائرين الذين جرت دماؤهم المظلومة على تربة فلسطين، فهاجت في قلوبهم الثورة على الظالمين، ولمّا عاد المحاصَرون الى القاهرة اندلعت من قلوبهم شرارة الثورة فأطاحت بالعروش وأذنابها فكانت الصفحة الأولى من انتقام الشعب العربي لكرامته المهدورة !

أما التمثيلية الحربية في فلسطين فقد انتهت بأن عقدت كل حكومة عربية الهدنة المنفردة مع إسرائيل ، صاغرة ذليلة ، ثم راحت تتنصّل من جريمتها في المأساة ، وتحمّل الأخرى مسئولية النكبة والإنكسار والهزيمة ، وتحذّر شعبها بالتهديد بالجولة الثانية !

ومرّت السنون حتى جاوزت العشر ، مرّت ثقيلة بطيئة الخطا ، وجيل المأساة ينتظر الفجر الموعود ، ويتلهف إلى خيال القائد المظفر لجيش العروبة الموحّد ، ويترقب انطلاقة الصيحة الرائعة من فمه إيذاناً بالزحف العربي المقدس !

* * *

أيها السادة

هذه الخطوط العريضة لمأساة فلسطين في عصرنا الحديث عشناها ، أو عاشها أكثرنا بكل دفقة من دمائه وبكل رجفة من أعصابه ، ولمّا بسطتها لأن الشعر العربي المعاصر عاشها أيضاً بكل جزئياتها ، وقد استخلصت في كتابي (في شعر النكبة[١]) حكاية المأساة من جذورها الى اليوم ، من الشعر المعاصر ، وبذلك يتضح لنا أن ديوان النكبة في تضخم مستمر ، وأن ملحمة الدم في فلسطين مازالت الى اليوم بدون نهاية !

سأقف الآن بكم عند هذه الحكاية الشعرية لمأساة فلسطين الحديثة لندرس

---

(١)- في شعر النكبة - مطبعة جامعة دمشق - ١٩٦٠

ما لهذه المأساة من أثر في الشعر العربي المعاصر ، ولكي أضمّ جوانب البحث سأحاول تكثيفه في نقاط التأثير الخمس التالية :

١ً- مأساة فلسطين قدّمت للشعر المعاصر زاداً لاينفَد

لاريب في أن مأساة فلسطين هي أعظم تجربة يعانيها الأدب العربي المعاصر ، فقد هزّت أهوالها ضمائر الشعراء العرب في كل قطر عربي ، وأنطقتهم بشعر غزير ، وأوحت إليهم بصور شعرية لانهاية لها ، وكيف تنتهي صور المأساة مادام هناك مليون من المشرّدين على الدروب ، في كل بلد عربي ، تروي وجوههم الشاحبة وأجسامهم المعلولة قصة الجريمة العظمى لكل عين ، وتذكّر كلّ ذي وجدان بعمق المأساة ووحشيتها ، ومن هنا لم يكن شعراء فلسطين وحدهم في مناحة النكبة ، فالمأساة قومية جامعة ، ويندر أن نجد شاعراً عربياً في أي قطر من أقطار العروبة لم يسهم في البكاء على البلد العربي الشهيد ، أو في مواساة المنكوبين ، أو في بث روح الصبر والمقاومة والعزيمة للنضال من جديد والاستعداد للجولة الثانية ، ولقد وعى الشعراء العرب جميعاً أن وراء المأساة في فلسطين عدواً مشتركاً تعرف البلاد العربية كلها غدره وويلاته ، فازدادوا عنفاً في مهاجمته ، وكشفوا عن وجهه القناع ، وفضحوا الصلة التي تجمع بين الاستعمار والصهيونية ، فما اسرائيل غير مخلب للاستعمار ، يهدد به أمن العرب ، ليقضيَ على كل حركة تحررية فيهم ، ويضمن بذلك حماية ما بقي له من مرافقَ ومصالحَ في جوانبَ من أرض العرب !

غير أن الاستعمار لم يكن وحده السرّ في مأساة فلسطين ، فهناك الغدر والخيانة والمطامع والأهواء والشهوات التي كانت تعصف في رؤوس عدد من الملوك والرؤساء ، وقد تصدى شعراء النكبة لهؤلاء ، وفضحوا دورهم القذر في المأساة ، وكشفوا عن جرائمهم وصبوا عليهم اللعنات ..

والى جانب هذه الصفحات السود من الخيانة والخزي تضم المأساة صفحات رائعة من البطولات والتضحيات ، وبذلك كله قدّمت مأساة فلسطين للشعر العربي المعاصر زاداً لاينفد ، ووضعت بين يديه مادة للقول غزيرة لاتنضب مهما امتد عمر المأساة، واليكم ديوان النكبة : فبين ما كان يقوله ابراهيم طوقان قبل التقسيم بعشر سنين :

أمامك أيها العربي يومٌ ... تَشيب لهوله سودُ النواصي
وأنت كما عهدتك لاتبالي ... بغير مظاهر العبث الرخاص
مصيرك بات يلمسه الأداني ... وسار حديثه بين الأقاصي
فلا رحب القصور غداً بباقٍ ... لساكنها ولا ضيق الخصاص

وما يقوله أبو سلمى بعد التقسيم بعشر سنين :

بافلسطين مضت عشرٌ وفي ... كلّ يومٍ يسمع الدهر ندانا
وأتينا واللظى يحرقنا ... عرباً : قلباً ووجها ولسانا
يا أحبّاي مضت عشر ولم ... تلثم التربَ المفدّى شفتانا
وشظايانا اللواتي وحّدت ... بين أهلينا ولم يبق سوانا

بين هاتين الصفحتين من ديوان النكبة شعر كثير يفصّل أسباب المأساة ويتتبع أحداثها ويصوّر أبعادها الواقعيةَ والوجدانية ، وما زالت المأساة إلى اليوم تقدم للشعر مادة جديدة !

٢ً — مأساة فلسطين أغنت العنصر العاطفي في الشعر المعاصر

أثارت مأساة فلسطين بأهوالها وويلاتها وجدانَ الشعر المعاصر ، فانطلقت قصائد النكبة مغمسة بالألم والدموع تصوّر بؤس المنكوبين وشقاءهم وضياعهم وضلالهم ، وتقف أمام خيام اللاجئين « لتقصّ قصة العربي التائه !

لقد انتهى دور اليهودي التائه منذ أصبح له في إسرائيل وطن قومي يحميه ، وبيت يُظله ويؤويه ، وأرض تطعمه من خيراتها وتغنيه ، وهام العربي على وجهه ، بلا وطن ولا بيت ولا أرض ، يلوب في الدروب ، حافياً عارياً جائعاً ، ينتظر من الشعوب فضلات الإحسان ليسد بها رمقه ، وهو الذي خلّف في وطنه السليب مئات الملايين من الجنيهات ! حتى إذا أقبل عليه الليل أوى إلى تلك الخيمة السوداء التي أصبحت رمزاً كريهاً للنكبة [١] ، ففي قلب هذه الخيمة ألوان كافرة من البؤس والشقاء، من جوع وعُري وبرد ، وقمل وسُلّ وموت!

انها « خيمة البهتان » كما يسميها الشاعر المبدع محمود حسن اسماعيل :

هنا في خيمة البهتان والطغيان والزورِ
لدى مأوى كلحد الميت في النسيان محفورِ

* * *

هنا في كبوة الأقدار بين السيل والويلِ
وبين عُواء شيطانٍ طريدِ الجنّ مختلّ
يُقعقع للرعود السود مأخوذاً من الهول
سمعتُ فحيح ثُعبانٍ على رئتيّ مُنسلّ
تدفّق جسمه المقرور بين حفائر السُلّ
وبين شتاء بستان بدا فيه الموت مخضلّ !

ومن هذه الخيمة والشقاء الرابض في جوفها استعار كثيرٌ من الشعراء المعاصرين مادة شعرية لدواوين كاملة ، حتى أصبح للخيمة في الأدب المعاصر أثر بعيد المدى ، ولقد أسهم شعراء العالم العربي في أدب الخيمة إلى جانب شعراء فلسطين لأن خيام اللاجئين منثورة « تحت كل كوكب » في بلاد العرب ،

---

(١) — في شعر النكبة : ٧ :

كما يقول أبو سلمى ، ومنها يزحف بؤس ضارٍ يُدمي القلب ويُبكي العين ويحرّك لسان كل شاعر .

ولقد صوّر الشعر المعاصر المخاض النفسي العنيف الذي عاناه العرب في مختلف أطوار المأساة ، فإذا جئنا إلى شعر النكبة بعد التقسيم والمعركة الهازلة وجدناه يموج بالقلق والحيرة والشك ، وهو بذلك صورة صادقة للنفس العربية الجريحة الكبرياء عندما صدمتها الهزيمة ففجّرت ثورة غضبها ويأسها وانهيارها ، وأشعلت براكين حقدها على الجناة ثم استكانت إلى كآبة حزينة قاتمة ، إلى أن أشرق طور جديد إثر الانفجارات الشعبية في أطراف من العالم العربي ، فتنسّم شعر المأساة روح التطلع والتفاؤل والأمل ، وراح يصوّر النفس العربية وقد عادت إليها الثقة وارتدّ الإيمان بذاتها إليها ، فانتصبت كالعملاق من جديد ، تتحدى كل مغتصب ، وتستعد للثأر واستعادة الوطن المغصوب .

والذي يزيد غنى العنصر العاطفي الوجداني في الشعر المعاصر اندفاعُ تلك تلك الثورة العارمة من الحنين إلى الأرض السليبة في قلوب شعراء فلسطين ، فهذا أبو سلمى يحن إلى داره في فلسطين وما خلّف فيها من حلو الذكريات :

داري التي أغفت على ربوةٍ ... حالمة بالمجد والغارِ
تفتّح الزهر على خدها ... فعطّرت أيام آذار
والتينة الخضراء في ظلها ... تاريخ أشواقي وآثاري
والعين خلف الدار في المنحنى ... تروي حكاياتي وأخباري

وهذا حسن البحيري يتنسّم أنفاس وطنه المغصوب في أريج الزهر :

سألت ذاتُ حنين أختها ... والدجى يعقد أجفان الوسن
وصدى النجوى على أفق الربا ... يزفير اللهفة في ليل الشجن
أختِ ما سرّ الشذى من زنبقٍ ... حيّر الأدمع في جفن الزمن

فأجابتهـا بلحن شـاردٍ رنّ فاهتز له عطف الفنن :
يا ابنة الأيك ويا أخت الشجى أرج الزنبق أنفاس الوطن !

والحق أن شعراء فلسطين غنوا أصدق ألحان المأساة وأعمقها عاطفة لأنهم صدروا فيها عن التجربة التي عاشوها بأنفسهم والمآسي التي رأوها بأعينهم ، غير أننا يجب أن نلاحظ أن غنى العنصر الإنفعالي وطغى بتضخّمه على العنصر الفكري في شعر المأساة فبدا هزيلاً فقيراً ، ذلك أن شعراء النكبة لم يستطيعوا أن يعكسوا المعنى الايجابي للمأساة القومية الكبرى ، المعنى البنّاءَ الذي يحدّد الهدف ويرسم الطريق ، كما أنهم لم يُعنوا بتزويد الضمير العربي بالسند الجدلي لحق الأمة العربية في فلسطين وبطلان مزاعم الصهيونية فيها ، ولا تقولوا إن هذه النقطة الأخيرة ليست من وظيفة الشعر ، ذلك أن هنالك شاعراً واحداً ـ فيما أعلم ـ انتبه إلى هذه الثغرة في شعر المأساة وحاول أن يسدّها ، وهو شاعر مهجري ، ولعله استطاع أن ينجو بشعره من طغيان العنصر العاطفي لأنه كان بعيداً عن المأساة في مُهاجَره ، فتمكن من الموازنة بين العاطفة والفكر في بكائه للمأساة ! يقول إيليا أبو ماضي :

ديارُ السلام وأرضُ الهنـا يشُقّ على الكل أن نحزنا
فخطب فلسطينَ خطب العُلا وما كان رزء العلا هيّنا
سهرنا له فكأن السيوف نخُزُّ بأكبادنا هنـا
وكيف يزور الكرى أعيناً ترى حولها للردى أعينـا
وكيف تطيب الحياة لقومٍ تُسد عليهم دروبُ المنى
بلادهمُ عُرضة للضيـاع وأمتهم عُرضة للفنـا
يريد اليهود بأن يصلبوها وتأبى فلسطين أن تُذعنا
وتأبى المروءة في أهلهـا وتأبى السيوف وتأبى القنا
أأرضُ الخيال وآيـاتُه وذاتُ الجلال وذاتُ السنا

تصير لغوغائهم مسرحاً ... وتغدو لشذاذهم مسكنا !
فقل لليهود وأشياعهم ... لقد خدعتكم بروق المنى
ألا ليت (بلفورَ) أعطاكمُ ... بلاداً له لا بلاداً لنا
فلندنُ أرحب من قدسنا ... وأنتم أحبُ إلى لندنا
فليست فلسطينُ أرضاً مَشاعاً ... فتُعطى لمن شاء أن يسكنا
فإن تطلبوها بسُمر القنا ... نردّكمُ بطوال القنا
ففي العربي صفاتُ الأنام ... سوى أن يخاف وأن يجبُنا
وإن تحجُلوا بيننا بالخِداع ... فلن تخدعوا رجلاً مؤمنا
وإن تهجروها فذلك أولى ... فإن فلسطينُ مُلكٌ لنا
وكانت لأجدادنا قبلنا ... وتبقى لأحفادنا بعدنا
وإنّ لكم بسواها غنىً ... وليس لنا بسواها غنى
فلا تحسبوها لكم موطناً ... فلم تك يوماً لكم موطنا

٣ـ مأساة فلسطين نفخت في الأدب المعاصر روح التمرد والانطلاق والثورة

كانت النكبة في فلسطين نقطة الانعطاف الكبرى في يقظة العرب الحديثة، فقد أيقظت المأساة أمتنا العربية على الخطر، وأظهرتها على حقيقة صارخة وهي أن الذين خاضوا معركة النكبة لم يكونوا يحسون إحساساً كافياً بالولاء للأرض العربية والوطن العربي وكرامة الأمة العربية، فكانوا الأداة المسخرة لهزيمة أمتهم بملايينها أمام حفنة من شذاذ الآفاق لا يبلغون المليون، وجعلوا من الحرب الفلسطينية (مهزلة عربية) كما يسميها الشاعر الفلسطيني محمود الحوت، ومرّغوا بخيانتهم تاريخ العرب الحديث، وجلّلوه بالعار والذل، وقد نفخت هذه الحقيقة روح التمرّد والثورة في أعماق جيل النكبة، وعكس الأدب المعاصر هذه الروح المتمردة الثائرة المنطلقة، فتدفقت النقمة في شعر المأساة نؤج كالنار، وها هي ذى تلتهب في شعر يوسف الخطيب :

أنا مشعل أنا مارجٌ جبّارُ ... لا الريح تُخمدني ولا الإعصار
سأمدّ في الآفاق ألسنة اللظى ... حُمراً لها في الخافقين أوار
ولأحرُقنّ الليل حتى تنجلي ... أسدافه فتوقّدي يا نارُ
للميتين دموعهم وجراحهم ... ولجذوتي ساحُ الوغى والثار
ولسوف أغسل جبهتي حتى تُرى ... مثل الضحى ويذوب عنها العار
أنا للحياة ولن أظل مشرداً ... أقسمت لا أرضى ولا أختار
ومشيئتي قدرٌ على أقدامه ... تتمسّح الأيام والأقدار
لو شئت جمّعت النجوم مشاعلا ... ودفقت منها الموت حين أثار
وذروت في القطبين أرياح الردى ... فالأرض من بعدى لظى ودمار
أنا مجرمٌ أنا حاقد ، أنا سيء ... حتى تعود الى ذويها الدار

وفي الشعر المعاصر حملات على الذين قادوا معركة النكبة إلى الهزيمة ، وفي طليعتهم زمرة الملوك والحكام والرؤساء ، ولقد كانت ثورة شعراء المأساة على خياناتهم شعواء حقاً ، واليكم نماذج منها :

يقول أبو سلمى وهو يسبق هنا سائر شعراء النكبة :

يا رفاق الدهر هل شرّدكم ... في الورى غدر عدو أم محب
زعماءٌ دنّسوا تاريخكم ... وملوك شردوكم دون ذنب
وجيوش غفر الله لها ... سلمت أوطانكم من غير حرب
دولٌ تحسبها شرقيةً ... وإذا أمعنتَ فالحاكم غربي

ويقول عيسى الناعوري :

هم أسلموكِ إلى العدوّ فمرّغوا ... بالعار كلّ كرامة وإباءِ
بل مرّغوا تاريخ يعرب كلّه ... بمذلةٍ لا تنتهي نكراء
زمرٌ تعيش على الخيانة مثلما ... عاش البعوض على خبيث الماء

ويقول عمر أبو ريشة :

أمتي ! كم غصةٍ دامية ... خنقت نجوى علاكِ في فمي
كيف أغضيت على الذل ولم ... تنفضي عنك غبار التهم
فيم أقدمتِ وأحجمتِ ولم ... يشتف الثأر ولم تنتقمي
اسمعي نوح الحزانى واطربي ... وانظري دمع اليتامى وابسمي
واتركي الجرحى تداوي جرحها ... وامنعي عنها كريم البلسم
ودعي القادة في أهوائها ... تتفانى في خسيس المغنم
ربّ « وامعتصماه » انطلقت ... ملء أفواه البنات اليتّم
لامست أسماعهم لكنها ... لم تُلامس نخوة المعتصم

ومن وراء البحار ، من المهجر يقذف الياس فرحات هذا الحجر ليرجم به أصحاب الجلالة والسمّو :

أشبابَ يَعرُبَ قم فنحن هنا ... نلقى بملءِ صدورنا المحنَا
قم نمح عاراً تحت وطأته ... كادت تمس جباهنا الدمنا
لولا رجاء النازحين عن الـ ... أوطان فيك لأنكروا الوطنا
وإذا لقيت ذوي الجلالة من ... ساداتنا المتحكمين بنا
وذوي السمو وكلّ ذي لقب ... خاوٍ كصاحبه قليلِ غنى
فاهزأ بألقابٍ لهم سمنت ... وكرامةٍ هُزلت أسىً وضنى
ديست بأقدام اليهود فيا ... شمَّ الأنوف استنشقوا الدرنا
أمهدّمين بسوء دخلتهم ... يومَ الكريهة ماصلاحُ بنى
دُقوا وغنوا في مآتمنا ... لكم البداءة والختامُ لنا

وفي الشعر المعاصر حملات ضارية على الاستعمار والمستعمرين ، لأنّ

الاستعمار كما قدمنا من أهم عوامل المأساة ، ولهذا يقول هارون هاشم رشيد:

لولا خِداع الانكليز وغدرهم ... ماعاث في أرض الأسود كلابُ
والغربُ ! يالله الغرب إن قدومه ... نحو البلاد مصيبة وخراب
هو أخطبوط فاجرٌ مستعمرٌ ... في كل ناحيةٍ له أذنابُ

ومن مظاهر التمرد والثورة في الشعر المعاصر انصرافه إلى الشعب والايمان به وبإمكاناته وعقده الآمال للخلاص على يديه . يقول كمال ناصر :

أنا الشعب فلتسمعي ياذُرا ... نشيدي يدوّي بسمع الفضاءْ
أمدّ جناحيَّ عبر الجراح ... فمن كبرياءٍ إلى كبرياء
أنا الشعب ياحفنة المرجفين ... نداء الخلود وسرّ البقاء
على مقلتيّ مصيرُ الوجود ... وفي وجنتيَّ مصير القضاء

وتدفع الثورة أحد شعراء النكبة ـ خليل زقطان ـ إلى المبالغة والمغالاة فيؤله الشعب :

فليقرأوا فوق الجبا ... ه الغرّ فلسفة العصاه
صوراً من الإصرار تُعـ ... لمن أتمّا الشعب الاله

٤ـ مأساة فلسطين دفعت الشعراء المعاصرين الى التطوّر والتجديد والحياة

يعاني الشعر العربي اليوم ثورة جامحة على التقاليد الشعرية القديمة في الشكل والمضمون ، ويواجه تجارب كثيرة لوضع تقاليد جديدة للشعر العربي ، وهكذا نجد في الشعر المعاصر مشكلة جديدة هي مشكلة « الشعر الجديد » أو « الشعر الحر » كما يسمونه وهو «يقوم على وحدة التفعيلة في القصيدة ، وتنويع عدد التفعيلات في كل بيت تنويعاً يوافق انسياب المعاني ، وتوزيعِ الموجات العاطفية

توزيعاً موسيقياً ملائماً، واعتبار القافية عنصراً عفوياً، غيرَ ملتزم ولا متعمَّد[١]»
هذا من حيث الصياغة الشكلية ، أما من حيث المضمون : فالشعر الجديد يُمدِّد التجربة ويبسّطها، ويُعنى بإيراد الجزئيات الصغيرة التي تتجمع ظلالها فتزيد التعبير الشعري عن التجربة عمقاً ووضوحاً وأصالة ؛ ثم إن الشعر الجديد يسعى إلى أن يكون صادقاً في تمثيل الجانب الانفعالي من الحياة ، والى ان يعبر عن وقع الوجود وأحداثه على الوجدان دونما طلاء أو زيف .

إن الشعر الجديد انقلاب ثوري على شعرنا التقليدي ، ولكي يتضح التعريف الذي قدّمته أضرب لكم مثلا من الشعر الحر الجديد الذي نظمته مأساة فلسطين بلسان الشاعر نزار القباني ، وهي قصيدة جميلة سماها الشاعر « قصة راشيل شوارزنبرغ » وقدّمها للأجيال العربية المقبلة وأعلن فيها الثوره على الجيل الذي أسهم في ضياع فلسطين ، وليت شاعرنا نزاراً ينفق طاقته الشعرية دائماً في مثل هذه الموضوعات :

أكتب للصغار
للعرب الصغار حيث يوجدون
لهم على اختلاف اللون والأعمار والعيون
أكتب للذين سوف يولدون
لهم أنا اكتب للصغار
لأعين يركض في أحداقها النهار
أكتب باختصار
قصةَ إرهابيةٍ مجنّده
يدعونها « راشيل »
قضت سنين الحرب في زنزانةٍ منفرده

---

(١) – انظر « في شعر النكبة ، ص٨٩ – ٩٣

كالجرذِ .. في زنزانةٍ منفردهْ
شيَّدها الألمان في براغْ
كان أبوها قذراً من أقذر اليهودْ
يزوِّرُ النقود ،
وهي تُدير منزلاً للفُحش في براغْ
يقصده الجنودْ ..
وآلت الحربُ الى ختامْ
وأُعلن السلامْ
ووقّع الكبارْ
أربعةٌ يلقّبون نفسهم كبارْ
صكَّ وجود الأمة المتحدهْ
... وأبحرت من شرق أوربا مع الصباحْ
سفينةٌ تلعنها الرياحْ
وجهتها الجنوبْ
تغص بالجرذان والطاعون واليهود
كانوا خليطاً من سُقاطة الشعوب
من غرب بولندا
من النمسا
من استمبول .. من براغْ
من آخر الأرض .. من السعيرْ
جاءوا الى موطننا الصغير
موطننا المسالم الصغير
فلطخوا ترابنا
وأعدموا نساءنا

ويتموا أطفالنا
ولا تزال الأمم المتحده
ولم يزل ميثاقها الخطير
يبحث في حرية الشعوب
وحقِ تقرير المصير
والمثلِ المجردّه
فليذكرِ الصغار
العربُ الصغار حيث يوجدون
من ولدوا منهم ومن سيولدون
قصة إرهابية مجنده
يدعونها « راشيل »
حلّت محلّ أميَ الممدّده
في أرض بيّارتنا الخضراء في الخليل
أمي أنا الذبيحةِ المُستشهِده
وليذكرِ الصغار
حكايةَ الأرض التي ضيّعها الكبار
والأممُ المتحده

* * *

أكتب للصغار
قصة بئر السبع واللطرون والجليل
وأختيَ القتيل
هناك ، في بيّارة الليمون ، أختيَ القتيل
هل يذكر الليمون في الرملة ، في اللد ، وفي الخليل
أختي التي علّقها اليهود في الأصيل

من شعرها الطويل
أختي أنا نُوارْ
أختي أنا الهتيكةَ الإزارْ
على رُبا الرملةِ والجليلْ
أختي التي مازال جرحها الطليلْ
مازال بانتظارْ
نهارَ ثارٍ واحداً ، نهار ثارْ
على يدِ الصغارْ
جيلٍ فدائيٍ من الصغارْ
يعرفُ عن نُوارْ
وشعرِها الطويلْ
وقبرِها الضائع في القفارْ
أكثرَ مما يعرفُ الكبارْ !

* * *

أكتب للصغارْ
أكتب عن يافا وعن مرفئها القديمْ
عن بقعةٍ غالية الحجارْ
يُضيء برتقالها كخيمةِ النجومْ
تضمّ قبر والدي وإخوتي الصغارْ
هل تعرفون والدي وإخوتي الصغارْ
إذ كان في يافا لنا حديقةٌ ودارْ
يلفّها النعيم ،
وكان والدي الرحيمْ
مزارعاً شيخاً يحب الشمسَ والترابْ

والله َ والزيتون والكروم ْ
كان يحب زوجه ُ
وبيتَه ُ
والشجر َ المثقل بالنجوم ْ
. . . وجاء أغراب ٌ مع الغياب ْ
من شرق ِ أوربا . . ومن غياهب السجون ْ
جاءوا كفوج ٍ جائع ٍ من الذئاب ْ
فأتلفوا الثمار ْ
وكسّروا الغصون ْ
وأشعلوا النيران َ في بيادر النجوم ْ
والخمسة ُ الأطفال ُ في وجوم ْ
والليل ُ في وجوم ْ
واشتعلت في والدي كرامة ُ التراب ْ
فصاح فيهم : اذهبوا إلى الجحيم ْ
لن تسلبوا أرضي ياسلالة الكلاب ْ
. . . ومات والدي الرحيم ْ
بطلقة سددها كلب ٌ من الكلاب ْ
عليه ، مات والدي العظيم ْ
في الموطن العظيم ْ
وكفه مشدودة شداً إلى التراب ْ
فليذكر الصغار ْ
العرب ُ الصغار حيث يوجدون ْ
من وُلدوا منهم ومن سيولدون ْ
ماقيمة التراب ْ

لأن في انتظارهم
معركةَ التراب . . ! »

هذا نموذج من الشعر الجديد ، نموذج كامل لم أحذف منه شيئاً ، لكي تلمسوا فيه سعةَ دائرة التجربة وتبسيطَها والعنايةَ بالجزئيات التي تتلاقى فتزيد التجربة عمقاً ووضوحاً ؛ والشعر الجديد يملأ اليوم صحفنا ومجلاتنا، ويهتم النقاد بدراسته ورصد أسبابه ، فيقول بعضهم إنه امتداد للرعشة العنيفة التي هزّت كيان الشعر العالمي كله من جراء تطور المفاهيم ، وانجراف الشعر العربي المعاصر في هذا التيار ! والحق أن وراء الشعر الجديد دوافعَ كثيرة أخرى معقدة ، منها تلك الشعوبية الماكرة المقنعة بستار التجديد والتحرر والانطلاق ، وتحت قناعها حقدٌ على التقاليد العربية أية كانت ، واندفاعٌ ضارٍ نحو تحطيم كل عقيدة ؛ ومن الدوافع أيضاً غرور بعض الناشئين من الشعراء ، يُعجزهم إقامة الوزن وإخضاعُ القافية ، فيختصرون الطريق ، ويتمردون على القيود ، ويصيرون إلى الشعر الحر ، وهؤلاء المراهقون من الشعراء بحاجة الى عصا ناقد صارم ، يعلّمهم أنّ وراء كل أثر فني ناجح موهبةً صامتةً عاملة ، وتضحيةً لاحد لها من سهر وعرقٍ ودمعٍ وصبر !

غير أنّ أهم دافع — في اعتقادي — لهذا الانقلاب الثوري في الشعر المعاصر ينبُع من مأساة فلسطين ، ذلك أن الهزيمة في فلسطين كانت صدمة عنيفة طاش في أعقابها العقل العربي ، فاختلت موازين القيم أمام عينيه ، وتفجرت في اللاشعور نقمة مسعورة تستهين بكل القيم وتتحداها ، فالثورة على التقاليد الشعرية صورة للقلق النفسي والشك والحيرة والرغبة في التغيير والاندفاع نحو التحرر ، والاشمئزاز من الماضي والحاضر .. صورة للهزة الرهيبة التي كادت تحطم الضمير العربي في أعقاب الهزيمة !

إن الشعر الجديد أثر من آثار مأساة فلسطين في الشعر المعاصر ، وهو تجربة

لاضير منها ، واذا قادها الوعي الفني والقومي والانساني بعمق وموهبة واصالة أعطت نماذج ناجحة ، وكان لها أثرها البعيد في مستقبل الصياغة الشعرية وفي تطوير الشعر العربي الحديث كله ..

لقد خرج الشعر الجديد من أعقاب معركة فلسطين ليخوض بنفسه معركة النقد للحكم على صلاحه ، ومعركة النقد قائمة أبداً بين المحافظين والمجددين — وهي استمرار طبيعي للمعركة النقدية القديمة التي لاحياة للأدب بدونها - وعلى رأس المحافظين الاستاذ عباس محمود العقاد الذي يرفض أن يسمى الشعر الجديد شعراً ، والى جانبه الشاعر المحافظ عزيز أباظة الذي يسمي الشعر الجديد «هذيان المحمومين» ! وأما المجددون فيعلنون أن الشعر الجديد هو « ثورة تجعل من عصرنا عصراً شعرياً ذهبياً ! » كما يقول الشاعر المجدد صلاح الدين عبدالصبور ، ويدعم هؤلاء نقاد متفائلون في مقدمتهم الدكتور محمد مندور الذي يدعو الناقمين المتشائمين إلى أن يبذلوا محاولات مخلصة لفهم الشعر الجديد واستنباط مواطن الجمال فيه .

٥ً — مأساة فلسطين غلّبت على الشعر المعاصر الاتجاه الالتزامي الهادف

في اعتقادي أيضاً أن مأساة فلسطين هي أكبر عامل في إثارة الدعوة إلى الالتزام في الأدب في العالم العربي ، وفي تغليب الاتجاه الهادف على الشعر المعاصر ، وذلك لسببين :

أولها أن مأساة فلسطين قدّمت للشعراء مادة واقعية غنية ، وشغلت بويلاتها وأهوالها الضمير العربي ، فانطلقت الصرخة من أعماقه داعية إلى مطاوعة الأدب الحديث لواقع الأمة العربية المرير ، ليعيش الأدب تجربة الأمة ويكون الاديب صاحب رسالة يملأ مضمونه الشعري أو النثري منها ، لا من ذاكرته ولا من خياله ، فيربط بذلك بين انتاجه والحياة الاجتماعية التي يحياها .

وثانيهما أن مأساة فلسطين ودور الاستعمار الغربي فيها دفعت أمتنا العربية

إلى التحرر من سيطرة الغرب والعمل على التخلص من احتكاره لنا في الميادين كلها ، ومنها ميدان الثقافة ، وهكذا تكون مأساة فلسطين هي التي دفعتنا إلى أن نفتح كوة على ثقافة العالم الاشتراكي ، وهي ثقافة تقول بالتزام الفنان بخدمة مجتمعه ، وتنكر عليه الحق في الانعزال و (البرجعاجية) ، ومن هذه الكوة الجديدة هبت علينا مفاهيم لاتعرفها الثقافة الغربية التي كانت مسيطرة علينا وكنا نسير في ركابها ، فثقافة الغرب تنزع بوجه عام إلى منح الفنان نهاية الاستقلال الفردي ، وقد يصل الأمر ببعض مدارسها إلى تحرير الأديب من كل مسئولية اجتماعية ..

ومهما يكن فإن الدعوة إلى الالتزام أثيرت في العالم العربي في أعقاب الهزيمة ، وشغلت — وماتزال — الأوساط الفكرية فيه ، والنقاد أيضاً فريقان أمامها : فريق مؤيد يحث الكتاب والشعراء على اقتراض مادتهم من صميم الواقع العربي ، ويطالبهم بأن يلتزموا في معالجتها برأي محدد في شجاعة وإصرار ؛ وفريق معارض يسخر من الدعوة إلى الالتزام والأدب الهادف ويسميه الأدب الهاتف ، ويعني أن الأديب الملتزم آلة مطواع يُردد كالببغاء مايُراد منه ، وبذلك تضيع حرية الأديب ، ويأتي أدبه زائفاً مكذوباً به على الحياة — كما يقول محمود تيمور — لأنه وليد الغرض والإملاء والإلزام .

والحق أن أمتنا العربية تعيش منذ الكارثة تجربة قاسية ، وهي ماتزال عاكفة على مأساتها ، تدرس أخطاءها وترسم لنفسها سبيل الخلاص لوضع نهاية مشرفة للنكبة ، والأدب مدعو إلى أن يُسهم ويشارك فيؤدي واجبه في تعبئة الفكر والوجدان الشعبي ويساعد على نشر الوعي وتكامله ويؤكد شعراً ونثراً هذه المفاهيم التي تقرّب الأمة العربية من نهاية المأساة :

أولاً : لانهاية للمأساة بدون أن ينتظم العرب في دولة واحدة ، وتصبح

الشخصية العربية موحدة غير مجزأة إلى مصري وسوري وفلسطيني وعراقي وسوداني واردني وحجازي ويمني ولبناني وتونسي ومراكشي وجزائري الخ...

ثانياً : لانهاية للمأساة بدون إقامة مجتمع عربي متماسك قادر على حماية نفسه من الاستعمار والخيانات الداخلية .

ثالثاً : لانهاية للمأساة بدون اعتمادنا على أنفسنا وايماننا بسياسة الحياد ايماناً قاطعاً ، فقد خذلنا المعسكران معاً وأقاما دولة اسرائيل على جثتنا .

رابعاً : لانهاية للمأساة بدون تعميق روح النضال في الجماهير العربية وتعبئتها عسكريا وخلقياً وروحياً ووجدانياً لمعركتنا الفاصلة مع اسرائيل .

هذه ينابيع للالتزام في الأدب ، وهي مسئولية على الأديب الشاعر أو الناثر ألا يهرب منها لينطوي على نفسه ويقصر أدبه على ذاته ، وإن للأجيال العربية القادمة أن تحدّد جريمة الأديب العربي الذي يبعثر اليوم طاقته الفنية في موضوعات تعارض المفاهيم السابقة ، فتطيل عمر المأساة وتبعد الفجر المرتقب ! ومن هنا تظهر مسئولية عدد من الادباء والشعراء العرب الذين يتاجرون بالانحلال وينفثون سمومهم الجنسية دون وازع ، ويسكبون في أعصاب الشباب العربي نار الشهوة بقصائدهم المفضوحة العارية ، وقصصهم المكشوفة . ولاريب في أن إقبال الشباب العربي على قراءة أدب التميّع والشهوة دليلٌ على وَهنٍ خلقي في صفوفه ، وضمورٍ مخيف للاحساس بالخطر الجاثم على حدودنا ، وتناسٍ للمأساة التي لاتزال تعيش أمتنا العربية في ليلها المظلم !

* * *

أيها السادة

هذه هي أهم آثار المأساة في الشعر المعاصر — كما تبدو لي — ويمكننا أن

نلمس نقاطا أخرى من تأثير المأساة الفلسطينية في الشعر العربي المعاصر اذا درسنا القصة الشعرية في شعر النكبة ، ونجد لها نماذج كثيرة رائعة حقاً في دواوين ابراهيم طوقان واخته فدوى وسلمى الخضراء الجيوسي ويوسف الخطيب وامين شنّار وهارون هاشم رشيد وغيرهم ؛ ونلمس تأثيراً آخر لمأساة فلسطين في كثرة الشعر الذي يُغنّى به ، فالمذياع يردد كل أيام أغنيات رائعة نظمتها المأساة بلسان أبي سلمى وحسن البحيري وهارون هاشم رشيد وأخيه علي هاشم رشيد وسليمان العيسى ويوسف الخطيب وغيرهم ! ولو كان الوقت يتسع لأوردت نماذج من رائع قصص المأساة الشعرية وأغانيها ، ولكنني أكتفي بالقصة الشعرية التي قدمها لنا قبل قليل نزار القباني (قصة راشيل شوارزنبوغ) وأما الأغنيات فالمذياع في كل بيت كفيل بتقديم الكثير لمن شاء منها ..

* * *

أيها السادة :

وأقدم لكم الآن نماذج من أجمل الشعر المعاصر ، تحكي لكم مشاهد متنوعة من مأساة فلسطين ، وتبرز لأعيننا جملة الآثار التي تركتها النكبة في الشعر العربي المعاصر :

١ ــ الفدائي و الشهيد

صورتان من صور المأساة قبل التقسيم ، رسمتها ريشة شاعر فلسطين الأكبر ابراهيم طوقان ، وغايته أن ينفخ في عرب فلسطين روح المقاومة والفداء والتضحية ، فالفدائي :

صامت لو تكلما ... لفظ النار والدما
قل لمن عاب صمته ... خُلق الحزم أبكما

وأخو الحزم لم تزل يـــده تسبق الفما
لاتلوموه قـد رأى منهج الحق مظلما
وبـــلاداً أحبها وركنها قـد تهدّما
وخصوماً يبغيهم ضجت الأرض والسما

هو بالباب واقف والردى منه خائف
فاهـدئي ياعواصف خجلاً من شجاعته !

حتى إذا سقط الفدائي شهيداً ، ترك في أمته شعلة لاتنطفىء :

عبس الخطب فابتسم وطغى الهول فاقتحم
رابط الجأش والنهى ثابتَ القلب والقدم
نفسه طوع همـــةٍ وجمت دونها الهمم
وهي من عنصر الفدا ءِ ومن جوهر الكرم
لم يشيّع بدمعـة من حبيب ولا سكن
ربمـــا أدرج الترا ب سليباً من الكفن
لاتقـل أين جسمه واسمه في فم الزمن
أرسل النور في العيو نِ فما تعرف الوسن

٢ ــ الغراب الغازي

صورة رمزية يكثّف فيها الشاعر المهجري جورج صيدح تجربة قاسية من تجارب المأساة ، يوم راحت الجيوش العربية المغرّرُ بها تخوض معركة القـدر بدون سلاح ! ولقد تناول الشاعر التجربة من زاوية فنية ووجدانية تتمثل في غراب يقتحم على الشاعر غرفتـه في بحمدون ، فيخيّل له أن الغراب الغازي قادمٌ من اسرائيل :

تطيّرتُ من ناعبٍ في الصباحْ دخيلٍ على مِهرجان السنا
مغير يزقّ شمال الرياح إذا دافعته عن المجتنى
غمامة غمٍ تُجاهَ البطاح ورايةُ شؤمٍ على المنحنى
تَقزّزُ منه عيون الأقاح وتُطبق أجفانَها إن دنا
تسرّب في غرفتي واستراح فسرّب منه إليّ العنا
كأني اعتزلت حياة المراح خصيصاً لأخلو به ههنا
خلا الجو من هينمات الصداح وحلّ النعيق محل الغنا
أتأبى جوار الغُراب الوقاح عِجافُ الطيور وأرضى أنا
ومن أنبأ الطير أن اجتياح مُقامي أيسرُ ما في الدنى

وأن انتسابي إلى يعربٍ
يحلل مأوايَ للأجنبي !

وأني أهدده بالفنا بكفي، وكفي خلت من سلاح!

أضيف الهنا إن بيتي المباحْ صغيرٌ يضيق بضيف الهنا
وزادي – أعيذك منه – جراحْ أغمّس فيها فُتات الضنى
شهرتُ عليك لساني الصراح فأعيا ، أأطول منه القنا
سألتك بعد الغدوّ الرواح عسى البينُ يُصلح مابيننا
وماضرّ لوزرت (تلّ) السفاح وعششتَ بين وكور الخنا
هنالك سِربُكَ يجني الرّباح ولا يُسأل اللص عما جنى
كرهتُك ضيفاً دجيّ الوشاحْ دجيّ الحواشي دجيّ المنى
إذا وصفتك القوافي الفصاح دعوت عليها بأن ترطُنا
تسيءُ وأنت طليق السراح ويرزح بالقيد من أحسنا
أحلتُ عليك النسور الغضابْ
ولكن . . حسدتُك يا بن التراب

تروّد الأعالي وأبقى هنا فعندك ماليس عندي ـ سلاحٌ !

٣ ـ العندليب المهاجر

صورة تنبض بالحياة والحنين إلى الوطن المغصوب ، فقد كان الشاعر يوسف الخطيب لاجئاً في دمشق عندما رأى عندليباً مقبلاً من الجنوب ، مهاجراً مثله من فلسطين :

أتراك مثلي يارفيقُ تمرّ في الزمنِ
عبرَ المهالك والليالي السود والمحنِ
لكأنّ في عينيك بعضَ اللمح من وطني

وأكاد ألمح في وجومك لون مأساتي
جرحي ، وملحمتي ، وتشريدي وآهاتي

بيَ لهفةٌ ياصاحبي مشبوبةُ النارِ
هل بعضُ أخبارٍ تحدّثها ، وأسرارِ
للظامئين على متاهِ الوحشةِ العاري
. . كيف الحقولُ تركتها في عرس آذار
ومتى لويت جناحك الزاهي عن الدار
عجباً ! تُراك أتيتنا من غير تَذكارِ !

لوقَشةٌ ممّا يرفّ ببيدر البلدِ
خبأتَها بين الجناح وخفقة الكبدِ
لو رملتان من المثلث ، أو رُبا صفدِ

لو عُشبة بيدٍ ، ومِزقة سوسنٍ بيـــدِ
أين الهدايا مذ برحت مرابعَ الرغـدِ
أم جئتَ مثلي بالحنين وسَوْرَة الكمدِ

ماذا رحيلُكَ أيها المتشرّد الباكي
عن أرض غابات الخيالِ وفوحها الزاكي
أم أنّ مرج الزهر أصبح قفرَ أشواك
وتلوّنت أنهارها بنجيـــع سفّاك
داري ، وفي عينيّ والشفتين نجواكِ
لا كنتُ نسل عروبتي إن كنت أنساك !

٤ — بعد عشر سنين

صرخة رائعة للشاعر أبي سلمى يذكّر فيها بدماء فلسطين الشهيدة عنـدما لاح أول شعاع من شمس الوحدة العربية بقيام الجمهورية العربية المتحدة :

يارفاقي جبـل النار دعانا — الهوى هذا الذي هبّ هوانا
والنسيمات التي مرّت بنـا — حملت من أرض حطّينَ شذانا
وعلى كل طريقٍ عَبَقٌ — من صَبانا وشُعاعٌ من دمانا
وإذا ما لفظت أهلي الربا — هتفت من خلل الدمع رُبانا
أيُّ سفحٍ لم يسر فيه لظىً — من فلسطين ولم يعرف سُرانا
أيّ شعب خفقت أعلامـه — حرةً إلا على دامي خطانا

باسم أطفال بلادي زحفوا — في الدروب الحُمر ذلاً وهوانا
بالضحايا كتبوا تاريخنا — بالخيامِ السودِ تبكيهم زمانا

باسم أهلي في بقايا وطني ... باسمهم في طرق البؤس حزانى
باسمهم في كل أرض مكثوا ... شاهداً قد صبّه الظلم عيانا
واسمهم يهدِر في شعري دماً ... ودموعاً وسعيراً ودخانا
باسمهم نقسم ألاّ نلتقي ... في غدٍ إلا على طُهر ثرانا

يافلسطين مضت عشرٌ وفي ... كل يوم يسمع الدهر ندانا
وأتينا واللظى يحرُقنا ... عرباً قلباً ووجهاً ولسانا
ياأحبايَ مضت عشرٌ ولم ... تلثم التُرب المفدّى شفتانا
وشظايانا اللواتي وحّدت ... بين أهلينا ولم يبق سوانا
لن تتمّ الوحدة الكبرى إذا ... لم يلُحْ في الوحدة الكبرى حمانا

* * *

أيها السادة

بهذه الصفحات المختارة من الديوان الدموي الضخم الذي منحته مأساة فلسطين للأدب المعاصر نصل الى نهاية الحديث ، غير أن ملحمة الدم في فلسطين تظل بلا نهاية ، فالدم العربي المظلوم المطلول فوق تربة فلسطين يزأر ليل نهار يدعو العرب إلى الثأر ليخطوا خاتمة مشرفة لمأساتهم القومية العظمى

إن ليل المأساة ينتظر الفجر ، وإنه لقريب ، وقد لاحت تباشيره بقيام الجمهورية العربية المتحدة ، ولئن كان (ابن غوريون) يعترف في (الكنيست) بأن اليهود اعتمدوا في إقامة إسرائيل على الجيش ٢,٥ في المائة و٩٧,٥ في المائة على السياسة ، فان الجمهورية العربية المتحدة تملك اليوم ـ بحمد الله ـ الجيش العربي العظيم الذي يمحو جيش اسرائيل ، كما تملك القائد السياسي الذي يلقف بدهائه كل باطل للسياسة الاسرائيلية فيشله ، ويوم يقود هذا القائد الناصر المظفر جيش العرب الى تلال حطين ويقذف بالغزاة المعتدين إلى البحر سيغنّي له الشعر العربي المعاصر

أجل أغاني المأساة وأروعها ، وتتحقق بذلك نبوءة الشاعر القديم ابن مطروح :

المسجد الأقصى له عادة ساءت فصارت مثلا سائرا
إذا غدا للكفر مستوطناً أن يبعث الله له ناصرا
فناصرٌ طهّره أولاً وناصرٌ طهره آخرا[١]

والسلام عليكم ١٩٦٠/١٢/٩

أهم مصادر البحث

١ ـ في شعر النكبة : للدكتور صالح الاشتر
٢ ـ أدب الحروب الصليبية : للدكتور عبد اللطيف حمزة
٣ ـ النكبة والبناء : للدكتور وليد قمحاوي
٤ ـ طبيعة الفن ومسئولية الفنان : للدكتور محمد النويهي
٥ الأدب الهادف : للأستاذ محمود تيمور
٦ ـ مقدمة ابن خلدون
٧ ـ تاريخ ابن الأثير
٨ ـ دواوين الشعراء الذين ذكرت أسماؤهم في البحث
٩ ـ مجلات : الثقافة العربية (عدد ممتاز عن فلسطين) والثقافة (الدمشقية) والآداب والأديب والعالم الاسلامي ومجلة العربي الخ ...

---

(١) ـ الناصر الأول هو صلاح الدين الأيوبي ، والناصر الآخر هو داود صاحب الكرك الملقب بالملك الناصر .

٣

أخطَارُ الإشعَاعَاتِ الذّريَّةِ (النّوَوِيّة)

للأستاذ مأمون الكناني

استاذ في قسم الفيزياء بكلية العلوم

سيداتي ، آنساتي ، سادتي .

موضوع محاضرتنا هذا المساء ، موضوع واسع ومتشعب ، لاتكفي ساعة واحدة لمعالجته معالجة كافية . وهو موضوع جديد ، وُلد مع العصر الذري ، وأدخلَ مفاهيم حديثةً دقيقة ، كما ادخل واحدات قياسية جديدة ، معقدة التعريف ، ليس من السهل على غير الاخصائيين ادراكُ مدلولاتها الحقيقية .

ولكن هذا لايعني انه ليس بالامكان اعطاء فكرة ولو بسيطة موجزة عن هذا الموضوع الجديد ، فمن حق الجمهور ان يتطلع الى مايدور حوله من مستحدثات ، وها انا ذا ملخص ، مع التبسيط ، أهم الأفكار المتعلقة بأخطار الاشعاعات الذرية ، معتمداً في تقديمها الى حضراتكم ، على وثائق المؤتمر الدولي الأول للذرة في خدمة السلام الذي انعقد في جنيف في شهر آب ١٩٥٥ ، ونشرت وثائقه بخمس لغات في ستةَ عشرَ مجلداً ، وعلى وثائق المؤتمر الدولي الثاني ، للذرة في خدمة السلام الذي انعقد في جنيف صيف عام ١٩٥٨ ، ونشرت وثائقه في اربعةٍ وثلاثين مجلداً ، وكذلك على تقارير اللجنة العلمية في هيئة الأمم المتحدة .

يمكن تقسيم موضوع اخطار الاشعاعات الذرية او النووية الى الفقرات التالية :

I — ماهي الأدلة التي تجعلنا نقنع بوجود خطر للاشعاعات ؟

II — ماهي الاشعاعات الذرية او النووية ؟

III — ماطبيعة اخطارها ؟

IV — ماهي العبارات القانونية المسموح بها .

V — اخطار الاشعاعات الذرية او النووية في أيام الحرب .

VI — اخطار الاشعاعات الذرية او النووية في ايام السلم .

I — ماهي الأدلة التي تجعلنا نقنع بوجود خطر للاشعاعات ؟

يتساءل الإنسان عن الدليل المقنع بوجود خطر للاشعاعات بوجه عام . لنتأمل بدءَ بدءٍ في أشعة الشمس ، التي يتعرض لها كل مخلوق منذ ولادته . فكلنا نعلم أن الشمس مفيدة ، وأن البيت الذي تدخله أشعة الشمس لايدخله الطبيب ، ولكننا نعلم أيضاً الى جانب ذلك ، أن ضربة الشمس خطرة قاتلة ، وتؤدي في كل سنة الى وفاة عدد لايستهان به من الحجاج ، او العمال الذين يشتغلون في الصحراء . ويتأتى خطر اشعة الشمس من وجود أشعة ماتحت الحمراء ومافوق البنفسجية في الاشعاعات الشمسية .

لنتأمل ثانياً في أشعة مافوق البنفسجية ، التي يستعملها الاطباء في المعالجة ، وهي أشعة غير مرئية ، طولُ موجتها اقصر من الإشعاعات الضوئية المرئية ، فنجد انها إذا استعملت باعتدال وبصورة تدريجية وباشراف طبيب مختص ، تنشط وظائف الجلد والدم والغدد ذات الافراز الداخلي والجملة العصبية وتولد الفيتامين (D) في الجسم فتساعد على نمو العظام ومحاربة الكُساح . وهي تستعمل في الصناعة لكشف الغش (كشف الأوراق النقدية المزورة مثلاً) . غير أن لها خصائصَ مخربةً ولذا تستعمل في التعقيم لقتل العفونات والجراثيم مع بذورها ، ومن هنا يتأتى ضررها ، إذا استعملت بصورة اعتباطية لاسيما إذا كانت شديدة

ودام استعمالها مدة طويلة ، وبصورة خاصة إذا كانت متطرفة لاقترابها من الأشعة السينية (أشعة رونتجن او أشعة X) التي يُعلم خطرها . ونذكر على سبيل المثال بعض اخطار الأشعة فوق البنفسجية الشائعة : فإذا اصابت بشرة الانسان مدة كافيـــة ، ظهر في البشرة ، بعد بضع ساعات ، عوارض لفحة الشمس المعلومة ، مما يوجب استعمال المراهم المسكنة ، وبالتكرار يحصل للبشرة المعرضة ، حروق عميقة قد تؤدي الى الأكزه ما ، (في الأيدي والجفون مثلاً) ، والى الإصابة بالشرى او الحمى القُراصية . وإذا اصابت العين تقلص الحدقة ، وتسبب بريق الجليدية ، (وهي عدسة العين) ، لأن هـذه تحول الأشعة فوق البنفسجية غير المرئية الى أشعة مرئيـة ، فيكون بريق الجليدية بمثابة الدفاع عن الطبقة الشبكية الحساسة في باطن العين . غير ان الجليدية تفقد خاصتها الدفاعية هذه ، إذا دام تأثير الاشعة فوق البنفسجية فيها ، مما يؤدي الى ارهاق البصر ، وحصول التهاب في الطبقة المنضمة والجفون ، يؤدي الى سيلان الدمع من العين . وربما اثرت الاشعة فوق البنفسجية في الطبقة القرنية ، اذا كانت من الاشعة المتطرفة القريبـة من اشعة رونجن . ومن الناس من لديهم فرط في الحساسية لاشعة فوق البنفسجية . وهذه الحساسية تختلف من شخص الى آخر ، وباختلاف العمر ، وأحياناً تتغير في الشخص الواحد ، من يوم الى آخر فيشعر هؤلاء بارتفـاع في الحرارة مساءً ، (كما هو الأمر في ضربة الشمس المعلومة) ، وبالتعب والانحطاط وفقدان الشهية ، او بغثيان ، او غثيان مقيىء (يعود غالبـاً الى الأوزون المتولد بقرب المصباح الزئبقي المولّد لأشعة مافوق البنفسجية) او بصداع او دوار وبالأرق ليلاً .

إن الاشعة الضوئية المرئية هي اشعة كهربائيـة مغناطيسية ، وكذلك اشعة مافوق البنفسجية هي اشعة كهربائية مغناطيسية ، ولكن طول موجتها اقصر من الاشعة المرئية . وقد لاحظنا الآن ازدياد خطر الاشعة عندما قَصُرَ

طولُ الموجة فيها. فلنأخذ الآن اشعةَ رونجن، او الاشعة السينية، اشعة (X)، وهي ايضاً اشعة كهربائية مغناطيسية، ولكن طولَ موجتها اقصر من طول موجة اشعة مافوق البنفسجية. فبالرغم من فوائدها العديدة في الصناعة والطب فان اخطارهـــا اشد واعمق اثراً من اخطار اشعة مافوق البنفسجية. وعندما اكتشفها رونجن Roentgen عام ١٨٩٥، لم يُحسب حسابٌ لأخطارهـا، ولم توضع لها قواعدُ وقائيةٌ، فكان من نتيجة ذلك، بعد ان انتشر استعمالها الطبي خلال الحرب العالمية الأولى، وقوعُ اصابات خطرة بسبب كثرة التعرض لها، أدى، في عام ١٩٢٢ وحده، الى وفاة مايقرب من مائة طبيب راديولوجي، علاوة على اصابة عدد كبير من المشتغلين بالاشعة السينية، من أطباء ومساعدين وممرضات، بعاهات مختلفة، بالصلع والعقم والعمى والأورام السرطانية الخبيثة.

يتبين لنا مما سبق، أن الاشعاعات يزداد خطرها كلما تقاصر طول موجتها، وإذا كبر طولُ الموجة قلّ الخطر. فالمدفأة التي في بيوتنا تنشر حولها أشعةً حرارية غير مرئية، وهي اشعة تدخل ضمن نطاق أشعة ما تحت الحمراء، الكهربائية المغناطيسية، وطول موجتها أكبرُ من طول موجة الأشعة الضوئية المرئية. ومع هذا أكثرنا تعرض لضربة المدفأة التي تسببُ الدوارَ أو الصداع ولكنها أقلّ خطراً بالطبع من ضربة الشمس، أو ضربة أشعة مافوق البنفسجية، أو ضربة أشعة رونجن. أما أمواجُ الراديو والتلفزيون التي تأتينا من محطات الإذاعة المنتشرة على كرة الأرض وتغمرنا من كل جانب ليلا نهاراً، فهي أشعةٌ كهربائية مغناطيسية أيضاً، ولكنها ذات طول موجة كبير جداً بالنسبة الى الاشعاعات المذكورة آنفاً، وحتى الآن لم يعرف لها خطر حقيقي، غيرُ الخطر الإذاعي على النفوس والعقول، وبعضهم ينسبُ اليها بعضَ أمراض العصر غير أن ذلك لا يخرج عن كونه فرضية أساسها العلمي مازال واهياً جداً.

ثم لما اكتُشِفَ النشاطُ الإشعاعي في أملاح اليورانيوم من قبل بيكرل

Becquerel عام ١٨٩٦ ، ومن بعده الراديوم ، والعناصرُ المشعةُ الطبيعيةُ الأخرى، طلع على الإنسان عهدٌ جديد ملّكه وسائلَ قويةً جداً للبحث العلمي، ولكنه عرّضه في الوقت نفسه ، لأخطار جديدة وهي أخطار الإشعاعات النووية (أي التي تنبعث من نويات العناصر المشعة) ، وأصبح الفيزيائيون والكيميائيون والاطباء، الذين يشتغلون في المواد المشعة، عرضةً لهذه الأخطار الجديدة . ثم ازداد شأن أخطار الاشعاعات النووية ، عندما تقدمت الفيزياءُ التجريبيةُ ، في القرن العشرين ، تقدماً أدى إلى الوصول إلى منابعَ جديدةٍ للاشعاعات النووية ، وهذه المنابعُ الجديدةُ هي العناصرُ المشعةُ الاصطناعيةُ ومسرعاتُ الجزئياتِ ذاتُ الطاقات العالية جداً ، والأبيال الذريةُ والمفعّلاتُ النووية .

وأكبر دليل على أخطار الاشعاعات الذرية أو النووية ، ما حدث للعلماء اليوغسلاف الستة، في ١٥ اكتوبر ١٩٥٨ ، في مركز الدراسات النووية في فينكا Vinca ، في يوغسلافيا . فقد تعرضوا لاشعاعات كاما (γ) والنترونات الصادرة من مفعّل ذري اثناء اجراء تجاربَ في البحث العلمي . فمات احدهم ، وأصيب الباقون بدوار وقيء شديدين، فنقلوا في اليوم الثاني إلى مؤسسة كوري في باريز ، وهنالك اجريت لهم اسعافات لم تجر إلا لأول مرة في تاريخ الطب الحديث ، وهو اجراء عملية نقلِ مخ العظم اليهم من متطوعين ، وهذه العملية أصعبُ بكثيرٍ من نقل الدم من شخص لآخر ؛ لأن المتطوعين يتألمون آلاماً فوق التصور بالرغم من تخديرهم . وقد نجحت العملية ، وصار بامكان الأعضاء المكونة للدم ، والتي خربتها الاشعاعات النووية ، التي تلقاها العلماء اليوغسلاف ، ان تقوم بوظائفها من جديد ، وشفي المرضى نهائياً ، وعادوا الى بلادهم ، ومن بينهم امرأة تزوجت وانجبت ولداً ، وكلهم الآن في صحة جيدة ، بفضل السرعة في اسعافهم ، وبفضل الطريقة الحديثة المتبعة في معالجتهم .

وأخيراً عندما اكتشف الانفصام النووي عام ١٩٣٩ ، وتطبيقاته في تفجير القنابل الذرية سنة ١٩٤٥ ، ازدادت أيضاً أخطار التعرض للإشعاعات النووية . وقد دلت الاحصاءات على أن القنبلتين الذريتين اللتين ألقيتا على مدينتي هيروشيما وناغازاكي في اليابان ، سببتا وفاة عدد كبير من الأهالي الذين نجوا من أخطار الانفجارات ، ولكنهم لم ينجوا من أخطار التعرض للإشعاعات النووية ، التي ظهرت آثارها القاتلة فيهم ، بعد بضع سنين ، من تاريخ الانفجار .

وفضلاً عن ذلك تلوّث الانفجارات النووية الوسطَ الذي تحدث فيه كما تلوّث جوّ كرة الأرض في مكان بعيد جداً عن مكان الانفجار . يُضاف الى ذلك مسألة تصريف الفضلات المشعة الصلبة والمائعة التي تنتج من الأبيال الذرية ، وازدياد استعمال الأشعة السينية والنظائر المشعة في الطب والصناعة والزراعة ، كل ذلك جعل التعرض للاشعاعات النووية وأخطارها ، مسألة لا تتعلق بفرد واحد أو مجموعة من الاخصائيين ، بل مسألة تهم سكانَ كرة الأرض بكاملها ، وخلقَ بالتالي مشاكل دولية ، فصار من الضروري دراسة مسألة الوقاية من أخطار الإشعاعات النووية دراسةً جدية ، على نطاق وطني ، في كل بلد من البلدان ، وعلى نطاق دولي تحت اشراف هيئة الأمم المتحدة . لذا قررت الجمعيةُ العامة للأمم المتحدة عام ١٩٥٥ تسجيل موضوع : « أخطار الاشعاعات الذرية » في جدول أعمال دورتها العاشرة . وبعد أن تداولت اللجنة الأولى في هذا الموضوع من ٣١ تشرين الأول (اكتوبر) عام ١٩٥٥ الى ١٠ تشرين الثاني (نوفمبر) عام ١٩٥٥ ، تبنت الهيئة العامة للأمم المتحدة ، في ٣ كانون الاول عام ١٩٥٥ القرار رقم ٩١٣ (X) الذي يقضي بتأليف لجنة علمية من ممثلي خمس عشرة دولة : هي الارجنتين واوستراليا وبلجيكا والبرازيل وكندا والجمهورية العربية المتحدة (مصر آنذاك) والولايات المتحدة الأمريكية وفرنسا والهند واليابان والمكسيك وانكلترا والسويد

وتشيكوسلوفاكيا والاتحاد السوفييتي. وقد حُددت مهمةُ هذه اللجنة، في الفقرة الثانية من قرار الجمعية العامة للأمم المتحدة، الذي ذكرته آنفاً وهي كما يلي :

أ) أن تتلقى وتجمعَ بصورة مفيدة من الدول الأعضاء في هيئة الأمم المتحدة أو من المؤسسات المختصة التقاريرَ المتعلقة بشدة الإشعاعات المشرّدة وبالنشاط الإشعاعي المحلي ، والتقاريرَ المتعلقة بالتجارب العلمية والمشاهدات التي تجرى حولَ تأثيرِ الاشعاعات المشرّدة على الإنسان وعلى الوسط الذي يعيش فيه ، أو التي ستُجرى من قِبَلِ المؤسسات العلمية الوطنية، او من قِبَلِ السلطات الحكومية.

ب) أن توصي بقواعد موحدة تتعلقُ بطرائق انتقاء النماذج المراد تحليلها ، وبالآلات الواجب استعمالُها، وبطرائق مقايسة الإشاعات في النماذج المذكورة .

ج) أن تجمع وتصنفَ بشكل موحّد مختلف التقارير الواردة اليها المتعلقة بشدة الاشعاعات الملحوظة .

د) أن تقوم بدراسات مقارنة لجميع التقارير الواردة اليها من الدول الأعضاء في سبيل تعيين قيمة كل تقرير ومدى فائدته لأعمال اللجنة .

ه) أن تقدم كل عام تقريراً عن أعمالها وأن تهيءَ خلاصةً عن جميع التقارير الواردة اليها والمتعلقة بشدة الإشعاعات وبتأثيرها على الانسان وعلى الوسط الذي يعيش فيه وبالتجارب الجارية والابحاث العلمية القائمة لمعرفة هذا التأثير .

و) أن ترسل، في كل مرة ترى ذلك مناسباً ، إلى السكرتير العام للأمم المتحدة ، جميع الوثائق والأرقام التي تراها ضروريةً للنشر والتعميم على الدول الأعضاء في منظمة الأمم المتحدة، أو على المؤسسات المختصة .

* * *

سيداتي آنساتي سادتي

هذه هي الادلة التمهيدية التي تجعلنا نقتنع بوجود خطر للاشعاعات الذرية او النووية . ولكن : ماهي الاشعاعات الذرية او النووية ؟

II . ـ ماهي الاشعاعات الذرية او النووية ؟

إن الاشعاعات التي اهتمت بها اللجنة العلمية المذكورة تشمل الاشعة السينية او أشعة رونجن (اشعة X) والنترونات والبروتونات ، والأشعة الكونية واشعاعات الفا (α) وبيتا (β) وكاما (γ) ، التي تنبعث من نوى العناصر المشعة.

فلنبحث إذن قليلاً في كل من هذه الاشعاعات على حدة ، ولنبدأ باشعاعات الفا (α) وبيتا (β) وكاما (γ) .

١ً ـ اشعة الفا (α) :

تتألف اشعة الفا (α) من جسيمات مشحونة كهربائياً بصورة ايجابية ، وهي نويات الهليوم ، وتنبعث من نوى بعض النظائر المشعة ، اثناء تفككها ، حاملة طاقة معينة ومميزة . وبالنظر الى ضعف سرعتها نسبياً ، والى كونها حاملة شحنات كهربائية ، فإنها تحدث تشريداً عظيماً كثيفاً على طول مسيرها ، اي تولد شوارد ايجابية وسلبية (أي ايونات) على طول طريقها . فيكون عمق تغلغلها ونفوذها في المادة وفي النسج الحية ، ضعيفاً . ولا يوجد عملياً اشعة الفا (α) تستطيع ان تنفذ اكثر من عشر المليمتر في اي نسج من النسج الحية .

٢ً ـ اشعة بيتا (β) :

تتألف من الكترونات تتحرك بسرع كبيرة جداً ، وتنبعث من نويات

بعض النظائر المشعة . وبالنظر الى كونها مشحونة كهربائياً فإن جسيمات بيتا β تشرّد المادة التي تجتازها تشريداً مباشراً . ويكون عمق تغلغلها فيها اكبر بكثير من نفوذية جسيمات الفا α ، ولكنها تُحدِث تشريداً اقل بكثير من تشريد جسيمات الفا α نظراً لتحركها بسرع كبيرة جداً . ولا يتجاوز الحد الأعظم لنفوذها في النسج الحية السنتمترين على الغالب ، ومن النادر جداً ان يصل هذا الحد الى ثماني سنتمترات .

٣ً ـ اشعة كاما (γ) :

هي اهتزازات كهربائية مغناطيسية تنبعث من نُوى بعض النظائر المشعة . وطاقتها تميز النظيرَ المشع الذي يصدرها . وبالنظر الى كونها ليست جسيمات مشحونة كهربائياً ، فانها تشرّد المادة تشريداً غير مباشر ، وذلك عن طريق طرد الكترونات سريعة جداً من المادة التي امتصتها . ثم تصرف طاقة هذه الالكترونات بتفاعلها مع الوسط الذي حدث فيه امتصاص اشعة كاما (γ). ولما كان امتصاص اشعة كاما (γ) الأولية ضعيفاً نسبياً صار من الممكن ان تتحرر الالكترونات على اعماق كبيرة في النسج الحية . فيصرفُ عندئذٍ كل الكترون طاقته المكتسبة على مسافة قصيرة تتراوح من مليمتر الى بضعة سنتمترات بحسب طاقته . ولا يمكن تحديد عمق معين لتغلغل اشعة كاما (γ) لأن هذه الأشعة تستطيع اجتياز اي ثخن من المادة ، ولكن شدتها تأخذ في التناقص شيئاً فشيئاً . وقد دلت التجارب على ان اشعة كاما (γ) ذات الطاقة الضعيفة اسهل امتصاصاً من اشعة كاما (γ) ذات الطاقة العالية وان المعادن الثقيلة اشد امتصاصاً لها من المعادن الخفيفة . اما اشعة كاما (γ) ذات الطاقة العالية جداً فإن امتصاصها يتوقف فحسب على قيمة الكتلة في واحدة السطح ، ولا يتوقف عملياً على طبيعة المادة الماصة .

٤ً ـ الاشعة السينية (اشعة X) او اشعة رونجن :

ولقد سبق الكلام عن بعض خصائصها وهي كما ذكرت اشعةٌ كهربائية

مغناطيسية . وينتج من ذلك ان تفاعلها مع المادة وتأثيرها على النسج الحية ، يماثلان تفاعل وتأثير اشعة كاما (γ) ، والفارق الوحيد بين اشعة رونجن واشعة كاما (γ) ان آلية اصدار اشعة رونجن تعود إلى حوادث ليست نووية وانما تجري خارج النواة . وتولد عمليا اشعة رونجن بابطاء حركة الكترونات سُرعت من قبل ، بتطبيق فرق في الكمون بين المصعد والمهبط في انبوب الأشعة . فطاقتها ، وكذا عمق تغلغلها في المادة ، يتوقفان اذن على فرق الكمون الكهربائي المطبق على الأنبوب . والأشعة السينية المستخدمة في الطب للتشخيص تكون عادة ذات طاقة ضعيفة ولذا يكون نفوذها في النسج الحية اقلّ بكثير من نفوذ اشعة كاما (γ) . ولكن يجب ان لاننسى انه من الممكن توليدُ اشعة سينية اشدّ نفوذاً من اي اشعة كاما (γ) تصدر عن اي نواة مشعة .

٥ً - النترونات :

تتركب النواة في كل ذرة مهما كانت طبيعتها من نترونات وبروتونات . فالنترونات إذن جسيمات تركب النواة بصورة طبيعية ، وهي معتدلة كهربائياً ، اي لاتحمل اي شحنة ، لا ايجابية ولا سلبية ، بعكس البروتونات التي هي ذات شحنة كهربائية ايجابية . وعندما تنفصم النواة اي تنفجر وتتفكك تتبعثر مركباتها البروتونات والنترونات هنا وهناك فيحدث مايقال له تدفق النترونات . ولما كانت النترونات غير مشحونة كهربائياً فإنها لاتستطيع تشريد المادة او النسج الحية تشريداً مباشراً . ويمكن قسم النترونات ، المنبعثة عن النويات المتفككة ، الى فصيلتين : النترونات السريعة والنترونات البطيئة .

تضيع النترونات السريعة طاقتها على الغالب بتصادمها مع نويات الذرات الخفيفة ، وبصورة خاصة مع نويات الهيدروجين التي ليست سوى بروتونات .

وعند تصادم النترون مع نواة الهيدروجين (البروتون) تتقهقر نواة الهيدروجين اي البروتون بتأثير الصدم وتتحرك بسرعة تختلف باختلاف شدة الصدمة التي تلقتها . ولكن نويات الهيدروجين اي البروتونات مشحونة كهربائياً بصورة ايجابية ، فتولد إذن شوارد على طول طريقها ، فتشرّد المادة والنسج الحية وتضيع بالتالي طاقتها التي جاءتها من اصطدامها بالنترونات . لذلك يقال إن النترونات تشرد المادة والنسج الحية تشريداً غير مباشر ، لأن هذا التشريد يحدث بوساطة البروتونات اي نويات الهيدروجين المصدومة . وكلنا نعلم ان الهيدروجين يدخل في تركيب اكثر المواد التي تحيط بنا ، كما يدخل في تركيب كل النسج الحية ، لأنه يدخل في تركيب الماء .

ولكن البروتونات المتصادمة مع النترونات اثقل بكثير من الالكترونات ، فسرعتها تكون إذن اقلّ بكثير من سرعة الالكترونات التي لها نفس الطاقة . لذلك يكون تشريدها اشدّ كثافةً من تشريد اشعة بيتا (β) ، او تشريد الالكترونات التي يطردها امتصاص اشعة رونجن او اشعة كاما (γ) . ثم أن تبادل الطاقة بالصدم بين النترونات السريعة والبروتونات المتقهقرة يمكن ان يجري في اعماق كبيرة من النسج الحية نظراً لقدرة تغلغل النترونات السريعة فيها بسبب قوة نفوذها غير المحدودة في النسج الحية كما هو الأمر في الأشعة السينية وأشعة كاما (γ) .

اما النترونات البطيئة فشأنها شأن النترونات السريعة ، الا أن تفاعلها مع المادة والنسج الحية يجري بآلية خاصة يقال لها تفاعلات نووية يكون من نتائجها انبعاث جزيئات مشحونة كهربائياً على الفور او صدور اشعة كاما (γ) . وتتكون بنتيجة هذه التفاعلات النووية نظائر او متماكنات يكون بعضها ذا فعالية اشعاعية . ويتشرد الوسط الذي تجري في داخله هذه التفاعلات النووية ، بوساطة الجزيئات المشحونة كهربائياً ، التي تنبعث من التفاعل النووي ، او

بوساطة اشعة (γ) الصادرة من هذا التفاعل ، كما ان الاشعاعات النووية التي تنبعث من النظائر المشعة المتكونة بنتيجة التفاعل تساهم بدورها في تشريد الوسط الذي حدث في جوفه التفاعل النووي.

٦ ـ الاشعة الكونية :

الأشعة الكونية اشد الاشعاعات النووية نفوذاً في المادة والنسج الحية وليس هنالك حدود لقدرة نفوذها، اذ يستطيع بعضها اختراق كرة الارض من قطب لآخر. ولا يُعلم منشؤها حتى الآن ، ودراستها قائمة على قدم وساق في جميع مخابر البحث العلمي في العالم. وكل مايعلم الآن عنها انها ذاتُ منشأ كوني، اي من خارج كرة الارض ، وانها تتولد من جزيئات ثقيلة تأتينا من النجوم والكواكب. ولها مركبة أولية إذا هاجمت الطبقات العليا من الجو امتصتها هذه الطبقات وانطلقت منها على الفور اشعاعات نووية مختلفة عظيمة النفوذ على هيئة حزم ولكل واحدة منها قدرة مشعّة خاصة بها وتميزها عن غيرها من الاشعاعات. وما الاقمار الاصطناعية والصواريخ الا وسائل علمية لدراسة هذه الاشعة الكونية. وقد دلت هذه الدراسة على ان شدة الاشعة الكونية تختلف باختلاف الارتفاع عن سطح كرة الارض، وباختلاف العرض الجغرافي ، فتتغير بتابعية الزمان والمكان. والبنايات الثخينة الجدران ، لا تضعف شدة الاشعة الكونية الا بمقدار يسير لا يذكر. ولحسن الحظ ان شدتها الطبيعية غيرُ خطرة على المخلوقات، ولوزادت هذه الشدةُ وتجاوزت العيارات القانونية لكفت وحدها لقتل اي مخلوق على كرة الارض. ويقول بعضهم إن فيها سرّ الحياة ، وإن المخلوقات إذا حرمت منها بطريقة من الطرق ماتت على الفور.

والآن بعد ان استعرضنا الاشعاعات الذرية او النووية لنتكلم عن طبيعة اخطارها.

فما طبيعة اخطار الاشعاعات الذرية او النووية ؟

III ــ طبيعة اخطار الاشعاعات الذرية او النووية.

إن الاشعاعات النووية الطبيعية تماثل تمـــام التماثل الاشعـاعات النووية الاصطناعية من حيث طبيعتها الفيزيائية ومدى تأثيرها الحيوي (البيولوجي) على الانسان الذي يتعرض لها. ومن الضروري ان يحسب حساب لكليهما عند دراسة افعـال الاشعاعات في الانسان وفي الوسط الذي يعيش فيـه في الحاضر والمستقبـــل.

وبالرغم من ان المعلومات الـــتي اصبحت في حوزتنـا في موضوع تأثير التعرض للاشعاعات النووية عديدةوهامة، مازال مجموع ثقافتنا في هذاالموضوع ضعيفاً وغيرَ كاف،ولا يمكن ان يقارن مثلاً بمجموع ثقافتنا في فيزياءالاشعاعات النووية ذاتِها او بمجموع تجاربنا الكثيرة في علم الحياة وعلم الأمراض.

ومع هذا يمكننا ان نقول إن الافعـــال الحيوية (البيولوجية) للتعرض لعيارات شديدة من الاشعاعاتالنووية اصبحت الآن معروفة لدينا بقـــدر كاف. ولكننا ما زلنا نجهل أوْ لا نعرف الا القليل عن أثر تعرض الانسان لدفعات متقطعة من الاشعاعات النووية الضعيفة الشدة، كما لا نعرف شيئاً عن مدى تأثيرات اشعاعات نووية ضعيفة الشدة وتغمرُ الانسان بشكل متواصل ليلاً نهاراً. وواقعُ الحال إن هـذه المعرفة الاخيرة هي الاســـاسية في نظرنا وجوهرية بالنسبة الى الجنس البشري وضرورية لثقافتنا العلمية بصورة مستعجلة لأن مستقبل الانسانية بكاملها منوط بها وذلك بسبب كثرة التجـارب الذرية وتزايد النشاط الاشعاعي في جوّ الكرة الارضية التي نعيش عليهـــا وسيعيش عليها ابناؤنا واحفادنا من بعدنا. ولذا اعارتها اللجنـــة العلمية المنبثقة عن هيئة

الامم المتحدة جانباً كبيراً من نشاطها واهتمامها في سبيل توسيع معلوماتنا حول هذا الموضوع الخطير الاخير.

ان التأثيرات الحيوية (البيولوجية) للاشعاعات النووية كلّها ناجمةٌ في جميع الاحوال عن حادثة فيزيائية اساسية واحدة هي انتقال الطاقة من الاشعاع المؤثر الى الجسم المتأثر او على الاصح الى الخلية المتأثرة. وكل اشعاع يجتاز الاجسام المادية او خلايا الجسم دون ان تنتقل طاقة ما منه اليها لا يؤثر ابداً في هذه الاجسام والخلايا.

ويتوقف التأثير الحيوي (البيولوجي) لنموذج معين من الاشعاعات على كمية الطاقة التي تمتصها النسج عندما تتعرض لهذه الاشعاعات. ولهذا يُعرَّف عيارُ التشعع بمقدار الطاقة الممتصّة. ومهما كان نوع الاشعاع يُصْرَفُ قسمٌ كبير من الطاقة التي تنتقل من الاشعاع الى النسج الحية في سبيل التشريد اي تكوين الشوارد (أو الايونات) الايجابية والسلبية في الخلايا التي تتركب منها النسج الحية. فانتقال الطاقة إذن من الاشعاع الى الخلية يكون بوساطة هذه الآلية الخاصة التي يقال لها حادثة التشريد (او التأيين). ويمكن اعتبار حادثة التشريد في الخلايا والنسج الحية، من الوجهة البيولوجية، مكافئةً لعملية تجريح وتخريب يحدث في الخلية والنسج الحية. فالخلايا المشرَّدة بالاشعاعات النووية هي خلايا مجروحة مصابة او مخربة ميتة.

ثم ان الاشعاعات النووية التي تتركب من جسيمات مشحونة ايجاباً أو سلباً تشرد مباشرة الاجسام المادية والنسج الحية التي تجتازها هذه الاشعاعات. اما الاشعاعات الاخرى فتشرد المادة والخلايا بصورة غير مباشرة وذلك بطردها جسيمات مشحونة تقوم بعملية التشريد. وهنالك علاقة بين الطاقة الممتصة والتشريد الكلي الذي يرافق امتصاص الطاقة في الخلايا والنسج. وهذه العلاقة تكاد تكون مستقلة عن طبيعة الاشعاع الحامل للطاقة وعن قيمة الطاقة التي

تحملها الجسيمات المشرّدة. ولهذا يُتخذ التشرد وسيلة لقياس مقدار التشعع أي التعرض للاشعاعات مهما كان نوعها. ويمكن تقسيم خطر الاشعاعات الذرية او النووية على الانسان الى قسمين : اخطار بدنية واخطار وراثية.

الأخطار البدنية : إذا تلقى البدن بكامله في بضع دقائق اشعاعات نووية يتجاوز عيارها (٦٠٠) رم Rem (الرم rem واحدة لقياس عيارات الأشعة النووية التي يمتصها بدن الإنسان او عضو من أعضاء جسمه) مات الإنسان حتما بعد بضعة أيام أو بضعة أسابيع . أما إذا تلقى عضو واحد من اعضاء الجسم هذا العيار من الاشعاعات النووية (اليد مثلاً) فإن الإنسان لايموت بل يصاب العضو وحده فتتولد الحروق الجلدية في اليد ومن بعدها الاكزه ما او السرطان. وإذا تعرض البدن للعيار القاتل من الاشعاعات النووية (٦٠٠ ر م rem) وبدلاً من ان يتلقاه دفعة واحدة ، تلقاه على دفعات متقطعة متوزعة على اشهر أو سنين فإنه لايموت إذا لم يتلق شيئاً من الاشعاعات النووية بين دفعة وأخرى. ذلك لأن الجسم من طبيعته تعويضُ الخسائر واصلاحُ الجروح وترميمُ الخلايا المخرّبة ، وهي خاصة دفاعية فيه وهبتها له الطبيعة ليقاوم خطر الاشعاعات التي يتعرض لها بصورة طبيعية . ولكي يقاوم الجسم خطر الاشعاعات النووية يجب ان نفسح له المجال أي يجب ان نقطع عنه هذه الإشعاعات ليقوم بعمليات ترميم الخلايا المصابة . ولكن بالرغم من قدرته على الترميم فإن الاشعاعات التي تلقاها على دفعات متفرقة متقطعة لاتضيع سدى بل تتراكم مع الزمن. ويختفي مفعولها اول الأمر وقد يدوم اختفاؤه عشرات السنين ثم يظهر فجأة مخرباً الاعضاء المكونة للدم فيولد فقر الدم او سرطان الدم ويضعف مقاومة الجسم للجراثيم والأمراض ويولد الأورام السرطانية الخبيثة ويقصر الحياة .

أما إذا تعرض عضو واحد من الجسم إلى دفعات متقطعة من الأشعة النووية حصل فيه سرطان لامحالة (سرطان الجلد مثلاً). وقد دلت الاحصاءات

على أن بعض الحريصين على مراقبة صحتهم اصيبوا بسرطان الصدر لكثرة ماتعرضوا لأشعة رونجن عند ذهابهم إلى الأطباء لفحصهم وتنظيرهم بالأشعة السينية خوفاً من مرض السل . كما ان العمال والعاملات في معامل الساعات التي ارقامها تضيء ليلاً بسبب وجود الراديوم في الدهان الذي يستعمل في كتابة ارقام هذه الساعات كانوا يبتلعون كميات قليلة من الدهان لأنهم كانوا يدققون ريش الفرشاة بامراره بين الشفتين لكي يتمكنوا من دهن الحروف والأرقام الدقيقة . واول الأمر كانت لاتظهر عليهم عوارض مرضية ، الا ان املاح الراديوم التي كانوا يبتلعونها تدريجاً تراكمت في هيكلهم العظمي يوماً بعد يوم واخذت اشعاعات الراديوم النووية تهاجم مخ العظم فصاروا يصابون بعد سنين بفقر الدم واكثرهم اصيبوا بسرطان الفم أو البلعوم أو المعدة أو سرطان العظم أو سرطان الدم وماتوا قبل اوانهم. وقد دلت الاحصاءات في اليابان على ان نسبة المصابين بسرطان الدم من بين سكان مدينتي هيروشيما وناغازاكي الذين نجوا من خطر القنابل الذرية هي اعلى بكثير من نسبة المصابين بسرطان الدم من غيرهم من السكان الذين لم يتعرضوا ابداً لاشعاعات القنابل الذرية . وقد ظهرت اعراض سرطان الدم فيهم بعد مرور عشر سنوات من تاريخ الانفجارات الذرية . وقبل ذلك كانوا يظهرون بصحة جيدة . فيستبان مما تقدم ان خطر الاشعاعات النووية لايظهر في البدن فوراً وبعد تلقي الاشعاعات بل يختفي مدة طويلة او قصيرة لايعلم مداها حتى الآن ثم يظهر فجأة ولو بعد عشرات السنين ويقوم باعماله التخريبية التي اتينا على ذكرها آنفاً .

الاخطار الوراثية : تظهر اخطار الاشعاعات النووية الوراثية في ذرية الإنسان الذي يتعرض لها. ومع ان هذا الموضوع لم تستكمل دراسته بعد ، لقلة الزمن الذي انقضى على المتعرضين وعلى ذريتهم، فإن الدراسات التي اجريت على الحيوانات التي تركيبها يشبه تركيب الإنسان اثبتت بشكل لايدع مجالاً للشك وجودَ اثرٍ وراثي للاشعاعات النووية .

والخطر الوراثي يكون بانجاب اطفال مشوهين او فيهم عاهات جسمانية او عقلية او بانجاب عجائب في اشكالها وعدد اعضائها. واحتمال انجاب هذه الذرية الرديئة عظيم في حين ان انجاب اولاد عباقرة ممكن ولكن بعيد الاحتمال. فيستبان مما تقدم ان خطر الاشعاعات النووية الوراثي خطر يهدد مستقبل الانسانية بكاملها. فما هي اذن العيارات القانونية للاشعاعات الذرية او النووية المسموح بها والتي لايجوز تجاوزها ؟

١٧ . — العيارات القانونية المسموح بها.

لكي يكون الإنسان في مأمن من خطر الاشعاعات النووية البدنية او الوراثية فإنه يجب ان لايتلقى من الاشعة السينية (اشعة X) او اشعة كاما (γ) اكثر من (٧,٥) ميلي رونجن في الساعة الواحدة اي ستين ميلي رونجن في النهار الواحد (٨ ساعات عمل) شريطة ان لايتجاوز مايتلقاه في الاسبوع الواحد من اشعة X او γ (٣٠٠) ميلي رونجن (٥ ايام عمل في الاسبوع). وان لايتلقى من اشعة β اكثر من العيار المكافيء لهذا القدر من حيث الطاقة وهو يساوي (٥٠٠) ميلي رم في الاسبوع الواحد. ويستحسن دائماً ان لايتناول الانسان الحد الأعظم من القسط اليومي وأن يحاول تناول أقل مايمكن من العيارات الاشعاعية . اما اشعة الفا (α) فخطرها الخارجي ضعيف للغاية لأن الطبقات السطحية من الجلد تمتصها وخطرها الحقيقي يكون في دخولها الى جوف الجسم عن طريق الفم أو الجروح أو عن طريق التنفس. فينبغي تجنب ذلك. وعلى الانسان أخيراً أن لايتلقى شيئاً من النترونات السريعة أو البطيئة لأنها خطرة جداً مهما كانت عياراتها ضعيفة.

ثم ان خطر التلوث الداخلي بالاشعاعات، أي دخول المواد المشعة الى جوف الانسان ، يتوقف في الحالة العامة على مدة دور الجسم المشع الداخل . ومن

الضروري الانتباه جداً إلى خطورة العناصر المشعة ذات الدور الطويل ، والتي هي سهلة الامتصاص في جسم الانسان ، لأنها تتمركز عندئذ في أعضائه الداخلية ولا تنفك اشعاعاتها تهاجم من داخله طيلة حياته . ونشير بصورة خاصة الى خطورة العناصر المشعة التالية :

$^{14}C, ^{45}Ca, ^{55}Fe, ^{60}Co, ^{89}Sr, ^{90}Sr, ^{91}Y\ ^{95}Zr, ^{144}Ce, ^{147}Nd, ^{210}Bi, ^{226}Ra.$

كما ان العناصر المشعة ذات الدور القصير لا تقل عنها خطورة ، إذا كانت سهلة الامتصاص من قبل عضو من اعضاء الانسان (ومثال ذلك ^{131}I الذي تمتصه بسهولة الغدة الدرقية) او إذا كان جسم الانسان لا يستطيع طرحها والخلاص منها إلا ببطء شديد . فمن أجل هذه العناصر تعتبر الكميات التي تتجاوز عشر الميلي كوري خطرة تستلزم اتخاذ احتياطات خاصة للوقاية في جميع المخابر التي تستعملها . اما النظائر التي تشع اشعاعات بيتا (β) بدون اشعاعات كاما (γ) والتي دورها قصير ويطرحها الجسم بسهولة فإن كمية منها قدرها ميلي كوري واحد لا تزيد في خطورتها عند استعمالها عن خطورة اكثر المواد الكيميائية الشائعة الاستعمال في الأدوية التي يتناولها المرضى . وأخيراً فيما يتعلق بالنظائر التي تشع اشعاعات كاما (γ) فإن الكميات التي تتجاوز عشر الميلي كوري تعتبر خطرة وتستلزم اتخاذ الاحتياطات الوقائية المناسبة .

٧ . ـــ اخطار الاشعاعات الذرية أو النووية في ايام الحرب .

تتوزع الطاقة الانفجارية عند تفجير قنبلة ذرية على ثلاثة اشكال :

ـ طاقة ميكانيكية وتسبب التخريب وما يتبعه من تقتيل وتجريح .
ـ طاقة حرارية وتسبب الحروق في الأجساد والحرائق في الأشياء .
ـ طاقة اشعاعية وتسبب الأمراض والآفات الاشعاعية واخطارها موضوع محاضرتنا هذه .

وقد دلت الاحصاءات على ان نسبة المجرّحين تبلغ ٥٠٪ ، ونسبة المحروقين تبلغ ٦٠٪ ، ونسبة المشععين تبلغ ٤٠٪ . ويلاحظ ان مجموع هذه النسب يتجاوز ١٠٠٪ لأن ضحية من الضحايا تكون على الغالب فريسة لعدة اصابات مختلفة وبآن واحد .

ومن الضروري التمييز بين اشعاع كرة النار التي تعقب انفجار القنبلة الذرية وبين الاشعاعات النووية التي ينشرها هذا الانفجار . فإشعاع كرة النار الملتهبة هي التي تسبب الحروق والحرائق ، في حين ان الأشعاعات النووية تسبب الأمراض والآفات الاشعاعية .

وعندما تنفجر القنبلة تتفكك المادة المتفجرة التي تكون من الأورانيوم او من البلوتنيوم وتولد جزيئات تصدر اشعاعات مماثلة للاشعاعات التي يصدرها الراديوم ويقال لهذه الجزيئات **نواتج اشعاعية** . ويمكن القول ان الاشعاعات التي تنبعث عن الانفجار النووي على نوعين **الأول** تكون فيه الاشعاعات على هيئة جسيمات مكهربة او معتدلة كهربائياً ، ويدخل في هذا النوع اشعة (α) واشعة (β) ، وتدفق النترونات ، وكلها تتحرك بسرع كبيرة جداً .

والثاني تكون فيه الاشعاعات اهتزازات كهربائية مغناطيسية ، ويدخل في هذا النوع الاشعة السينية او اشعة X او ايضاً اشعة رونجن وكذلك اشعة كاما (γ) . وهذه الاشعة الكهربائية المغناطيسية تسير بسرعة النور .

وفيما يتعلق بالنشاط الإشعاعي الذي يتلو انفجار القنبلة الذرية ، من الضروري التمييز بين حالتين من حالات الانفجار الذري :

الحالة الاولى : تكون عندما تلامس كرة النار الأرض .

الحالة الثانية : تكون عندما لاتلامس كرة النار الأرض . ففي هذه

الحالة الثانية ترتفع النواتج الاشعاعية في طبقات الجو ، وكلما تصاعدت وابتعدت عن الارض يقل هجوم الاشعاعات النووية على الارض في مكان الانفجار . وبعد دقيقة واحدة من هذا الانفجار الذري في الهواء يزول كل خطر من الاشعاعات النووية ، ويمكن (من الناحية الاشعاعية فقط) أن يرفع حظر التجول في مكان الانفجار بدون اي خطر او اي محذور .

وعلى العكس ، عندما تلامس كرة النار الأرض او الماء ، تبقى النواتج الاشعاعية في المكان ، وتصبح منطقة الانفجار ملوثة ومن الخطر الكبير التجول فيها.

فيستبان مما تقدم انه لابد من التمييز بين نوعين من الانفجارات الذرية وذلك من الوجهة الاشعاعية والنشاط الاشعاعي : فهناك انفجار ذري غير ملوّث (ويعبر عنه بعضهم بقوله قنبلة ذرية نظيفة) وهنالك انفجار ذري ملوّث .

١ — الانفجار الذري غير الملوّث او النظيف.

يمكن اعتبار الاشعاعات التي تنبعث عن القنبلة الذرية النظيفة بعد انفجارها بدقيقة واحدة كأنها تتألف من عدد كبير من جزيئات متناهية في الدقة تسير بسرع كبيرة جداً. فتتساقط هذه القذائف اللامتناهية في الصغر على الاشخاص الذين يعترضون طريق هذه الاشعاعات. وهذه الاشعاعات تجتاز الجسم البشري وتنفذ منه بكل سهولة ولكن عند اجتيازها تخرب أو تجرح النسج الحية التي اعترضت طريقها. غير ان اعضاء الجسم البشري ليست كلُّها متساويةَ الحساسية بالنسبة الى كل هذه الاشعاعات المختلفة. فهنالك اربعةُ اعضاء رئيسية شديدة الحساسية بالاشعاعات النووية . الاعضاء الاربعة هي : الاعضاء المكونة للدم، الانبوب الهضمي ، الجلد ، والغدد التناسلية.

الأعضاء المكونة للدم — هي مخ العظم والعقد البلغمية . ووظيفتها صنع الكريات الحمراء والكريات البيضاء واللويحات ، ووظائفها كما يلي :

أ) الكريات الحمراء تثبت الاوكسجين وهي في الرئتين ثم تنقله بعد ذلك الى النسج الحيوية ، كما يوزع الكرسون الطعام على الزبائن .

ب) الكريات البيضاء من وظائفها الأساسية اصطياد الجراثيم التي يمكن أن تدخل إلى جسم الانسان ، فتقوم بوظيفة دفاعية عن الجسم كما يدافع الجيش عن البلاد .

ج) اللويحات وهي التي تمكّن الدم أن يتخثر وتساعد على ايقاف النزيف .

فإذا أصيبت الأعضاء المكونة لعناصر الدم أو تخربت بالاشعاعات الذرية :

أ) قلّت الكريات الحمراء ، فيحدث في الجسم فقر في الدم مع جميع نتائجه المعروفة ؛

ب) قلّت الكريات البيضاء فتضعف مقاومة الجسم للجراثيم فتحدث الانتانات وتشتعل الحمى ؛

ج) قلّت اللويحات فيؤدي ذلك إلى حدوث اضطراب في تخثر الدم ، وتكون نتيجة ذلك حدوث النزيف . فتنزف الضحايا من كل مكان : من الفم ، والأنف ، ومن الرئتين (بصق الدم) ومن المعدة (قيء الدم) ، ومن الامعاء (الاسهالات الدموية) وهلم جراً . وهذا النزيف من كل مكان يزيد بالطبع في حدة مرض فقر الدم .

الانبوب الهضمي – تتمركز الآفات الشعاعية على طول انبوب الهضم ، من الفم إلى الشرج . وهذه الآفات عبارة عن قرحات تنتشر بصورة خاصة على جدار المعدة والأمعاء . وهذه القرحات تكون عندئذ أبواباً مفتوحة لدخول الجراثيم التي لا يحصيها الاحصاء في انبوب الهضم عادة وفي الحالة الطبيعية . فتتولد الإنتانات بسرعة كبيرة لأن الكريات البيضاء المدافعة تكون

قد ضعفت وتلاشت ولم تعد بالتالي قادرة على محاربة الجراثيم المهاجمة للجسم باستمرار . وتبدو الاضطرابات الهضمية على هيئة غثيان وقيء ، وفقدان تام للشهية ، واسهالات غالباً ما تكون دموية .

الجلد – يظهر تأثر الجلد من الاشعاعات الذرية في أول أمره وقبل كل شيء بتساقط الشعر . ويبدأ شعر الرأس بالتساقط عادة بعد مضي خمسة عشر يوماً على التعرض للاشعاعات النووية ويستمر تساقط الشعر مدة اسبوعين أو ثلاثة ثم يتوقف . وبعد ذلك بشهرين يبدأ الشعر بالنمو من جديد . ثم بعد ثلاثة أشهر يتكامل نمو الشعر وتعود هيئته وكثافته إلى الحالة البدائية قبل الاصابة .

الغدد التناسلية – إن اصابة الخصية عند الرجل تسبب له العقم . ولكن هذا العقم موقت إذ تعود اليه القدرة على الالقاح والاخصاب بعد مضي بضعة أشهر . وينبغي ان أشير هنا إلى أن الرجل إذا أصيب بالعقم بسبب تعرضه للاشعاعات النووية فان ذلك لا يضعف فيه شهوته ولا قوة الباه ، بل يحافظ على رجولته في معاشرة المرأة ، تماماً كما كان قبل اصابته بالعقم ، فلا يصاب إذن بالعُنَّة وكل ما هنالك أنه لا ينجب أطفالاً .

كذلك تصاب المرأة المتعرضة للاشعاعات النووية بالعقم كالرجل تماماً وهذا العقم موقت أيضاً لا يدوم طويلا . إلا أنه يحدث عند المرأة اضطراب في عادة الشهر ويتوقف الطمث وتنتابها هبات الحرارة . ولكن كل هذه الأعراض موقتة لا تدوم اكثر من بضعة أشهر يعود بعدها كل شيء إلى حالته الطبيعية .

أما المرأة الحامل فتجهض إذا تعرضت للاشعاعات النووية في الحالة العامة .

والرجال والنساء الذين يستعيدون قدرتهم على انجاب الأطفال بعد اصابتهم بعقم الإشعاعات النووية لا يعرف مصير أولادهم . ويظهر في الوقت الحاضر أن أولادهم يكونون بحالة طبيعية على الغالب . إلا أن هذا الموضوع ما زال

قيد الدرس ، ولا يمكن الحكم في الوقت الحاضر على مصير ذرية المصاب ،لأن هذه الدراسة تتطلب مرور الزمان لمعرفة النتائج بصورة واضحة . ويشير بعض المشتغلين إلى زيادة احتمال ولادة الأعاجيب أو الأطفال الموسومين بعاهات مختلفة في ذرية المصابين بعقم الاشعاعات النووية .

٢ ـ الانفجار الذري الملوّث.

عندما تلامس كرة النار الأرض أو الماء بعد انفجار القنبلة الذرية يتساقط معظم الغبار الذري على أرض المكان الذي حدث فيه الانفجار وينتشر قسم ضعيف منه في طبقات الجو العليا لذلك في هذه الحالة يتلوث كل شيء في مكان الانفجار : الأرض والمزروعات والأبنية والأدوات ، المراكب ، والمرافيء والمنشئات المختلفة .

ولا يمكن تمييز الغبار المشع عن الغبار العادي غير المشع بالعين المجردة . فالغبار الذري هو غبار مشع لاشعاعات نووية ويحتوي على مواد مشعة مختلفة منها ما يتلاشى اشعاعه بعد زمن قصير ومنها مايدوم اشعاعه النووي مدة طويلة (أشهرا مثلاً أو سنوات) والأشخاص الذين يتجولون في المناطق الملوثة يتعرضون إلى خطر مضاعف :

١ً) **خطر التشعع الخارجي** : وينشأ عن صدور اشعاعات نووية نفاذة تجتاز الملابس وتصيب الأعضاء الشديدة الحساسية للاشعاعات النووية (مخ العظم ، الجلد ، انبوب الهضم ، الغدد التناسلية)

٢ً) **خطر التشعع الداخلي** : ويحدث عندما تدخل النواتج المشعة إلى جسم الانسان إما عن طريق الهضم بتناول الأطعمة والمشروبات الملوّثة ، وإما عن طريق التنفس باستنشاق الهواء المحتوي على غبار مشع ، وإما عن طريق الجروح أو الحروق الخ ... وبعد أن يدخل إلى الجسم يتمركز كل عنصر

مشع في عضو خاص به ،ويكون الهيكلُ العظمي أكثرها اصابة على الغالب. ولا يستطيع جسم الإنسان أن يطرح بعض العناصر المشعة الا ببطء شديد . وبعضُ العناصر كالسترنسيوم (٩٠) مثلاً اذا دخل بقي في الجسم طيلة الحياة

قلت إن العناصر المشعة الداخلة الى الجسم ترجح على الغالب التمركز في الهيكل العظمي . فتأخذ الاشعاعات النووية المنبعثة عنها في مهاجمة مخ العظم باستمرار ليلاً نهاراً . فينتج من ذلك اصابة مخ العظم ، وتظهر أعراض اصابة الأعضاء المكونة للدم التي مرّ ذكرها (تقل الكريات الحمراء وتقل الكريات البيضاء الخ ...) .

وهنالك فِرَقٌ للنجدة تضطر بحكم عملها الى التجول في الأماكن الملوثة . ولكنها تكون مجهزة بأجهزة الوقاية من الاشعاعات النووية (جزمات وكفوف واقنعة وألبسة واقية الخ ...) كما يكون لدى أفراد فرقة النجدة ، علاوة على ذلك، أجهزةٌ تساعدهم على كشف وجود الاشعاعات النووية ،وعلى معرفة شدتها ، وما اذا كانت هذه الشدة تتجاوز العيارات القانونية المسموح بها أم لا .

واليكم بعض النصائح الوقائية في حالة حدوث انفجار ذري.

في حالة تلقي اوسماع إشارة خطر الانفجار الذري، من الضروري أن يسرع الإنسان إلى أقرب ملجأ منه . وهذه الملاجىء تحتوي على جميع الشروط اللازمة والكافية للوقاية من أخطار الاشعاعات الذرية .

اما اذا لم يتلق الانسان ، او لم يسمع اشارة الخطر ، وفوجىء برؤية بريق مفاجىء وهو بريق انفجار قنبلة ذرية بعيدة عنه نسبياً ، وكان مثلاً في الشارع يجب عليه ان يركض ويلتجأ الى زاوية ما ، او مدخلِ بناية او أن يلتصق

بجدار، كل ذلك لحماية نفسه من شظايا الانفجار . وإذا وجَدَ المرء نفسه في مكان خال من البنايات والجدران يجب عليه أن ينبطح أرضاً، ويستحسن أن يكون ذلك في حفرة أو خندق . وإذا كان الانسان في داره ، عليه ان يختبىء تحت السرير أو تحت منضدة لأنها تقيه بقدر الإمكان من الشظايا وإذا تهدم البيت فانها تكون قادرة على وقايته من تساقط الأحجار على رأسه بسبب قدرة تحملها لأثقال كبيرة ، منتظراً فرقة النجدة والاسعاف . وفي جميع الأحوال تجب وقاية الأجزاء العارية المكشوفة من الجسم من خطر الاشعاع الحراري الذي ينتشر الى مسافات بعيدة من مكان الانفجار وبسبب الحروق في هذه الأجزاء العارية . فيستحسن أن يدير المرء ظهره الى البريق المفاجىء أو أن ينام على الأرض مخفياً وجهه تحت كتفه وذراعه ، واضعاً يديه تحت جسمه .

وإذا كان الانفجار الذري ملوّثاً ، على الانسان أن يلجأ الى ملجأ تحت الارض او الى قبو بمجرد رؤيته الغبار يتساقط أولاً بأول . وعليه أن يبقى في الملجأ الى أن يتلقى إشارة الخروج من المصلحة المختصة . وبقاء الانسان في الملجأ في هذه الحال قد يكون طويلاً ولذا ينبغي تجهيزه بكل مايلزم من ماء وغذاء وأغطية صوفية الخ . .

أما الآلات والأدوات التي تتلوث بالمواد المشعة فتكون خطراً على أصحابها أو مستعمليها ولذا يجب تطهيرها . وهناك ثلاثة طرق لتخفيف هذا الخطر :

— إما بدفن الآلات والأدوات في أعماق الأرض أو أعماق البحر ، وهذا مافعلته فرنسا مؤخراً عندما دفنت في مياهها الاقليمية في البحر المتوسط الفضلات المشعة الناتجة من مراكزها الذرية والآلات والأدوات التي يستحيل تطهيرها .

— وإما بعزل الآلات والأدوات في مكان بعيد عن السكان الى أن يتناقص نشاطها الاشعاعي أو يتلاشى عملياً .

— واما بتطهير الآلات والأدوات ،إن كان ذلك ممكناً ، بإرسالها الى مصلحة التطهير التي يوجد منها في كل مركز ذري . وهذه المصلحة توفر مبالغ ضخمة جداً سنوياً على المركز بتطهيرها الآلات والأدوات وإعادتها الى مكان عملها بدلاً من دفنها. ولكن مع الأسف ليست عملية التطهير هذه ممكنة دائماً وفي كثير من الأحيان يضطر الى الاستغناء عن الآلة او الأداة وشراء أو صنع غيرها لتحل محلها .

وفي مصلحة التطهير ينظر في حالتين :

الحالة الاولى : إذا كانت الآلات والأدوات ملوثة تلويثاً سطحياً خفيفاً فيكفي غسلها عدة مرات ودلكها بالفرشاة وتنظيفها في الخلاء .

والحالة الثانية : إذا كانت الآلات والأدوات ملوثة تلويثاً سطحياً عميقاً، وجب اللجوء الى إزالة الطبقات السطحية الملوثة فيها ويكون ذلك إما بطرائق فيزيائية (استعمال فرشاة معدنية ، او آلة قاشطة ، او استخدام طريقة الإئتكال بواسطة نافورة قوية من الرمل الناعم الرطب) وإما بطرائق كيميائية باستخدام محاليل ممددة من الحموض أو القلويات او غير ذلك . واذا كانت الآلة أو الأداة سريعة العطب يلجأ الى طريقة كيميائية تقوم إما على تكوين املاح معقدة قابلة للإنحلال في الماء فتجر معها المواد المشعة ويستخدم محلول سترات الصودا بكثرة لهذا الغرض، وإما تقوم على المبادلة الشاردية وتكوين المعلقات بواسطة المبللات والمطهرات .

وإذا تلوثت الطبقات السطحية من جلد الانسان بالمواد المشعة فأبسط طريقة للخلاص منها التغسيل بالماء والصابون مع الدلك بالفرشاة عدة مرات .

وإذا تلوثت الثياب والملابس فتغسل عدة مرات وبعناية فائقة بقدر

مايكون تلوثها شديداً . واستعمال حمض الليمون يسهل انجرار المواد المشعة بماء الغسيل وتخليص الثياب والملابس منها دون أن يؤذيها .

واذا وجدت مواد غذائية في المنطقة الملوثة اشعاعياً وجب اعتبارها ملوثة والامتناع بتاتاً عن تناولها مالم يثبت فحصها عكس ذلك . ومن البديهي ان تتلوث المواد الغذائية المكشوفة بالغبار الذري . واذا لم تكن مكشوفة بل محفوظة فإنها يمكن أن تكون قد أصبحت هي ذاتها مشعة بفضل تأثير الاشعاعات النووية التي تكون قد هاجمتها فجعلت فيها ملح الطعام مثلاً مشعاً إشعاعاً اصطناعياً . ولايجوز أبداً في هذه الحالة تناولها او استهلاكها. فالمواد الغذائية المكشوفة يستحيل تطهيرها ولابد من الاستغناء عنها بالمرة . والمواد الغذائية المحفوظة يمكن الاستفادة منها بعد أن يثبت فحصها فحصاً دقيقاً زوال كل نشاط اشعاعي فيها. ومن المهم ان لاتلوث هذه المواد المحفوظة عند فتحها في سبيل الاستفادة منها .

هذا كل مايمكن ان نقوله هنا في مجال اخطار الاشعاعات الذرية او النووية في أيام الحرب .

فلننتقل الآن الى الكلام عن أخطار الإشعاعات الذرية او النووية في أيام السلم . ويمكن تقسيمها الى قسمين :

القسم الاول : اخطار الاشعاعات الذرية او النووية من الناحية المهنية او المسلكية .

القسم الثاني : أخطار الاشعاعات الذرية او النووية التي يتعرض لها جمهور الشعب في أيام السلم .

VI ــ اخطار الاشعاعات الذرية او النووية في أيام السلم

القسم الأول ـ اخطار الاشعاعات من الناحية الملكية والمهنية .

يتعرض المشتغلون بالمواد المشعة لخطر الاشعاعات عن طريقين يجب التمييز بينهما عند تنظيم قضايا مراقبة الاشعاعات وعند اتخاذ التدابير الوقائية ضد أخطارها :

الطريق الأول : عندما تهاجم الاشعاعات الجسم من خارجه وعن بعد .

الطريق الثاني : عندما تهاجمه من داخله أو من على سطحه ويقال في هذه الحالة انه حصل تلوث اشعاعي .

يتأتى التشعع الخارجي من منابع مشعة بعيدة عن الجسم الذي يتعرض عندئذٍ للاشعاعات التي تصدرها هذه المنابع ، وتختلف في طبيعتها ، ويجب أن تكون طاقتها كافية حتى تستطيع الوصول الى الجسم . هذه الاشعاعات هي اشعة رونجن (أشعة X) ، وأشعة كاما γ ، وأشعة بيتا β ، والنترونات .

ويتأتى التلوث الاشعاعي من النظائر المشعة التي تصل الى جسم الانسان فتلامسه او تدخل فيه لسبب من الأسباب . والتلوث الاشعاعي على نوعين : **تلوث خارجي جلدي** ، لا تتعدى فيه النظائر المشعة طبقة الجلد وبشرة البدن السطحية ، **وتلوث داخلي** ، إذا دخلت النظائر المشعة الى جوف الجسم عن طريق التنفس مثلاً ، او عن طريق جهاز الهضم ، او عن طريق الدم ، او عن طريق آخر .

كذلك يمكن قسم التشعع بوجه عام الى قسمين : **الأول** ، هو **التشعع الطبيعي** الداخلي والخارجي ، الذي يتعرض له كل انسان ولو لم يكن يشتغل بالمواد المشعة ، ويتأتى من المحيط الذي يعيش فيه الانسان ومن طريقة معيشته

فيه . والثاني هو التشعع الداخلي والخارجي المسلكي الذي يتعرض له كل مشتغل بالمواد المشعة بحكم مهنته .

فما هو التشعع الطبيعي ؟

إن الانسان يتعرض في كل زمان ومكان الى تشعع خارجي طبيعي والى تشعع داخلي ، او تلوث اشعاعي ، ناجمين عن النشاط الاشعاعي الطبيعي للوسط الذي يعيش فيه .

ويتأتى هذا التشعع الطبيعي:

اولاً ـ من الأشعة الكونية التي تغمرنا من كل جانب وتغمر كرة الأرض.

ثانياً ـ من اشعة (γ) المنبعثة من بعض الاتربة والصخور المشعة ومن مواد البناء وكذلك من نتائج تفكك غاز الرادون في المعلقات الهوائية .

ويتأتى التلوث الإشعاعي الطبيعي :

ـ من املاح الراديوم في مياه الشرب ،

ـ ومن غازي الرادون والطورون الموجودين في الهواء فيدخلان معه الى الرئتين مع نواتج تفككهما المشعة التي يحملها الغبار الى الرئتين ويكون من نتيجة ذلك انحلالهما في الدم والنسج الحيوية .

ـ كذلك من النظيرين المشعين وهما البوتاسيوم (٤٠) ^{40}K ، والفحم (١٤) ^{14}C اللذين هما مكونان طبيعيان لجسم الانسان ، ويتجددان باستمرار عن طريق الأغذية .

ـ واخيرا من عنصري الراديوم والطريوم المترسبين في العظام وقد دخلا الى الجسم عن طريق المياه والأطعمة .

وما هو التشعع المسلكي؟

١ . — الاوخطار الاشعاعية التي يتعرض لها الذين يشتغلون بالصناعة الذرية

١ً — عند تحضير قضبان اليورانيوم التي تستخدم وقوداً في الأبيال الذرية :

أ) في مناجم اليورانيوم : لا يشكل التعرض لأشعة كاما (٧) خطراً حقيقياً في مناجم اليورانيوم الا في حالات استثنائية عندما تتجاوز نسبة اليورانيوم في المنجم واحداً في المائة . والخطر الحقيقي في المنجم يأتي من غاز الرادون الذي يلوث الهواء ، ومن الغبار المشع والمعلقات الهوائية المشعة . وهنا ينبغي التمييز بين الغبار المشع اصلاً لاحتوائه على جزيئات اليورانيوم والغبار المشع ثانوياً وهو غبار عادي غير مشع تثبتت عليه نتائج انقسام غاز الرادون الصلبة والمشعة فغدا لهذا السبب مشعاً ثانوياً . كذلك ينحل الرادون في الجزيئات المائية التي تنتشر على هيئة ضباب في المنجم ، وذلك عندما تتطلب طبيعة العمل فيه استعمال الماء . فخطر الهواء في المنجم إذن مضاعف لأنه يؤدي الى التلوث السطحي الجلدي او الى التلوث الداخلي باستنشاقه . اما تلوث مياه المنجم بالمواد المشعة فضعيف الخطر .

ب) في المعمل الذي تعالج فيه الاتربة والصخور المشعة : يتأتى الخطر هنا من التعرض لأشعة كاما (٧) وللتلوث السطحي والداخلي من هواء المعمل . إن العمال في هذه الحال يشتغلون في اتربة مشعة ارتفعت نسبة اليورانيوم فيها الى عشرين في المائة بسبب معالجتها في المعمل . فهم اذن معرضون للتشعع باشعة كاما (٧) تشععاً لا يستهان به . وتلوث هواء المعمل ينجم عن انتشار غاز الرادون وعن انتشار الغبار المشع اثناء طحن الاتربة والاحجار المشعة او تكسيرها .

ح) في مصنع المعادن : حيث يهيأ اليورانيوم او الطوريوم على هيأة

معدنين صافيين. وبالنظر الى انفصال اليورانيوم او الطريوم الصافيين عن الأجسام المشعة التي تتولد منهما مع الزمن في المناجم بنتيجة التفكك الاشعاعي ، هذه الاجسام التي تعتبر في المصنع فضلات مشعة ، فإن الخطر من التشعع الخارجي يقل عندئذ ولكن خطر التلوث يبقى ثابتاً .

د) **في مخابر فصل النظائر المشعة** : يتعرض المشتغلون في مخابر فصل النظائر المشعة الى اخطار طارئة تتأتى من تسرب الغازات المشعة واختلاطها بهواء المخبر ، او من انتشار الغبار المشع في جو المخبر .

٢ً - عند الاشتغال في الابيال الذرية والاصح تسميتها بالمفعّلات النووية :

جميع الذين يشتغلون في الابيال الذرية من علماء وبحاثين ومهندسين وخبراء فنيين او موظفين او عمال يتعرضون **اولاً** : الى اخطار التشعع الخارجي اما بأشعة كاما (γ) وبالنترونات التي تنبعث مباشرة من قنوات البيل الذري عند فتحها ، واما باشعاعات كاما (γ) وبيتا (β) التي تنبعث من المواد المشعة المستخرجة من البيل .

ثانياً : الى اخطار التلوث الإشعاعي حتى ولو كان البيل الذري يشتغل بصورة طبيعية . وذلك بسبب تسرب الغاز المبرد للبيل من بعض الشقوق او الثقوب ، لاسيما اذا كان هذا الغاز يجول في دارة مغلقة . كما ان القنوات والانابيب المختلفة في البيل الذري عرضة دائماً للكسر والتصدع بسبب طوارىء مفاجئة لايمكن التنبؤ عنها .

ولكن اشد الأخطار هنا يتأتى من ارتفاع درجة حرارة نواة البيل بسبب عطل طرأ على الدارة المبردة . فتتمزق اسطوانات الالمنيوم التي توضع في داخلها قضبان اليورانيوم المؤلفة لنواة البيل ، وينتشر على اثر ذلك غبار الوقود الأولي اي غبار اليورانيوم ، وغبار الوقود الثانوي اي غبار البلوتنيوم

كما تنتشر نتائج الانفصام النووي على هيئة غازية فيتلوث الهواء الذي يستنشقه عندئذ كل من يعمل بالقرب من البيل الذري سواء في البحث العلمي ، او لمراقبة عمل البيل ، او لاصطناع النظائر المشعة ، او غير ذلك من الشؤون الأخرى التي تتطلبها صيانة البيل الذري والعناية بكل اجزائه .

٣ - عند الاشتغال في مؤسسات الكيمياء النووية وصناعة المعادن المشعة :

تعالج هذه المؤسسات المواد المشعة التي تستخرج من البيل الذري كما تهتم بالفضلات التي تنتج منها . والذين يعملون في هذه المؤسسات يمكن ان يتعرضوا الاشعاعات شديدة . ولتخفيف شدتها تخزن قضبان اليورانيوم ، التي تستخرج من البيل الذري ، قبل معالجتها ، في مستودعات خاصة مدة من الزمن حتى تتفانى اشعاعات نتائج الانفصام النووي ذات الدور القصير فيها . وبعد ذلك ترسل الى المعمل لاستخراج البلوتنيوم منها . وبالنظر الى كبر كميات الفصفور (٣٢) والسترنسيوم (٩٠) فإن المشتغلين في المؤسسة يتعرضون لأشعة بيتا (β) . كما يتعرض المشتغلون في صناعة المعادن المشعة (الكوبالت المشع ، والايتريوم المشع الخ..) الى اشعة كاما (γ) واشعة بيتا (β) بآن واحد .

اما اخطار التلوث الاشعاعي في هذه المؤسسات الكيميائية عند العمل فيها بصورة طبيعية فتكون على نوعين :

١) التلوث السطحي الجلدي ويتأتى من السوائل المشعة .

٢) التلوث الداخلي عن طريق استنشاق الهواء المتلوث اثناء معالجة اليورانيوم المعدني او البلوتنيوم المعدني لانها يصدران اشعة الفا (α) ويؤلفان خطراً كبيراً على المشتغلين بها .

اما اذا انكسر وعاء او انبوب او قناة فيها موائع مشعة فإن ذلك يؤدي

الى تلوث الهواء والمكان تلوثاً خطيرا بسبب ضخامة كميات المواد المشعة المعالجة قد يؤدي الى ايقاف العمل واجراء التطهير .

٢ . — الأخطار الاشعاعية التي يتعرض لها الذين يشتغلون بالعناصر المشعة أو النظائر المشعة

جميع النظائر المشعة المستعملة في الوقت الحاضر نظائر مشعة اصطناعية ذات دور قصير أو متوسط ، سواء كان استعمالها في الطب او الصناعة أو الزراعة أو في البحث العلمي . وتكون على الغالب نظائر مشعة تصدر اشعاعات (β) و (γ) وهي أقل خطراً من النظائر التي تصدر اشعاعات (α) عند حصول تلوث داخلي .

وأخطار الاشعاعات في المخابر أقل بوجه عام من أخطارها في الصناعة الذرية ، في المعامل والمصانع الذرية .

وفي التطبيقات الطبية لا تتجاوز الكميات المستعملة من النظائر المشعة بضعة ميلي كوري في المعالجة وبضعة ميكرو كوري في التشخيص .

أما في المؤسسات الصناعية فيمكن ان تتجاوز الكميات المستعملة من النظائر المشعة الألف كوري !

واذا كانت النظائر المشعة المستعملة في ظرف مختوم كان خطرها خارجياً فيتعرض الذي يستعملها الى اشعاعات β و γ إذا أهمل وسائل الوقاية ، او طرأ طارىء كسقوط النظير المشع او حدوث حريق في المكان الذي يحتوي على نظائر مشعة مختومة .

أما إذا استعملت النظائر المشعة بشكل حر على هيئة مسحوق أو مائع أو غاز

تعرض المستعمل ، اذا أهمل أساليب الوقاية ، الى الاشعاعات التي تصدرها هذه النظائر ،
والى تلوث سطحي : تلوث الجلد والثياب أو تلويث مكان العمل والأدوات ،
والى تلوث هوائي : وبالتالي تلوث داخلي باستنشاق الهواء الملوث خاصة إذا كانت المواد المشعة طيارة أو بحالة غازية .
والى تلوث داخلي : بابتلاع السوائل الملوثة بصورة عرضية .

وقد تحدث طوارىء مثل إنكسار أواني المواد المشعة او انقلابها او حدوث حريق في المكان يجعل جو المخبر ملوثاً .

٣ ـ الاخطار التي يتعرض لها عند استعمال مولدات الاشعاعات الذرية او النووية .

ان الأجهزة التي تولد أشعة X ، ومسرّعات الجزيئات كمسرع فان دوغراف مثلاً ، والبيتاترون ، والكوزموترون ، والسيكلوترون ، والسنكروترون للبروتونات ، كلها تعرض مستعمليها الى نوعين من الاخطار :

١ً ـ أخطار الحزم المباشرة للاشعاعات النووية . وقد أصيب كثير من الذين اشتغلوا بالسيكلترون بالعمى في أوائل أيام اختراعه .

٢ً ـ اخطار الاشعاعات الذرية الثانوية التي تشعها الاجسام المقذوفة التي تجعل هدفاً للاشعاعات النووية . والاشعاعات الثانوية تكون على الغالب مؤلفة من أشعة X أو من نترونات كما هو الحال في مسرع فان دوغراف .

* * *

القسم الثاني : ـ اخطار الاشعاعات الذرية اوالنووية التي يتعرض لها جمهور الشعب في أيام السلم .

١ً ـ الاخطار عند نقل المواد المشعة

ان المواد المشعة التي تنقل يمكن أن تكون :

ـ اما أتربة وصخور وحجارة مشعة تتميز بثقلها الكبير وضعف نشاطها الاشعاعي عامة .

ـ وأما نواتج الاستعمال في المراكز المشعة التي حجمها صغير ونشاطها الاشعاعي كبير .

وظاهر ان نقل هذه المواد المشعة بالسيارات أو القطارات أو الطائرات أو البواخر يعرض الذين ينقلونها كما يعرض جمهور الشعب الى أخطار التشعع بها (عند حدوث اصطدام مثلاً بين سيارة تنقل المواد المشعة وسيارة عادية). وفي كل بلد توجد قواعد معينة تطلب الحكومة التقيد بها عند نقل المواد المشعة في سبيل سلامة الجمهور .

٢ً ـ أخطار الفضلات المشعة :

ـ في مناجم اليورانيوم الفضلات المشعة تكون من الأتربة الضعيفة الاشعاع التي فيها نسبة اليورانيوم أو الطريوم ضعيفة لاتجدي من الوجهة الصناعية . فإذا تركت أكوام هذه الأتربة في المنجم وشأنها صارت مصدر خطر محلي للتلوث اذ يمكن أن تثيرها الرياح فتلوث هواء المنطقة وربما كانت آهلة بالسكان كما يمكن أن تجرفها مياه الامطار والسيول فتلوث الزرع والقرى التي تستخدم مياه الانهر إذا انصبت فيها .

ـ وفي المعامل التي تعالج الأتربة والأحجار المشعة تجري عملية تركيز اليورانيوم أو الطريوم وتكثيفها بوساطة الموائع . والمياه المشعة الناتجة إذا

قذفت بالانهار دون قيد أو شرط لوثت الانهار والمزروعات واضرت بالجمهور ولذا لايجوز قذفها في الانهار الا بعد تمديدها بماء نقي او تصفيتها حتى يصبح نشاطها الاشعاعي ضمن نطاق العيارات القانونية المسموح بها .

—وفي الأبيال الذرية والمعامل الذرية المختلفة والصناعة الكيميائية النووية وعمليات التعدين الذري وفي مخابر البحث العلمي فضلات مشعة مختلفة صلبة أو سائلة فالصلبة تجمع وتوضع في براميل من الرصاص وتضغط ثم يوضع عدد من هذه البراميل المضغوطة في مكعب من البيتون المسلح حُسب ثخنه بحيث لاتتسرب منه الا اشعاعات ذات عيارات ضئيلة غير خطرة ومسموح بها . وتوضع كل هذه المكعبات في مكان خال بعيد عن السكان يقال له **مقبرة الفضلات المشعة** . وقد يزداد عددها فيتخلص منها بدفنها في قاع البحر . وهذا مافعلته فرنسا مؤخراً عندما دفنت في مياهها الاقليمية مكعبات الفضلات المشعة التي نتجت من مراكزها الذرية المختلفة .

اما **المائعة** : فتصفى من الطين المشع الذي يضاف عندئذ الى الفضلات الصلبة . والمائع المتبقي يمدد بماء نقي حتى يضعف نشاطه الاشعاعي الى درجة مسموح بها ثم يقذف في نهر كبير غزير المياه على دفعات متقطعة .

٣ً — أخطار الاشياء العادية والادوات التي يستعملها الجمهور في الحياة اليومية :

جميع الساعات اليدوية أو ساعات الطاولة أو ساعات الجدار التي تضيء أرقامها ليلاً بسبب وجود أملاح الراديوم في الدهان الذي كتبت به هذه الأرقام على جدول الساعة تعرض أصحابها ومستعمليها الى خطر تشعع لايستهان به . فالساعة اليدوية مثلاً تعرض صاحبها الى اشعاع يعادل $\frac{١}{١٠٠}$ من الاشعاع الطبيعي ، لذا يرجح استعمال ساعات لاتضيء في الليل .

كما ان أجهزة التلفزيون تصدر لوحاتها بصورة ثانوية أشعة X أو أشعة رونجن لذا يستحسن مشاهدة لوحة التلفزيون عن بعد لا يقل عن مترين .

وبصورة عامة جميع الأدوات المدهونة بطلاء يجعلها تضيء ليلاً كبعض التماثيل التي توضع في غرف الاستقبال أو بعض اللوحات الفنية او أزرار الكهرباء أو غير ذلك تشكل على أصحابها خطراً اشعاعياً لا يستهان به .

٤ ـ الاستعمالات الطبية :

يستعمل الطب الحديث، في المعالجة والتشخيص، النظائر المشعة واشعة X . ففي امريكا الشمالية واوروبا يتعرض مجموع السكان احصائياً الى تشعع طبي بسبب المعالجة او التشخيص يتراوح بين ٢٥٪ وبين ١٠٠٪ من التشعع الطبيعي. وهذا الحساب أجري بالنسبة الى العدد التناسلية .

وقد دلت الاحصاءات على ان لدى الاطفال والحوامل فرطاً في الحساسية تجاه الاشعاعات النووية لذا يستحسن عدم الاكثار من الفحوص بأشعة رونجن وبصورة خاصة نرجو من السادة الأطباء الإخصائيين أن لا يطيلوا وقوف المريض أمام جهاز الأشعة السينية (أشعة رونجن) عندما يريدون مراقبة الرئتين بالعين بدلاً من تصويرهما لأنهم يعرضون المريض اثناء عملية التنظير الى تلقي عيارات كبيرة من هذه الأشعة الذرية تؤدي بالتكرار إما لحرق رئتي المريض وإما لإصابة صدره ولو بعد سنين عديدة بسرطان الصدر. كما ننصحهم أن يلجأوا دائماً الى التصوير بالاشعة بدلاً من المراقبة بالأشعة أي بدلاً من التنظير كما ننصح الجمهور ترجيح التصوير على التنظير.

وأخيراً اختم كلامي بتوجيه الشكر الى حضراتكم لتفضلكم بالحضور معتذراً عن الإطالة والسلام عليكم .

مأمون الكنانى

أستاذ الفيزياء في كلية العلوم
بجامعة دمشق

دمشق في ١٩٦٠/١٢/٢٤

٤

التطـــور الجنسي وآثـــاره النفسيّة

الدكتور محمد شفيق البابا

استاذ الفيسيولوجيا فى كلية الطب

الإنسان في تكوينه مجموعة من عناصر متشابهة في شكلها متباينة في عملها تنضم الى بعضها مكونة أجهزة مختلفة يعمل كل منها مستقلاً في الظاهر عن غيره ، بيد أنه ينسجم معها باضطراد ، ويستتب نظام هذا العمل بإحكام ، وتتابع وظائف البدن سيرها حسبما تقتضيه الحاجة بفضل جهاز ناظم خاص يتكون من جملتين مستقلتين ارتباطها صميمي وصلاتها محكمة ، الأولى الجملة العصبية والثانية الجملة الغدية ، وتنطلق الأوامر عن هذه الحكومة المركزية الى سائر الأقسام متبعة طريق الأعصاب وهذه هي الأوامر العصبية أو طريق الأخلاط وهذه هي الأوامر الغدية ، ويكون الارتكاس أو التفاعل في الحالة الأولى سريعاً يتم في جزء يسير من الزمن وفي الحالة الثانية بطيئاً نسبة قد يحتاج الى أمد طويل أحياناً ، وانسجام العمل بين هاتين الجملتين يبقي الوظائف العامة في اتزان وتساند محكمين مما يساعد البدن على التلاؤم مع العوامل والشروط الخارجية ويقيه تبدلات الوسط الداخلي فيتم الاتزان الذي هو الصحة وتستمر الحياة التي هي حصيلة عمل سائر الأعضاء .

تتألف الجملة العصبيه من شطرين يكفل الأول تنظيم الفعاليات الشعورية أو الإرادية ، وهذه هي الجملة الجسمية وتعرف أيضاً بالحيوانية ويكفل الآخر

تنظيم الفعاليات اللاشعورية التي تجري في معزل عن الإرادة وتشمل سائر الوظائف العضوية ويعرف بالجملة النباتية أو الغذائية ، ويلتقي الشطران في المركز حيث يكون قشر المخ وسيطاً بينهما ويفترقان في المحيط حيث يكون لكل منهما مناطق نفوذ خاصة .

يتصل المخلوق بالوسط الخارجي بوساطة الحس والحركة ويسعى للتلاؤم معه فيحاول دوماً أن يكيف أعماله ووظائفه باضطراد تبعاً للحاجة واختلاف الشروط . ويتأمن هذا الانسجام بين حياة العلاقة الظاهرة والحياة الغذائية الباطنة بوساطة المناطق المشتركة بين الجملتين ، وتخضع جميع أفعال الشخص الفيسيولوجية لهذه السيطرة العامة المشتركة حتى يتعذر الفصل فيما يخص كلا منهما أو التمييز بين التأثيرات الجسمية والنباتية . فالتنفس والهضم والدوران وباقي الوظائف الأخرى تتعلق بالجملتين معاً . وتبدو الحصيلة العليا لهذا الانسجام في طراز حياة الشخص ، وليس المزاج إلا نتيجة اشتراك مستمر وتوافق عميق ومحكم بين عمل هاتين الجملتين .

تعتبر أعمال الانسان نتائج تنبيهات مختلفة المصدر ترتسم آثارها على قشر المخ وتضم مناطق الارتسام هذه العناصر التي تتلقى التنبيه والتي تشكل المناطق الحواسية القشرية وتبعث به إلى مناطق حركية تحوله من حس شعوري إلى حركة إرادية . وتتوسط بين الجزئين مناطق أخرى تسعى لتحوير وتبديل الارتكاس أو التفاعل الناتج حتى تجعله ملائماً ومناسباً ، وتعرف هذه بالمناطق الاشتراكية ، ويتناسب نمو المناطق الأولى مع نشاط الحس والحركة بينما يتعلق نمو مراكز الاشتراك التي تعتبر الأساس في الحياة الفكرية والنشاط النفسي مع مختلف درجات الذكاء، وهكذا يكون المركز الاشتراكي الكبير الذي يتمثل بالفص الجداري في قشر المخ نامياً في العبقريين .

تتكفل الجملة العصبية الغذائية أو النباتية تغذية وإدارة الأحشاء وذلك بتأثيرها في الأوعية والعضلات الملس . كما تشترك في تغذية اللحف كالجلد والأعضاء التابعة لحياة العلاقة بما فيها الجملة العصبية الجسمية نفسها . وللجملة النباتية مركز نظم وانسجام يقع في القسم المتوسط من الدماغ ويعرف بمنطقة ما تحت السرير (هيبوتالاموس) يكون صلة الوصل بين الجملة العصبية الجسمية التي تتصل بالوسط الخارجي والجملة العصبية النباتية التي تتصل مع الوسط الداخلي كما أنه يشرف بدوره على عمل الغدد الدموية . فهو يؤمن بذلك الارتباطات العصبية الخلطية أو الهورمونية بين أجزاء البدن . ويكفل الوظائف الافرازية للغدة النخامية التي تسيطر بدورها على باقي الغدد الصم الأخرى . وهكذا ترتبط كل غدة دموية من جهة مباشرة مع المجموع العصبي . ومن جهة أخرى مع النخامة ومنطقة ما تحت السرير . والجملة العصبية تؤثر بقسميها في هذه الغدد بوساطة النواقل الكيمياوية العصبية . كما أن الغدد تؤثر بدورها بوساطة هورموناتها الطبيعية أو مشتقاتها في هذه الجملة الناظمة .

تتمثل شخصية الانسان بالروح والجسد معاً ويتكون منهما الكل الوظيفي ، والحوادث النفسية ليست كما يعتقد قشرية صرفة بل تنغمس جذورها في منطقة الدماغ المتوسط وما تحت السرير ، وفي هذه المنطقة نفسها تنشأ الميول الغريزية كحب البقاء والجوع والعطش وغريزة الانتاج والاخصاب وفيها يتكون وينمو المزاج الذي يستطيع أن يشبع هذه الحاجات . وفيها يتم أيضاً تكون اللحن العاطفي النفسي الذي يتجلى بمختلف الارتكاسات الانفعالية . وهكذا تعتبر منطقة ما تحت السرير الملتقى النفسي الجسمي . وبواسطتها يمكن لبعض العوارض النفسية أن تؤثر في الوظائف الفيسيولوجية لمختلف الأجهزة .

أن سمو المناطق القشرية في مخ الانسان الناتج عن تكثف المنعكسات الشرطية التي هي ثمرة التربية والتجريب ، يستطيع أن يكيف ويجوّر في

الوظائف العضوية ويعدل من آثار التنبيهات المنطلقة من الدماغ المتوسط في الحالات الطبيعيه مما يفسح المجال أمام الشخص لتفهم أوسع للأمور وإطلاع وإدراك أوفى لما يقع في وسطه الداخلي ومحيطه الخارجي . ويزيد في طاقته على التلاؤم والتكيف . وهذه الميزات الوجدانية العليا تساير في نموها تمايز قشر المخ ونمو ما فيه من المناطق الاشتراكية التي تنبع منها سائر الفكر وتساعد على مراقبة مختلف الميول الغريزية والانفعالية فتثبتها أو تنشطها بحسب الحاجة وتعمل على تحويلها من انفعالات نفسية لا شعورية الى رغبات شعورية واضحة غنية بالصور المتنوعة . وهكذا تخضع أفعال الشخص لمراقبة قشر المخ وتوجيه الدماغ المتوسط ولكن قد يضل هذا التوجيه حينما تغمر التيارات الانفعالية منطقة ما تحت السرير فتنقلب إلى موجه أعمى يحول ما يتلقاه من تنبيه شاذ نحو مراكز لم يكن ليصل اليها في الحالات الطبيعية فيخلق هذا اضطرابات وظيفية عضوية متباينة قد تشمل سائر الأجهزة .

وهناك عوامل خاصة تعين أهداف هذه الاضطرابات وتحدد مجال تأثيرها منها وجود علة قديمة خفية أو ظاهرة في أحد الاجهزة مثلا نشاط قرحة معدية كامنة بعد صدمة عاطفية ، وقد يختار المريض بنفسه علة تعلن عن سخطه الباطن مثلا ظهور العدة او حب الشباب في الوجه اثناء الطمث أو قرب موعد الفحص أو علة تسترعي العطف والشفقة كما هي الحال في شكاية الأنثى الكسلى من آلام قطنية حوضية تبرز خاصة ابان العادة الشهرية تشير الى كره ما تكلف به فتلزم الفراش حتى تتخلص من العمل . ويسترعى الانتباه في معظم الاحيان ، وجود علاقة بين الانفعال العاطفي المسبب والعلة الظاهرة . فالصدمات العاطفية الجنسية ، تتركز ظواهرها الخارجية باضطراب في الجهاز التناسلي . وهكذا يفضي الخوف من الحمل ، وذكرى عواقب الاجهاض الى البرودة الجنسية ، كما يجر كره الزوج الى انقطاع الطمث ، او آلام الجماع .

تحتاج الانفعالات النفسية عضوية المخلوق منذ أن تدب به الحياة . فقد تصيب آثارها الجنين حتى في أيامه الاولى . ومن الثابت أن نوع الجنس يتعين بوساطة سلسلة من التأثيرات الكيماوية النوعية الناتجة عن حال اتزان خاصة تشمل مختلف الغدد التي تشترك في اقرار الجنس وايضاح الصفات الجنسية وفي مقدمتها النخامة والكظر . ويبدأ تمايز الجنس الذي يكون مزدوجا في الأصل اعتباراً من الاسبوع الرابع او الخامس من بدء الحمل . ولايبعد ان يختلف او يضطرب بتأثير الهورمونات الجنسية أو يقف مطلقاً فتنشأ عنه الخنوسة وهي حال جنسية متوسطة وفي هذا مايوحي بضرورة اتقاء الحامل شر الاضطرابات النفسية والانفعالات طيلة الحمل وخاصة في الأشهر الاخيرة تجنباً للخداع او الولادة قبل الميعاد أو الولادات العسيرة الخطرة على الأم والجنين .

وقد اتضح أن مثل هذه الأخطار تندر في القرويات العاملات ، فالأعمال العضلية ، والجهود المعتدلة تزيد في نشاط الدوران وقدرة العضلات بما فيها عضلة الرحم ، وتصرف الأنثى عن اجترار ما تتعرض له من انفعال واضطراب نفسي .

تنشأ المشاعر النفسية مع الصفات الجنسية وتتكيف منذ الولادة . فلا شك في وجود أنواع من البكاء تلائم كل جنس وقد أمكن تفريق أنواع خاصة تناسب الألم والجوع وعدم الرضى واستطيع تسجيلها ونشرها . ودلت الدراسات الحديثة على أن الجملة العصبية المركزية تخضع في نموها عند الطفل لتأثير مختلف العوامل والمنبهات . ويعتبر الانفعال الجواب الفيسيولوجي لكل تنبيه، وهو تعبير للتلاؤم والتكيف وله أثر بين في بناء الشخصية .

يسير النمو الجنسي عند الطفل في ثلاث مراحل تمتد الأولى منذ الولادة الى بدء الكلام والثانية الى أن يبلغ الطفل العاشرة وتنتهي الاخيرة عند البلوغ. تتخلص الغريزة الجنسية في مطلع العمر بسعي الطفل نحو ما يرغب به ويشوقه

وفراره مما يزعجه ويكرهه وكثيراً مايشرب الرضيع مع اللبن مختلف المؤثرات النفسية فتنمو جذورها في وسط خصب وتكون مبعث مايعانيه في المستقبل من اضطرابات عصبية نفسية على العموم. وان الصلات التي توبط بين الأم ورضيعها ذات أثر عميق في التوجيه النفسي. ولا أدل على ذلك من ان القلس وهو عودة بعض اللبن الى الفم عارضة بسيطة في ظاهرها توحي بوجود انفصام في العلاقة الروحية بين الأم والولد دون ان يكون هناك حرمان والدى اكيد وتشير الى أنها عاجزة على الرغم من ظاهر عطفها عن تأمين صلة نفسية جسمية حيية صادقة بينها وبين طفلها. ومن هنا ندرك خطورة مرحلة الرضاعة ومدى تبعية اهمالها والتهاون بها فضلا عن التخلي عنها الى من لايدرك شأنها.

تميل الغرائز الى أن تكون اعتدائية في نهاية هذه المرحلة، ويعتبر هذا الانفعال ثمرة الخوف والحصر عندادراك المزعجات. وقد يكون ذلك مصدر الاجرام. فالخوف والكره والقلق تجر الى اشمئزاز عميق وانكماش وانعزال مترق يفضي فيما بعد الى الشرود والجنوح او يتحول الى كره للجنس، فتنشأ عنه أنواع الشذوذات الجنسية.

تعتبر الفترة الثانية مرحلة التقويم وانتخاب النماذج وخلق المثل وبناء المنعكسات الشرطية. وقد تمتد هذه الفترة وتطول بسبب سوء تربية الطفل. فتخلق منه شخصاً ضعيفاً منطوياً نفسياً يكثر من الخطأ ويسعى للكذب ويحاول السرقة نتيجة لعجزه وقلة كفاءته للقيام بالجهد الشخصي. وتنتهي هذه المرحلة عند البلوغ حيث يبدأ نمو الشخصية وتمايزها. ومن الضروري أن يتم هذا النمو عفوا وبصورة تدريجية وليس اصطناعاً وقهراً وبصورة مفاجئة. وكثيراً ماينقطع في هذه المرحلة تطور الطفل النفسي ويقف أثر حادث مافتنشأ العاهة النفسية التي تكون نتيجة حتمية لتفاوت بين نمو الجسم الذي يثابر على التقدم والتطور والرقي ونمو العنصر النفسي الذي يتثبط بصورة تامة أو جزئية.

وهكذا يحسن أن تركز الجهود في هذه المرحلة التي يمكن فيها إصلاح سلوك الطفل وتعديل ميوله .

يسعى الطفل في سن مبكرة للتلاؤم مع الحوادث ويحاول ان يصلح من نتائجها ويعدلها على ضوء تجارب من سبقه ودربه وتجاربه الخاصة . ولذلك يكون لسلوك الوالدين وطراز عيشهما ووضع الأسرة الاجتماعي وسائر الملابسات الأخرى التي تحيط بالطفل الأثر الأكبر في تكوين نفسيته ، وشأن الأم في هذا الخصوص بالغ الأهمية ، فهي وحدها التي تستطيع ان توطد له شؤون الحياة ، وتمهد له السبيل لاجتياز معابرها والخلوص منها الى حياة أسمى وأفضل . وأشير هنا وأنبه بوجه خاص الى مغبة قصور التلاؤم الوظيفي والتأخر النفسي الانفعالي واضطراب الشخصية في الولد المنفرد والولد الأخير أو المتأخر وما يمكن أن ينشأ عنها من حالات الفصام .

اذا لم يهيأ الطفل التهيئة اللازمة اصطدم أثناء انعتاقه من حياة الطفولة بمشاكل الحياة وتكشفت له تدريجاً مصاعبها وشرورها ، مما يحفزه في اللاشعور على الرغبة في العودة للحياة الطفلية حيث كانت تتوفر له الحماية والمتعة السهلة .. ويتجلى هذا النكول بالميل الى العزلة والفرار من الواقع فتبدو عليه بين حين وآخر نوب بكاء وغضب وتفاعلات حركية غير منسجمة مع اضطرابات غذائية تلاحظ معها الشراهة الزائدة ويرافقها سلس البول الليلي وتنتهي هذه الاضطرابات اذا ما طال أمدها الى ضمورات نفسية عديدة تتجلى بحسب استعداد الطفل ووراثته الأسرية بضمور في الشعور الاخلاقي وضمور اجتماعي مع تأخر جنسي واضطراب في الذكاء والملكات الفكرية .

يتكون مزاج الطفل وتخلق شخصيته في الأسرة والوسط المحيط به ، وهو هنا المدرسة ، والقصد من التربية فضلاً عن تنمية الشخصية الاعتناء بنمو الجسم والفكر والخلق ووظيفة المدرسة تنمية الوعي والوجدان في الطفل بالإضافة

الى المعرفة حتى يدرك ما يتلقاه من نصح وتوجيه . ولذا يقتضي توفر التعليم للجميع وفي وقت مبكر . والعلم هنا صنو الغذاء وليس القصد تلقينه مبادىء العلوم أو أشياء أخرى لايفيد منها بل القصد توجيه الطفل ودعم نفسه ، وتنشيط مداركه العامة وحفزه على الاطلاع حتى يستطيع أن يشق بنفسه طريقه في الحياة . ولا يتسنى ذلك الا بالتعاون الوثيق بين الأسرة والمدرسة لخلق جيل صحيح قويم . ويلقى الجزء الأكبر من هذا العبء على عاتق طبيب المدرسة وعليه وحده أن يقرر الراتب النفسي الاجتماعي الى جانب الراتب الغذائي . فهو في هذه المرحلة الناصح والقائد والمرشد ، ينير السبيل أمام المعلم والمربي ويكشف عن طاقة الطفل ومواهبه في زمن يستطاع فيه الارشاد والتوجيه والاصلاح والتقويم . وهذا ما يدعو الى حسن اختيار أطباء المدارس الأولية ، بانتقائهم من خيرة أهل العلم والثقافة والاطلاع لأنهم يتقدمون في عملهم باقي الاخصائيين من علماء النفس والاجتماع والتربية .

مراحل النمو الجنسي

يبدأ الطفل بإدراك الفوارق الجنسية بين السنتين الثالثة والخامسة ، والطفلة سابقة في هذا المضمار بملاحظتها وشعورها بالنقص فتتمنى في قرارة نفسها أن تكون صبياً . وتشتد وطأة هذا الشعور بمعاملة الأطفال لها وعدم إشراكها معهم في اللعب لما يشعرون به ويعتقدونه بالسليقة أو التلقين من ضعفها . وقد يشترك في الاساءة إليها تفضيل الأهل لطفل يقرب من سنها . وكثيراً ما يبدأ الاستمناء في هذا الظرف نفسه عندما يستشعر الطفل حساسية بعض المناطق الخاصة من جسده فينصرف انتباهه اليها تدريجياً . ويغلب أن تشتد هذه الظاهرة في أطفال لايجدون حولهم العطف والحنو الكافيين مما يدعوهم الى الانطواء والسعي للحصول على المسرة والاستمتاع الذاتي . ويصادف هذا خاصة في الأطفال الذين يوكل شأن تربيتهم الى المربيات والخدم . فاذا

ما عاد الطفل الى ذويه ولقي ما افتقده وينشده من حب وحنان انقطع عن الاستمناء ، ولذلك ليس أجدى في معالجة هذه البادرة الجنسية السيئة من زيادة الحب وغمر الطفل المكلوم بالعطف والرعاية . والحذر من مكافحتها بالتهديد والتشهير والعقاب .

يعتقد بعضهم أن أطفال الجيل الحاضر يعلمون من خفايا الجنس وأحاجيه أكثر مما كان يعرفه الأطفال في السابق وهذا خطأ فادح ، فالمعرفة السطحية والخاطئة لاتبدد مطلقاً مايشعر به الطفل من قلق في تفسير هذه الميول الجنسية الجارفة ، وتشتد عليه وطأة الاضطراب حينما تعاوده الاحلام الليلية والافراغات السحرية . ولا يلبث أن ينضم الى هذه المشاعر النفسية المختلفة الخوف من مغبة أمور يعتبرها المجتمع تصرفاً مرذولاً وشذوذاً خلقياً وانحطاطاً أدبياً . كل ذلك يدفع بهذه الميول الى الكبت ويضغط هذه المشاعر بالحرمان ولكن لفترة قصيرة ، إذ لا تلبث أن تنشط في الأحلام وتنقلب الى قوة سحرية جامحة قلما تستطاع السيطرة عليها .

وقد ينفسح الكبت المقصود عن نشاط جنسي شاذ وطبعا قد لايخلو هذا الميل الشاذ من أخطار عاجلة وعواقب وخيمة آجلة .

ينتقل المراهق في نموه من طور الى طور ينتقل من الاتكال الى الاستقلال من مشاعر جنسية مبهمة لذيذة الى حياة جنسية ناشطة صاخبة وتشتد الوطأة عليه كلما عظم التباين بين نمو الملكات الفكرية الإجتماعية والخصائص الجنسية . ويقع القسم الأكبر من مصاعب الجنس ابان المراهقة التي تتجلى بمجموعة من التبدلات الجسمية والوظيفية تعد الذكور للإنتاج والاناث للحمل وهي نتيجة نشاط مفاجيء في افراز الحاثات النخاعية التناسلية .

ليس من السهل اجتياز مرحلة المراهقة دون مفاجئات قد لا تخلو من عواقب نفسية ، فيترتب على الوالدين الانتباه الى تطورها ومراقبة نمو أعضاء الجنس والظواهر الجنسية في هذه السن . ومحاولة معالجة الشذوذات الخلقية والوظيفية في وقت مبكر . لأن أشد العوارض العصبية والنفسية وما تجره من الإضطرابات الجنسية قد تبدأ في هذه المرحلة وخاصة عند وجود نقص بيّن في الصفات الجنسية كالضخامة والبدانة وقلة نمو الأشعار وبقاء الصوت الطفلي وغير ذلك من الصفات التي تشعر الطفل بنقصه نسبة لأقرانه ، وهنا يتوجب على الأم بوجه خاص أن ـ تراقب نمو الأعضاء الجنسية عند الطفل وكثيرا ما تبقى الخصية هاجرة عند الأطفال الى زمن متأخر .

يؤخر الوضع العائلي والقيود الإجتماعية فضلا عن العراقيل المادية إنجاز الرغبات الجنسية الطبيعية حين تمام النضوج الجنسي . والكبت والحرمان والتأجيل التي ترد في نصائح الأهل والأقربين وفي تحذيرات الأطباء وعلماء الدين لا تستطيع أن تخمد هذه النار المتأججة ولا الرغبة الجامحة التي تذكيها ضروب من العوامل المحيطية المنبهة كالقصص المثيرة والأفلام السينمائية والملاهي وما يتوفر فيها من اختلاط يزيد النار ضراما . فلا مفر من أن تشبع هذه الرغبات بالطرق المشروعة وفي وقت مبكر اذا أريد تجنب أخطارها ، والا استطرقت الى التنفيس طرقا لا تحمد عواقبها . وكل ما يزعم من محاذير وشرور تكتنف الزواج المبكر أوهام ومستنتجات خاطئة لأوضاع مصطنعة تتضاءل صغارا أمام الحقائق العلمية الدامغة .

تبرز الصفات الجنسيه فجأة عند الفتاة وبشدة أكثر مما في الفتيان . ويسترعي هذا التبدل السريع انتباهها ويزيد في ارتباكها الشخصي فتحاول في البدء إخفاء ظواهر البلوغ من نمو الثديين وتبدل الصوت وبروز التقاطيع الجنسية ، فتشد على ثدييها وتمنعهما عن الظهور وتجنح الى العزلة تفاديا من الاطلاع على ما حل بها من

تغيير ، ويفضي ظهور الطمث الأول الى انزعاج عميق يزيد قلق الفتاة وخاصة إذا لم تكن على بينة من أمره . وكثيرا ما تقع هذه العارضة ابان حادثة معينة او مرض يوحي اليها أنها فريسة شر مستطير ومما يزيد في حيرتها أنها لاتجد عند أمها التفسير المطمئن حتى يسكن روعها . وعلى هذا فانها غالبا ما تصطدم بالنواهي والأوامر الخاصة التي تحد من نشاطها وتقيد من رغباتها ، فيحظر عليها الخروج واللعب والاستحمام في أوقات معينة وتزداد مراقبة الأهل لحركاتها وسكناتها.

لايزال يعتبر الطمث في كثير من الشعوب حادثة مخجلة يجتنب ذكرها والخوض فيها ، ويعتقد بعضهم أنها مس من عمل الشيطان فتمنع الأنثى أثناء العادة الشهرية عن لمس كثير من الحاجات التي قد تفسدها حتى بوجودها فقط . وهكذا يسند اليها فساد العجين واحتراق الخبز وذبول الأزهار واحماض الخمر . ومنهم من يذهب الى أبعد من ذلك فيجعلها سبب ـ اجهاض الحيوان وعلة انقطاع اللبن عند المرضع . واذا ما كان في هذه الاعتبارات شيء من الحقائق العلمية فان تكرارها وترددها يزيد في نطاق مجالها الى أبعد من الحدود المعقولة وعلى الرغم من تناقض وطأة هذه الأوهام في الوقت الحاضر فان آثارها لاتزال موجودة وحتى بين ظهرانينا . والخلاصة أن الجو النفسي الذي يضفيه ظهور الطمث الأول عند الفتاة يعتبر مسؤولا عن كثير من الاضطرابات النفسية وما يمكن أن تجر اليه من اضطرابات جنسية وغيرها . ولا أدل على هذا من تكرر غياب الطمث بعد ظهوره الأول . فيكون ذلك نكسة جديدة في صفحة الأنثى النفسية تنضم الى ما سبقها . وهذا ما يدعوها الى أن تبدأ بالتبرم والشكوى فتنقم على الوسط الذي تعيش فيه والأسرة التي نشأت منها فتحاول الانطلاق من الإسار والخروج على الأوضاع ، ونبذ التقاليد والأعراف ، وتجد في دوافعها النفسية ما يبرر هذا السلوك وتعتبره متنفسا ووسيلة لإثبات وجودها وابراز شخصيتها . فاذا ما كانت قويمة التربية حسنة الهداية والتوجيه أمكن بالمحاولات

المكررة الرشيدة إيجاد الإنسجام بين النضوج الجسمي ونمو الإحساسات العاطفية الجنسية وذلك بشرح حقائق الجنس في الوقت المناسب وبطريقة واضحة لاخفاء فيها ولا تلميح من قبل خبير مكين . وأستطيع ردعها عن غوايتها حتى يسيطر عقلها على عاطفتها ويكبح جماح مشاعرها فتسكن وتنتظر ولو على مضض . واذا كانت الأخرى انفلتت من عقالها ونبذت التقاليد وراء ظهرها ولم تأبه لنصيحة ناصح وتنقلب المفاهيم لديها الى اضدادها فتبدأ بابراز خفي مفاتنها وتنطلق الى عالمها الجديد تخوض خضمه الواسع دون تجربة أو معين فلا مناص من الزلل والخطيئة ، ولا ينكر في الحالين شأن العوامل الإرثية والأسرية والاجتماعية .

يحفل يوم الزواج بمشاعر نفسية هامة وانفعالات طاغية قد تقرر مصير الحياة الجنسية في الأنثى وإن ماينشأ عن الوصال من رض جسيمي يعتبر أيضا حادثة نفسية بالغة الخطورة . فالعنف والإكراه والشدة يخلف البغض والكره ويفضي الى نتائج وخيمة . فالحب والحنان والرحمة تلك الانفعالات المرافقة للحياة الجنسية السليمة كلها وسائل تساعد المرأة على اجتياز هذه المرحلة بسلام ولا أخطر من الانفعال والخيبة التي تلقاها في هذا الظرف العصيب من حياتها . وفي الهجران من بعده موت لها وخنق لمزاجها النفسي .

تستمر الصدمات العاطفية عند المرأة طيلة حياتها الزوجية وما أكثر العقبات التي تعترض سبيلها ونذكر منها على سبيل المثال الانفعال الناجم عن الخوف من الحمل أو الخوف من العقم وأحذر بوجه خاص من الاضطرابات النفسية التي ترافق الإجهاض سواء كان طبيعيا أم مقصودا ولا نتعرض هنا للمناسبات غير المشروعة .

لاتظهر نتائج الصدمات الانفعالية إلا متأخرة غالباً إذ تظل آثارها محصورة في المناطق النفسية وذكراها ماثلة في الذهن لاتغيب ويغيبها العقل الى اللاشعور

شيئا فشيئا غير أنها لاتمحى في معظم الحالات . بل يبقى الشخص متحسساً نحوها وكما يقال تعود وتنشط من غفوتها بعد حادث انفعالي مماثل أو مشابه . وكثيرا ما يكون الحادث الجديد تافها بيد أنه يكون عميق الأثر شديد الوطأة تزيده بعض الظروف والملابسات الأخرى خطورة ، ومن الثابت أن كل انفعال أو صدمة عاطفية يشتد أثرها مرات عدة إذا ما أصابت امرأة في دور النقه أو حدثت في عقب مداخلة جراحية أو بعد الوضع . وهكذا تفقد النفساء لبنها بعد ولادتها لطفلة اثر كلمة عابرة أو نظرة غادرة .

والخلاصة أن حياة الأنثى مجال فسيح لسلسلة لاتنقطع من الجوائح العاطفية تغير في كل حين فتنهب مشاعرها النفسية وتعدها في كل مرحلة من حياتها الجنسية للإصابة بمختلف الشواشات النفسية والعصبية التي تفتح الباب أمام أنواع لاحصر لها من الاضطرابات التناسلية وغيرها .

العوارض الجنسية النفسية

سأحاول الآن التعرض الى بعض العوارض الجنسية التي تصادف بكثرة عند الفتيات والنساء لايضاح مدى علاقتها مع الشواشات النفسية وإثبات شأن الانفعال في الحياة الجنسية .. وهذه الأعراض ولا شك تهم الجميع .

فمن ذلك انقطاع الطمث أوغياب العادة الشهرية ويصادف بكثرة في الفتيات والنساء في عقب أنواع مختلفة من الاضطرابات النفسية كالترمل والرهبة والحزن الشديد بعد مفارقة القرين ، أو الموت أو الخيانة أو الفشل العاطفي . والخوف الشديد الذي يعتري المرأة أثناء اكتساح المدن ، وقذفها بالقنابل أو بعد الحجز عليها في المعتقلات . كما يلاحظ بعد كثير من الأمراض الانتانية ، وحالات نقص التغذية والجوع الشديد . وتعلل هذه الظاهرة في الحالات الأولى بأن الانثى تنبذ مطلقاً ما تتمتع به من صفات جنسية وتعتبرها في الحالة الثانية

كظاهرة لوظيفة ثانوية يمكن إهمالها ولو مؤقتاً . وذلك عندما يطرأ على البدن ما يهدد الحياة . وتنضم الى هذه العارضة في بعض الأحيان علائم تشير إلى وجود الحمل من غثيان وقيء وتوتر في الأثداء وزيادة في حجم البطن . وكثيراً ما يرى الطبيب انقطاع الطمث عند زوجة تقية تعاني أوضاعاً جنسية سيئة مع زوج فظ غليظ القلب أو سكير قذر أو عاجز عنين أو أناني لا يلتفت إلا الى نفسه .

ومن العوارض الجنسية النفسية القمه العقلي . وتلاحظ هذه البادرة عند الفتيات بين السنين (١٥ – ٢٠) يطمثن بانتظام ولكن تعتريهن بين فترة وأخرى أعراض تشير إلى فقد الاتزان العاطفي . فيصيب القمه مثلا الفتاة الوحيدة التي نشأت في أسرة محافظة تحيطها بقيود تحد من نشاطها أو الفتاة التي شبت في وسط إباحي متفكك والسبب المباشر له خيبة أو فشل عاطفي جر إلى صدمة نفسية نتيجة محاولة تماس أو وصل يحيط بها القلق وعدم الإطمئنان أو محاولة اتصال بالعنف . فاذا ما استحكمت العلة انقطع الطمث فجأة وبدأ النحول الذي يسير مترقياً تبعاً لامتناع الفتاة عن الطعام الذي يكون في المرحلة النهائية تاماً ومطلقاً . وتصرخ عند معالجتها بالتخدير النفسي أو بالتنويم المغناطيسي أنها ترغب في الموت وهي ليست جديرة بالحياة ولا يبعد أن تنتهي هذه الحال الى الانتحار .

وهناك نوع من فقد الاشتهاء يصادف في الفتيات الذكيات المتعلمات والمنحدرات من أسر فقيرة أوعادية ويكون تعبيراً عن احتقارها لأسرتها التي تنظر إلى الطعام وكأنه المتعة المثلى في الحياة ، فتنبذ الطعام وتتعسر في هضمه وأخيراً ترفضه نهائياً .

وتظل على الرغم من قلق أهلها وعطفهم هادئة مطمئنة في عملها وراضية عن علتها تكابد متجلدة تقوم بأقسى الأعمال باصرار وعند ، يشير الى تصميمها

على تنفيذ خطتها إلى النهاية . وكثيراً ما تتحسن هذه المعارضه أو تزول بعد إبعادها عن الوسط الذي تعيش فيه .

ويشكو القسم الأكبر من الفتيات آلاما طمثية قد تكون شديدة احياناً تدعو إلى التزام الفراش عدة أيام من كل شهر ، وهذا ما يقال له عسر الطمث والأسباب النفسية هي المسؤولة عن (١٥ – ٢٠) في المئة من الحالات، ويكفي غالباً إبعاد الفتاة عن الوسط الموجودة فيه حتى تشفى وتلاحظ مثل هذه النتائج أثناء الرحلات وفي العطل .

إن الطمث ظاهرة أنثوية وشاهد دامغ على هذه الحقيقة التي قد تكون مؤلمة لبعضهن ، والألم تعبير عن هذا الحقد الدفين . حقد الفتاة على أنوثتها . وكثيراً ما تكون الأم الجاهلة سبباً مباشراً بما تلقنه لابنتها بأن الطمث مؤلم والحمل مزعج وشاق والوضع خطير العواقب . وقد تكون خشية الفتاة من المناسبات الجنسية ومعلوماتها الغامضة المبهمة عن ليلة العرس مبعث أوهامها ، فتزيد في تركيز انتباهها على الظواهر الجنسية فتشعر بالانزعاج والألم . وتشير معظم هذه الحالات إلى فقد التلاؤم والانسجام الأسري وتكون ظاهرة ثورة ضد الحكم الوالدي الجائر والتربية الصارمة والتقييد بالعادات والتقاليد كما تزعمه الفتاة ، وما أكثر ما يستخدم الألم في استرعاء الانتباه واستجلاب العطف والمحبة من الأبوين .

أما في المرأة ، فان جميع الأسباب التي تمس أنوثتها قد تدعو الى عسرة الطمث نذكر في مقدمتها عدم الرضى والاكتفاء الجنسي والفشل العاطفي والاجهاضات المكررة . ومن الشائع أن عسرة الطمث تشفى بعد الزواج أو الوضع الاول وشأنها في هذا الخصوص نفسي بحت . فالزواج لا يشفي آلام الطمث الا إذا كان ناجحاً وموفقاً ، وليعلم من جهة اخرى أن آلام الطمث

تصادف بوجه خاص في النساء ذوات الميول والطباع المذكرة ، وتشتد بنسبة انصراف المرأة عن الوسط العائلي ونكولها عن وظيفتها الطبيعية واتجاهها نحو الوسط الاجتماعي . وتبرز خاصة في النساء النشيطات الطامحات بالإستقلال اللاتي يرفضن سلطة الرجل وسيطرته ومثل هذه المرأة تكره الحمل وقلما تميل للأطفال وهي إجمالا تكره وترفض أنوثتها .

وما أكثر ما يشتكي النساء من الآلام القطنية الحوضية ، وحينما تشتد وطأة هذه العارضة المزعجة تأخذ المرأة بالتنقل بين عيادات الأطباء حتى لا تدع اخصائياً وينتهي طوافها عند دجال أو مخادع . ويشكل هذا العدد الكبير الذي يزداد باضطراد وبنسبة تقدم المدنية وازدياد تكاليفها عبئاً ثقيلا على الحياة الاجتماعية . وتنحصر الشكوى عادة من آلام مبهمة مختلفة التوضع تقع في اسفل البطن وعند الكليتين أو في أعلى الظهر لا نظم لها ولا وقت تغيب وتظهر في مناسبات مختلفة . وتشتد أثناء الطمث فيغدو مؤلماً . ويكشف الفحص عن سوابق ولادية معرقلة بصدمات جراحية من تمزق وإجهاض وتجريف مكرر ، وعن ماض جراحي حافل من استئصال اللوزات والزائدة والمرارة . ولكن يسترعي الإنتباه في مثل هاته النساء فشل الحياة الجنسية وكثيراً ما ينتهي بهن الأمر الى البرودة الجنسية المطلقة أو النسبية . أو تعترف للطبيب بأنها تمارس الأسباب المانعة للحمل وترفض الصلة الجنسية جزئياً أو كلياً .

ان احتقان الحوض الذي يحدث في الأنثى يمكن أن يجر الى اضطراب في الاتزان العصبي النباتي إذا لم يبلغ هذا الفعل غايته ويكون سبب ما تشتكيه المرأة من آلام في الحوض والقطن . ولا ينكر مع ذلك وجود بعض الآلام العضوية التي تنجم عن آفات حوضية تناسلية حقيقية .

يمتاز هذا النوع من النساء بشواشات عصبية نفسية خاصة تبدو بالنزق والقلق وعدم الاستقرار ، يدّعين دوماً أنهن ضحايا لعلة خطيرة خفية لم يكشف

عنها الأطباء ولا رجوى منها ، ويعتريهن القلق على مصير أطفالهن بعد موتهن فيتضاعف الحصر والهم والألم ، فلا يفترن عن الشكوى والبكاء . وأخيراً تفقد مثل هذه المرأة لذة الحياة حينما ترى نفسها ضحية مجتمع جائر لا يرحمها وزوج قاس لا يشفق عليها وأطفال جاحدين لا يهتمون بها . ونستطيع أن ندرك هنا مدى الأسى الذي يعانيه الاهل والزوج والأولاد ، فيتقوض كيان الأسرة ونسوء تربية الاطفال ، وينقلب المنزل الى جحيم . وإن العطف الزائد والرعاية الشديدة التي تحاط بها المصابة تجعلها تجنح الى الراحة الجسمية التي تقصدها في قرارة نفسها وتهمل واجباتها المنزلية خاصة ، ويلاحظ عجباً أن ألمها يشتد بعد قيامها بأي عمل منزلي مهما كان بسيطاً ، بينما لا تنزعج مطلقاً من زياراتها المكررة للأطباء والأصحاب .

ولا بد من الإشارة الى تشنج المهبل وهو تقلص مؤلم في عضلات مقدمة المهبل يعرقل أو يمنع المناسبات الجنسية ، يكون سببه في ثلثي الحالات نفسياً وخاصة إذا ما برز فجأة بعد مرحلة جنسية طبيعية . وتمهد له بعض العوامل الأسرية كنشأة المرأة في وسط أسري منحل وما تشهده من حوادث العنف والقسر بين والديها الذي ينتهي أخيراً بالفراق . أو الأوهام والمخاوف التي يحاط بها الفعل الجنسي . وقد يكون الكبت الشديد وتأخير تنفيذ الرغبات الجنسية سبباً في خنق كل ميل جنسي في المرأة . وأخيراً فان كره الزوج وقلة لباقته وسوء تصرفه وأنانيته وجهله الجنسي قد يدفع بالمرأة لأن ترفض في اللاشعور كل مناسبة أو اتصال جنسي ، وقد تفقد المرأة مطلقاً ميلها الى الرجال أو تصرف اهتمامها وتحصر عنايتها بأطفالها . وذلك نتيجة اضطرابات نفسية عاطفية وذكريات جنسية تعيسة .

ولقد يكتفي قسم كبير من النساء بمقدمات الاتصال الجنسي ولا يرغبن إلا نادراً في الفعل نفسه وهذا ما يعرف بالبرودة الجنسية . بيد أن الميل يتزايد

بنسبة التقدم في مراحله . ولذلك يمكن أن ينقلب الاتصال الجنسي الأبتر الى انفعال نفسي طاغ يطيح بمشاعر الأنثى ويقهر ميولها ، فيفضي تكرره مع طول الزمن الى برودة جنسية تامة . ومن الثابت أن ثلث أو نصف عدد النساء يتسم بالبرودة غير الطبيعية حتى يعتبرها بعضهم صفة مميزة للأنثى كما يميزها لون عينيها .

قد تكون لهذه العلة أسباب عضوية أو خلقية غير أن الأسباب النفسية هي الراجحة . ويؤيد ذلك ما يرافقها من اضطرابات نفسية أخرى تتجلى بالحصر والنزق والشرود الذهني ونقص التركيز ، وليس من المستبعد في مثل هذه الحال وجود شذوذ جنسي .

لا جرم ان الجزء الاكبر من هذا الشواش الجنسي يجب أن يلقى على عاتق الرجل في أسبابه . الرجل الأب الذي يقسو على أسرته ويهمل تربية أولاده . والزوج الشرس الذي يسيء الى زوجته وخاصة بالضرب والتعذيب والهجران تحت بصر أطفالها وسمعهم . والرجل الزوج الأناني الذي يكون فضلاً عن تصرفاته السيئة الأخرى عميا عن تهيئة الوسائل والأسباب التي تخلق العطف والمودة. وتمتن الألفة والتراحم بين الزوجين . والوصال القويم ليس له جزاء إلا الحب الدائم والوئام المستمر وهو وحده الذي يمكن أن يجنب كلا من الزوجين التردي في الخطيئة .

وأخيراً لا بد من الكلام على نضوب اللبن والغيل وتحديد النسل .

ان الثدي هو المنهل الطبيعي الذي يجب أن يستمد الطفل منه الغذاء ولفترة طويلة من الزمن . وتشرع الأثداء بالنمو اعتباراً من البلوغ ويشتد نموها بعد الحمل بفضل هورمونات الجنس ، ولكن لايبدأ إفراز اللبن إلا بعد الولادة بسبب انعتاق هورمون النخامة المفرز للبن من تثبيط الهورمونات

الجنسية . ويخضع هذا النظام المحكم لسيطرة منطقة ما تحت السرير ذاك المركز النباتي النفسي . ولذلك يمكن أن يتأثر إفراز اللبن عند المرضع من مختلف الصدمات الإنفعالية والنفسية ونخص بالذكر منها ذات المنشأ الجنسي . ومما يلاحظ أن فترة الرضاع التي كانت تمتد قديماً الى ما يقارب السنتين ولعدد كبير من الأطفال كما هو مشهور حتى الآن عند القرويات قد تناقصت في المدن الى حد كبير حتى قلما نجد أنثى تثابر على الرضاعة أكثر من ثلاثة أو أربعة أشهر . وقسم كبير من نسائنا يعجز عن الرضاعة مطلقا . ومنذ الولد الأول . فيحال الطفل الى البقر لإرضاعه وأعتقد أن في ذلك تفسيراً كافياً لتعليل تبدلات الذكاء والملكات الفكرية وتناقص الوشائج والصلات وأواصر المحبة والألفة بين أفراد الاسرة الواحدة والمجتمع . وليس من تعليل لهذا التبدل الذي يحطم أعظم وأشرف وظيفة طبيعية للمرأة إلا تزايد وطأة الاضطرابات النفسية التي تساير رقي الأنثى وتمدينها وتصرفها عما خلقت له .

وليعلم من جهة أخرى أن الباري عز وجل قد هيأ للمرضع في الأصل الأسباب التي تمنع عنها الحمل طيلة فترة الرضاع بفضل ما تقوم به الغدة النخامية إبان هذا الدور من تثبيط مطلق لغدد الجنس يحول دون تكون أجربة جديدة . وهذه الظاهرة التي كانت عامة في القديم ، أصبحت محدودة ونادرة في الوقت الحاضر . وما أكثر ما نسمع من حوادث الغيل وهو حمل المرضع والعواقب التي يمكن أن يجرها هذا على الأم ورضيعها وجنينها . وعندي أن تجنيب المرأة الإضطرابات والمشاغل النفسية والخارجية منها على الأقل يساعدها كثيراً على إطالة فترة الرضاع وهذا يكفيها لتجنب استعمال المواد والوسائل المانعة للحمل في معظم الأحيان . وهكذا إذا ما أحسن التصرف وأعيدت المرأة الى خصائصها الفيسيولوجية فإن الطبيعة نفسها تكفينا مؤونة تحديد النسل ولفترة طويلة من الزمن .

وفي الختام ان وظيفة الجنس كوظيفة التغذي تتطلب الرعاية والعناية، عواقب اهمالها شاملة تصيب الفرد والأسرة والمجتمع ونتائجها عامة تشمل سائر المرافق . وليست هذه الرعاية بالأمر اليسير فهي تحتاج الى الأم الرؤوم التي تصرف خير وقتها وجل جهدها للعناية بطفلها في مرحلة نموه الأولى . ومرب حكيم يعطف على تلامذته كما يعطف على أبنائه يتعاون مع طبيب موجه مخلص النصح وأب رحيم خير يكلأ برعايته ويحيط بسخائه وزوج ساهر أمين يدرك أن المرأة جزء من بدنه وأمانة في عنقه وشريك في سرائه وضرائه إن أحسن لها أحسن لنفسه . وعليهما أن يوقنا معاً أن الزواج رباط واتحاد مقدس يجمع بين نفسين ودعامة راسخة اليها يستند في تكوين الأسرة الصالحة وعليها يعتمد في بناء المجتمع الفاضل المثالي . وكذلك يرقى المجهود الشخصي ، ويرتفع المستوى الاجتماعي . واذا ما شاع السلام والوئام في الأسرة ، شاع في المجتمع والأمة وعم العالم السلام .

١٩٦١/١/٧

٥

العوامل النفسية في الأمراض الجسدية

الدكتور عبد الله عبد الدائم

استاذ في كلية التربية

منذ سنوات ليست ببعيدة ما تكاد تجاوز العقد الثالث من القرن الحالي ، يشهد الطب الحديث مرحلة جديدة في حياته ، يسير فيها نحو فهم أشمل للمرض والعلاج . وأوضح ما يمثل هذه المرحلة الجديدة ، تلك النزعة المحدثة التي عرفت باسم نزعة الطب النفسي الجسدي .

وقبل أن نستبق الحديث عن هذه النزعة وسماتها ، وقبل أن نبين الانقلاب العميق الذي أحدثته في النظرة إلى المرض ، نود أن نؤكد منذ البداية أن ما حدث في ميدان الطب صنوٌ وقرين لما حدث من انقلابات أخرى في سائر ميادين الحضارة . فالحضارة كلٌ لا يتجزأ وما يطرأ من تغير في المفاهيم الثقافية العامة ، وفي الأسس الفلسفية للنظرة إلى الكون والحياة ، لا بد أن يجد صداه في شتى مجالات البحث العلمي ، ومن بينها البحث الطبي . فالطب ، كسائر العلوم والفنون ، لا يستطيع أن يحيا في معزل عن جملة الخط الحضاري الثقافي في عصره ، وهو لا يملك استقلاله الذاتي وسط تطور الحضارة . ولزامٌ عليه أن يتاح دفعات جديدة من الاتجاهات الفلسفية المبثوثة في عصر من العصور ، ومن بعض المنازع الفكرية الغالبة .

ولن يتاح لنا أن نعرض لجملة التطور الفكري والفلسفي الذي غذى منزع الطب النفسي الجسدي . وحسبنا أن نذكر ، في كثير من التعميم والإيجاز ، أن مهنة الطب ، لم تستطع أن تنجو في القرن الماضي ، من آثار النزعة الفلسفية الغالبة المميزة لذلك العصر ، نعني النزعة الوضعية . فكلنا يعلم كيف طغى العلم التجريبي على ميدان الطب ، كما طغى على سائر أترابه من العلوم الأخرى ، وكيف غدا ميدان الطب هذا مرتعاً تطبيقياً تطبق فيه نتائج جميع الأبحاث الفيزيولوجية والمخبرية . وهكذا ربي الجيل الماضي من الأطباء ، كما ربي الجيل الحالي منهم الى حد كبير ، على الأخذ بنزعة وضعية تجريبية مفرطة في ميدان الطب . وأدى نجاح الدراسات التجريبية في علم الحياة الى سيطرة نزعة وحيدة في فهم جسد الانسان ، هي النزعة التي تنظر إلى هذا الجسد نظرتها الى آلة ، تسيرها الحوادث الفيزيائية والكيميائية الخالصة ، وتنظر الى الأطباء نظرتها إلى ميكانيكيين أو مهندسين يعالجون هذه الآلة البشرية .

وما هدفنا أن ننكر الفوائد الجلى التي أصابها الطب عن هذه الطريق . فلقد كان من شأن مثل هذه النزعة الوضعية الاحاطة بخصائص البنية الجسدية ومعرفة آليتها . غير أن الاغراق فيها أدى الى نظرة خاطئة إلى المريض ، ترى فيه تجمعاً من الأعضاء ، أو قل جهازاً آلياً معطلاً ، ما علينا إلا أن نصلح الجزء الفاسد فيه . وهكذا ينطلق العلاج في مثل هذه الحال شطر علاج نوعي خاص بالعضو المريض ، بصرف النظر عن جملة الكيان العضوي ، فعلة عامل يصلح قطعة فاسدة من محرك سيارة .

سوى أن هذه الفلسفة الوضعية التي عكست أشعتها على ميدان الطب ، كما عكستها على سائر صوبجباته من الدراسات العلمية الأخرى ، ما لبثت أن لقيت رد فعل فلسفي عليها ، لا مجال الى الحديث عنه ههنا . وحسبنا أن نقول إن رد الفعل الفلسفي هذا حقق ضرباً من العود ، ضمن إطار جديد ، الى المنازع المثالية

في الفلسفة ، وأدى إلى الابتعاد خاصة عن الفهم الميكانيكي الآلي لظواهر الحياة. وكان يوازي هذه الردة الفلسفية اتجاه طبي جديد ، يقف عند عنصر طالما أهمل حتى ذلك الحين ،هو العنصر النفسي ،هو النفس الانسانية التي هي أساس الكيان الشخصي والعامل الحاسم غالباً في الاستجابات المرضية. وقد أدرك هذا الاتجاه الطبي الجديد خاصة أن الانسان ليس مجرد آلة ، بل يشتمل على العديد من العوامل الشخصية – أياً كان اسم هذه العوامل – لها شأن حاسم في حياته وفي موته .

ولحق ذلك أن تطور علم الحياة تطوراً موازياً لهذه الفلسفة الجديدة . فقام ، في مقابل المفهوم البيولوجي القديم ،الذي هو مفهوم سببي علي خالص ، يجزيء الكائن الانساني إلى آلاف من الأجزاء ويجرب دراسة كل منها على حدة ، مفهوم وجود بيولوجي متآخذ شامل ، ينظر اليه كصيغة كلية ، كبنية مرصوصة ، كجشطالت gestalt ، على حد تعبير أصحاب نظرية الصيغة ، من كولر إلى كوفكا . وأهم ما يؤكده هذا المفهوم أن الحياة العضوية ، وحدة متآخذة متعانقة ، وأنها لا تفهم حق الفهم إلا إذا أشرفنا عليها هذه الإشرافة الكلية الشاملة ، وإلا إذا قر في ذهننا دوماً أن ما نعنى به ما هو تجمع أجزاء مستقلة وإنما هو الكل الذي لاينقسم .

هذا المنزع الطبي الجديد ، أخذ في الذيوع قليلاً أو كثيراً في أوساط الأطباء ، وهو منزع مارسه العديد من الأطباء ، ويمارسه أكثرهم في عملهم اليومي . غير أنه ماتخذ شكله الكامل إلا بفضل هذه الحركة الطبية المحدثة ، حركة الطب النفسي الجسدي .

فههنا خاصة غدا موضوع الاهتمام الأصيل للعلاج الطبي ، المريض ككائن إنساني له همومه ومشاغله وله أمله ويأسه ، بالإضافة الى كونه حاملاً لأعضاء

مريضة ، لكبد مكبود أو معدة شاكية . وهذه الحركة المحدثة ، هي التي استخلصت النتائج الكاملة التي تترتب على النظرة إلى الكيان العضوي نظرة كلية شاملة ، حين وعت الترابط في هذا المجال بين الكيان الجسدي والكيان النفسي ، وحين أكدت أن الكيان العضوي الموحد الكامل ما هو في نهاية الأمر سوى هذا الكائن الإنساني جملة" الذي نرده اصطلاحاً إلى نفس وجسد.

لقد أهمل طب القرن الماضي ، ذو النزعة الوضعية كما ذكرنا ، الجانب النفسي من حياة الإنسان ، حين أراد أن يكون علماً طبيعياً بكل مافي هذه الكلمة من معنى ، يطبق مبادىء الفيزياء والكيمياء على العضوية الحية ، وحين جعل مبدأه الأسامي الإيمان بأن الجسد ووظائفه أمور يمكن أن يعبر عنها بلغة الظواهر الفيزيائية الكيميائية . بل بدا لهذا الطب إذ ذاك أن الاهتمام بالجانب النفسي ضرب من العود إلى جهل القرون الماضية ، يوم كانت الأمراض تعد أثراً من آثار الشياطين ومساً من الجن أو الأرواح الشريرة ، ويوم كان العلاج شعوذة أو سحراً هدفه طرد الخبائث من الجسد المرزوء

ووقع الاتجاه الطبي العلمي الذي ساد ذلك القرن الماضي في آفات التمذهب وكان موقفه هو الموقف المغالي لكل طارق جديد . فلقد أراد أن ينسى أصوله الماضية ، فجره ذلك إلى موقف فيه غلو ردود الفعل كلها . لقد تنكر لكل مايذكره بماضيه الروحي والصوفي ، وقاده ذلك إلى الظن بأن مثل هذا الموقف ينبغي أن يتأدى به إلى إهمال العوامل النفسية ، وإلى الامعان في نظرة عضوية خالصة قوامها التجزىء والفصل .

وزاد في هذه النزعة المغالية ما أدت إليه دراسة الجراثيم وإدخال المجهر خاصة من توكيد لنظرية التخصص في مجال الأمراض . إذ غدت الأنسجة منذ ذلك الحين محل الأمراض وأعلن مثل « فيرشوف Virchow » أن لا وجود

لأمراض عامة ، وأن ثمة فقط أمراضاً للأعضاء والأنسجة . وقادت الاكتشافات الكبرى التي قام بها هذا العالم الكبير في ميدان الأمراض النفسة إلى الإيمان الجازم بالأصل النسيجي الخالص للأمراض ، وظلت آثار هذا الإيمان حتى يومنا هذا .

وقد عبّر كاتب مثل « ستيفان زفايغ Stephan Zweig »، وهو الدخيل على ميدان الطب ، تعبيراً رائعاً عن تلك النزعة ، في كتابه الشهير « الشفاء بالروح » فقال :

« إن المرض لايعني اليوم مايقع للانسان في جملته ، وإنما يعني مايقع لأعضائه ... وإن مفهوم المرض ككل مفهوم قد تبدل . وتضاءلت بذلك رسالة الطبيب الأصلية والطبيعية . إن مهمته تقتصر اليوم على تحديد مكان المرض ، على تشخيصه ، على حشره في زمرة معروفة من الأمراض . وقد أخذ هذا الشكل الموضوعي الفني للعلاج أوضح صورة له في القرن التاسع عشر ، وذلك لأن عنصراً ثالثاً جديداً تدخل بين الطبيب والمريض هو عنصر الآلة ، ذلك العنصر الميكانيكي الخالص. وهكذا غدا نفاذ الطب وقدرة التركيب الخلاق لديه ، من الأمور الثانوية في التشخيص » .

ومع ذلك مانريد أن تذهب بنا الإشادة بالنزعة الجديدة ، نزعة الطب النفسي الجسدي ، إلى نكران جميع أصولها السابقة ، وإلى اعتبارها حركة بديئة من ألفها إلى يائها . فالحق أن لهذه الحركة مستبقين لها منذ أقدم عصور التاريخ ، ونحن واجدون بذورها في التوراة والفيداس Védas ، ولدى آباء الكنيسة ، ولدى العرب خاصة . وفي جميع العصور وجد أطباء ينظرون إلى المرض نظرة شاملة يقيمون فيها الوزن الكبير لأحوال المريض النفسية وجملة بنيته الشخصية . بل ان المنتصرين لنزعة جسدية خالصة في الطب ، لايعوزهم في علاجهم اليومي لمرضاهم الاهتمامُ بالعوامل النفسية ، ولا نعدم عندهم نصحاً

بالراحة لمريض يعاني من ارتفاع الضغط ، وتحذيراً من الإعياء لآخر مكبود .

غير أن تلك القرزمات التي نقع عليها في تاريخ الطب ، وتلك العناية العابرة بالعوامل النفسية التي نشهدها في العلاج اليومي حتى لدى أكثر الأطباء عداء من الوجهة النظرية للمفاهيم الكلية والتعليلات الشاملة ، تظل جانباً يسيراً جداً من نزعة الطب النفسي الجسدي في كامل معناها ووثبتها الحديثة . فهي في الحق لاتقف عند حدود هذا الاهتمام العادي الذي نعرفه لدى جميع الناس ، بأثر الأحوال النفسية في الآفات البدنية ، بل تجاوز ذلك إلى بحث علمي منظم في هذه الوحدة الشاملة ، وحدة الحياة الجسدية النفسية . والطب النفسي الجسدي الذي نود الحديث عنه علم نشأ في قرننا هذا ، له أصوله المنهجية والتجريبية . وما هو تجميع لطائفة من النظرات الحدسية العابرة ، بل هو ثمرة بحث دائب عنيد ، لا يعتمد على الملاحظات العابرة ، وإنما يعتمد على جملة من النظريات ذات الطابع العلمي الخالص .

الدراسات التي ساعدت على نشأة نزعة الطب النفسي الجسدي

وقبل أن نخوض في الحديث عن أسس هذه النزعة الجديدة ، لابد أن نشير إلى أهم الدراسات التي ساعدت على بزوغها . وإشارتنا هذه ليست في الواقع تاريخاً فحسب وإنما هي عون على فهمها من خلال مخاضها .

على رأس الدراسات التي ساعدت على نشأة نزعة الطب النفسي الجسدي ، الدراسات الخاصة بالأمراض النفسية . فكلنا يعلم كيف كان ميدان الأمراض النفسية حتى أواخر القرن الماضي منفصلاً عن سائر ميدان الطب . فبينما كانت الأمراض عامة تبحث ضمن إطار نتائج الدراسات المخبرية ، كانت الأمراض النفسية تتبدى خارجة عن هذا الإطار ، غريبة عنه . وقد حاول الأطباء المؤمنون بالأساليب المخبرية الخالصة ، وبمبادىء « فيرشوف » خاصة ، أن

يحققوا في ميدان الأمراض النفسية ما فعلوه في ميدان الأمراض الأخرى ، أي أن يردوا هذه الأمراض النفسية إلى أسباب جسدية تشريحية بينة ، لاسيما بعد تقدم علم الأنسجة . ولكنهم أخفقوا في محاولتهم هذه . صحيح أنهم استطاعوا أن يردوا الخبل العام ، الذي تعرف أصوله الراجعة إلى الأمراض الزهرية منذ أمد بعيد ، إلى بعض الآفات النسيجية في الجهاز العصبي المركزي . وصحيح أنهم كشفوا عن بعض التغيرات في بنية النسيج الدماغي ، في حال عته الشيخوخة وفي المرض المعروف باسم مرض « آلزهايمر Alzheimer » . ولكنهم في مقابل ذلك وقعوا في حيرة مابعدها حيرة حينما وجدوا أن معظم الاضطرابات النفسية المعروفة – كحالات الفصام وحالات الذهان الوسواسي الهمودي وغيرها – لم يمكن إرجاعها إلى آفات تشريحية تقبدى بالمجهر . ورغم أن العلاج عن طريق الوسائل الكيميائية ، ولاسيما بعد أن اكتشف « إيرليش Ehrlich » الدواء الشهير بال « سالفارسان Salvarsin » الذي حل محله البنسلين فيما بعد ، قد نجح في بعض ميادين الأمراض النفسية ، ورغم أنه أمكن تفسير التأخر العقلي في ذلك الحين بسوء عمل الغدة الدرقية وتم اكتشاف أثرٍ كثيرٍ من الغدد الصم في الأمراض النفسية ، ظل من الصحيح دوماً أن ثمة طائفة من الأمراض النفسية لاتخضع لهذه الضروب من التفسيرات الجسدية ولهذه الأنماط من العلاج . على رأس هذه الطائفة الفصام ، الذي لانلفي فيه وراء تفكك الشخصية العميق أيَّ تغير عضوي ملحوظ . والأمر على هذا النحو في تلك الزمرة الواسعة من الأمراض النفسية التي يطلق عليها اسم الأمراض العصابية névroses .

وكلنا يذكر ما أدت إليه دراسة هذه الأمراض النفسية المستعصية ، من ثورة في مفاهيم الطب النفسي ، على يد عالم النفس النمسوي الشهير « سيغموند فرويد » . ولن نعود ههنا إلى أصول النظرية الفرويدية في تفسير الأمراض

النفسية ، ولن نزجي حديثاً غدا مكروراً عن موقف صاحب مدرسة التحليل النفسي من النظرة السائدة في عصره عن الأمراض النفسية ، وعلى رأسها الهستيريا ، ولن نرحل معه إلى مستشفى السالبتريير حيث درس على شاركو واطلع على أساليبه في علاج هذا المرض دون أن ينقع له ذلك غليلاً ، ولن نصحبه في تطوافه حتى « نانسي » حيث تعرف على وسائل العلاج عن طريق التنويم المغناطيسي التي كان يصطنعها « برنهايم Bernheim » . بل لن يتيح لنا الوقت أن نقف عند عند تجاربه الهامة التي بدأها مع استاذه « برويير Breuer » ثم أكملها لوحده بعد انفصاله الأليم عن ذلك الأستاذ . والذي يعنينا من هذا كله أن فرويد وضع الأسس المكينة لتفسير جديد لنشأة الأمراض النفسية ، يمكن أن نعده في المجال الذي يعنينا في محاضرتنا ، أول رد فعل علمي قوي ضد المبادىء التحليلية التي كانت سائدة في الطب خلال النصف الثاني من القرن التاسع عشر ، وأقوى ضربة وجهت إلى العناية بالتفصيلات العضوية الآلية وأنجع سهم صوب نحو تلك النزعة التي كانت تنكر ذلك المبدأ البيولوجي الأساس ، الذي مافتئنا نشير اليه وهو أن الكيان العضوي كل متآخذ ، وأن سير أجزائه لا يمكن أن يفهم إلا من خلال سير الجهاز العضوي كاملاً .

وهكذا غدت دراسة الأمراض النفسية ، التي أخذت على يد فرويد شكل دراسة للشخصية المريضة بكاملها ، أساساً لموقف جديد في الطب بكامله ، أبرز مافيه اتخاذ الشخصية بكاملها محوراً لاهتمامات الطبيب .

وهكذا استبان للطب ، عن طريق ما وقع في ميدان الأمراض النفسية ، أن ثمة أمراضاً لا مجال إلى ردها إلى آفات محددة متوضعة في مكان ما ، لأنها أمراض ترجع إلى اضطراب في الوظيفة الكلية للشخصية ، ترجع إلى الكيان الجسدي النفسي بكامله .

وزاد في تعميق هذه النظرة إلى الكائن الإنساني ككل موحد ، ماحدث

من اكتشافات في مجالات أخرى غير مجال التحليل النفسي ، على رأسها ظهور نظرية الصيغة أو الشكل ، ثم تقدم دراسة الأمراض العصبية ، وخاصة تقدم الدراسات المتعلقة بالغدد الصم .

ولن نقف طويلاً عند نظرية الصيغة أو الشكل ، تلك النظرية التي كان من أقطابها « كولر Kökler » و « فيرتهايمر Wertheimer » و « كوفكا Koffka » والتي أحدثت انقلابات أساسية في النظرة إلى الحوادث النفسية والجسدية على حد سواء . وحسبنا أن نقول إن هذه النزعة كانت رد فعل على النزعة التحليلية المغرقة التي سادت علم النفس في القرن التاسع عشر على يد أمثال فيشنر وفيبر وغيرهما ، والتي أدت إلى « تشريح » النفس الإنسانية ، تأسياً بما حدث في علوم المادة الجامدة . وكان أقوى ما جاءت به نزعة الصيغة هذه ، في جوابها على تلك النزعات المحللة المجزئة ، التجاربُ التي أيدت قولها بأن « الكل » ليس مجرد مجموع للأجزاء ، بل هو شيء زائد عما في أجزائه ، مباين لها . ولهذا فمن المتعذر أن نفهم الأجزاء دون أن ندرك الدلالة التي لها ضمن جملة الكيان الكلي الذي تنتسب إليه .

ومثل هذا التطور الذي أطلقته نظرية الصيغة في ميدان الحياة النفسية خاصة ، جرى في ميدان الطب نفسه ، وحملت لواءه الدراساتُ الخاصة بالأمراض العصبية . إذ بينت هذه الدراسات أن جميع أجزاء الجسم مرتبطه ارتباطاً مباشراً أو غير مباشر بجهاز مركزي تعمل تحت إشرافه ، وأن العضلات الإرادية والعضلات الخاصة بالحياة النباتية أيضاً ، تخضع للمراكز العليا في الجهاز العصبي . أما خضوع هذه الأخيرة ، نعني الأعضاء الخاصة بالحياة النباتية ، فيتم بوساطة الجهاز العصبي المستقل . وهكذا تتجلى وحدة الكيان العضوي عن طريق وظائف الجهاز العصبي المركزي ، وتبدّى واضحاً أن هذا الجهاز يعمل منظماً للعمليات الداخلية النباتية وللفعاليات الخارجية المتصلة بالبيئة . وهذا الطابع

المركزي تمثله المراكز العليا في الجهاز العصبي ، تلك المراكز التي يطلق على المظهر النفسي لها ، اسم الشخصية .

وهكذا خطت الدراسات الطبية خطوة جديدة شطر الإدراك الكلي لوحدة الكيان الإنساني ، في مظهره الجسدي والنفسي .

وقدم دفعة جديدة لهذا الاتجاه ما تم من اكتشاف الغدد ذات الإفراز الداخلي ، التي أطلق عليها اسم الغدد الصم . إذ سار هذا الاكتشاف خطوة جديدة في فهم التعقد الهائل لوظائف الجسد النباتية والتشابك الكبير بينها ، وإذ تبدى جهاز الغدد الصم جهازاً منظماً كالجهاز العصبي المركزي سواء بسواء . وبينما يقوم الجهاز العصبي المركزي بنقل المنبهات العصبية وتنظيمها عن طريق الأعصاب المحيطية التي تنتشر في جميع أجزاء الجسم ، يقوم جهاز الغدد الصم ببث مواد كيمياوية خاصة في مجرى الدم ، فينظم سير الأعضاء بوسائل كيمياوية .

ونعلم اليوم ، بعد تطور دراسات الغدد ، أن عمليات التبادل الاستقلابي تنظّم أولاً عن طريق هرمونات الغدة الدرقية ، وأن استقلاب مائيات الفحم يتم عن طريق التأثير المتضاد لكل من غدة البانكرياس من جهة وهرمونات الغدة النخامية والكظرين من جهة ثانية ؛ بل نعلم فوق هذا أن الغدة النخامية هي التي تلعب الدور الأول في تنظيم إفرازات الغدد الصم المحيطية، ولهذا يطلق عليها بعضهم اسم « الغدة الأم » .

بل أضافت آخر الاكتشافات إلى هذه الحقيقة شيئاً جديداً ، يزيد في إدراك وحدة الكيان العضوي ، وهو أن معظم وظائف الغدد الصم خاضعة في نهاية الأمر إلى وظائف المراكز العليا للدماغ ، أي إلى الحياة النفسية .

إن جميع هذه الاكتشافات أدت في خاتمة المطاف إلى أن ندرك بينة

واضحة أثر الحياة النفسية في الوظائف الجسدية وأثر الوظائف المحيطية للجسد في وظائف الجهاز العصبي المركزي .

وتطبيق هذه الحقائق التي تم اكتشافها شيئاً بعد شيء على بعض العمليات الجسدية المرضية ، قاد في نهاية الأمر إلى دخول النزعة الجديدة التي دعيت باسم نزعة الطب النفسي الجسدي .

ولادة نزعة الطب النفسي الجسدي :

ولقد ولدت هذه النزعة اتجاهاً جديداً في دراسة أسباب المرض. فالتجربة اليومية العادية تبين لنا أن للانفعالات العنيفة أثراً في الوظائف الجسدية . بل هي تبين لنا أن ثمة تناذرات نوعية خاصة لكل حال من أحوال الانفعال ، من مثل الضحك والبكاء والاحمرار وتغير دقات القلب والتغيرات التنفسية وغيرها . ولكن لما كانت هذه العمليات النفسية الحركية لاتجر إلى اضطرابات ذات بال في حياتنا اليومية ولا تتبدى لها نتائج ضارة ، أهملها الطب التقليدي ولم يعرها كبير اهتمام ، ما دامت أعراضاً تزول بزوال الانفعال ولا تخلف أثراً ، وما دام الاستقرار يعاود الكيان العضوي من جديد .

غير أن الدراسات التي قام بها مذهب التحليل النفسي خاصة على أنواع العصاب ، كشفت حقيقة جديدة وهي أن اضطرابات جسدية مزمنة يمكن أن تحدث تحت تأثير الانفعالات النفسية الطويلة المتكررة . وكلنا يعلم كيف لوحظت هذه الاضطرابات الجسدية أولى ما لوحظت ، لدى المصابين بالهستيريا ، وكلنا يذكر تلك الأعراض الجسدية التي تحدث لدى هؤلاء نتيجة لضروب الصراع العاطفي . كلنا يذكر أولى الدراسات التي قام بها « فرويد » على تلك المريضة الشابة التي كانت تشكو أعراضاً جسدية كشفت دراسة فرويد عن

أساسها النفسي ، وكان ذلك الكشف نقطة الانطلاق في مذهبه كله[١] .

وقد حاول أنصار التحليل النفسي الأوائل أن يمتدوا بهذه الظاهرة وبهذا التفسير لأعراض الهيستريا الى سائر أشكال الاضطرابات الجسدية الناشئة عن أسباب نفسية ، بما في ذلك الإضطرابات التي تجري في الأحشاء . فبينوا مثلا أن أعراضاً جسدية كارتفاع ضغط الدم أو النزيف المعدي تشتمل على دلالة رمزية شبيهة بأعراض الهستيريا ، وما كان أولئك الفرويديون الأوائل قد أعاروا بعد الأهمية اللازمة لحقيقة ذات بال ، وهي أن الأعضاء الحشوية ينظمها الجهاز العصبي المستقل المعروف باسم الجهاز الودي ، وأن من غير المحتمل بالتالي أن تكون أعراضها تعبيراً رمزياً عن أفكار ، كما يجري في الأعراض الهستيرية . غير أن هذا لا يمنع تأثرها الواضح بالأحوال الإنفعالية التي تستطيع أن تنتشر في جميع أجزاء الجسد بوساطة الطرق اللحائية التلامسية وبوساطة الألياف المستقلة . وبما هو ثابت لا يحتمل الجدال أن الآثار الإنفعالية يمكن أن تنشط أو تكف عمل كل عضو . والطبيعي ، بعد زوال التوتر الأنفعالي ، أن تعود الوظائف الجسدية التي اضطربت به ، الى سابق توازنها غير أن هذه الإثارة والكف للوظائف النباتية ، بتأثير الإنفعالات ، حين تغدو مزمنة ومفرطة تؤدي الى اضطرابات عميقة في تلك الوظائف ، تدعى أحياناً باسم « عصابات الأعضاء » وهو اسم يشمل كل ما يدعى باسم الاضطرابات الوظيفية للأعضاء النباتية .

ولا حاجة الى الوقوف طويلاً عند مفهوم الاضطرابات الوظيفية هذه ،

---

(١) Freud. Cinq leçons de psychanalyse, Paris, Payot. 1950 (trad. par yves Le Lay), in Psychologie Collective et Analyse du Moi.

هذا المفهوم الذي أنضجه الأخصائيون بالأمراض الداخلية ،لا أطباء الأمراض النفسية . وحسبنا ان نذكّر بما اكتشف من الاضطرابات العصابية او الوظيفية للمعدة وللأمعاء ولجهاز القلب والأوعية الدموية .

والمهم أكثر من هذا أن يستبين لنا عن طريق هذه الإشارة الفارق بين الأعراض الجسدية الشبيهة بأعراض الانقلاب الهستري وبين الاعراض التي تنتسب الى عصاب الأعضاء أو بكلمة أخرى الى الاضطرابات الوظيفية للأعضاء. فالأعراض الأولى تعبير رمزي عن محتوى نفسي ذي طاقة إنفعالية . وهدفها تصريف التوتر الإنفعالي . وهي تحدث في الجهاز العصبي العضلي الإرادي أو في الجهاز الحسي الإدراكي ، وهو جهاز وظيفته الأساسية التعبير عن التوتر الإنفعالي وتصريفه . أما عصاب الأعضاء فليست غايته التعبير عن الانفعال ، وإنما هو جواب فيزيولوجي تقوم به الأعضاء الحشوية على العود الدائم أو الدوري للأحوال الانفعالية. فزيادة ضغط الدم مثلاً تحت تأثير الغضب لايخفف من هذا الغضب . ومثل هذا يصدق على إفراز المعدة في حال الجوع الذي لا يخفف من الرغبة في الطعام .

على أن الشيء المشترك بين النوع الأول من الأعراض ، نعني الأعراض الهسترية ونظائرها ، وبين النوع الثاني من الأعراض ، نعني الأعراض الراجعة إلى إضطرابات وظيفية في الأعضاء ، هو أن كليهما جواب على منبهات نفسية ، وأنها يؤكدان بالتالي أهمية العوامل الانفعالية في الاضطرابات الجسدية . ولهذا كانت النتيجة الطبيعية لهذه الحقيقة انتشار العلاج النفسي لبعض الأمراض الجسدية. سوى أن هذا العلاج النفسي اقتصر حتى تلك المرحلة من التطور على حالات الاضطراب الوظيفي ، ولم يتناول الاضطرابات العضوية الحقة الراجعة إلى تغيرات ملحوظة في الأنسجة . ولقد أدرك الباحثون منذ أمد ، في مجال هذه الاضطرابات العضوية ، أهمية الأحوال الانفعالية ، ولكنهم ما كانوا قد

اكتشفوا بعد طبيعة الرابطة التي تربط بين العوامل النفسية وبين هذه الاضطرابات العضوية الأساسية .

لهذا خطت الدراسات خطوة جديدة في هذا المجال ، فاستبان شيئاً بعد شيء أن لا مجال لاقامة فراق قاطع بين ما هو وظيفي وما هو عضوي. واخذ الأخصائيون يتبينون ان الاضطرابات الوظيفية الطويلة المدى يمكن ان تؤدي إلى اضطرابات عضوية خطيرة مصحوبة بتغيرات في البنية النسيجية . وساعدت بعض الحقائق التي كانت معروفة إذ ذاك على توكيد هذه النتيجة . فلقد كان معروفاً منذ أمد طويل ان فرط نشاط القلب يمكن أن يؤدي الى تضخم عضلات القلب، وأن الشلل الهستيري لعضو من الأعضاء يمكن أن يقود إلى انحطاط في العضلات والمفاصل نتيجة لبقائها مشلولة ساكنة . وهكذا بدا من الممكن أن تؤدي الاضطرابات الوظيفية الطويلة المدى لعضو من الأعضاء إلى آفة في هذا العضو وإلى وقوع مرض خطير فيه بالتالي. وقامت الدراسات النفسية والفيزيولوجية مغذة جادة لتزيد في تحقيق هذه الفرضية ، وأدت في مجال قرحة المعدة خاصة إلى الاعتقاد بأن الاضطرابات العاطفية الدائمة يمكن ان تكون الخطوة الأولى نحو عصاب في المعدة قد يولد مع الزمن قرحة المعدة ، كذلك بينت مثل هذه الدراسات أن الاضطرابات الانفعالية ، إذ تثير تقلبات دائمة في ضغط الدم ، يمكن أن تؤدي مع الزمن الى وقوع اعياء في جهاز الأوعية .

هذه الاعتبارات الجديدة تبلورت في مفهوم شامل، هو مفهوم «اضطرابات الوظائف العضوية ذات النشأة النفسية» . وهذه الاضطرابات تتكون حسب وجهة النظر التي أتينا على ذكرها في مرحلتين : ففي المرحلة الأولى يحدث اضطراب وظيفي في العضو ، نتيجة للانفعال المتكرر الدائم ؛ وفي المرحلة الثانية تقود الاضطرابات الوظيفية المزمنة إلى تغيرات تدريجية في الأنسجة وإلى مرض عضوي مستعص بالتالي .

وهكذا حدث تغير بارز في مفهوم المرض وأسبابه . فلقد كان الاضطراب الوظيفي يفسَّر من قبل برده إلى آفة نسيجية عضوية . أما بعد تقدم الدراسات التي أتينا على ذكرها ، فقد وجدت رابطة سببية جديدة ، فبدت الاضطرابات الوظيفية على العكس علة في بعض الأحيان للآفات النسيجية . ورغم أن هذه النتيجة لم تكن بالجديدة تماماً ، فإنها لم تلق القبول اللازم من كثير من الأطباء ، وقابلها العديد منهم حذرين مشككين . فلقد ربي هؤلاء كما رأينا على مبادىء « فيرشوف » ، وظلوا نهباً للأثر العميق الذي أحدثه فيهم اكتشاف الجراثيم كأسباب للأمراض . ولهذا مارى أطباء المدرسة القديمة هذه في القول بأن الاضطراب الوظيفي يمكن أن ينجم عن صراع انفعالي . وظنوا أن الأبحاث الجرثومية في المستقبل لابد أن تكشف عن تغيرات نسيجية في مثل هذه الاضطرابات الوظيفية .

العوامل الانفعالية في الأمراض :

غير أن تطور الدراسة أثبت على العكس ، عن طريق البحث الدقيق في تاريخ حياة المرضى ، وجود أصل وظيفي للاضطرابات وأن هذا الأصل سابق على التغيرات النسيجية . ولئن كان من العسير أن نقرر حتى اليوم ما هي الاضطرابات العضوية الناجمة عن مثل هذه الأسباب الوظيفية المرتبطة بعوامل نفسية ، فمن المحتمل جداً أن تكون كثير من الأمراض التي توضع عادة تحت ذلك العنوان الكبير في الطب ، نعني عنوان « الأمراض المزمنة التي لا يعرف لها أصل » مندرجة تحت هذه الزمرة من الأمراض الوظيفية ذات النشأة النفسية . ومن الراجح أن العوامل الانفعالية المزمنة ذات أثر كبير في الكثير من اضطرابات الغدد الصم . وهذا أمر بين في مرض الجدرة . إذ نعلم أن بداية هذا المرض ترجع غالباً إلى رض انفعالي . كذلك من البيّن أن العوامل الانفعالية تلعب دوراً أساسياً في اضطرابات استقلاب مائيات الفحم ، وبالتالي

في نشأة مرض السكر . ومعنى هذا كله ، بعبارة جديدة ، أن كثيراً من الاضطرابات المزمنة لا تنشأ في البداية عن عوامل خارجية سواء كانت ميكانيكية أو كيمياوية ، ولا تتولد من جراثيم مفرطة في الصغر ، وإنما تنشأ اولاً وقبل كل شيء عن النشاط المفرط المستمر الذي تقوم به الوظائف العضوية أثناء الحياة اليومية في نضالها الدائم من أجل الحياة . والعوامل الانفعالية ، من مثل الخوف والعداء والتأثم والرغبات المحرومة إذا ما كبتت وصدت دوماً ولدت توتراً انفعالياً مزمناً يؤدي إلى اضطراب وظائف الأعضاء الحشوية . وتعقد حياتنا الاجتماعية من شأنه أن يجعل كثيراً من الانفعالات مكبوتة لا تجد لها منصرفاً ولا تستطيع أن تعبر عن نفسها تعبيراً خارجياً عن طريق انقلابها إلى فعالية إرادية حرة . وهكذا تمكث هذه الانفعالات سجينة ، وكثيراً ما تحوّل مجراها فتنطلق في طرق أخرى خطيرة . إنها بدلاً من أن تتجلى في الأفعال العصبية الارادية ، تؤثر في الوظائف النباتية ، كالهضم والتنفس والدوران . إن شأنها في هذه الحال شأن أمة حيل بينها وبين أن تحقق مطامحها السياسية الخارجية ، فكانت بسبب ذلك معروضة لهزات داخلية واضطرابات اجتماعية . ذلك ان الكيان العضوي ، عندما تضطرب صلاته مع العالم الخارجي ، يمكن أن يبدي أيضاً اضطرابات في سياسته الداخلية تتراءى في اختلال وظائفه النباتية .

ولئن كان من البدهي بعد هذا ان بعض الجراثيم المرضية تفضل بعض الأعضاء ، ولهذا تدعى بالجراثيم النوعية الخاصة ، فمن الصحيح أيضاً أن مثل هذه الظاهرة تسري على الانفعالات التي تفضل بدورها عضواً على عضو والتي يختص كل منها في معظم الأحيان بأثره في عضو معين بالذات . فالغضب المكبوت ذو صلة خاصة فيما يبدو بجهاز الأوعية الدموية والقلب . ونزعات القلق العاطفي ، والحاجة إلى الحماية ، تبدي صلة نوعية خاصة بوظائف التغذية . والرغبة الجنسية ذات أثر نوعي فيما يبدو ، في وظائف التنفس .

وواضح أن اغتناء معلوماتنا في ميدان الصلات بين الانفعالات وبين نشاط الكيان العضوي نشاطاً سوياً أو مرضياً ، يستلزم تبدلاً كبيراً في موقف الطبيب الحديث . إن من اللازب عليه أن يألف النظر إلى ضروب الصراع الانفعالي نظرته إلى أشياء لاتقل في واقعيتها عن الجراثيم التي يمكن أن ترى بالعين أو بالمجهر . وأكبر ماقدمته الدراسات النفسية ، وعلى رأسها دراسات التحليل النفسي ، إلى عالم الطب أنها أضافت إلى المجهر البصري مجهراً آخر نفسياً .

وهكذا نرى أن النزعة النفسية الجسدية في مشكلات الحياة والمرض ، تقدم نوعاً من التركيب والربط بين العمليات الفيزيولوجية الداخلية وبين استجابات الفرد على البيئة الاجتماعية . إنها تقدم أساساً علمياً للملاحظات المعروفة الشائعة ، من مثل التحسن السريع للمريض نتيجة انفصاله عن بيئته الأسرية أو بعد انقطاعه عن أعماله المألوفة المعتادة . ذلك أن هذه الدراسات تبين أن الصراع الانفعالي العاطفي يسقي جذوره من الظروف الأسرية والمهنية . ولهذا كان من شأن الدراسة المتصلة للصلات بين الحياة العاطفية وبين العمليات الجسدية ، أن تزيد من مجال فعالية الطبيب . فإذا بضروب العناية الجسدية والنفسية التي تقدم للمريض تنسّق وتدمج ضمن علاج طبي شامل . وهذا هو المعنى العميق الحق للطب النفسي الجسدي .

وجدير بالإشارة أن هذه العوامل الانفعالية يمكن أن تلعب دوراً في جميع الأمراض الجسدية المعروفة ، لا في طائفة منها فحسب . والهام في شرعة هذه النزعة أن كل مرض ، من الوجهة النظرية ، مرض نفسي جسدي معاً ، لأن العوامل الانفعالية تؤثر في جميع العمليات الفيزيولوجية ، بوساطة الطرق العصبية والافرازات الغدية . وليس مجزئاً أن نقصر لقب الأمراض النفسية الجسدية على أمراض شهيرة معدودة ثبتت أصولها الانفعالية ونجح علاجها بالطرائق

النفسية ، من مثل قرحة المعدة، وأعراض الروماتزم ، وتضخم الغدة الدرقية، وارتفاع ضغط الدم ، والربو ، ومرض السكر ، وبعض الأمراض الجلدية . والحق أن هـذه الأصول النفسية الجسدية المشتركة تلعب دورها في جميـع الأمراض . حتى السل لايكفي فيه أن نؤكد أنه وليد اجتياح عصية كوخ . إنه هو أيضاً مرض نفسي جسدي . وقد أثبت بعض الباحثين المحدثين ، من مثل « سترن Stern » ، في كتابه : صراعات الحياة أسباب للأمراض[١] ، أثر العوامل الانفعالية ، بل أثر الرغبات اللاشعورية ، في انطلاق مرض السل . ولا يتسع المجال للحديث عن ملاحظاته الهامة في هذا المجال .

وحسبنا في ذلك كله أن نقول إن كل مرض ، مهما يكن شأنه ، يمكن أن ترجع أسبابه إلى قائمة العوامل التالية :

١ ـ البنية الوراثية .

٢ ـ رضوض الولادة .

٣ ـ الأمراض العضوية في الطفولة التي تزيد من تأذي بعض الأعضاء واستعدادها للإصابة .

٤ ـ ضروب العناية التي لقيها الشخص في طفولته : من مثل طراز الفطام الذي خضع له ، وطريقة تعويده على النظافة ، والشروط المـادية والنفسية لنومه الخ ...

٥ ـ الحوادث العارضة الجسدية أو الرضية التي تقـع في طور الطفولة الأولى والثانية .

٦ ـ التجارب العارضة العاطفية التي تقع في طور الطفولة الأولى والثانية .

---

(١) Dr Erich Stern , les conflits de la vie . causes de maladies, Paris, Payot, 1955 .

٧ ـ الجو العاطفي في البيئة المنزلية والملامح الشخصية المميزة للوالدين والأقرباء.

٨ ـ الرضوض الجسدية اللاحقة .

٩ ـ التجارب العاطفية اللاحقة المتصلة بالعلاقات بين المريض وأقرانه ، وبالعلاقات المهنية وسائر الصلات الاجتماعية .

وواضح أن هذه العوامل التي عددناها يختلف أثرها من مرض إلى مرض . وواضح أيضاً أن أهمية الطب النفسي الجسدي ترجع إلى أنه أضاف العامل الرابع والسادس والسابع والتاسع إلى سائر العوامل الأخرى التي عرفها الأطباء دوماً . غير أن الهام في هذا كله مايؤكده الطب النفسي الجسدي من أن النظرة الكلية الشاملة إلى هذه العوامل المختلفة هي وحدها التي تستطيع أن تقدم للطبيب لوحة صحيحة كاملة تكشف عن نشأة المرض وأسبابه . ولهذا فهو يطلب إلى الطبيب وصفاً دقيقاً للعوامل النفسية ، ويرى من الواجب أن تكون دقة هذا الوصف النفسي مساوية لدقة الملاحظات الفيزيولوجية . وعنده أن الدراسات الفيزيولوجية التي تُربط بوصف نفسي اعتباطي لايمكن أن تسهم في فهم سبب المرض فهماً أحسن . والوصف الدقيق لنشاط قلب مريض ، مهما يكن هذا الوصف مفصلاً ، شيء عديم القيمة إن لم يصحب بمعرفة لحالاته الانفعالية ولأفكاره.

فكرة السبب في المرض

ذلكم أن من أهم الانقلابات التي تحدثها النزعة النفسية الجسدية في الطب ، الانقلاب الهام في النظرة إلى فكرة « السبب » في الأمراض النفسية . ولنوضح ذلك ، نستقي هذا المثال الذي أورده « بوفال Pophal » في كتابه بالاسبانية عن مفهوم السبب الذي نشر عام ١٩٣٠ في بونس آيرس . يقول « بوفال » : إن كلاً منا يعلم أن ذات الجنب تعتبر مرضاً إنتانياً نموذجياً يرجع غالباً إلى أثر الجرثوم المعروف باسم Diplococcus lanceolatus . ومع ذلك فإن مسألة

انطلاق هذا المرض ليست بهذا القدر من السهولة : فليس من الكافي ان نضع انساناً أمام هذا الجرثوم ليتكون الالتهاب الرئوي المذكور. ولنا أن نسأل : كيف يحدث أن هذا الجرثوم الذي نقع عليه كثيراً في الفم دون أن يكون ذا أثر ضار ، ينقلب في لحظة من اللحظات عاملاً مرضياً في الرئتين ؟ إننا نعلم أن الغشاء الطبيعي للمجرى التنفسي ، والنسيج النخروبي للرئتين ، يملكان قدرة كبيرة على المقاومة. إن كل مانلاحظه أن هذه النزلة الصدرية نتيجة لزكام ومعنى ذلك ، في عرف الطب التقليدي القديم ، أن الزكام « سبب » ذات الجنب .

ولكن من واجبنا أن نضيف في مثل هذه الحال أن الناس إذا وجدوا في ظروف واحدة ، لايصابون جميعهم بالزكام . ومن ميسرات الزكام كما نعلم استعداد مكتسب أو مستند إلى بعض الخصائص الوراثية في الكيان العضوي. وثمة أسباب كافية تحملنا على الاعتقاد بوجود استعداد وراثي سابق للزكام . وهكذا نمسك بسبب ثالث لذات الجنب، بالإضافة إلى الجرثوم والى الزكام .

وأخيراً ينبغي أن نأخذ بعين الاعتبار الاستعداد السابق للإنتان الناجم عن الجرثومة التي ذكرناها ، وألا ننسى أنه إذا ماوقعت الإصابة فإن انطلاق المرض يرتبط بجملة من الظروف المتنوعة : كحالة التعب لدى المريض ، والادمان على الكحول من قبل الخ . . . وجميع هذه العوامل يمكن أن تسمى أسباباً . . .

وهكذا تكون بين أيدينا حزمة من الأسباب . فأيها هو السبب الحاسم أو الأساسي كما يقولون ؟ لاشك أن السبب الحاسم ما هو الجرثوم الذي أشرنا إليه والذي يعتبر الجرثوم الخاص بذات الجنب ، والذي هو في الواقع جرثوم لاخطر له. وإذا ما اتبعنا نظريات علم الطبيعة في دراسته للطاقة ، قلنا إن السبب هو البنية النسيجية الخاصة للرئتين اللتين تحدث فيهما الظاهرة المعروفة باسم ذات الجنب .

ولكن مثل هذه الظاهرة لا تنشأ أبداً من تلقاء ذاتها ، أو بسبب بعض العوامل الداخلية المزعومة . ولا بد لهـا أن تُحرّض وتثار على نحو ما عن طريق عوامل خارجية ، هي الجرثومة . ومع ذلك هذا اللقاء بين رئة تملك استعداداً مرضياً وبين منبه خارجي لا يكفي لإثارة المرض ، ولا بد أن تنضاف شروط أخرى خاصة جداً ، ترجع إلى عوامل أوسع ، منها النفسي والاجتماعي .

وهكذا نرى أنه إذا كان مفهوم السبب مفهوماً مفيداً في العلوم الطبيعية ، فإنه لا يملك مثل هذا الشأن في علم الحياة ، والسبب في ذلك أن الكائن الحي لا يستجيب استجابة جزئية بسيطة ، وإنما يستجيب استجابة شاملة ككل ، كبنية . والمرض في نهاية الأمر ظاهرة حيوية . وفي ميدان الحياة ، لا بد أن نقيم وزناً كبيراً للصلات المتبادلة والدائمة التي تربط الكائن الحي ببيئته . وفي وسعنا أن نجمع هذه الصلات في كلمة واحدة هي « التكيف » . والمرض في نهاية الأمر عجز عن التكيف ، والشفاء إعادة لهذا التكيف . وعوامل التكيف وانعدامه عوامل عديدة شتيته ولا يمكن ردها إلى سبب بسيط أو أسباب معدودة .

قرحة المعدة والطب النفسي الجسدي

وبعد ، سبق أن أشرنا إلى ما أسهمت به الدراسات النفسية الجسدية في مجال معرفة العديد من الأمراض والتماس وسائل الشفاء لها . وعلى رأس الأمراض التي تذكر في هذا الباب ، مرض الربو وارتفاع ضغط الدم وأمراض الجهاز الهضمي وبعض الأمراض الجلدية وبعض الأمراض المتصلة بالغدد الصم .

ولن يتاح لنا في هذا الموقف أن نتدارس هذه الأمراض جميعها ، على نحو ما يراها الطب النفسي الجسدي . وحسبنا ان نعرض كمثال ، لواحد من هذه الأمراض التي عنيت بها هذه النزعة وقدمت لها تفسيراً شاملاً وعلاجاً مستحدثاً ، ونعني بهذا المرض قرحة المعدة .

لقد تحدث المتحدثون عن « أسباب » كثيرة مختلفة تفسر وقوع هذه الآفة. فردها بعضهم إلى عامل إنتاني ، وردها آخرون إلى رضوض أو إلى حال من أحوال التحسس أو إلى اضطرابات في جهاز الدوران ... وليس من شأننا أن نتحدث عن هذه التفسيرات التي نقع عليها في كتب الطب . ونجتزيء منها بنتيجة لايماري فيها أحد من الباحثين ، هي أن ظهور قرحة المعدة مرتبط بوجود عصارة المعدة . وهذا أمر بيّن مادامت هذه القرحة لاتنال إلا أجزاء الجهاز الهضمي التي تحتك مع هذه العصارة (من مثل المعدة والمري والاثني عشر) ، ولاتنال أبداً الأجزاء التي لايبلغها هذا السائل . يضاف إلى هذا أن الباحثين استطاعوا أن يحدثوا قرحة المعدة تجريبياً على بعض الكلاب عن طريق إدخال هذه العصارة ، بالطريقة التي أشاعها العالم الروسي بافلوف Pavlov ، أيام دراسته للفعل المنعكس الشرطي .

وهكذا تقود هذه الحقيقة البدهية الأولى ، وهي ضرورة وجود عصارة المعدة لحدوث القرحة ، إلى الأخذ بالنظرية المعروفة باسم النظرية الهضمية. وهي نظرية ترى أن عصارة المعدة تخرب جدرانها وتحدث الآفة عن هذه الطريق . وقد ثبت ذلك تجريبياً منذ بين « كلود برنار Claude Bernard » أن عصارة المعدة قادرة على أن تهضم رجل ضفدع حية .

وهذه الحقيقة الثانية تقودنا إلى التساؤل التالي : لماذا لايحدث هضم جدار المعدة دوماً ؟ وما هي آلية الدفاع التي تمنع ذلك ؟

من المعروف قديماً أن المادة المخاطية التي تفرزها غدد المعدة تقوم بوظيفة حماية المعدة . وبينت أبحاث حديثة فوق هذا أن غشاء الإثني عشر يولد هرموناً مضاداً للقرحة يدعى باسم الـ entérogastron ، يقوم بعمله عن طريق مزدوج إذ يقلل من توليد عصارة المعدة ويحمي بشكل من الأشكال غشاءها .

وإذا كان الأمر كذلك ، فمعنى هذا أن مشكلة قرحة المعدة قوامها توازن بين القوة « المخرشة » لعصارة المعدة وبين مختلف آليات الدفاع التي تحول دون وقوع أثرها على الجدار المعدي المعوي . أي أن الآفة يمكن أن تقع إما بنتيجة زيادة العامل الأول ، نعني عصارة المعدة ، وإما بنتيجة ضعف العامل الثاني ، نعني الهرمون المضاد ، وإما بنتيجة اجتماع العاملين معاً .

أما تولد عصارة المعدة فيسيطر عليه خاصة الجهاز العصبي النباتي وبصورة خاصة الجهاز الشبيه بالودي . وأثر تضخم وظيفة الجانب من الجهاز الشبيه بالودي الذي يعصب المعدة يمكن أن يلخص في أمور ثلاثه : الأول فرط الإفراز والثاني فرط حركة المعدة والثالث فرط احتقان الدم فيها . أما فرط الإفراز فيؤدي إلى زيادة القدرة المخربة لعصارة المعدة ؛ وأما فرط الحركة وفرط احتقان الدم فيؤديان إلى إضعاف القوة الدفاعية للغشاء . وهذا كله يقودنا إلى إدراك شأن اضطراب التوازن العصبي النباتي ، ذلك الاضطراب الذي يخرب جهاز الهجوم والدفاع للغشاء المعدي ، فييسّر بذلك ظهور القرحة واستمرارها . وقد أثبت بعض الباحثين ذلك تجريبياً ، إذ نجحوا في إحداث قرحة لدى أرنب عن طريق تنبيه العصب الرئوي المعدي (المعروف باسم العصب المبهم) تنبيهاً كهربائياً . كذلك لاحظ آخرون حدوث قرحة المعدة نتيجة لحقن مادة « البيلوكاربين Pilocarpine » ، او نتيجة لتنبيه الجهاز شبه الودي .

وثمة مؤيد آخر لهذه الحقيقة تقدمه لنا الجراحة الطبية . نعني بذلك علاج قرحة المعدة عن طريق قطع العصب المبهم . وقد أعطى هذا العلاج في رأي بعض الباحثين نتائج إيجابية في عدد كبير من الحالات . ومعنى ذلك ان انقطاع العصب المبهم يحطم الدور الفاسد المرضي .

ولكننا إذا ما قبلنا الدور الهام الذي يلعبه فقدان التوازن العصبي النباتي في تكون قرحة المعدة ـ هذا الدور الذي يرجع فيما يبدو إلى سيطرة العصب المبهم ـ كان علينا أن نخطو خطوة أخرى فنكتشف الأسباب التي تؤدى الى فقدان التوازن هذا .

وفي هذا المجال تبين الدراسات كلها أثر المراكز العصبية المركزية ودورها في تكون قرحة المعدة . وهي تجنح بالتالي الى القول بوجود مركز شبيه بالودي في اللحاء المتوسط . ومكان هذا المركز فيما يبدو هو الحُدبية الرمادية التي تنطلق منها حزم من الألياف الخلفية تربطها بالنوايا المركزية للدماغ وللنخاع الشوكي ، وعلى رأس هذه النوايا وأشهرها نواة العصب المبهم التي تؤثر في الرئتين والقلب ومجرى الهضم العلوي .

ودلت التجربة على أن أي تخريب يقع في أى جزء من المجرى الداخلي لهذه الحزم من الألياف ضمن الجمجمة بدءاً من تحت التلاموس الخلفي حتى مركز العصب المبهم من شأنه أن يحدث انتكالات في جهاز الهضم أو قرحاً فيه أو ثقوباً .

وخلاصة هذا كله أن هناك أكثر من دليل وتجربة على شأن منطقة ما تحت التلاموس في قرحة المعدة . غير أننا نعلم في الوقت نفسه ما أثبتته التجربة من أن جميع وظائف ما تحت التلاموس يمكن أن تعمل تحت تأثير الأسباب النفسية . كما استبان بالبحث أن من الممكن الحصول عن طريق الإيحاء على تغيرات في عمل المعدة تتجلى خاصة في إفرازها وحركتها ، وأن للانفعالات السارة أو المؤلمة آثاراً واضحة على المصابين بالقرحة . بل مضت الدراسة الى أبعد من هذا ، فبينت أن من غير النادر تكوّن قرحة المعدة بنتيجة مثل هذه التغيرات النفسية ، وأن القلق أو العداء أو الغضب المكبوت بشدة يصحبها بالضرورة احتقان في المعدة وإفراط في حركتها وإفراط في إفرازها . وفي هذه الحال ،

تنطلق ائتكالات في غشاء المعدة وضروب من النزيف عند أدنى رض، وكثيراً ما تتبدى نقاط من الدم نتيجة التقبضات العنيفة لجدار المعدة .

وتحاك العصارة الهضمية الحامضة مع سطح مؤتكل على هذا النحو يؤدي إلى تزايد في إفراز هذه العصارة وإلى احتقان أكبر في غشاء المعدة . وإذا ما طال تعرض مثل هذا السطح إلى العصارة الهضمية ، انتهى الأمر بتكون قرحة معدة مزمنة .

ويختم أحد الباحثين حديثه عن هذه الصلة بين الانفعالات وبين تكون قرحة المعدة بقوله :

« يبدو من المحتمل إذن أن سلسلة الحوادث التي تبدأ بالقلق والغم وبصراع نفسي داخلي ، وما يصحب هذا القلق والصراع من فرط في نشاط المعدة ، والتي تنتهي بالنزيف أو الانثقاب ، هي التي تؤلف التاريخ الطبيعي لقرحة المعدة لدى الكائنات البشرية » .

هذه النتيجة توكيد واضح إذن لأثر الانفعالات القوي في نشأة قرحة المعدة. يضاف إلى هذا أن من الأمور التي يعرفها الأطباء أن وقوع «أزمات» المقروحين يتفق مع فترات التوتر الانفعالي بل مع بعض الرضوض العاطفية المحددة في بعض الأحيان . بل إن العديد من الأطباء نظروا إلى هذا المرض دوماً نظرتهم إلى آفة من آفات الحضارة الحديثة . وقد أثبت بعض الباحثين أننا لا نقع عليه مثلاً لدى سكان منطقة منعزلة من جبال الهيملايا . أفلا يشيع القول بأن أمراض جهاز الهضم هي أمراض المفكرين من الناس ؟

بل إن قيمة العملية الجراحية التي أشرنا إليها ، وهي قطع العصب المبهم ، تدل في نظر كثير من الباحثين على أهمية الاندفاعات العصبية والنفسية في تكون

قرحة المعدة . فمن الظواهر المألوفة لدى المرضى الذين عولجوا عن هذه الطريق، نعني قطع العصب المبهم ، أن المشاغل الأسرية والمهنية والمالية ، لاتترك بعد قطعه أي أثر في معدة المريض ، بعد أن كانت من قبل تحدث توتراً انفعالياً يزيد من سوء قرحته .

ولكن إذا كان الأمر كذلك ، وكان للانفعالات هذا الأثر الهام في تكون قرحة المعدة ، فمن حقنا أن نسائل : لماذا لانعاني جميعاً من قرحة المعدة هذه ؟ وهل هنالك بالتالي انفعالات من نوع خاص هي التي تحدث قرحة المعدة دون غيرها من الانفعالات ؟ وإذا كان الجواب بالإيجاب فما هي هذه الانفعالات ؟

لقد سبق أن رأينا أن أفضل الظروف الميسرة لبزوغ قرحة المعدة هي الناجمة عن فقدان التوازن العصبي النباتي الذي يتجلى في زيادة حموضة المعدة وفرط حركتها وفرط احتقان الأوعية الدموية فيها . ورأينا في الوقت نفسه أن مثل هذه الظروف الميسرة يسايرظهورها ظهور انفعالات كالقلق والغضب والكراهية . وعلينا أن نضيف هنا أن هذه الظروف نفسها تحدث في حال استعداد المعدة للهضم ، أي عندما «تتهيأ» المعدة لتلقي الطعام .

وهذه الحقيقة الأخيرة هي نقطة الانطلاق في نظرية نفسية هامة تحاول أن تكشف عن معنى الصراع العاطفي الثاوي وراء قرحة المعدة . وأول من تحدث عن هذه النظرية أحد زعماء مدرسة الطب النفسي الجسدي ، نعني الطبيب الأميركي آلكسندر Alexander [١] . وقد بدأ حديثه عنها منذ عام ١٩٣٤ في مقالات كثيرة ، ثم أيده في ذلك تلاميذه وأتباعه الكثيرون .

---

(١) انظر في هذا المجال كتابه الرئيسي الشهير المترجم الى الفرنسية بعنوان La médecine psycho - somatique . طبع دار Payot ١٩٥٢ .

وإليكم موجزاً لهذه النظرية :

ترى نظريات التحليل النفسي أن المرحلة الأولى من مراحل الحياة الجنسية لدى الطفل ، هي المرحلة الفمية . إذ نجد الطفل الوليد يستمتع بالطعام وبكل مايدخل إلى فمه . والأم طبعاً هي التي توفر له هذه اللذة ، كما توفر له الحماية والحب . ولهذا كان الطفل الوليد متعلقاً بها تمام التعلق . ومن هنا تربط نفس الطفل بين الغذاء والرعاية ربطاً انفعالياً ، ويختلط في حياته اللاشعورية تلقي الطعام وتلقي العطف . ومن السهل اكتشاف هذه الحقيقة في الحياة اليومية ، إذ ثبت لدى دراسة بعض حالات البدانة لدى الطفل أن نقص العاطفة التي يتلقاها الطفل يدفعه إلى التعويض عنها عن طريق الشره .

فإذا ما قامت بعد ذلك حوادث وأزمات عاطفية تؤدي إلى اضطراب النمو الطبيعي والنضج السوي للشخصية حاول الفرد أن يفر مما يستلزمه هذا الموقف من نضال ، وأن يأوي إلى التعلق بغيره . وهكذا تقوم لديه رغبة لاشعورية في أن يعود طفلاً تعنى به أمه وتحميه وتطعمه . ومثل هذا العود إلى التبعية والتعلق ، ليس ممكناً دوماً ، إذ كثيراً ما لا يجد مثل هذا الفرد من يحله محل أمه ومن يتعلق به تعلقه بها . وفي أحيان أخرى قد لا يرغب هو نفسه أن يعترف بهذه الحاجة إلى التعلق والحماية لأن مثل ذلك لا يتفق مع مبادىء حياتنا الاجتماعية ـ تلك المبادىء التي تؤثر تأثيراً قوياً في نموه النفسي والتي تريد منه على العكس أن يكون كائناً مستقلاً يعطي ويمنح بدلاً من أن يكون كائناً تابعاً يبحث عن الحماية والعون . وهكذا يحدث لدى الفرد رد فعل يجعله يسلك سلوكاً فيه عداء واستقلال وطموح وإيجابية . غير أن رغبة التعلق المكبوتة لديه تظل دوماً تحرقه من أعماقه وتستبد في لاشعوره . وبنتيجة العلاقة بين الحاجة إلى العطف والحاجة إلى الطعام التي ألفيناها لديه في طفولته ، تتحول هذه الرغبة إلى رغبة في أن يُطعم . وتعمل هذه الرغبة عملها دوماً في المعدة عن طريق الجهاز

العصبي ـ النباتي ، محدثة فيه ارتكاسات فيزيولوجية قوامها التهيؤ لتلقي الطعام ، ذلك التهيؤ الذي يجعل المعدة كما رأينا في موقف ميسر لانبثاق القرح . يضاف إلى هذا ان الفرد ، حين لا يجد التعلق والحماية اللذين يبحث عنهما في لاشعوره ، يشعر على العكس بعواطف العداء والكراهية ، تلك العواطف التي إذا ما كبتت أسهمت في زيادة التغيرات الفيزيولوجية التي تطرأ على المعدة . ومن الثابت تجريبياً أن تهيؤ المعدة لتلقي الطعام يمكن أن يحدث تغيرات خطيرة فيها إذا لم يأت هذا الطعام .

وهكذا نستطيع أن نلخص نظرية « ألكسندر » في قرحة المعدة على النحو التالي :

إن بعض الأفراد يشكون ضروباً من الصراع تحول دون النمو السوي لشخصيتهم وتخلق لديهم الرغبة في التعلق والحماية . فإذا لم تجد هذه النزعة السلبية مايشبعها في الواقع ، لأسباب داخلية أو خارجية ، ولدت عواطف عداء مكبوتة . ونزعات العداء هذه ، شأنها شأن نزعات التعلق تثير ، كردفعل ، اضطرابات عصبية نباتية قوامها إفراط في طاقة العصب المبهم ، تترك آثاراً في فيزيولوجية الهضم عن طريق ضعف الطاقة المقاومة وزيادة الطاقة الهجومية المخربة ، فتيسر بذلك انطلاق القرحة واستمرارها .

هذه النتيجة التي انتهى إليها ألكسندر أيدها كثير من الباحثين غيره وأيدتها التجربة العملية .

وقد كان بودنا أن نشفع هذا الوصف الذي تقدمه نزعة الطب النفسي الجسدي فيما يتصل بمرض جسدي كمرض القرحة ، بالإشارة الى وسائل العلاج التي تصطنع في هذا السبيل . غير أن ضيق المجال يحملنا على القول بإيجاز إن وسائل العلاج نابعة من طبيعة التفسير الذي تقدمه هذه النزعة للداء ، أي أنها

وسائل نفسية تحاول أن تقضي على العوامل اللاشعورية المكبوتة والرغبات الخبيثة ، مصطنعة الأساليب النفسية المعروفة في هذا المجال ، التي فصل في الحديث عنها مذهب التحليل النفسي خاصة . يضاف إلى هذه الوسائل النفسية وسائل جسدية تصاحبها ، نتيجة لإيمان أصحاب هذه النزعة بالصلة التامة بين ماهو جسدي وماهو نفسي . وهكذا يقوم العلاج على أساس شامل ، كما قام التفسير على مثل هذا الأساس الشامل ، فينصب على علاج العضو المريض والجهاز العصبي النباتي والفرد كله بعد ذلك . فالعلاج ينبغي أولاً أن يضعف من القوة الهجومية المخربة التي للعصارة الهضمية وأن يزيد من قدرة المقاومة لدى الغشاء الهضمي وذلك عن طريق الأمور التالية :

١) اتباع حمية ملائمة من شأنها أن تخفف من نشاط المعدة إفرازاً وحركة ، وتعطل أثر العصارة الهضمية الحامضة .

٢) استخدام العقاقير المضادة للحموضة .

٣) تناول مواد مخاطية مقوية لغشاء المعدة من مثل مادة الفوجلسون Fogelson

٤) العلاج عن طريق الأشعة السينية بغية تخفيف الحموضة .

٥) استخدام مادة كمادة الانتروغاسترون entérogastron التي اكتشفت منذ أمد ليس ببعيد .

ثم إن العلاج ثانياً ينبغي أن يهدف كما قلنا إلى إعادة التوازن العصبي النباتي عن طريق مواد كالمواد التالية : البلادون Belladone ، الأتروبين Atropine ، سلفات البنزدرين Sulfate de Benzédrine ، البابا فيرين Papavérine ، أو عن طريق اقتطاع العصب المبهم .

والعلاج ثالثاً ينبغي أن يحدث أثراً في المراكز الدماغية العليا التي تقوم بالاشراف على الجهاز العصبي النباتي ، وذلك عن طريق اللجوء إلى مركبات

« البرومور Bromure » والباربيتوريك التي ثبت نجعها في هذا المجال .

وأخيراً لابد للعلاج أن يعنى بالصراع العاطفي الذي هو أساس المرض وأن يجد له الحل ، عن طريق وسائل العلاج النفسي المعروفة ، التي لايتسع المجال للتفصيل فيها .

وكل ما يمكن أن يقال في مجال العلاج هذا ، أن المهم أن تتجه العناية الى الفرد لا إلى العضو المريض ، أي الى الفرد ككل ، الى العضوية ككيان جسدي نفسي متكامل متآخذ .

الحوادث اللاشعورية والمرض

وبعد ، هذه لمحة خاطفة عن تلكم النزعة المحدثة في الطب ، التي قدمت لموضوع الصلة بين الحوادث النفسية والأمراض الجسدية أوضح تفسير وأعمقه ، ومن خلال بعض جوانبها التي أشرنا إليها ندرك أن مسألة الصلة بين ماهو نفسي وما هو جسدي لم يعد اليوم مقصوراً في مجال الطب على ذلك التأثر والتأثير العامين الغامضين بين هذين الوجهين من أوجه الحياة ، بل تجاوزت ذلك الى تحديد دقيق مدروس لطبيعة هذا التأثر والتأثير المتبادلين ، قوامه دراسة عميقة علمية للأدوات والأجهزة الجسدية التي تنتقل بوساطتها الآثار النفسية عبر الوظائف العضوية المختلفة .

وهكذا يجد الطب نفسه أمام مرحلة جديدة كل الجدة : لقد كانت الأمراض قديماً تفسر كما نعلم تفسيراً جسدياً خالصاً . وأعقبت ذلك نزعة تفسير الأمراض النفسية بالأسباب النفسية ، بعد أن كانت ترد الى مس من الشيطان أو إلى أسباب جسدية خالصة فيما بعد . وجاءت نزعة الطب النفسي الجسدي فقدمت للأمراض الجسدية تفسيراً نفسياً ، بل نقول بتعبير أصح قدمت للأمراض جميعها تفسيراً واحداً وهو تفسير جسدي ونفسي في آن واحد ، وردت طبيعة المرض

إلى هذا التداخل الذي يقوم بين العوامل التي تدعى جسدية وبين العوامل العامة الشاملة في كيان الفرد ككل ، التي تدعى باسم العوامل النفسية .

ومن هنا استبانت للباحثين الحقيقة البدهية في ذاتها والتي أنكرت مع ذلك في التطبيق الطبي العملي طوال عصور مديدة ، وهي أن الكائن الإنساني يستجيب لأي حادثة تصيبه استجابة كلية شاملة ، وأن كل عنصر دخيل يغزوه لا يأخذ معناه لديه إلا من خلال اللحن الكامل لكيانه العضوي النفسي ، من خلال موقفه العام ، من خلال قدرته على التكيف مع كل طارق جديد . وهذه القدرة على التكيف قدرة عضوية نفسية في آن واحد . وهي بالتالي غير تابعة لطبيعة الجرثومة الطارقة وحدها ، ولا لطبيعة العضو المصاب وحده ، ولا لآلية سير الوظائف الفيزيولوجية وحدها ، ولا للتربة والبنية السابقة فحسب ، بل هي خاضعة لأولئكم جميعاً ، وخاضعة فوق هذا وقبل هذا لذلك التركيب الكلي الشامل الذي هو موقف الفرد الشخصي العام من المؤثرات التي تقع عليه وشكل استجابته لها ، ومدى تهيئه النفسي لقبولها أو رفضها .

إن الآثار التي تخلفها الحياة النفسية في سلوكنا اليومي ، في جميع مظاهره وأشكاله ، أعمق مما قد يخيل إلينا بكثير . وأشد هذه الآثار خطراً ما تخلفه الحياة النفسية اللاشعورية ، التي رأينا طرفاً من شأنها لدى دراستنا لقرحة المعدة على غرار ما ترى نزعة الطب النفسي الجسدي . وما زلنا في حاجة إلى إعادة المكرور من القول ، لنذكّر من جديد بأهمية الحياة اللاشعورية ، ذلك الاكتشاف الذي عد أكبر اكتشاف في القرن العشرين ، ولنبين تلك الحقيقة التي قررها فرويد وهي أن سلوكنا الحقيقي ، في طابعه الشامل الجسدي والنفسي معاً ، يتحدد بتأثير العوامل النفسية اللاشعورية بالدرجة الأولى . إن تلك الحوادث النفسية اللاشعورية ، كما يحلو لفرويد أن يقول ، أشبه بذلك الجانب الكبير من الجمودية الثاوي تحت سطح الماء ، في حين أن الجوانب الشعورية

الظاهرة أشبه بسطح الجمودية الظاهر فوق سطح الماء . وكلنا يعلم أن الكتلة الضخمة الكبرى من الجمودية هي التي تنوي تحت الماء ، ففيها مركز ثقل الجمودية وهي التي تحدد حقيقة سيرها واتجاهها وعملها . والامر على هذا النحو تماماً في مجال الحياة النفسية . فالحوادث اللاشعورية فيها هي التي تحدد الطبع والسلوك وطراز الاستجابة على المواقف وشكل الخضوع للأمراض وطريقة الارتكاس عليها .

ويطول بنا الحديث إن نحن أردنا أن نفصّل في أثر هذه الحوادث اللاشعورية في حياة المرء . وحسبنا مادمنا قد قصرنا حديثنا على ميدان الأمراض الجسدية أن نشير إلى مسألة كبرى قد تساعدنا على فهم الكثير مما يخفى من أمر التأثير الذي توقعه الحوادث النفسية اللاشعورية على الحياة العضوية الجسدية .

إننا جميعاً نذكر قولة فرويد الشهيرة حين وصف المرض النفسي بأنه ملجأ فالشخص الذي تثور في نفسه ضروب من الصراع النفسي ، لايقوى على حلها وإيجاد الموقف الذي يؤدي إلى التكيف معها ، يلجأ إلى المرض النفسي الذي يجد فيه خير لرواء لنزعاته النفسية ورغائبه اللاشعورية التي لا يسمح له الواقع الاجتماعي بإروائها وهو سليم معافى . وهكذا يعفيه المرض من الرقابة الاجتماعية ويبيح له أن يعبر عن الرغائب والمشاعر والمواقف العدائية التي لايقوى على إظهارها في حال الصحة . وبهذا المعنى يكوّن المرض النفسي ملجأ لمن لم يستطع أن يجد في الواقع حلاً لمشكلاته المستعصية .

هذه الحقيقة التي تصدق على المرض النفسي ، نرى أنها صادقة على المرض الجسدي ، لاسيما بعد ماشهدناه من عدم الانفصام بين المرض النفسي والجسدي . ومعنى هذه الحقيقة حين تطبق على الأمراض الجسدية ، أن هذه الأمراض أيضاً قد ينتجعها الشخص ، تحت تأثير عوامل لاشعورية ، حلاً لبعض المشكلات والأزمات العاطفية ، وخلاصاً من أنواع الصراع التي لايقوى على التحرر منها في حال الصحة .

إن كلا منا يعلم هذه الظاهرة البسيطة التي نجدها لدى الأطفال حين يجدون في المرض أو التمارض ملجأ يحميهم من بعض المهمات التي لا تروق لهم ، من مثل الذهاب إلى المدرسة . بل كلنا يعلم أن التعلل بالمرض كثيراً ما يصحبنا كباراً وكثيراً ما نجد فيه وسيلة لتبرير عجزنا وضعفنا أو قصورنا في مجال من المجالات. وكثيرا ما يكون هذا التبرير لا شعورياً فإذا بنا نقتنع بأننا مرضى ، فراراً من واجب ثقيل ملقى علينا ، أو عمل شاق لا نقوى عليه .

فإذا نحن وسعنا أفق هذه الملاحظة البسيطة العابرة ، استطعنا أن ندرك إدراكاً أعمق معنى أثر الحوادث اللاشعورية في الأمراض الجسدية . وكم كنا نود أن يتسع المجال لنتحدث عن كثير من الدراسات التي بينت كيف تنطلق بعض الأمراض في ظروف انفعالية وعاطفية يكون فيها الوقوع في المرض ضرباً من الخلاص يرى فيه المريض حلا لمشكلاته . كم كنا نتمنى أن نشير إلى ما أورده بعض الباحثين من الملاحظات على عدد من المصابين بالسل مثلاً ، الذين انطلق المرض لديهم في فترة هم أحوج ما يكونون فيها اليه ، حلاً لمشكلات عاطفية وأزمات نفسية لم يجدوا لها خلاصاً . ولا يعني هذا أن الرغبة اللاشعورية كافية وحدها لإحداث المرض ، ولكن معناه كما أدركنا من سياق المحاضرة كلها أن هذه الرغبة هي التي تنضاف الى العوامل الأخرى من استعداد بنيوي وجرثومة طارئة ، لتجعل وقوع المرض محتوماً .

ولعلنا لا نجد غرابة في توكيد هذا الأثر للحوادث والرغبات اللاشعورية بعد أن أوغلت نزعة الطب النفسي الجسدي في هذا المجال ، فكشفت عما هو أبعد مدى ، يوم بينت أثر الحوادث والرغبات اللاشعورية في الوقوع في الكوارث نفسها . لقد كشف لها البحث في الكوارث على اختلاف أنواعها أن هذه الكوارث كثيراً ما تكون مدفوعة برغبة لاشعورية للوقوع فيها . فكأن الفرد في كثير من الأحيان يبحث عن حتفه بظلفه ، يبحث عن عقاب

ينتظره ، بحثا لا شعورياً ، ويقع في الكارثة كأنه يتوقعها بل كأنه يريدها . حتى إذا كانت الواقعة ، وكان وجهاً لوجه أمام الكارثة ، كان موقفه النفسي أشبه بموقف من يقول : هاهي ذي ، لقد وجدتها . ذلك أن أقوى البواعث اللاشعورية أثراً في تعريض الأشخاص إلى الكوارث الشعور بالإثم ، ذلك الشعور الذي يحاول صاحبه أن يصرفه على نحو لا شعوري ، عن طريق تأنيب نفسه بنفسه وتوقيع العقاب على ذاته . ويبين « راوسون Rawson [١] » أن ٦٠٪ من المرضى المصابين بكسور يقرون لدى فحصهم فحصاً نفسانياً بشعور بالاثم وبنقمة وغضب موجهين نحو شخص له علاقة بالحادث . ويستشهد لذلك بالمثال التالي :

من أقوال فتى في السادسة عشر من العمر : « إنها حقاً خطيئتي ، لأن أمي أنبأتني أن طعام العشاء جاهز وأن علي ألا أخرج . ولكني خرجت مع ذلك ، ودخلت في شوط مصارعة فكسرت ذراعي . ولا ضير في ذلك إذ لاشك أن أمي نادمة الآن على ما فعلت وتتمنى لو لم تكن قاسية معي إلى هذا الحد . ويستشهد الكاتب نفسه بمثال آخر فيقول :

جرحت سيدة لها من العمر سبعة وعشرون عاماً وهي تهبط سلماً . وقد كان يقع لها الحادث عينه كلما اختصمت مع أهلها أو مع زوجها بعد أن تزوجت . ومما قالت بهذا الصدد : لعلي كنت أسلك خيراً من هذا السلوك الذي أدى إلى جرحي لو كان لديهم ذوق سليم وعاملوني بحظ من الاحترام أكبر ، بدلاً أن يقسو علي مثل هذه القسوة » .

إن مثل هذه الحوادث ، تعبير في الواقع عن فكرة عميقة الجذور في نفوسنا

---

(١) A. T. Rawson, « Accident Prononess », Psycho - som. Med., 6 : 88, 1944.

وهي أن الألم تكفير عن خطيئة . فالألم يخفف من قلق الوجدان المجرم ويعيد الى النفس سلامها الداخلي وطمأنينتها . ولما كان أكثر أسباب مشاعر الألم ذيوعاً لدى الأطفال هو الشعور بالثورة والكراهية ضد الآباء ، نجد الأشخاص المهيئين للوقوع في الكوارث يحتفظون راشدين بهذا الشعور الثوري الذي عرفوه في طفولتهم ضد آبائهم ، ويوجهونه ضد الأشخاص الذين يمثلون السلطة عامة . كذلك نجدهم يحتفظون برد الفعل الذي كانوا يقابلون به ، أطفالاً ، الخطايا التي يرتكبونها مع أهلهم وثورتهم ضد هؤلاء الأهل . وهذا الائتلاف بين البغض وبين الشعور بالخطيئة هو عامل من العوامل التي نعثر عليها غالباً في الكوارث . وبقول موجز إن الأشخاص الذين نجد لديهم حاجات ملحة لعقاب ذواتهم هم الذين يتألف منهم العدد الأكبر من الأشخاص المهيئين للوقوع في الكوارث . ويبين شأن مشاعر الإثم هذه في وقوع الكوارث الأسئلة الدارجة التي يطرحها المصابون بالكارثة بعد الصدمة مباشرة ، حين ينادون مثلاً : لماذا حدث لي هذا ؟ ولماذا كنت جديراً بمثل هذا العقاب ؟ » .

ويذكر « ألكسندر » مايؤيد هذه الفكرة القائلة بأن وراء بعض الكوارث قصداً ونية لاشعورية . فيذكر مثلاً أن رجلاً ذكياً في شرخ الشباب أتى الى عيادته يشكو اليه هموداً عميقاً بعد اخفاق حل به في كفاحه في سبيل العيش وكان هذا الرجل ينتسب الى أسرة رفيعة غير أنه لزواجه من امرأة تنتسب الى طبقة اجتماعية دون طبقته ، هجره أبوه وهجرته أسرته وقطعت كل صلة به . وقد انتهى صراعه الطويل في سبيل اللقمة باندحار وهزيمة نفسية سببتها أعراض مرضية عصابية بدأت تظهر عليه . فنصحه الطبيب أن يذهب الى محلل نفساني . ولما قنع بالنصيحة ، بعد تردد طويل ، طلب من الطبيب ذات أمسية أن يأتي ليراه وليتناقش معه في بعض التفصيلات المتصلة بهذا التحليل النفسي الذي ينصحه به والذي يحار في اتباعه . غير أنه لم يأت الى الطبيب ، إذ انقلبت سيارته على مقربة من بيت

هذا الطبيب ونقل إلى المستشفى مصاباً بجراح خطيرة . وذهب الطبيب لزيارته في المستشفى فوجد جراحه ثخينة ووجده ملتفاً بالضمادات الكثيرة ، وما كان يُرى من وجهه إلا عيناه . غير أنه وجده مع ذلك في حال معنوية جيدة ، ووجد حالة الهمود والأسى قد فارقته ، كأنما شفي من المرض النفسي الذي كان يعاني منه ، وكأن الكارثة قد أذهبت عنه همومه . وكانت الكلمات الأولى التي قالها هذا المصاب : « الآن دفعت ثمن كل شيء . الآن أستطيع أن أقول لوالدي رأيي الحقيقي فيه على الأقل » . وبدت لديه رغبة في أن يكتب رسالة شديدة اللهجة إلى أبيه يطلب أليه فيها نصيبه من ميراث أمه . كما اشتعلت في رأسه مشاريع كثيرة وأخذ يفكر في حياة جديدة .

خاتمة

أو نعجب بعد هذا كله أن يكون للحوادث النفسية ، وللحوادث النفسية اللاشعورية ، شأن كبير في سلوك الإنسان كله ، وفي سلوكه المرضي خاصة ؟.

ليس الهام أن نعجب ، والهام أن ندرك مدى تلك الأغوار البعيدة ، أغوار الحياة النفسية ، وأن نملك نظرة واعية إلى عمق الحياة الإنسانية وتعقدها وتشابكها . الهام أن يغدو العلاج الطبي علاجاً يطل من خلال هذا الوعي العام الشامل للإنسان ، للإنسان كنفس وجسد ، ككائن ملقى في الكون ، له مشاعره وصبواته ، وله نضاله اليومي في معركة الوجود ، وله تساؤلاته الطويلة حول جوهر وجوده وغاية حياته .

إن الإنسان الذي يمرض ، ليس تلك الآلة البسيطة التي يتعطل جزء من أجزائها ، إنه ذلك الإنسان الذي يحيا على الأرض وعيناه مشرئبتان إلى السماء. إنه ذلك الكائن الذي يبحث عن مجهول وجوده ومعنى حياته ، إنه ذلك الحي الذي يشعر بضآلته وعظمته في آن واحد ، يشعر أنه صفر بالقياس إلى اللانهاية

وكل شيء بالقياس الى الصفر . يشعر في آن واحد بأنه عاجز عن أن يستنقذ ماتسلبه الذبابة ، وبأنه صنو الآلهة وصورة الله وكلمته على وجهه البسيطة .

مثل هذا الكائن الذي يتقلب بين رمضاء العدم وقمم اللانهاية ، لايمكن أن يكون ذلك المكبود الذي يحياالمرض في جانب من كبده ، ولا ذلك الممعود الذي تقرح القروح معدته وتعدو عليه دون أن يكون له فيها شأن أو معها قصة . إنه يحيا مرضه ويحييه ، بل هو خالق مرضه وصحته إلى حد كبير .

إن وراء عدم الجسد عدم النفس ، ووراء حياة الجسد حياتها . وما يزال العالم المادي وحده أعجز من أن يكون المتحكم الوحيد في هذا الكائن الذي سخر المادة لخدمته أيما تسخير ، والذي استطاع عالمه النفسي أن يكون عصا سحرية تقلب وجه الكون والحياة .

إن العالم الأكبر ينطوي كله في العالم الأصغر ، عالم النفس الإنسانية : من خلالها يأخذ معناه ، وحوادثه رهينة بإطار هذه النفس . والمرض جزء من هذا العالم الأكبر ، لايتخذ شأنه إلا ضمن هواء الحياة النفسية الإنسانية الشاملة . إنه مرض الإنسان ، الإنسان القوي الضعيف ، الإنسان المريد العاجز ، الإنسان الذي تصطرع في دمه وفي لحمه وعصبه ملايين الرؤى الخفية والصبوات المبثوثة . إن مأساة الإنسان الذي يريد أن يتشبه بالآلهة في صبواته ومطامحه ، والذي يجذبه ثقل الحمأة ولزاجة الطين ، هي مأساة نفسه وجسدهمعاً تعيش في فكره كما تعيش في عروقه وأعصابه ، وتهز عقله كما تهز كبده الحرى أو قلبه الشبم ، وتجعل الحياة عنده دوماً في صراع مع المرض والموت .

١٩٦١/١/٢١

٦

المشاريع الإنتاجية في الإقليم السوري

السيد المهندس عبد الباسط الخطيب
نائب رئيس مؤسسة المشاريع الكبرى

مناسبة طيبة تتيح لي التحدث اليكم في هذه الأمسية عن المشاريع الانتاجية في إقليمنا السوري والتي تتصل مباشرة في رفع المستوى المعاشي لقسم كبير من أبناء هذا الاقليم .

لمن المعروف أن سوريا بلد زراعي يعتمد في زراعته بالدرجة الأولى على مياه الأمطار ومياه الأنهر والينابيع وأن ٧٠٪ من سكان هذا الاقليم يعتمدعلى الزراعة وأن ٥٠٪ من صادراته هي زراعية .

ولقد تطورت الزراعة بعد جلاء الأجنبي عن هذا الاقليم تطوراً محسوساً إذ زادت الأراضي المروية زيادة كبيرة وزاد الإنتاج الزراعي . إلا أن هذه الزيادة في المساحة المروية والزيادة في الإنتاج الزراعي بقيت مرتبطة بالجهد الفردي وبقيت مياه الأمطار عاملاً أساسياً هاماً في نمو وانخفاض الانتاج الزراعي تبعاً لانخفاض كمية الأمطار وغزارتها ، هذا بالاضافة إلى أن عدم توزيع هذه الأمطار سواء كانت شحيحة أو غزيرة على فصول السنة وعدم انتظامها من سنة الى أخرى كانت دوماً سبباً هاماً في تعطيل الانتاج وإخفاقه ومانعاً عن استغلال الأراضي البعلية استغلالاً كاملاً .

ورغم نشاط الفرد واتباعه الطرق الزراعية الحديثة من استعمال الآلات الميكانيكية والأسمدة والبذور المحسّنة ونظام الدورات الزراعية لزيادة الانتاج

الزراعي، فالزراعة في الأراضي المروية والبعلية بقيت محدودة وعلى نطاق ضيق.

وللتحكم في الانتاج الزراعي وزيادته والاستفادة من مياه الاقليم إلى أقصى الحدود والحيلولة دون وقوع كوارث كالتي حدثت في الماضي وبصورة خاصة في السنوات الأخيرة، كان لا بد من انشاء السدود على مجاري الأنهر وفي المواقع المناسبة لتخزين المياه والقيام بالمشاريع الاروائية للأراضي البعلية للتغلب على هذه الكوارث.

وكان هدف المسؤولين العمل على دراسة واستغلال جميع المصادر المائية من أمطار وأنهر وينابيع بما فيه المياه الجوفية لري الأراضي القابلة للزراعة فضلاً عن إستغلال هذه الثروة المائية لتوليد الطاقة الكهرمائية للاستعمال الزراعي والصناعي. وأن استغلال هذه الثروة المائية في الحقلين الزراعي والصناعي، سيكون له الأثر الطيب في تدعيم النقد السوري والميزان التجاري، وبالتالي رفع الدخل القومي ورفع مستوى الحياة لسكان الاقليم السوري.

وعلى هذا، قامت الدولة بدراسات شاملة في عدد من المشاريع منها ما أصبح في دور التنفيذ ومنها لا يزال قيد الدراسة الدقيقة بالنظر لسعتها وأهميتها المادية والتوسعية.

نقدر مساحة الأراضي في الإقليم السوري بـ ١٨ ٥٠٠ ٠٠٠ هكتار منها:

٥٠٠ ٠٠٠ هكتار أراضي مروية

٤ ٠٠٠ ٠٠٠ هكتار أراضي بعلية تزرع. و

٢ ٦٠٠ ٠٠٠ هكتار أراضي بعلية غير مزروعة. و

٤٠٥ ٠٠٠ هكتار أراضي حراجية. و

٦ ٢٥٠ ٠٠٠ هكتار مراعي. والباقي

٤ ٧٠٠ ٠٠٠ هكتار أراضي صحراوية غير قابلة للزراعه.

وتتراوح نسبة هطول الأمطار السنوية بين ٧٠٠ مم على الساحل و ١٠٠٠ مم

في جبل العلويين وأقل من ١٠٠ مم في الصحراء الشرقية من الإقليم السوري و ٤٠٠ - ٥٠٠ مم في المناطق الشمالية من الاقليم ، بينما يتناقص تدريجياً في الحسكة ـ حوض الخابور ـ من ٣٠٠ مم تقريباً إلى أقل من ١٥٠ مم في دير الزور على الفرات .

إن إمكانيات الري في الاقليم تتوقف على عاملين أساسيين هما :

أولاً ـ مصادر المياه وامكانيات التخزين من جراء إنشاء سدود على مجاري الأنهر .

ثانياً ـ الأراضي القابلة للزراعة .

فمصادر المياه المتوفرة في الإقليم السوري هي على الشكل التالي :

١ ـ نهر العاصي	بمعدل	١,٠٠٠	مليار متر مكعب سنوياً
٢ ـ نهر الفرات	»	٢٦,٥٠٠	» » » »
٣ ـ نهر الخابور	»	١,٧٥٠	» » » »
٤ ـ بقية الأنهر	»	٢,٥٠٠	» » » »
المجموع :		٣١,٧٥٠	مليار متر مكعب سنوياً

ومن هذه التقديرات نرى أن كمية المياه التي يمكن الإستفادة منها سنوياً لا تقل عن ١٨ مليار .

وتوزع الأراضي التي يمكن ريها على الشكل التالي :

١ ـ حوض العاصي من ٥٠ ألف هكتار تروى حالياً الى ١٢٠ ألف هكتار

٢ ـ حوض الفرات

بما فيه البليخ من ٢٠٠ ألف هكتار تقريباً إلى ٩٨٠ ألف هكتار

٣ ـ حوض الخابور من ٣٠ » » » » ١٤٠ » »

٤ ـ بقيـــة الأنهر

والينابيع من ٢٢٠ ألف هكتار تقريباً الى ٢٦٠ ألف هكتار
أي من مجموع : ٥٠٠ ألف هكتار تروى حالياً الى ١٥٠٠ مليون هكتار تقريباً .

وعلى هذا فمن المنتظر بعد اتمام الخطة الانمائية أن تزيد مساحة الأراضي المروية الى ثلاثة أضعاف ما هي عليه الآن علماً أن الخطة الخمسية الأولى والتي ستنتهي عام ١٩٦٥ ستزيد مساحة الأراضي المروية من ٥٠٠ ألف هكتار الى ٧٥٠ ألف هكتار أي بنسبة ٥٠ ٪ زيادة عما هي عليه الآن .

وأنني أستعرض معكم سيداتي، سادتي ، باختصار المشاريع الانمائية الزراعية التي هي قيد التنفيذ أو الدراسة .

أولا — حوض العاصي :

ينبع نهر العاصي في منطقة الهرمل داخل الأراضي اللبنانية وتغذيه ينابيع عديدة أهمها نبع الزرقا ونبع اللبوة في لبنان ونبع الفوار قرب تل النبي حيث وقعت معركة قادش بين الفرس ومصر بالقرب من بحيرة حمص وينابيع الغاب ، ويصب في البحر الأبيض المتوسط بالقرب من انطاكية . ويتراوح تصريفه من ١٠ - ١٨ متر مكعب في الثانية عند الحدود السورية اللبنانية وبين ٨ - ٤٠ متر مكعب في الثانية بعد بحيرة حمص .

ويبلغ طول مجراه من منبعه في الهرمل حتى دركوش شمال الغاب ٤٢٠ كم وفارق منسوب النهر عند الحدود اللبنانية ودركوش يصل الى ٤٣٠ متراً مما يساعد على ايجاد شلالات متعدد على مجراه لاستغلال الطاقة الكهرمائية وتتراوح كمية الأمطار في حوضه من ١٠٠٠ مم في جبل العلويين الى ٦٠٠ مم غربي حمص حتى ٢٠٠ مم في المنطقة الواقعة شرقي حمص .

وتربة وادي العاصي متنوعة الخصوبة وصالحة للزراعة وبصورة خاصة وادي الغاب . ويقسم حوض العاصي الى ثلاثة أقسام :

١ ـ القسم الاول :

وهو حوض العاصي الأعلى . يبدأ عند الحدود السورية ـ اللبنانية وينتهي بالقرب من منطقة الرستن شمال شرقي حمص . وتقدر الأراضي القابلة للزراعة بحوالي ٢١ ألف هكتار نقوم حالياً بدراسة مشروع ري قسم كبير من هذه الأراضي من المياه المتوفرة مع امكانية توليد طاقة كهرمائية بين منطقة البحيرة غربي حمص ومنطقة الرستن للاستفادة من فارق الارتفاع .

٢ ـ القسم الثاني :

وهو مشروع ري حمص ـ حماه الواقع بين بحيرة حمص ومدينة حماه ومساحته ٢٢ ألف هكتار تروى من مياه بحيرة حمص .

تشكل بحيرة حمص خزانا اصطناعيا من جرّاء انشاء سد قديم رمم وأعيد انشاؤه وتعليته خلال عامي ١٩٣٣ - ١٩٣٤ لكي يؤمن تخزين قرابة ٢٠٠ مليون متر مكعب ، يستفاد من تخزين معظمها لأغراض الري. وتبلغ مساحة هذه البحيرة في حدود ستة آلاف هكتار .

وتبدأ قناة الري الرئيسية سعة ٦٠٠ر٦ م ٣/ثا من مأخذ عند السد الى الجانب الأيمن من النهر مع شبكة ري مارة في حمص حتى الرستن ثم تقطع وادي العاصي في سحار الى الجانب الشمالي من الرستن ومنها الى جنوب حماه وتبلغ طول القناة ٩٨ كم ويبلغ مجموع الأقنية الفرعية ٤٠٤ كم نصفها مكسو بالبيتون بما فيه القناة الرئيسية والتي تغذي مدينتي حمص وحماه بمياه الشرب .

وتقدر المساحة المروية سنوياً من هذا المشروع بحوالي عشرة آلاف هكتار من أصل ٢٢ ألف هكتار تحت الري .

٣ ـ القسم الثالث :

وهو مشروع الغاب . ويعتبر هذا المشروع من أكبر المشاريع الانمائية التي تنفذ حاليا وقد بوشر في تنفيذه منذ عام ١٩٥٤ وينتظر أن ينتهي في العام القادم علما بأن المرحلة الثانية منه والتي تضم منطقة طار العلا ـ العشارنة بوشر في تنفيذها في مطلع هذا العام ، وستنتهي خلال الخطة الانمائية الأولى .

ويهدف مشروع الغاب الى تجفيف واستصلاح ٣٥ ألف هكتار تم تجفيف معظمها وري مساحة في حدود ٧٢ ألف هكتار كما يهدف الى انشاء سدود لتخزين مياه الري ودرء الفيضانات عن الأراضي الواقعة بعد هذه السدود وكذلك انشاء شبكات الصرف والري والطرق وأحواض لتربية الاسماك .

وتتناول مشاريع الغاب مايلي :

آ ـ أعمال الصرف :

تشكل مستنقعات الغاب من فيضان نهر العاصي بسبب ضيق مجراه ووجود عتبة بازالتية مرتفعة في قعر النهر عند قرية الكفير شمالي الغاب وكذلك ارتفاع اكتاف مجرى العاصي مما يعرقل تصريف النهر ويجعلها تطغي على قسم كبير من الأراضي فتحولها الى مستنقعات عديمة الفائدة .

وكانت الخطوة الأولى هي توسيع وتعميق مجرى النهر بين قرية قرقور وقرية الكفير شمالي الغاب بشكل يؤمن تصريف ٣٠٠ م ٣/ثا وكذلك تحويل كامل مجرى نهر العاصي الى منتصف السهل الواقع بين نهر العاصي الحالي وسفح جبل العلويين ومن قرية العشارنة حتى قرية قرقور بطول يقرب من ٦٠ كم وسعة ٢٧٥ م ٣/ثا بدلا من المجرى القديم الذي لم يكن يستوعب أكثر من ٢٥ م ٣/ثا .

وتم ايضا انشاء قناتين رئيسيتين على الجانب الشرقي من النهر القديم في

وسط السهل الواقع بين نهر العاصي وسفح جبل الزاوية مجموع طولها ٤٨ كم وسعة ٦٠ م ٣/ثا .

هذا فضلا عن البدء بانشاء مصارف ثانوية وثلاثية لتصريف مياه الأمطار والينابيع والفائض من مياه الري الى المصرف الرئيسي أو نهر العاصي الجديد.

هذا وقد تم ايضا انشاء سد محردة ومهمته الأساسية درء الفيضانات عن أراضي العشارنة والغاب الواقعة بعد السد .

ب — أعمال الري :

بعد أن بدأنا بدراسات الغاب وتحققنا من الثورة الكامنة في أراضيه والفوائد المرجوة منه ، رأينا ضرورة تعميم الزراعة الكثيفة وضرورة ايجاد مصادر مائية جديدة بالاضافة الى مياه الينابيع الموجودة في الغاب لتؤمن الري الكامل واستغلال جميع الاراضي ، وكان لابد من ايجاد سدود تخزينية بالاضافة الى ينابيع الغاب . وبنتيجة الدراسات تقرر انشاء سد الرستن لتخزين ٢٥٠ مليون م ٣/ سنويا . ويبلغ طول هذا السد بما فيه الجسر فوق بوابات مصرف فائض المياه ٤٤٦ متراً وارتفاعه ٦٩ متراً وعرضه في الأعلى ١١ متراً وفي الأسفل ١٨٠ مترا وهو من النوع الركامي ويتكون من :

١ — سد ركامي من الصخر المكدس وبداخله نواة من الطين المدكوك وحول النواة طبقة من الرمل والحجر المتدرج الحجم .

٢ — مصرف فائض المياه (Spillway) مجهز ببوابات حديدة من النوع المحدب تكفي لتصريف ١٥٠٠ م ٣/ ثا .

٣ — نفق طوله ٤٠٠ متراً بقطر ٦,٦ مترا استعمل لتصريف مياه النهر أثناء انشاء السد وسيستعمل كمصرف مساعد لمصرف فائض المياه .

٤ — نفق طوله ٥٢٠ مترا بقطر ٣,٢ مترا مبطن بقساطل ضغط فولاذية لتوصيل المياه الى محطة توليد الكهرباء .

٥ - محطة توليد الكهرباء .

٦ - مجموعة سكنية تتضمن مساكن الموظفين ومكاتب الادارة ومراكز الاسعاف والمختبرات .

ويتضمن المشروع الأعمال التي أنجزت وهي :

١ - حفريات وردميات ترابية وصخرية	٦٠٦	ألف متر مكعب
٢ - ركام من الحجر المكدس	٨٤٨	» » »
٣ - نواة السد من الطين المانع لتسرب المياه	٢٦٦	» » »
٤ - طبقه ترشيح حول نواة السد	١٠٤	» » »
٥ - بيتون	٧٣	» » »

وقد تمت جميع هذه الأعمال في ٢٨ شهرا بعمل متواصل خلال ٢٤ ساعة وكذلك تمت أعمال محطة توليد الكهرباء ومن المنتظر تشغيلها قريباً .

وقد نتج عن اختيار موقع سد الرستن غمر ٢٠٠٠ هكتار من الأراضي ، قسم منها من التربة الجيدة والآخر دون الوسط وكذلك غمر جسر الخط الحديدي بالقرب من حربنفسه مما زاد في تكاليف السد إذ يبلغ مجموعها بما فيه تكاليف السد حوالي خمسين مليون ليرة سورية .

أما بالنسبة للفوائد المرجوة من السد فهي :

١ - تخزين ٢٥٠ مليون متر مكعب من المياه تكفي لري ٢٥٠ ألف دونم من الأراضي الجيدة .

٢ - توليد طاقة كهرمائية في حدود ٤٣ مليون كيلو وات ساعي .

٣ - اختصار عدد من المنعطفات الخطره من الطريق العام بجوار الرستن .

٤ - تجميل المنطقة وتحسينها مناخياً بواسطة البحيرة التي شكلت خلف السد .

ويعتبر سد الرستن أول سد ركامي من نوعه في الاقليم السوري ومن أعلى السدود التي يمكن أن تنشأ في المستقبل في اقليمنا هذا .

أما بالنسبة لسد محردة فهو سد ركامي كسد الرستن ولكنه أصغر حجماً ويبلغ ارتفاعه ٥٣ متراً وطوله ٢٣٠ متراً وعرضه في الأعلى ستة أمتار وفي الأسفل ١٥٥ متراً . مهمته الاولى درء الفيضانات ويكفي لاستيعاب ٦١ مليون متر مكعب في حده الأعظمي وقد تمّ بناؤه في نهاية الشهر الماضي .

وبالإضافة إلى هذين السدين نقوم بإنشاء السد التحويلي في موقع العشارنة تنبثق منه قناتان رئيسيتان اليمنى بطول ٥٢ كيلو متراً لري الأراضي شرقي نهر العاصي القديم ، واليسرى لري المناطق الواقعة في سفح جبل العلويين ونهر العاصي الجديد وطولها ٥١ كيلو متراً .

ويتكون السد التحويلي من المنشآت التالية :

١ – سد تحويلي من البيتون المسلح مجهز ببوابتين متحركتين .

٢ – مأخذين لمياه الري على جانبي السد التحويلي .

٣ – ثلاثة جسور من البيتون المسلح .

٤ – قناتين معلقتين ومبطنتين في أماكن اجتياز الطرقات .

ويبلغ مجموع الأقنية الرئيسية في الغاب ٢٠٥ كم والأقنية الثانوية ٥٦٠ كم. ومن المنتظر الانتهاء من أعمال الغاب خلال عام ١٩٦٢ .

وبانتهاء مشروع الغاب ـ العشارية نكون قد أمنّا مساحة ٧٢ ألف هكتار أي ٧٢٠ ألف دونم من الأراضي الجيدة لا يقل محصولها السنوي عن ٦٥٠ ألف طن من مختلف المحاصيل ، يقدر دخلها القومي بما يزيد عن ٨٠ مليون ليرة سورية .

وتبلغ تكاليف مشروع الغاب ـ العشارنة بما فيه السدود وشبكات الصرف والري والطرق وأحواض تربية الأسماك بما يقرب من ١٦٠ مليون ليرة سورية.

ثانياً ــ حوض الفرات :

كان نهر الفرات قبل عام ١٩١٨ يتبع دولة واحدة ، معظمه في أرض عربية غير أنه بعد الحرب العالمية الأولى أصبح نهراً دولياً ينبع من الأراضي التركية خلف جبال طوروس ويجتاز أراضي الاقليم السوري الى أراضي الجمهورية العراقية حيث يصب في شط العرب. وتبلغ مساحة حوض الفرات ٣٥٠ ألف كم٢، منها ١١٠ آلاف كم٢ في الأراضي التركية وطول النهر فيها ٤٢٠ كم ، و ٧٠ ألف كم٢ داخل أراضي الاقليم السوري من الجمهورية العربية المتحدة وطول النهر فيها ٦٨٠ كم ، و ١٧٠ الف كم٢ داخل الجمهورية العراقية وطول النهر فيها ١٢٠٠ كم .

وتشكل مياه الفرات ما يزيد عن ٨٠ ٪ من مجموع المياه المتوفرة في الاقليم السوري .

ويبلغ تصريف النهر الأدنى في الاقليم السوري ١٥٠ متر مكعب في الثانية في وقت الجفاف ، ويرتفع تدريجياً خلال أشهر الشتاء حتى يبلغ حده الأقصى في نيسان ٥٢٠٠ متر مكعب / ثانية أثناء ذوبان الثلوج على جبال طوروس ويتراوح تصريف النهر السنوي بين ١٢ مليار في سني الجفاف كما حدث عام ١٩٣٠ الى ٣٧ مليار متر مكعب كما حدث عام ١٩٥٤ ، فيبلغ متوسط التصريف السنوي ٢٦٫٤٠٠ مليار .

ويتميز النهر داخل الاقليم السوري بالتواءات عديدة وتغيرات كبيرة في مجراه وخصوصاً بعد الفيضان مما يشمل بعض الجزر والمنعطفات بحيث يصبح مجراه الجديد بعيداً عن مجراه الأول مما كبّد خسائر جسيمة لبعض أصحاب المشاريع من جراء هذا التغيير وكان عليهم أن ينقلوا مراكز النضح وقسم كبير من قساطل الدفع الى مواقع جديدة .

وتتألف تربة وادي الفرات من الطمي والغرين الصلصالي والصلصال وهو من النوع الصالح للزراعة وبصورة خاصة القطن والشوندر السكري والأرز القمح والشعير والذرة .

وتقدر الأراضي المزروعة حالياً في حوض الفرات بـ ٣٧٠ ألف هكتار، منها ١٧٠ ألف هكتار تزرع بعلاً و ٢٠٠ ألف هكتار تزرع بطريق النضح في حين أن الأراضي القابلة للري والزراعة تزيد عن مليون هكتار .

وقبل البدء في الحديث عن مشاريع حوض الفرات وروافده داخل الإقليم السوري من الجمهورية العربية المتحدة ، أود أن أتحدث اليكم بإختصار عن مشاريع البلدان الأخرى على هذا الحوض.

قامت حكومة الجمهورية التركية بدراسة لإنشاء خزان كبير على مجرى نهر الفرات معروف باسم سد كبان تتراوح سعته بين ١٠و١٢ مليار متر مكعب من المياه لأغراض توليد الطاقة الكهرمائية والري وللتحكم بتصرف مياه النهر بعد السد .

وفي الجنوب داخل أراضي الجمهورية العراقية فقد أقيم سد مشروع الحبانية على منسوب ٤٩,٥ متر قابل لرفعه الى منسوب ٥١ متراً بحيث يزيد التخزين من ٣و٢ مليار الى ٣و٧ مليار .

وقد شملت دراسة الخبراء الفنيين في العراق الاستفادة من بحيرة أبي دبس جنوب بحيرة الحبانية وذلك عن طريق انشاء ناظم على البحيرة وقناة جر المياه من بحيرة الحبانية الى بحيرة أبي دبس تستوعب ١١ مليار متر مكعب ماء يمكن الاستفادة منها لري الاراضي الواقعة في جنوب العراق، علماً بأن الغاية الأولى من جر المياه الى بحيرة أبي دبس هي السيطرة على مياه فيضان نهر الفرات ، كما

وأن الدراسة تشمل أيضاً انشاء خزان على مجرى نهر الفرات في موقع شمالي الرمادي بستوعب ٢و٦ مليار متر مكعب (خزان هيث) .

ان الأراضي المنزرعة رياً في الوقت الحاضر على حوض الفرات داخل الأراضي العراقية تقدر بـ ١ ٢٧٥ ٠٠٠ هكتار كما يقول الخبراء العراقيون وينوون التوسع بحيث تصبح الاراضي المنزرعة رياً في المستقبل ٢ ٢٧٠ ٠٠٠ هكتار أي ضعف المساحة المروية حالياً ، وانهم يحتاجون الى كامل تصريف مياه النهر لزراعة النيرين ويعملون حالياً على دراسة نظام الزراعة الكثيفة .

هذا في الوقت الذي تعمل فيه العراق لايجاد طرق التخزين والتوسع في المساحات المروية والتوفير في مباذل المياه وتعمل تركيا على الاستفادة من التخزين لتوليد الكهرباء والري ، نحن هنا في الإقليم السوري نعاني القحط والجفاف ومياه الفرات تشكل القسم الأكبر من مياه الاقليم السوري .

ولهذا كان هدف الدولة الأول وبصورة خاصة في السنوات الاخيرة استغلال جميع مصادر المياه استغلالاً كاملاً والتوسع في الزراعة والصناعة وذلك بانشاء السدود لتخزين المياه وتوليد الطاقة الكهرمائية . وأن هذا الاستغلال الكامل في حقلي الزراعة والصناعة سيكون العامل الأساسي في استقرارنا الاقتصادي وذلك بزيادة الانتاج وزيادة الدخل القومي ورفع مستوى الحياة لسكان الاقليم السوري في الجمهورية العربية المتحدة .

ومنذ مطلع عام ١٩٥٨ والدراسات قائمة في حوضي الفرات والخابور ، وإن الخطوات الايجابية التي تمت في هذين الحوضين هي :

المسح الجوي لكامل الحوضين داخل الاقليم السوري ووضع المخططات الطبوغرافية بمقياس ١/٢٥٠٠٠ ، كما نقوم حالياً بوضع المخططات الطبوغرافية بمقياس ١/٥٠٠٠ لنهر الفرات ورافديه الخابور والبليخ لتسهل عمليات الدراسات التفصيلية .

كما تمت مختلف الدراسات الأولية على حوضي نهري الفرات والخابور وقسم كبير من دراسات تصنيف التربة .

وللسير بخطوات سريعة على حوض الفرات والاستفادة من قسم من مياه النهر الحالية ، رؤى أن يقسم الحوض الى قسمين :

القسم الأول منه هو الجزء الواقع بين جرابلس وحلبية - زلبية . **والقسم الثاني** منه بين حلبية - زلبية والبوكمال على الحدود السورية - العراقية .

أما بالنسبة للقسم الأول من هذا الوادي للانتفاع من تخزين المياه ، فقد أنجزت الدراسات المحلية لثلاث مواقع سدود وهي :

آ - موقع سد يوسف باشا ويقع على بعد ٦٨ كم جنوب جرابلس ويعتبر هذا الموقع أنسب المواقع من حيث ضيق مجراه، ويبلغ ارتفاع هذا السد ٣٠ متراً وطوله في الأعلى ٦٠٠ مترا ويشكل بحيرة في حدود ١٧٥ كم^2 ، غير أن سعة التخزين التي يستفاد منها سوف لا تزيد عن ١,٥ مليار متر مكعب ، والطاقة المولدة تتراوح بين ٤٠ و ١٤٠ ألف كيلو وات .

وتقدر تكاليفه بـ ٢٢٠ مليون ليرة تقريباً .

ويعتبر هذا السد أصغر السدود طولاً وأقلها تكاليفاً غير أن العقبة الرئيسية هي صغر سعة التخزين الذي سوف يتضاءل تدريجياً بالنظر لما يحمله النهر من الطمي والرواسب بمرور الزمن نتيجة لتراكمها في حوض التخزين .

ب - موقع الحصرة وهو على مجرى نهر الفرات على بعد ٩٣ كم جنوب جرابلس ويبلغ طول هذا السد حوالي أربعة كيلو مترات وارتفاعه ٣٩ مترا ويشكل بحيرة في حدود ٢٩٤ كم^2 وكمية التخزين في حدود أربعة مليارات متر مكعب تكفي لري ٤٢٠ ألف هكتار وتوليد طاقة كهربائية بين ٢٠٠ و ٢٨٠ ألف كيلو وات .

وتقدر تكاليف السد بـ ٣٨٠ مليون ليرة سورية .

جـ – موقع الطبقة ويقع على مجرى نهر الفرات على بعد ٢٠٠ كم تقريباً إلى الجنوب من جرابلس وعلى بعد ٦٠ كيلو متراً من الرقة ويشكل بحيرة في حدود ٩٦٨ كم٢ . ويتراوح التخزين خلف هـذا السد بين ١١ و ٢٥ مليار ويكفي لري مساحة لا تقل عن ٧٠٠ ألف هكتار وتوليد طاقة كهرمائية من ٥٠٠ إلى ٦٠٠ ألف كيلو وات .

وتبلغ تكاليف هذا السد ٧٣٠ مليون ليرة سورية تقريباً .

ومن ميزات هذا السد :

١ – التخزين القرني أي التخزين لأكثر من سنة للاستفادة من المياه المخزنة لسنوات الجفاف .

٢ – تنظيم مجرى نهر الفرات بعد السد ودرء الفيضانات عن الأراضي الواقعة بعده وبصورة خاصة في منطقة دير الزور والأراضي العراقية .

٣ – التوسع في المساحات المروية سواء بالراحة أو بالنضح بتكاليف قليلة جداً بالنسبة لتكاليف النضح الحالي .

٤ – إيصال الطاقة الكهربائية إلى حلب وحماه وحمص حتى دمشق والاستفادة منها في شؤون الزراعة والصناعة والاستعمال المنزلي بتكاليف أقل مما هي عليه الآن .

وتشمل الأراضي المروية في حوض الفرات الأعلى منطقة الرقة حتى وادي البليخ الأسفل ومنطقة الرصافة والاراضي الواقعة على مجرى نهر الفرات بعد الرقة حتى منطقة حلبية وتقدر مساحة هذه الأراضي جميعها بـ ٤٠٠ ألف هكتار .

ونقوم حالياً بمتابعة الدراسات التفصيلية للتأكد من أن موقع الطبقة هو أفضل المواقع من الناحيتين الفنية والاقتصادية .

ولكي يعطي الفرات ثماره العاجلة والاستفادة من قسم من مياه النهر الحالية ريثما يتم إنشاء سد التخزين ، فقد باشرنا في الدراسات التفصيلية لحوض الفرات الأسفل .

وقد تمت حتى الآن جميع الدراسات المحلية الجيولوجية والهيدرولوجية والدراسات العائدة للتربة لانتقاء أفضلها وكذلك تمت أعمال المسح الجوي والمخططات الطبوغرافية بمقياس ١/٢٥٠٠٠ .

ونقوم الآن بوضع المخططات الطبوغرافية بمقياس ١/٥٠٠٠ وتخطيط الأقنية الرئيسية بدءاً من السد التحويلي .

وكذلك تمت الدراسات المحلية للسد التحويلي في أربع مناطق بين موقع حلبية وموقع الهرموشية .

والدراسات جارية لانتقاء أفضل المواقع من الناحيتين الفنية والاقتصادية .

وسينشأ هذا السد التحويلي على منسوب ٢٢٠ بشكل يؤمن ري معظم الأراضي الواقعة في منطقة دير الزور حتى البوكمال بالراحة .

غير ان إنشاء هذا السد التحويلي سيغمر مايقارب ٦٠٠٠ هكتار على مجرى نهر الفرات قبل السد .

وتشمل الخطة الخمسية الأولى التي تنتهي في عام ١٩٦٥ إنشاء السد التحويلي وقسم كبير من قناة الري الرئيسية لري ٧٥٠ الف هكتار من أصل ٣٥٠ الف هكتار شبكة ري حوض الفرات الأسفل .

علماً بأن إنشاء هذا السد التحويلي سيولد أيضاً طاقة كهرمائية في حدود ٢٥ ألف كيلووات .

ومن المنتظر أن تتم الدراسات العائدة للسد التحويلي وأقنية الري وبعض الأعمال الصناعية الرئيسية في نهاية هذا العام بشكل يمكننا من وضعها في مناقصة عالمية والبدء في تنفيذها في مطلع العام المالي ١٩٦٣/٦٢ .

ثالثاً — نهر الخابور :

الخابور هو أكبر روافد الفرات ويبلغ طوله ٤٤٦ كم ، كله داخل الأراضي السورية من منبعه في رأس العين قرب الحدود التركية حتى مصبه في الفرات قرب البصيرة جنوب دير الزور .

ومصدر ينابيع نهر الخابور يقع في رأس العين ما عدا نبع واحد في الأراضي التركية ويقدر التصريف الأدنى من ينابيع رأس العين بـ ٣٥م٣/ثا ، أكبر ينابيع الاقليم السوري ، ويجري النهر باتجاه الجنوب الشرقي من رأس العين حتى الحسكة ، ثم ينحرف الى الجنوب حتى مصبه في الفرات .

ولنهر الخابور خمس روافد أهمها نهر الجغجغ . وتنبع هذه الروافد من الأراضي التركية .

ويختلف تصريف نهر الخابور باختلاف فصول السنة . ففي الشتاء تصب فيه مياه الوديان والروافد بشكل يزيد تصريفه على ٤٧٠ م٣/ثا ، وفي الصيف يقتصر تصريفه على مياه ينابيع رأس العين البالغة ٣٥م٣/ثا ، ويتراوح مجموع تصريف النهر طيلة العام بين ١٤٠٠ مليون و ٢١٠٠ مليون متر مكعب ومعدل التصريف السنوي لنهر الخابور يبلغ ١٧٥٠ مليون متر مكعب .

أما بالنسبة للأمطار فيشكل حوض الخابور أربعة مناطق كما يلي :

١ — المنطقة الأولى وتشمل الحوض الأعلى للخابور والجزيرة بما فيه أعالي

جغجغ ووادي عباس والرميلة وتتراوح كمية الأمطار فيها بين ٤٠٠ و ٥٠٠ مم.

٢ ـ المنطقة الثانية هي منطقة الحسكة وتتراوح كمية الأمطار فيها بين ٣٠٠ و ٤٠٠ مم .

٣ ـ المنطقة الثالثة والواقعة جنوب الحسكة حتى مرقدة وتتراوح كمية الأمطار فيها بين ٢٠٠ و ٣٠٠ مم .

٤ ـ المنطقة الرابعة بين قرية مرقدة ومصب الفرات وتتراوح كمية الأمطار فيها بين ١٠٠ و ٢٠٠ مم .

ونجد أن المناطق التي يجتازها نهر الخابور لها طابعان مختلفان تمام الإختلاف.

فالمنطقة الواقعة شمال سلسلتي جبل العزيز وجبل سنجار تتكون من أراضي زراعية غزيرة الأمطار . والمنطقة الواقعة جنوب جبل عبد العزيز أراضي واسعة جبصية في بعض أقسامها تقل فيها كمية الأمطار تدريجياً كلما اتجه مجرى النهر نحو الفرات وتزرع فيها الأراضي الواقعة على ضفاف النهر .

غير أنه على العموم تعتبر تربة الوادي من النوع الصالح للزراعة وهي من الرمل الغريني والصلصال المتوسط يتخلف بعض أقسامه الجبس .

إن الأراضي الواقعة على نهر الخابور هي أراضي زراعية وامكانيات الري فيها أيضاً واسعة وكانت في الأزمان الخوالي عامرة وآثار أقنيتها القديمة والسدود المندثرة فيها لأكبر دليل على عمران تلك المناطق ومنها :

١ ـ سد تل الرمان على بعد ٢٥ كم شمال مدينة الحسكة تنبثق منه قناة بطول ٢٠ كم .

٢ ـ سد المجره على بعد عشرة كيلومترات شمال الحسكة .

٣ ـ سد تل الرجمين على بعد خمسة كيلومترات جنوب الحسكة .

٤ – سد تحويلي في موقع السبع سكور على بعد١٤ كم جنوب الحسكة.

٥ – سد تحويلي في موقع التف على بعد ٢٨ كم جنوب الحسكة .

٦ – سد الفدغمي ويقع على بعد خمسة كيلو مترات من قرية الفدغمي ، تنبثق منه قناة تعرف بنهر الشمساني طولها ٢٠ كم .

٧ – سد تحويلي عند مرقدة .

٨ – سد تحويلي بالقرب من قرية الصور .

٩ – سد تحويلي على مجرى النهر بين قريتي هجنة وخارجية تنبثق منه قناة تسمى بنهر دوارين طولها ١٠٠ كم .

وتقدر المسافة التي كانت تروى من هذه السدود التحويلية بما لا يقل عن أربعين ألف هكتار منها ١٥ ألف هكتار على الضفة اليمنى من النهر و ٢٥ ألف هكتار على الضفة اليسرى .

تتوقف مساحة الأراضي الممكن ريها في حوض الخابور على كمية المياه المتوفرة سواء من تصريف الينابيع الدائم . أو من مياه التخزين عن طريق إنشاء السدود . وكما جزأنا وادي الفرات إلى قسمين للاستفادة من الامكانيات المتوفرة حالياً ، وكذلك جزأنا حوض الخابور إلى قسمين :

الأول : هو حوض الخابور الأعلى والذي يبدأ من رأس العين حتى جنوب السبع سكور بعد مدينة الحسكة لري مساحة تتراوح بين ٥٠ و ٦٥ ألف هكتار . **والقسم الآخر** من موقع الشدادة حيث يقترح إنشاء سد للتخزين حتى مصب الخابور في الفرات لري مساحة تقرب من ٧٠ ألف هكتار.

هذا فضلاً عن امكانية إنشاء سدود تخزينية صغيرة تتراوح سعتها بين نصف مليون متر مكعب وخمسة ملايين متر مكعب تنشأ على مجاري السيول في المناطق الواقعة شمال الحسكة .

ومن المنتظر أن تتم الدراسات الأولية لكامل النهر خلال هذين الشهرين. وعلى ضوء هذه الدراسة سيصار إلى إقرار الدراسات التفصيلية للمباشرة في إنشاء السدود التحويلية وشبكات الري .

وتشمل الدراسات العائدة للسدود التحويلية ما يلي :

آ - سد تحويلي على مجرى الخابور جنوب رأس العين ورفع منسوب المياه حوالي مترين أو أربعة أمتار (٣٤٨ - ٣٥٠) لري الأراضي الواقعة على جانبي النهر بالراحة مع إنشاء شبكتي ري على جانبي النهر لري ما يقرب من ٦٠ ألف هكتار سنوياً .

ب - إنشاء قناة ري تبدأ من تل مغاص على الضفة اليمنى من نهر الخابور لري مساحة أربعة آلاف هكتار بالاضافة الى قناة الري الحالية التي تبدأ من تل مغاص على الضفة اليسرى من النهر وتروي مساحة قدرها ستة آلاف هكتار .

ج - إمكانية الاستفادة من سد تحويلي في موقع النف إثر السد الروماني القديم الواقع على بعد ٢٨ كم جنوب الحسكة .

أما المنطقة الواقعة بين الشدادة والفرات حتى الحدود العراقية فتزيد عن ٢٠٠ ألف هكتار ، يمكن ري مساحة في حدود ٧٠ ألف هكتار سنوياً .

وقد دلت الدراسات الأولية أن موقع الشدادة هو أفضل المواقع لإنشاء سد ترابي بارتفاع ٢٠ متراً وطول حوالي أربعة كيلومترات ونصف لتخزين كمية من المياه في حدود مليار متر مكعب .

رابعاً — مشروعات مختلفة :

وهناك مشاريع أخرى منها الحوض الأعلى للبليخ للاستفادة من ينابيع عين العروس وهي قيد الدراسة .

ومشروعي الروج واليرموك سيتم تنفيذهما في العام القادم لري ٨ آلاف هكتار . ومشروع السن قيد الدراسة والتنفيذ لري ٧٥٠٠ هكتار. ومشروع حوض العاصي الأعلى قيد الدراسة لري ١٢٠٠٠ هكتار تقريباً ومشروع بردى والأعوج الذي يعتبر من أهم هذه المشاريع بالنظر للفائدة المرجوة منه وحاجة المناطق المجاورة للعمل فيه والعيش منه .

ويتضح مما تمّ من دراسات حتى الآن أنه يرجّح إنشاء سد على مجرى نهر الأعوج بعد الكسوة وكذلك إنشاء سد تحويلي على مجرى نهر بردى مع قناة جر مياه الفائض من بردى أثناء موسم الأمطار والحيلولة دون فيضان نهر بردى على بعض أجزاء المدينة وكذلك تخزين مياه الأعوج أثناء موسم الأمطار .

وإنشاء مجمع على وادي الرقاد قبل مدينة القنيطرة واستجرار قسم من مياه جبل الشيخ الضائع إلى المنطقة المحتلة وخزنها خلف سد الأعوج والاستفادة منها للتوسع في الغوطتين الشرقية والجنوبية في حدود ١٢ ألف هكتار .

هذه لمحة موجزة ، سيداتي ، سادتي ، عن المشاريع الانتاجية في الاقليم السوري تبيّن مقدار التوسع الزراعي والفائدة المرجوة منها ، علّني في مناسبة أخرى أتحدث وإياكم عن بعض تفاصيل هذه المشاريع ومدى أهميتها بالنسبة للدخل القومي ورفع المستوى المعاشي والاقتصادي لسكان الجمهورية العربية المتحدة ، والسلام .

١٩٦١/٤/٨

٧

مبادئ الإسلام الدستورية
في نواحي الحياة

للدكتور معروف الدواليبي

رئيس قسم تاريخ القانون والقانون الروماني

ظهور الاسلام وانتشاره السريع

ظهر الإسلام منذ أربعة عشر قرناً وفي أعالي القرون الوسطى ، في جزيرة العرب الوثنية المترامية الأبعاد ، وعلى أطراف دولتي العالم حينذاك : فارس والرومان ، وقد استقر لهاتين الدولتين السلطان والسيادة من غير منازع لهما من غيرهما ؛

وإذا بالإسلام ينشر بعد مرحلة تأسيس دامت عشر سنوات في جميع ملايين جزيرة العرب على سعة أطرافها ، وتباين نزعاتها ، وقوة شكيمة أصحابها ، رغم رسوخ الوثنية فيهم ، ودفاعهم عنها بكل ما عز لديهم ؛

وإذا بالإسلام يوحد لأول مرة بين هذه القبائل الصلبة العود ، ويجمع شملهم ، ويلم شعثهم ، ويجعل منهم أمة عربية واحدة ، صارخاً فيهم : « إن هذه أمتكم أمة واحدة » ، بعد أن كانوا قبائل أشتاتاً ؛

وإذا بالإسلام ينفخ فيهم روحاً من روح الله : « كنتم خير أمة أخرجت للناس تأمرون بالمعروف وتنهون عن المنكر ، وتؤمنون بالله » ، ويجعل خيرهم

وفضلهم على الناس فيما حملوا من خير للناس لا في عنصرية تضع ثقلهم فوق رقاب الناس .

ثم لم يخرج الإسلام من جزيرة العرب حتى قوض دولتي العالم الفارسية والرومانية في فارس ومصر وبلاد الشام ، وأصبح على أبواب الهند والصين في مدة لم تتجاوز عشر سنوات ؛ ومن ثم فتحت له الأبواب ليغزو بعقائده العالم في كل مكان من أقصى الشرق إلى أقصى الغرب .

وهكذا انتشر الإسلام بسرعة لم يعهد التاريخ لها مثيلاً في تاريخ الأديان ، وتحير العلماء والمؤرخون في تفسير أسباب هذه السرعة التي لم يعرفوا لها نظيراً .

ما هو السر في سرعة انتشاره ؟

فهل من أسباب هذه السرعة في انتشار الإسلام سلطان عروبة صاحب هذا الدين ؟.. كلا فان العرب حين ظهور الإسلام لم يكونوا إلا قبائل أشتاتاً ، ولم يكونوا بالنسبة إلى دولتي العالم حينذاك فارس والرومان شيئاً مذكوراً .

وهل من أسباب هذه السرعة في انتشار الإسلام معجزاته الخارقة ، ومعجزات أصحابه الحاسمة ؟.. كلا ، **فقد ألقي ابراهيم** في النار ، وانقلبت النار عليه برداً وسلاماً فلم يؤمنوا به ! **وقد ألقى موسى** بعصاه أمام السحرة في مصر فإذا هي تلقف ما يأفكون ، وضرب بها البحر فانفلق ، فكان كل فرق كالطود العظيم ، وأنجى الله موسى ومن معه أجمعين ، ثم أغرق الآخرين ، وإذا ببني إسرائيل أنفسهم لم يلبثوا أن عبدوا في غيابه العجل وهم ظالمون ! وكذلك جاء عيسى فخلق من الطين كهيئة الطير ، ونفخ فيه فكان طيراً بإذن الله ، وأبرأ الأكمه والأبرص ، وأحيا الموتى بإذن الله ، فلم يزد خرافَ بني إسرائيل الضالة كما سماهم السيد المسيح إلا ضلالاً ، فحكموا عليه بالصلب ، وسلموه لحاكم القدس

الروماني لينفذ الحكم ، متهمين السيد المسيح بأنه جاء يثير بني إسرائيل على الرومان ، ويدعوهم للخروج عليهم !!

أما محمد رسول الله ﷺ فلم يأت بشيء من هذه المعجزات بالذات ، بل لم يكن هذا النوع من المعجزات المغلقة على العقل أبواب تفكيره هو الأساس في دعوته ؛ ومع ذلك لم يلبث عرب الجزيرة أن اجتمعوا عليه في حياته ، ثم لم يلبث العالم من حولهم أن اجتمعوا على أصحابه من بعد وفاته !!

فما هو السر في ذلك الذي حيّر الألباب ؟

وما هو ذلك العجب العجاب ؟

السر في ذلك أنه دعوة إلى الحياة على أسس جديدة تكفل الحياة في أمن وسلام بعد أن تعب المفكرون في البحث عن هذه الأسس

والجواب على ذلك : لا سر يحيّر الألباب ، ولا عجب فيه ولا عجاب ، فلندْعُ الأشياء بأسمائها صريحة ، ولنسمها كما سماها القرآن الكريم بوضوح ، فقد قال الله سبحانه وتعالى : « يا أيها الذين آمنوا استجيبوا لله وللرسول إذا دعاكم لما يحييكم » ، لقد كان الإسلام دعوة عامة إلى الحياة على أسس جديدة **تكفل هذه الحياة في أمن وسلام** ، بعد أن تعب العالم فيها في ظل الحضارات القديمة ، كما تعب فيها اليوم أيضاً في ظل الحضارات الجديدة ، فطغى القوي على الضعيف ، وتنكر الإنسان لأخيه الإنسان ، وأصبحت حياة كل من الأفراد والجماعات عرضة في كل يوم إلى طغيان أحدهما على الآخر ، وإلى هزات : تارة كانت تقضي على حياة الفرد ، وتارة كانت تقضي على نظام الجماعة ؛ وأصبحت حياة الفرد بصورة خاصة عرضة : تارة إلى طغيان القيادة الفردية واستغلالها ،

وتارة إلى فوضى الجماعة في نظامها ؛ وفي كلا الحالين أصبحت حياة الفرد والمجتمع في جحيم مقيم !

ولذلك أخذت العقول المفكرة منذ القديم قبل الإسلام تتسابق في البحث في كل أمة وفي كل زمان — عن المبادىء التي يجب أن تسود ، وعن الأنظمة التي يجب أن تبتكر لإقامة حياة سعيدة وأمينة ، وبعيدة كل البعد عن جحيم الطغيان ، وفوضى النظام ، وغير مفرقة في الحق في الحياة بين إنسان وإنسان.

وقد اتبع المفكرون سبلًا مختلفة للوصول إلى سعادة الإنسان ، فتفرقت بهم السبل ، ولم يهتدوا إلى سبيل سوية جامعة ، بل عالجوا على الدوام ناحية فقط من نواحي الحياة من غير شمول لسائر النواحي ، وكثيراً ما ضل الباحثون عن الطريق حتى في تلك الناحية غير الشاملة ، فلم تشف المعالجة ما في المجتمع من أسقام ، إلى أن صاح فيهم الإسلام : « وأن هذا صراطي مستقيماً فاتبعوه ، ولا تتبعوا السبل فتفرق بكم عن سبيله ، ذلكم وصاكم به لعلكم تتقون » .

فما هي تلك السبل التي ضلت فيها الإنسانية ففرقت بين أبنائها ؟

وما هو ذلك الصراط المستقيم الذي دعا إليه الإسلام ليجمع شمل الجميع ؟؟

هذا هو ما نريد أن نتحدث به في هذه الليلة الطيبة ، سائلين الله ، العون والسداد .

مجمل المبادىء القديمة والحديثة لمعالجة مساوىء الحياة

منذ القديم ظهرت فكرة العودة الى مبادىء الطبيعة والحياة الطبيعية لدى الصين واليونان والرومان لمعالجة مساوىء الحضارة حينذاك ، وما قد انبعث عنها من طغيان القادة أحياناً ، أو فوضى الجماعة في الحياة أحياناً أخرى ، وكانت

الدعوة إلى العودة لمبادىء الطبيعة والحياة الطبيعية إنما هي لصيانة حياة الفرد والجماعة في آن واحد .

ومنذ القديم بشر الفلاسفة والمفكرون بفكرة الديموقراطية والدعوة إليها في كل من اليونان والرومان لمعالجة طغيان الطبقات أو طغيان الحاكمين.

وفي عصورنا الحديثة ظهرت أيضاً مبادىء وأنظمة جديدة ، وكلها ردة على وضع سيء ، وقد حاول أصحاب كل مبدأ ونظام أن يعالجوا ، بما ابتكروه من مبادىء وبما دعوا اليه من نظام ، ماهم فيه من وضع غير انساني ، طلباً لوضع سليم مثالي .

وهكذا طغت مبادىء الحرية والعدالة والمساواة منذ الثورة الفرنسية الكبرى في أواخر القرن الثامن عشر ، وكان من آثارها أن قضت نهائياً على نظام الإقطاع في أوروبة ، وأخذت الأنظمة الجديدة تتكون حول تلك المبادىء تحت شعارات مختلفة كان أبرزها الديموقراطية والاشتراكية .

وتنوعت ما بين هذه المبادىء معاني الاشتراكية خاصة ، حتى أصبح لدينا معان في الاشتراكية بقدر ما هناك من طلاب للاشتراكية :

- فهناك الاشتراكية الشيوعية ،
- وهناك الاشتراكية الألمانية الوطنية في ظل النازية ، وكانت كما تعلمون حرباً مسعورة على الاشتراكية الشيوعية ،
- وهناك الاشتراكية الديموقراطية لدى حزب العمال في انكلترا ،
- وهناك اخيراً الاشتراكية التيتوية ،

ولا ندري ماذا يجد ويحدث في الغد .

وكل ذلك في سبيل معالجة طغيان سلطان الفرد على حياة الجماعة ، أو في سبيل معالجة طغيان الجماعات على حياة الأفراد ، وفي سبيل إقامة حياة أفضل ،

وجيل أسعد ؛ وكل حزب بما لديهم فرحون ، وفي حرب مع الآخرين لا يسالمون ولا يهادنون .

ظهر الاسلام وحياة الفرد العالمية في أشد المعارك اصطراعاً بين المبادىء

وحينما ظهر الإسلام منذ أربعة عشر قرناً في مطالع القرون الوسطى كانت حياة الفرد في أشد المعارك اصطراعاً ما بين القديم والجديد من المبادىء ، وما بين القديم والحديث من النظم ، في سبيل الوصول الى حياة أفضل وأهنأ وأهدأ.

فماذا كان موقف الإسلام من هذه المبادىء والنظم المتصارعة في سبيل الحياة؟

وما هو موقف الإسلام من هذه المبادىء والنظم الجديدة اليوم ؟

بل ربما كان الأصح أن نتساءل : ما هو موقف الإسلام من الحياة نفسها ؟ وكيف عمل على صيانتها ؟ وكيف حل مشكلاتها التي أشرنا إليها ؟ وما هي قواعده الأساسية الدستورية في نواحي الحياة كلها ؟ فإن الإجابة على ذلك هي التي تفضح السر ، وتزيل الغموض .

ضرورة استعراض هذه المبادىء المتصارعة

ولا بد لنا قبل ذلك من أن نستعرض بسرعة تلك المبادىء المتصارعة لنعرف مكانها من حاجات الحياة كلها ، ولنعرف الصفة البارزة فيها لمعالجة مساوىء النظام السائد ، ولنعرف فيما إذا كان كل من هذه المبادىء على انفراد قد استجاب إلى جميع حاجات الحياة ونداتها ، أم أنه تغلب عليه الاهتمام بحاجة واحدة منها دون الاكتراث بغيرها ، ثم ماذا كان موقف الاسلام منها جميعاً؟

مبادىء الحياة الطبيعية والقانون الاخلاقي لدى الصينيين لمعالجة مساوىء الحياة

ولعل العقائد الدّوّيه في الصين حول الرجوع إلى الطبيعة والاحتكام

اليها كانت أول من أراد أن يعالج مساوى الحياة عن طريقة الطبيعة .

والدَّوِيّة نسبة الى لفظة « الدَّوْ » ، ومعناها « الطريقة » ، ويراد منها « طريقة الطبيعة » أو « الطريقة الدوية للحياة الحكيمة » .

وترجع هذه الطريقه إلى كتاب « الدو ـ ده ـ جنج » ، أي « كتاب الطريقة والفضيلة » لواضعه فيما يقال الفيلسوف « لَوْ ـ دْزَه » (٦٠٤-٥١٧ ق . م) .

ويقول « لَوْ ـ دْزَه » مؤسس مذهب الدوية ، بل اله الدويين الذين عبدوه فيما بعد :

ـ « إن الطبيعة قد جعلت حياة الناس في الأيام الخالية بسيطة آمنة ، فكان العالم كله هنيئاً سعيدا ،

ـ « ثم حصل الناس المعرفة فعقدوا الحياة بالمخترعات ، وخسروا كل طهارتهم الذهنية والخُلقية ، وانتقلوا من الحقول إلى المدن ، وشرعوا يؤلفون الكتب ، فنشأ من ذلك كل ما أصاب الناس من شقاء ، وجرت من أجل ذلك دموع الفلاسفة ،

ـ « فالعاقل إذن من يبتعد عن هذا التعقيد الحضري ، وهذا التيه المفسد: تيه القوانين والحضارة ، ويختفي بين أحضان الطبيعة ،

ـ « وسر الحكمة كلها هو الطاعة العمياء لقوانين الطبيعة ، ونبذ جميع أساليب الخداع وأفانين العقل ، وقبول أوامر الطبيعة الصادرة من الغرائز ، والجري على سنن الطبيعة الصامتة وتقليدها في تواضع » .

ويرى الدويون :

ـ أن التفكير أمر عارض سطحي لا خير فيه إلا للجدل والمحاجة ، يضر

الحياة أكثر مما ينفعها ،

ـ وان العلم ليس فضيلة ، بل إن السفلة قد زاد عددهم من يوم أن انتشر العلم !

ـ وأن شر أنواع الحكومات التي يمكن تصورها هي حكومة الفلاسفة ،

ـ وأن صاحب الفكر خطر على الدولة ، لأنه لا يفكر إلا في الانظمة والقوانين ،

ـ وأن كثرة النواهي والمحرمات في المملكة تزيد من فقر الأهلين ،

ـ وأنه كلما كثرت الشرائع والقوانين كثر عدد اللصوص وقطاع الطرق !!

ولا نرى في هذه العقائد الدوية المنادية بالعودة إلى الطبيعة وحياتها ، والمنفرة من القوانين وأحكامها ، إلا ردة على ظلم القوانين التي كان يصدرها الطغاة النافذون ، وكان من جملتها ما أصدرته ولايتا « جنج » و « تشين » في عامي ٥٣٥ ، ٥١٢ قبل الميلاد من قوانين ملأت قلوب الفلاحين رعباً ، بما تميزت به من إقرار نظام الطبقات كما كان الأمر في شريعة مانو الهندية ، وبمحاباة الطبقات العليا ، فقد أعفتها من كثير من الواجبات المفروضة على غيرها من الطبقات العامة الأخرى .

ولقد احتج عامة الشعب على هذه التفرقة ، وتمنوا أن يقوم بينهم وطني مخلص يحررهم من ظلم القوانين .

وهكذا عمدت العقائد الدوية في الصين إلى الدعوة للعمل بأحكام الطبيعة ، وذلك لتعالج بها مساوىء النظام السائد ، والمحاباة بين الطبقات ، وطغيان الحاكمين ، وتحرير العامة من ظلم القوانين .

وأقامت من عقائدها حول مفاهيم الطبيعة والاحتكام اليها حرباً في آن واحد على العقل وعلى العلم ، حتى اصطبغت حكمتها بصبغة جامدة متزمتة ،

ووقفت في طريق الدوافع الطبيعية نفسها ، تلك الدوافع الطبيعية القوية المحركة للجنس البشري .

وأعان مافي حكمتها من كمال بارد على تجميد الأمة الصينية ، وجعلها أمة محافظة لايضارع عداؤها للرقي الا حبها للسلام ، مثلها في ذلك مثل الفلسفة الكونفوشية الصينية التي أقامت حرباً أيضاً على القوانين لما كان فيها من ظلم ، ودعت الى مقاومتها ، ولكن تحت ستار الدعوة إلى القانون الأخلاقي عوضاً عن دعوة الدوبين إلى أحكام القانون الطبيعي .

ويقول بعض حكماء الدوبين في التعبير عن حكمتهم التي اصطبغت بتلك الصبغة الجامدة المتزمتة : لن أفعل شيئاً فيتبدل الناس من تلقاء أنفسهم ، وسأولع بأن أبقى ساكناً فينصلح الناس من تلقاء أنفسهم ... ، وسيرون أن طعامهم الخشن وملابسهم البسيطة جميلة ، ومساكنهم الحقيرة أمكنة للراحة ، وأساليبهم المألوفة مصادر للذة والمتعة .

نظام الطبقات لدى الهنود في ظل شريعة مانو

ولم يكن النظام السائد في الهند إلى جانب الصين بأحسن حالا تحت ظل شريعة « مانو » التي كانت متحكمة في الهند في نفس الوقت .

و « مانو » هذا يطلق عند الهنود على كل من الملوك المؤلهين السبعة الذين حكموا العالم ، كما كان يطلق « فرعون » عند المصريين على ملوك مصر القدماء ، وإلى أول هؤلاء الملوك المؤلهين أوحيت شريعة « مانو » من لدن الاله « براهما » نفسه .

ولقد أشادت هذه الشريعة مرة بعد أخرى بنظام الطبقات ، وأشادت بطبقة البراهمة في فضائلها وحقوقها ونفوذها ، وما نزال نرى وثائق منذ القرن

الثاني بعد الميلاد بمنح عظيمة – خصوصاً اقطاعيات الارض – توهب لطبقة البراهمة ، وكان شأنها شأن أملاك البراهمة : كلها « معفاة » من الضرائب ، لأن تشريع « مانو » يحذر الملك من فرض ضريبة على برهمي ، ولو نضبت كل موارد المال الأخرى ! وينص تشريع مانو على ان يكون من حق البرهمي سيادته على سائر الكائنات ، بل يذهب مانو في ذلك ويقرر أن « كل ما هو كائن في الوجود ملك للبراهمة » .

وكلمة أخيرة عن شريعة مانو : أنها أبرزت نظام الطبقات والتمايز فيها بالحقوق ، ولا نزال نلمس أثرها حتى اليوم في القسوة على المنبوذين وهي من الطبقة الدنيا ، ولقد حاول الزعيم غاندي في عصرنا انقاذ هذه الطبقة مما وضعت فيه ، فكانت محاولته هذه من جملة العوامل التي أدت إلى إغتياله من قبل بعض الفرق الهندية المتشددة في عقائدها .

حياة الفرد لدى اليونان والرومان في صراع مع طغيان الفرد أو طغيان الجماعات

وإذا انتقلنا من الشرق إلى الغرب لنستعرض أوضاع الحياة لدى اليونان والرومان في القرون الأولى لرأينا حياة الفرد في المجتمع كانت كما هي في الشرق في صراع دائم أيضاً ما بين طغيان سلطان الفرد على حياة الجماعة ، أو طغيان الجماعات على حياة الافراد ، وكما هو الشأن في كل منطقة من العالم حتى اليوم ، الا من رحم ربك ، وفي نطاق محدود ، وعلى شعب حاكم ، لا في نطاق الانسانية جمعاء .

أما في اليونان فقد كان النزاع قد بلغ أشده فيما بين الاتجاهات المختلفة في أثينة في العصر الخامس قبل الميلاد ، كما هو الشأن في جميع الدويلات اليونانية الأخرى :

– فجماعة كانت تريد حكماً أرستقراطياً ينحصر في يد أقلية ، ويكون لها جميع الامتيازات ،

– وجماعة أخرى كانت تهدف إلى حكم ديمقراطي ، أي حكم الشعب .

ويحدثنا أرسطاطاليس عما قد كانت عليه الحال حينذاك فيقول : « وأصبحت كل الأراضي ملكاً لعدد قليل من الناس ، وتعرض الزراع هم وزوجاتهم وأبناؤهم لأن يباعوا بيع الرقيق ، لا في داخل البلاد فحسب ، بل خارجها أيضا إذا عجزوا عن أداء أجرة الأرض أو الوفاء بما عليهم من ديون » .

ظهور مبادىء الحق الطبيعي والديموقراطية لدى اليونان مقاومة لنظام اسبارطة الارستقراطي

ولقد عمل المصلحون جهدهم لاصلاح الحال ، وابتكروا ماشاؤوا من مبادىء وأقاموا عليها ثورات قضت على عهود وأنظمة ، وفي مقدمة تلك المبادىء التي أشادوا بها هي مبدأ **الديموقراطية** ومبدأ **الحق الطبيعي** .

ولكن الديموقراطية في أثينة لم تلبث أن أحدثت حرية الأفراد في ظلالها كثيراً من المساوىء ، وهذا مادعا الكثيرين من المفكرين اليونان وفي مقدمتهم أفلاطون وبلوتارخ لأن يعمدوا إلى تمجيد نظام سبارطة الارستقراطي بعد أن ملوا مافي ديموقراطية أثينة من انحطاط وفوضى ، وأوجسوا في أنفسهم خيفة منها ، رغم ان قوانين سبارطة قد أجمع العلماء والمؤرخون اليوم على أنها : أعجب وأبغض طائفة من الشرائع في التاريخ كله ، وأنها من القواعد المخالفة للطبيعة .

وهكذا طلع علينا أفلاطون في جمهوريته بحل لمشكلات الحياة في أثينة على

ان يقسم المجتمع في أثينة الى طبقة حاكمة من الصفوة : هم الفلاسفة والجيش ، والى طبقة من العامة هم من بقي من الناس ! وصرح بأن أسباب الخلاف مابين الناس انما هي المرأة والمال ، فعلى الطبقة الأولى أن تعيش في اشتراكية وشيوعية كاملة فيها فلا يختص رجل بامرأة ، ولا يملك أحدهم مالا ، وبذلك تزول أسباب الخلاف فيما بين الطبقة العليا الحاكمة ؛ وأما الطبقة العامة فتملك وتتزوج وتقدم مالديها لخدمة الطبقة الأولى !

ورأى أفلاطون في ذلك النظام نظاما يتفق مع طبيعة المدينة الفاضلة التي تصورها ؛ ولم يصنع بما فكر إلا أن قذف المجتمع الفكري من جديد في في مشكلات وعقد جديدة تثبت نظام الطبقات والتمايز بين الأفراد ، ذلك النظام الذي كان ولا يزال من أعظم أسباب النزاع في الحياة الانسانية حتى اليوم .

نظام الطبقات لدى الرومان وبقاؤه في أوروبة حتى عهد الثورة الفرنسية

وكذلك كان الأمر لدى الرومان ، فقد ساد لديهم نظام الطبقات ، وتمتع فيهم الأشراف بكل الحقوق والامتيازات دون طبقة العوام التي لم تجد لها بدا من انتهاز الفرص للثورات فحطمت مااستطاعت من حواجز .

ولكن نظام الطبقات الاجتماعية لم يلبث أن ظهر في نظام طبقات اقتصادية متفاوتة في القدرة والسلطان حتى استقر فيها النظام الاقطاعي من جديد ، ذلك النظام الذي ورثته اوروبة الحديثة عنها، وظل قائماً فيها إلى عهد الثورة الفرنسية في القرن الثامن عشر حيث قضت عليه الثورة قضاء نهائيا .

استمرار النزاع بين المبادىء في عالمنا الحديث من غير جديد ، واستقطابها في الديموقراطية والاشتراكية

وهكذا استمر العالم في نزاع ما بين هذه المبادىء ، وليس في عالمنا الحديث من جديد حول الحلول الشاملة ، وقد استقطبت هذه المبادىء اليوم في مبدأين أساسيين هما :

- الديموقراطية ،
- والاشتراكية .

أما الديموقراطية فتهدف في الأصل من نظامها السياسي والإقتصادي الى حرية الفرد ، وذلك معالجة لما لقي الفرد من امتهان وطغيان في ظل النظام الأرستقراطي ، وحكم الأقلية المتسلطة المستغلة ؛ وتمشي الى هدفها باعطاء أكثر مايمكن من حرية لنشاط الفرد ، حفظاً لكرامته كانسان .

وأما الاشتراكية فتهدف ايضاً في الأصل إلى تحطيم هذا الإستغلال من قبل أقلية متسلطة ، وذلك معالجة لنفس الداء ؛ ولكنها تمشي إلى هدفها بتقطيب السلطة في الحكم ، وتجريد الانسان من كل حق في حرية نشاطه ، إلا ضمن الحدود المرسومة له ، كي تصل إلى المساواة والعدالة ما بين الجميع في حظوظهم في الحياة ، وتكافؤهم في الفرص .

كل من الديموقراطية والاشتراكية تلبية لحاجة ضرورية دون معالجة ما ينتج عنها من ردة في الأصل

وكل من أصل الديموقراطية والاشتراكية كما نرى ما هو في الحقيقة إلا تلبية لحاجة واحدة من حاجات الانسان الضرورية من دون اكتراث بما نشأ

عن الديموقراطية وحدها او الاشتراكية وحدها من ردة على أصل المبدأ .

وهكذا فان الديموقراطية وحدها ، وما أعطته للفرد من حرية ، لم تستطع أن تضمن المساواة في الحظوظ لكل فرد من أفراد المجتمع ، لأن الفرد القوي يتمتع بحريته ويستفيد منها أكثر من الفرد الضعيف ، فنحن إن كنا أنقذناه من حكم الأرستقراطية والأقلية المستغلة باقامة الحكم الديموقراطي فقد أعدناه من جديد ليكون تحت نفوذ وسلطان الأقوياء من رجال الحظوظ ، وبذلك يعود الفرد من جديد الى فقدان ما أعطيناه من حرية في سبيل كرامته .

وكذلك الاشتراكية وحدها ، وما ضمنته للفرد من مساواة في حظوظ الحياة وتكافؤ الفرص ، لم تستطع أن تضمن للفرد حقه الطبيعي في الحرية والكرامة ، فنحن إن كنا أنقذناه من حكم الأرستقراطية والأقلية المستغلة باقامة الحكم الإشتراكي ، فقد أعدناه من جديد ليكون تحت سلطة أقلية ايضاً من رجال الحكم ، وليغدو تحت تصرفها كآلة متحركة لا تتحرك إلا بارادة الحاكمين ، وبذلك يفقد الفرد من جديد ما كان يسعى إليه من حق في الحرية والكرامة في سبيل لقمته .

ولذلك وجدنا في بعض الدول من اضطر الى الجمع ما بين المبدأين كحزب العمال الانكليزي ليخفف من مساوىء كل مبدإ على انفراده ، وكان شعاره هو « الإشتراكية الديموقراطية » رغم مايبدو من تنافر بين المبدأين .

ولقد كانت جمهوريتنا العربية المتحدة أكثر توفيقاً عندما ضمت إلى المبدأين مبدأ ثالثاً هو التعاونية ، وجعلت شعار حكمها يقوم على « الإشتراكية الديموقراطية التعاونية » حيث أكدت بمبدإ التعاون الاعتراف بنشاط الفرد وحريته واستقلاله في ملكيته على أساس من التعاون مابين نشاط الدولة العام ونشاط الفرد الخاص .

عالمنا اليوم على عتبة روح جديدة لدى أقطاب النزاع : هي روح التعايش السلمي من غير صوغها في مبدإ حيوي ايجابي

ولكننا اليوم على عتبة **أبواب روح جديدة** يندفع العالم نحوها اندفاعاً :

- بعد أن تعب العالم من النزاع المتواصل بين المبادىء والنظم ،
- وبعد أن أنهكتهم الحروب العالمية المتتالية ،
- وبعد أن أصبحت الانسانية كلها في خطر من جراء ذلك النزاع وهاتيك الحروب .

وأصبح ذكر هذه **الروح الجديدة** على لسان كل من أقطاب أصحاب المبادىء المتناحرة . وتلك الروح الجديدة **هي روح الرغبة في السلام** ما بين أبناء الانسان في كل مكان ، وبين جميع الأقوام ، ومختلف العقائد والنظم والأديان .

غير أن هذه الروح لم تتبلور بعد ، ولم يشعر بجدتها أحد حتى الآن ، ولم يتمكن أحد من صوغها في مبدإ **حيوي ايجابي** ، إلا ما يجيء من وقت لآخر في شكل **مبادىء سلبية** :

- مثل عدم الإعتداء ، وهو مبدأ سلبي ظاهر ،
- ومثل تجنب التدخل في الشؤون الداخلية للدول الأخرى ، وهو ايضاً مبدأ سلبي ،
- ومثل الإحترام المتبادل للسيادة والإستقلال ، وهذا ايضاً سلبي لأنه

يقوم على عدم الاعتداء ، وعلى تجنب التدخل في شؤون الآخرين ،

- ومثل مبدإ المساواة والنفع المتبادل، وهو ايضاً تقريباً مبدأ سلبي لأنه يقوم على عدم الخروج على مبدأ المساواة والنفع المتبادل ،
- ومثل مبدإ التعايش السلمي ، وهو كذلك مبدأ سلبي لأنه إنما يقوم على عدم العدوان فيما بين المتعاقدين .

وهذه المبادىء هي التي عرفت بالمبادىء الخمسة للتعايش السلمي فيما بين الهند والصين الشعبية ، وقد كثر الاعتراض عليها لسلبيتها في الجملة، ولغموض فكرتها وخاصة في **التعايش السلمي** الذي « لايزال بحاجة الى تحديد وبيان » كما جاء في خطاب رئيس وفد تايلاند في مؤتمر باندونغ .

وزيادة على ذلك فان مبدأ التعايش السلمي إذا ما قصر في تطبيقه على المتعاقدين الأقوياء يوشك أن يصبح تآمراً سلمياً على غيرهم من الضعفاء لا تعايشاً سلمياً، لأنه لم يصرخ بعد أحد صرخة جدية عملية ولو في صورة سلبية في سبيل تعايش الانسان مع أخيه الانسان في كل مكان ، ناهيك عن **الدعوة الايجابية** لخير الناس أجمعين .

فكرة التعايش السلمي في الاسلام فكرة ايجابية واضحة

أما الاسلام فقد نادى بهذا المبدإ منذ أربعة عشر قرناً دون أن يطوقه بحدود فيما بين الأقوياء ، ودون أن يقصره على فريق من الشعوب ، او على فريق من أهل الأديان ؛ ولم يتركه فكرة سلبية غامضة ، بل وضع معالمه ، وأظهر خصائصه ، وتناول فيه جميع نواحي حياة الانسان : منفرداً ومجتمعاً، وما اسم الاسلام إلا كلمة مشتقة من مادة السلم والسلام ، ولذلك اتخذ الاسلام « السلام » تحية وشعاراً ، وعزز ذلك الشعار فقال في قرآنه الكريم : « ولا تقولوا لمن ألقى إليكم السلام لست مؤمنا » .

لقد تجلى في الاسلام معالجة ما كانت تئن منه الانسانية فى أعالي القرون الوسطى وهي مشكلة اليوم من غير جديد

ويسرنا في هذا الحديث ونحن نريد الكلام فيه عن « الاسلام ومشكلات الحياة » ، أو بعبارة أخرى عن « مبادىء الاسلام الدستورية في نواحي الحياة » ، أن نعلن أن الإسلام قد تجلى فيه معالجة ما كانت الإنسانية تئن منه في أعالي القرون الوسطى حين فاجأها وهي في حروب دائمة دامية متواصلة ، وقد طغى فيها القوي على الضعيف ، وتنكر الإنسان لأخيه الإنسان ، واتخذ بعضهم أنفسهم أرباباً من دون الله على الآخرين ، ونزلوا بغيرهم إلى الطبقة الدنيا ، وجردوهم من حق الحياة والوجود ، حتى أصبح فيها حياة كل من الأفراد والمجتمع في جحيم مقيم .

وهذه هي مشكلة الإنسانية اليوم من غير جديد : بعد أن خرجت شعوب العالم منذ أواخر القرون الأولى ومطالع القرون الوسطى عن عزلتها ، واحتكت ببعضها ، وأورث ذلك الاحتكاك أحقاداً وحروباً .

وإن هذا الاحتكاك مع تقدم الحضارات اليوم لا يزداد إلا اشتداداً واحتداماً ، على نسبة ما تزداد الشعوب من بعضها إتصالاً ، وذلك بفضل تقدم المدنية وتشابك المصالح ، تلك المصالح التي جعلت من أبناء الإنسانية في كل مكان من هذه الأرض أبناء أسرة واحدة ، والأجدر بأبناء الأسرة الواحدة التواصل والتراحم ، لا التنازع والتخاصم ؛ وهذا ماتادى به الإسلام منذ أربعة عشر قرناً بين العرب أولاً ، ثم بين العرب والأمم أجمعين ثانياً ، فقال : « وجعلناكم شعوباً وقبائل لتعارفوا ، إن أكرمكم عند الله أتقاكم » ، فجاء نداؤه تلبية لحاجة الناس أجمعين ، وبلسماً لجراح البائسين ، وهذا هو ما جعل الناس من العرب أولاً يدخلون في دين الله أفواجاً ، وهذا هو السر الذي جعل الإسلام بعد ذلك ينتشر بسرعة لا عهد للانسانية بها حين خرج من جزيرة

العرب ، حتى قوض عروش الأكاسرة ، ودك قواعد القياصرة في أقل من عشر سنوات .

خطأ الذين يفهمون الاسلام في حدود الدين عند علماء الغرب

ويخطىء الذين يفهمون الإسلام فقط ضمن حدود الدين الذي عرفه العلماء في الغرب فقالوا في أحسن تعاريفه كما نصت عليه دائرة المعارف الدينية لديهم ، وهو ما جاء في التعريف الذي وضعه كوبليت دالفييلا Goblet d' Alviella حيث قال : « ان الدين هو الطريقة التي يحقق بها الإنسان صلاته مع قوى الغيب العلوية » .

كما يخطىء الذين يفهمون الإسلام في حدود تعريف آخر للدين عند علماء الغرب أيضاً ، وفي الدرجة الثانية من أصل مئة تعريف كما وضعه جايمس دارمستيتر James Darmesteter حيث قال : « إن الدين هو ما يشتمل على كل معلوم وكل سلطة لا تتفق والعلم » .

فقد تجاوز الدين في مفهوم الإسلام والقرآن تلك الحدود من « صلات الإنسان مع قوى الغيب العلوية » إلى حدود أخرى أعطاها نفس الاهتمام ، ألا وهي « صلات الانسان مع الانسان » .

وفوق ذلك فقد حمل المخاطبين على الاحتكام في كل تلك الصلات إلى العلم والعقل ، وصارح قرآنه بأنه إنما يخاطب الذين يعلمون والذين يعقلون ، فقال: « نفصل الآيات لقوم يعلمون » وقال أيضاً : « كذلك يفصل الآيات لقوم يعقلون » ، وهكذا أهمل في خطابه الذين لا يعلمون والذين لا يعقلون ، ووصف دعوته هذه بأنها دعوة إلى الحياة فقال: « يا أيها الذين آمنوا إستجيبوا لله وللرسول إذا دعاكم لما يحييكم » وهو أول نداء في هذا المعنى في لغة الأديان .

إقامة الاسلام دعوته على مبدإ السلم والسلام ومنه اشتق اسم الاسلام

وأقام هذه الدعوة على مبدإ واحد هو مبدأ السلم والسلام ، ومنه اشتق إسم الاسلام ، وقال « ولا تقولوا لمن ألقى إليكم السلام لست مؤمناً » وقال: « يا أيها الذين آمنوا أدخلوا في السلم كافة ، ولا تتبعوا خطوات الشيطان انه لكم عدوّ مبين » ، بل اتخذ شعاره في التحيه على الدوام كلمة « السلام » .

ولعل الاسلام أيضاً هو وحده الذي سمى الله بعد الكلمة الجامعة لجميع معاني التقديس باسم « السلام » عوضاً عن « اله الحرب »، فقال : هو الله الذي لا إله الا هو الملك القدوس السلام » .

بل قد وصفت الليلة الذي نزل فيها دستور الاسلام وقرآنه في ليلة القدر بأنها ليلة سلام فقال سبحانه وتعالى : « إنا أنزلناه في ليلة القدر ، وما أدراك ما ليلة القدر ، ليلة القدر خيرٌ من ألف شهر ، تنزل الملائكة والروح فيها ، بإذن ربهم من كل أمر ، سلام هي حتى مطلع الفجر » .

وبعد ، فإن الاسلام بدعوته الناس أجمعين إلى « الحياة » على أساس « مبدإ السلام » لم يترك هذا المبدأ مبدأ روحياً غامضاً لا حدود له ولا بيان ، بل أقام جميع نواحي الحياة الانسانية ، وصلاتها مع الله والانسان على قواعد صريحة بينة تقود متبعها من غير شك إلى السلام ، وتجنبه مواقع الخصام ، كما تجنبه مواقع الاستسلام والامتهان ، عملاً بقول القرآن الكريم : « ولله العزة ولرسوله وللمؤمنين » .

هذه الروح الجديدة أعدت العرب لحمل رسالة انسانية خالدة

وبذلك تم للعرب بهذا الروح الاسلامي : اولا — إعداد أنفسهم لحمل الرسالة

وأداء الأمانة ، وأشعروا في قرارة أنفسهم بأنهم أصبحوا خير أمة أخرجت للناس ، فاندفعوا في طريق المجد من غير ضعف ، وحملوا الخير للانسانية دون تمييز ، وعملوا في هذه الطريق على بصيرة وإيمان، وحققوا لأول مرة في التاريخ وحدة العروبة في أرضهم، ووحدة قلوبهم، بل ووحدة لغتهم ولهجتهم على مثل وحدة القرآن ووحدة لهجته الى يوم الدين ، وهذا ما أدخل الاسلام في تاريخ العروبة الخالدة ، وجعله جزءاً لا يتجزأ من تاريخ إنبعاثها الجديد .

كما تم للعرب بهذا الروح الاسلامي ثانيا ـ أن اختلفت قوميتهم عن عصبية القوميات الأخرى المعروفة من قبل ومن بعد ، تلك القوميات التي تعمل وتجتمع وتتموج فقط لخيرها ولصالحها ، وتفتح الأرض لاستعمارها ، وتسيطر على الأمم لاستعبادها ، فإن العرب بعد الاسلام قد ارتفعوا بقوميتهم فوق القوميات ، وأصبحت رابطتهم القومية عنواناً على حمل رسالة انسانية خالدة ، وأداء أمانة تحريرية واجبة .

(قواعد الاسلام الدستورية القائمة على روح السلام في جميع نواحي الحياة)

تلك الرسالة الخالدة هي ما جمعها الاسلام في قواعده الدستورية القائمة على روح السلام في جميع نواحي الحياة :

ـ في العقيدة أولاً ،

ـ وفي الحياة الخاصة ثانياً ،

ـ وفي الصلات فيما بين الناس عامة ثالثاً ،

ـ وفي النظام العام رابعاً ،

ـ وفي الحكم خامساً .

السلام في العقيدة أولاً ووقائع ذلك مع المسيحيين

ففي العقيدة فرض دستور الاسلام **السلام** أولاً ما بين العلم والعقل من جهة ، وبين العقيدة من جهة ثانية ، واختص في خطابه الذين يعلمون والذين يعقلون كما مر معنا آنفاً ، فقال : « قل هذه سبيلي ، أدعو الى الله على بصيرة أنا ومن اتبعني » ، وقال أيضاً: « نفصل الآيات لقوم يعلمون » ،وقال « كذلك يفصل الآيات لقوم يعقلون » .

وكذلك فرض دستور الاسلام **السلام** في العقيدة فيما بين أصحاب الأديان فقال: « لا إكراه في الدين » .

وهذا لعمري منتهى ما وصلت اليه البشرية اليوم في دساتيرها الراقية الحرة في سبيل حمايه حرية المعتقدات ، مما قد سبقهم اليه الاسلام قبل أربعة عشر قرناً بكل تأكيد .

بل ذهب إلى أبعد من ذلك فحض على البر بأبناء الأديان الأخرى مهما كانت عقائدهم ، مالم يقاتلونا في الدين ومالم يخرجونا من ديارنا ، فقال سبحانه وتعالى : « لا ينهاكم الله عن الذين لم يقاتلوكم في الدين ولم يخرجوكم من دياركم أن تبروهم وتقسطوا اليهم ، إن الله يحب المقسطين » تبارك الله العظيم ، إنه والله لدستور سلم كريم ، لم يسبق أحد اليه من الأولين ، ولا نظن أن أحداً سيلحق به في الآخرين .

وأعطى دليلاً عملياً على ذلك حين دخل الاسلام الى مصر وبلاد الشام ووجد النزاع قائماً مابين الكنيسة الغربية في حماية براطرة الرومان وبتشجيعهم، وبين الكنيسة الشرقية التي لا حماية لها وهي أصل النصرانية ، ومع ذلك فقد كان معظم رجالها يتهمون بالزندقة والإلحاد ، فلما حل الحكم الاسلامي

محل الحكم الروماني ، لم يثر هذه على تلك ، بل هما الاثنتين ولو كانت كل منهما ضد عقائد الاسلام ، فوقفت الكنيسة الشرقية على رجليها ، ولم تشعر الكنيسة الغربية باضطهاد . وان موقف الاسلام منها هذا الموقف هو الذي يفسر موقف بطارقة حمص عندما تركهم أبو عبيدة فاتح حمص وأراد أن يرد عليهم الجزية التي أخذها فأجابوه : «إن عدلكم أحب الينا من ملوكنا» ، ثم أغلقوا أبواب مدينة حمص ضد الرومان منتظرين نتيجة المعركة بين المسلمين والرومان ، وداعين بالنصر للمسلمين على الرومانيين .

بل ذهب الاسلام إلى أبعد من ذلك وأعطى لكل منهم حكماً كنسياً في الشؤون الدينية لم يكن ليعترف به لأحد منهما من قبل دولة الرومان النصرانية.

ولا بد أن نشير في هذا المقام إلى ماسجله مؤرخو المسيحية أنفسهم مما لاقته الكنيسة الشرقية في عهد الصليبيين من « اقفال الكنائس الشرقية واضطهاد بطارقتها إلى أن أحوجوهم أن يفضلوا موادة العرب حكام البلاد الأصليين على موادة الصليبيين » كما صرح بذلك صاحب كتاب سوسنة سليمان .

السلام في الحياة الخاصة

وأما في الحياة الخاصة فقد فرض دستور الاسلام **السلام** أيضاً ما بين رغبات الإنسان ومطالبه في الحياة، وما بين فكرة الإحسان والصلاح في تلك الرغبات، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : إن قوماً ركبوا سفينة فاقتسموا ، فصار لكل منهم موضع ، فنقر رجل في موضعه بفأس ، فقالوا له ما تصنع ؟ قال هو مكاني أصنع فيه ما أشاء ! فإن أخذوا على يده نجا ونجوا ، وان تركوه هلك وهلكوا ؛ وقال القرآن الكريم في لذات الانسان « كلوا من الطيبات واعملوا صالحاً » ، وقال أيضاً : « قل من حرم زينة الله التي أخرج لعباده والطيبات من الرزق ؟ قل هي للذين آمنوا في الحياة الدنيا .. » .

وهكذا لبى الاسلام في ذلك رغبات الانسان ولذاته الشخصية من غير عدوان على أحكام العقل ، ولا حيف على طبيعة الانسان كانسان ، ولم يشترط في الوصول إلى الطيبات وزينة الحياة وما آتاه الله للانسان من ملكية استخلفه فيها غير الطريق المشروعة ، والعمل الصالح ، وان يحسن فيما آتاه الله كما أحسن الله اليه ، وأن لا يبتغي الفساد في الارض .

وان كل مطلب خاص للانسان يتجاوز هذه الحدود فهو ممنوع عليه ، لأنه يخرج الانسان من نطاق السلام إلى نطاق البطلان والفساد ، وقد قال الله سبحانه وتعالى في ذلك : « ولا تأكلوا أموالكم بينكم بالباطل » وقال أيضاً : « وابتغ فيما آتاك الله الدار الآخرة ، ولا تنس نصيبك من الدنيا ، وأحسن كما أحسن الله اليك ، ولا تبغ الفساد في الارض ، ان الله لا يحب المفسدين » ، وقال أيضاً : « آمنوا بالله ورسوله ، وانفقوا مما جعلكم مستخلفين فيه » .

وبذلك احتفظ الاسلام للانسان بمكانه في الوجود كانسان ، وبحظوظه فيه ، وأباح له ماشاء من الحظوظ ، وما آتاه الله من ملك استخلفه فيه : بشرطين اثنين فقط هما الاحسان وعدم الفساد ، ولم يشأ أن يرتفع بالانسان من عالمه إلى عالم ليس هو منه وهو عالم الأرواح الخالصة ، ولا أن يهبط به إلى عالم الشياطين .

السلام في الصلات فيما بين الناس عامة

وأما في الصلات فيما بين الناس عامة فقد فرض أيضاً دستور الاسلام السلام فيما بينهم ، وقال في سبب جعلهم شعوبا وقبائل انها كانت وسيلة لتسهيل التعارف والتقارب فيما بين الناس ، لا وسيلة ليرتفع بعضهم على بعض ، ويتخذ بعضهم من أنفسهم آلهة من دون الله فوق الآخرين . وقد قال القرآن الكريم في ذلك : « وجعلناكم شعوباً وقبائل لتعارفوا ، ان أكرمكم عند الله أتقاكم » ، واستل بذلك من نفوس المسلمين مارسخ في نفوس

جميع الأقدمين والكثيرين من الحديثين من رجحان شعب على شعب في الحقوق والكرامة ، وتجريد الكثيرين من بنى الانسان من حقوقهم الحرة في الحياة والسيادة .

السلام في النظام العام

وأما في النظام العام فقد فرض دستور الاسلام **السلام** أيضاً ما بين الانسان وأخيه الانسان: فلا طبقية ، ولا عرقية ، ولا أجناس ؛ وقرر المساواة مابين الجميع فقال رسول الاسلام عليه الصلاة والسلام في ذلك : « لا فضل لعربي على عجمي ، ولا لأبيض على أسود ، إلا بالتقوى » ، وهذا أيضاً منتهى ماتنشده الانسانية اليوم ومفكروها ، ومنتهى ما تعمله على إدخاله في دساتيرها ، كحقوق طبيعية للانسان .

السلام في الحكم

وأما في الحكم فقد فرض أيضاً دستور الاسلام **السلام** فيما بين الناس في الحكم ، لانه فرض العدل في الحكم والمساواة في الحقوق لجميع من يسوده نظام الاسلام ولو لم يكن عربياً أو مسلماً ، وجهرت أحكام الاسلام في ذلك لغير العرب ولغير المسلمين قائلة : « لكم مالهم ، وعليكم ما عليهم » .

أثر هذه المبادىء السلمية فيما بين أبناء العروبة من مسلمين وغيرهم

وبذلك لم يعد هناك من فارق ما بين أبناء العروبة مسلمهم وغير مسلمهم في الافتخار بحمل هذه الرسالة الى أبناء الانسانية لتسود فيهم أحكامها ، كما لا يوجد فارق اليوم ما بين أبناء الدولة الواحدة الحديثة على اختلاف أديانهم ممن يدينون بدساتيرهم المتحررة ويفتخرون بها ما دامت تقوم على هذه القواعد العامة للانسانية ، والمبادىء الخالدة .

أثر هذه المبادىء السامية فيما بين العرب وغيرهم

وبذلك أيضاً لم يعد هناك من فارق ما بين عربي وغير عربي في الافتخار بحمل هذه الرسالة وأدائها ، والانضواء تحتها ، والأخذ بمبادئها الدستورية ، والتقديس لمن نادى بها ودعا اليها ؛ وما تقديس المسلمين غير العرب للعرب ، والإيمان بهم ، والافتخار بالالتحاق بهم ، والانضواء تحت لوائهم ، بمجدين العروبة من غير غل ، ومفتخرين بها من غير شك ، إلا أثر هذه العروبة التي بلغت في ظل البعث الاسلامي كما أراده الله آخر مرحلة من مراحل تطورها ، فكانت من قبل الاسلام قومية عربية عصبية كغيرها : يجتمع أصحابها ليعيشوا لأنفسهم ، فأراد الله لها بالاسلام أن تتم مرحلة تطورها الصاعد ، فغدت قومية عربية انسانية ، يجتمع أصحابها ليعيشوا لهم ولغيرهم من الناس ، وبذلك جعلهم خير أمة أخرجت للناس ، وبذلك ارتفعت قوميتهم إلى عرش القوميات الخالدة ، بل انفردت به حتى الآن دون غيرها من العالمين ، إذ لا نجد وراء العرب وعلى طريقتهم من سار سيرتهم ، والله يؤتي فضله من يشاء ، وهو أعلم حيث يجعل رسالته .

خاتمة البحث ووجوب المجاهرة بشخصية الاسلام السامية

وبعد أيها المستمعون الكرام ، فهذا هو الاسلام في مبادئه الدستورية ،

فهو سلام في اسمه ،

وسلام في تحيته ،

وسلام في ليلة نزوله ،

وسلام في اسم ربه ،

وسلام في عقيدته ما بين العقل والايمان ،

وسلام فيما بينه وبين أصحاب الأديان ،

وسلام وإحسان في مطالب الحياة الخاصة ،

وسلام وبر فيما بين الآخذين بمبادئه وبين سائر الناس ما لم يقاتلوهم في الدين

أو يخرجوهم من الديار فانه عندئذ فقط حرب على الظلم والعدوان وذلك أيضاً في سبيل السلام ،

وهو سلام أيضاً في النظام العام فلا طبقية ولا عرقية ولا أجناس ،

وسلام في الحكم وعدل في الحق ما بين العرب وغير العرب ، وما بين المسلمين وغير المسلمين ،

وأخيراً ، وبكلمة واحدة : فهو سلام في سلام في سلام .

ونحن اليوم في عهد العلم ، وفي عهد سلطان العقل ، وهو عهد يرحب به الاسلام ، وتحييه مبادىء الاسلام ؛

فما كان يضرنا بالأمس من ضيق العقول ، وجهل المخاطبين ، ويحملنا على اخفاء شخصية الاسلام في شخصية المبادىء الديموقراطية عندما يسود أصحابها ، أو يحملنا على اخفاء شخصية الاسلام في شخصية المبادىء الاشتراكية عندما تشتد سواعد أربابها ، أو كما ذهب البعض إلى تلوين شخصية الاسلام بألوان الزعامة في عهد انتصار الزعامة النازية أثناء الحرب العالمية الثانية ،

فما كان يضرنا بالأمس ويحملنا على اخفاء شخصية الاسلام لم يعد يضرنا اليوم ، فقد تفتحت العقول ، وانتصر العلم ، وأصبح العالم أجمع في حضارته الحديثة كأنه أسرة واحدة ، وتشوقت النفوس بعد ما أصابها من مآسي الفرقة وتناحر المبادىء إلى صوت السماء وصوت السلام ، فأعلنوا للعالم مبادىء الاسلام ، وقواعده الدستورية ، كما أشرنا إليها ، فانها السبيل الوحيدة لضماد جروح الانسانية ، وانها السبيل الوحيدة لجمع الكلمة فيما بين أبنائها والتعايش فيما بينهم بسلام ، على اختلاف مذاهبهم وعقائدهم وأديانهم وأعراقهم دون المساس بها ، وأسمعوهم قول السماء : « وان هذا صراطي مستقيماً فاتبعوه ، ولا تتبعوا السبل فتفرق بكم عن سبيله ، ذلك وصاكم به لعلكم تتقون » ، « ان هذا القرآن يهدي للتي هي أقوم » ، « فاستمسك بالذي أوحي اليك ، انك على صراط مستقيم ، وانه لذكر لك ولقومك ، وسوف تسألون » .

١٩٦١/٤/١٥

٨

التعليم الابتدائي والثانوي في الاتحاد السوفياتي

السيد ميرزا محمودوف

وزير التربية والتعليم في جمهورية التتر

أيها الاصدقاء الأعزاء

يسرني أن أحييكم باسم المعلمين والطلاب السوفييتيين وأن أبلغكم تحياتهم الأخوية وتمنياتهم الصادقة الصادرة من صميم القلب .

ويسرني أيضاً أن أنتهز هذه الفرصة السعيدة للتعبير عن عميق شكرنا لحكومة الجمهورية العربية المتحدة على دعوتها الكريمة لوفدنا لزيارة بلادكم الجميلة وللاطلاع على نظام التربية والتعليم في ظروف بلد عربي مستقل .

لقد قامت الصداقة بين شعوب بلدينا منذ زمن بعيد وتناضل شعوبنا في الوقت الحاضر أو في عهد انحلال النظام الاستعماري البغيض ، من أجل السلام والصداقة بين شعوب العالم كافة . كما أن حكومتي بلدينا وشعبينا تدركان إدراكاً تاماً أن التعايش السلمي بين الدول ذات الأنظمة الاجتماعية المختلفة لم يعد أمنية ومجرد رغبة أو إرادة ، بل أصبح إمكانية فعلية وضرورة تاريخية يفرضها تطور الوضع الدولي .

ولا شك في أن الشعوب المحبة للسلام في جميع البلدان والقارات ترد

النشاط العدواني لأعداء السلام ومساعي المستعمرين بتوثيق الوحدة فيما بينها وبالنضال بحزم أشد في سبيل السلام والحرية والاستقلال ومن أجل انتصار مبادىء التعايش السلمي .

وعلى أسس مبادىء التعايش السلمي تبنى العلاقات المتبادلة بين بلدينا .

وتخدم زيارات بعثات بلدينا المتبادلة توطيد الصداقة الأخوية والتعاون في ميدان رفع ثقافة شعوبنا . وتمكننا هذه الزيارات من معرفة بعضنا بعضاً وتساعد على توطيد صداقتنا وتقوية نضالنا المشترك من أجل السلام في العالم اجمع .

وقد أظهرت نتائج مؤتمر أقطاب الدول الافريقية في الدار البيضاء ومنها الجمهورية العربية المتحدة أن قوى شعوب افريقيا المتحدة ، بمساعدة الشعوب المحبة للسلام ، تقدر على الغاء النظام الاستعماري الوحشي في هذه القارة الغاءً تاماً . أما شعوب بلادنا السوفييتية فهي إلى جانب الشعوب العربية والى جانب جميع الشعوب المناضلة في سبيل استقلالها وحريتها .

وأن زيارتنا هذه لبلادكم الجميلة لمدة أربعة أسابيع قد أظهرت لنا أن حكومة الجمهورية العربية المتحدة تبذل عناية كبرى في تربية الجيل الناشىء وفي تعليمه وتنجح في هذا الميدان من الحياة .

رأينا في القاهرة ودمشق وحلب المدارس الحديثة الحسنة . فقد زرنا مثلا دار المعلمات والمدرسة الابتدائية للتطبيقات في مدينة دمشق ووجدنا أنه توجد فيها أساليب جميلة للتدريس يمكن أن نستعملها في مدارسنا . وليس ذلك في ميدان التربية والتعليم فقط بل رأينا تقدماً سريعاً في ميادين حياة جمهوريتكم الأخرى .

وإننا نتمنى لكم نجاحاً عظيماً في نشاطكم في بناء المستقبل السعيد وفي رفع مستوى حياة الشعب العربي اقتصادياً واجتماعياً وثقافياً . وبالطبع أنه من

المستحيل أن نتحدث في مثل هذه الكلمة القصيرة عن جميع نواحي حياة شعوبنا النشيطة التي تبنى بحماسة رائعة مستقبلها الجديد. سأتحدث عن بعض نواحي حياتنا.

يعرف الجميع عن الجهل الذي كانت تعيش فيه شعوب روسيا القيصرية قبل ثورة اوكتوبر الاشتراكية العظمى.

وكانت أكثرية سكان بلادنا تعيش في ظروف الأمية والفقر. فكان عشرون فقط من أصل ١٠٠ تقريباً يعرفون القراءة أما بين الاوزبيكيين والتركمانيين وقوميات آسيا الوسطى الأخرى فلم تكن هذه النسبة تبلغ سوى ٧ أو ٨ بالمائة.

لقد قدمت ثورة اكتوبر الاشتراكية الكبرى التي حدثت في سنة ١٩١٧ امكانيات غير محدودة للثورة الثقافية في البلاد.

بدأ شعبنا تحت قيادة الحكومة السوفييتية نضاله ضد الجهل والتأخر من أجل تعليم كل الكادحين تعليماً عميقاً.

ونتيجة للعمل الكبير في ميدان التربية والتعليم استطعنا أن ندخل في عام ١٩٣٠ في كل البلاد التعليم الإلزامي المجاني لمدة سبع سنوات لجميع الأطفال الذين يتراوح سنهم بين ٨ و ١٤ سنة.

وفي العام ذاته زار بلادنا أحد من الرجال المشهورين اديب الهند الكبير رابيند رانات طاغور. وقد كتب في كتابه « رسالات عن روسيا » مايأتي:

« تدهش المرء تلك الطاقة العجيبة التي يسعون بها في روسيا لتوسيع التعليم في البلاد كلها. أنهم ينشرون التعليم بسرعة الفيضان لا في بيلورسيا وحدها بل بين شعوب آسيا الوسطى النصف المتمدنة أيضاً ولا حد لطاقتهم اللانهائية المتجهة

إلى كشف السبل إلى قمم العلم أمام هذه الشعوب .. » .

واستطرد طاغور في كلامه قائلا : « وعندما قالوا لي أن التعليم ينتشر هنا بين العمال والفلاحين بسرعة البرق ، ظننت أن هذا التعليم زهيد : تعلم الكتابة والقراءة والحساب .... ولكنني أرى هنا تعليماً فعلياً يمكن من تربية الانسان ،

واليوم يشاهد العالم كله نجاح شعبنا الرائع في تطوير اقتصاد البلاد وثقافتها. فبدلاً من الاقتصاد المتأخر النصف المستعمر الذي كان قائماً ماقبل الثورة عندنا الآن الصناعة والزراعة الأكثر تقدماً في العالم .

ونعتقد إن الفضل الكبير في زيادة كمية الفولاذ السريعة وفي نمو صناعتنا وزراعتنا السريع يعود للمدرسة السوفيتية التي أصبح اليوم تلاميذها السابقون مهندسين ماهرين .

وإذا كانت نسبة الأمية في روسيا في مرحلة ما قبل الثورة تبلغ ٨٠ بالمائة فقد قضى في الوقت الحاضر على الأمية بين الشعب السوفيتي قضاء تاماً .

والآن لايعلّم مليونان من المعلمين الماهرين ١٤ مليون طفل القراءة فحسب بل يعطون الأطفال العلوم العميقة في حدود برنامج المدرسة الثانوية . وتعتبر سنوات التعليم الثمانية الزامية لكل مواطن في بلادنا بلا استثناء .

وجدير بالذكر أنه يعمل في السنة الجارية في جميع ميادين اقتصاد بلادنا أكثر من ثماني مليون متخصص من ذوي الشهادة في التعليم العالي أو الشهادة في التعليم المتوسط الفني .

ويعمل في جامعاتنا ومعاهدنا العليا ومحطات البحوث العلمية أكثر من ٣٠٠ ألف عالماً . ويتخرج كل سنة من مدارسنا العليا أكثر من ١٠٠ ألف مهندس أي ثلاثة أضعاف مايتخرج منهم في الولايات المتحدة .

ولكي أوضح صورة التطور السريع للتعليم الشعبي في الاتحاد السوفييتي أسرد بعض الوقائع من حياة جمهورية تتارستان السوفييتية .

كان الشعب التتاري في الماضي ، مثل شعوب روسيا القيصرية الأخرى ، مظلوماً عاجزاً ، محروماً من جميع الحقوق . وكان نصيبه انعدام الحقوق السياسية والاقتصادية إلى جانب الفقر والجهل .

أما في الوقت الحاضر فقد أصبح الشعب التتاري متساوياً مع جميع شعوب الجمهوريات السوفييتية من حيث مستوى تطور اقتصاده وثقافته .

وقد قال نيكيتا خروشوف في جلسة الدورة الخامسة عشر للجمعية العمومية لهيئة الأمم المتحدة إن اقتصاد مناطق روسيا المتأخرة في الماضي قد نما نمواً عظيماً وأشار إلى جمهورية تتارستان التي زاد انتاجها الصناعي في العهد السوفييتي ١٤٧ مرة . والآن تصدر تتارستان بضائعها الصناعية إلى ٤٠ قطر أجنبي بينها الجمهورية العربية المتحدة . ونحن نفتخر بمستوى الميكانيكية في صناعة تتارستان التي سبقت بمستواها أكثرية بلدان اوروبا الغربية .

وجدير بالذكر أنه يتعلم في إثنتي عشرة مدرسة عليا في جمهورية تتارستان التي تضم ٤ ملايين نسمة أكثر من ٣٤ ألف طالب أي بمقدار ما في تركيا كلها التي يبلغ عدد سكانها ٢٥ مليون نسمة . ويوجد في عاصمة الجمهورية ، مدينة قزان ، فرع لاكاديمية العلوم للاتحاد السوفييتي . وتضم مكتبة قزان العلمية أكثر من ثلاثة ملايين ونصف مليون نسخة من الكتب المختلفة وتوجد في قسمها الشرقي المخطوطات والكتب السياسية والدينية والاقتصادية والأدبية باللغة العربية والفارسية والصينية والتتارية وباللغة التركية وبينها كتاب « قانون الطب » بقلم ابو علي ابن سينا المطبوع في روما سنة ١٥٥٦ ، وترجمة القرآن

الكريم إلى اللغة التتارية في القرن السادس عشر ، إلى جانب كتب قديمة أخرى .

واذا كانت توجد قبل الثورة خمسة كتب لكل شخص واحد فقدارتفعت هذه النسبة الآن إلى ٤٠٠ كتاب لكل فرد في المكاتب الجماهيرية وتلك هي نتيجة تطور جمهوريتنا خلال ٤٢ سنة من العهد السوفييتي .

ولقد قال الرفيق خروشوف : إننا نفتخر بأن تجربة المناطق التي كانت منسية في أطراف روسيا السابقة قد برهنت الآن على أن بلدان الشرق تستطيع خلال حياة جيل واحد أن تقضي على التخلف والفقر والجهل والمرض وأن ترقى إلى مستوى البلدان المتقدمة اقتصاديا وهذه حقيقة لايجهلها أحد عن نظام التعليم الشعبي في الاتحاد السوفييتي .

ويجب القول قبل كل شيء أن جميع نجاحنا كان ممكناً بفضل النظام السوفييتي الاشتراكي ونظام التعليم الشعبي الراقي .

وقد تحقق في بلادنا في سنة ١٩٥٨ إصلاح المدرسة السوفييتية بما يتفق وتطور مجتمعنا المستقل وينص القانون الخاص لتطوير المدرسة السوفييتية ، الذي أقره المجلس الأعلى للاتحاد السوفييتي على أن الواجب الرئيسي للمدرسة السوفييتية هو تحضير التلاميذ للحياة وللعمل الاجتماعي المفيد ورفع مستوى التعليم العام والتكنيكي وتحضير الناس المثقفين الذين يعرفون أسس العلوم معرفة جيدة. وتربية الشباب بروح احترام المبادىء الاشتراكية العميقة وبروح الصداقة بين جميع شعوب العالم .

وقد وضع نظام المدرسة السوفييتية للتعليم العام على مبادىء التطوير الواسع

لثقافة شعوب الاتحاد السوفييتي القومية شكلاً والاشتراكية مضموناً ، وعلى مبادىء الحق المتساوي في التعليم لجميع المواطنين ويحق لكل مواطن سوفيتي أن يتعلم بلغته القومية ويجري التعليم في الوقت الحاضر في الاتحاد السوفيتي بـ ٦٦ لغة قومية بينها في روسيا الإئتلافية وحدها ٤٤ لغة قومية .

وقد قامت المدرسة السوفييتية على مبادىء وحدة جميع أنواع المدارس .

ويتعلم الذكور والإناث في جميع هذه المدارس . ويؤمن نظام التعليم العام السوفييتي صلة المدرسة بالحياة. وقد قامت المدارس السوفييتية على مبادىء التعليم الالزامي المجاني السهل المنال .

أنواع المدارس السوفييتية

المرحلة الأولى : ١) التعليم خلال السنوات الأربع الأولى .

يتعلم في هذه المرحلة جميع الأطفال من سن السابعة حتى الحادية عشرة وتتكون الصفوف حسب عدد الأطفال في القرية من شعبة واحدة أو شعبتين أو ثلاث شعب . ويتلقى التلاميذ في الصفوف الإبتدائية من مدرسة الأربع سنوات العلوم الابتدائية في اللغة الروسية والحساب ومن تاريخ الاتحاد السوفييتي .

ويجري التعليم في المدارس غير الروسية باللغة القومية . ويدرس التلاميذ اللغة الروسية وفقاً لرغبة الوالدين كمادة خاصة .

ويعمل في الصفوف الابتدائية المعلمون الحائزون على شهادة دار المعلمين والمعلمات ويتراوح راتب المعلم في الصفوف الابتدائية بين ٦٠٠ و ٩٥٠ روبلاً في الشهر .

المرحلة الثانية ٢)

وفقاً للقانون الخاص باصلاح المدرسة والصادر منذ سنة ١٩٥٨ تغيرت مدارس السبع سنوات العامه إلى مدارس الثماني سنوات العامة البوليتكنيكية او الفنية وفيها التعليم الزامي لجميع الأطفال الذين يبلغ عمرهم من ٧ الى ١٥ سنة .

وتدرس في مدرسة الثماني سنوات المواد التالية : اللغة الروسية وآدابها والرياضيات والتاريخ ودستور الاتحاد السوفييتي والجغرافيا وعلم الاحياء (البيولوجيا) وعلم الطبيعة (فيزياء) والكيمياء واللغه الأجنبية (الانكليزية أو الفرنسية أو الألمانية) والرسم الهندسي والموسيقى والغناء والرياضة البدنية والتدريب على العمل الاجتماعي المفيد .

ويواصل المتخرجون من هذه المدارس تعليمهم في المدرسة الثانوية أو ينتقلون الى المدارس المهنية المتوسطة . وتوجد الآن في جمهورية تتارستان السوفييتية الف مدرسة متوسطة تتبع نظام الثماني سنوات ويجرى التعليم في نصف هذه المدارس باللغة التتارية .

ويعمل في المدرسة المتوسطة في الصفوف الاربعة الأولى معلمون حاملون شهادة دار المعلمين والمعلمات ، وفي الصفوف الأخرى من ٥ – ٨ معلمون لهم شهادة التعليم العالي . ويتراوح راتب المعلمين بين ٧٥٠ و ١١٠٠ روبل في الشهر طبقاً لعدد ساعات عملهم .

المدرسة الثانوية

يجري التعليم فيها خلال ٣ سنوات .

والمدرسة الثانوية هي المدرسة التي تعلم الانتاج الصناعي أو الزراعي . وينال المتخرج شهادة عن التعليم الثانوي العام وشهادة أخرى عن تحصيل مهنة عمالية ويمكنه أن يعمل في أي مكان يريد . واذا رغب المتخرج أن يستمر في

تعلمه يمكنه أن يدخل أية مدرسة عليا حسب ارادته . ويمكن القول أنه ليس التعليم في المدارس العليا مجانياً فحسب بل أن الطالب ينال فيها راتباً شهرياً ويسكن في المدينة الجامعية مجاناً أيضاً .

وقد أدخلت على منهاج التعليم في المدرسة الثانوية الجديده بعد أن أصبحت مدة الدراسة فيها ١١ سنة بدلا من ١٠ سنوات تعديلات كبيرة بحيث أصبح هذا المنهاج أوسع بكثير مما كان عليه قبل ذلك .

فقد أضيفت على منهاج علم الطبيعة مثلاً دراسة المعلومات اللازمه عن فيزياء الذرة وعن السرعة الفوق الصوتية والمعلومات عن الاقمار الاصطناعية الخ .

ويعمل في صفوف ٩ – ١٠ – ١١ في المدارس الثانوية المدرسون الذين يحملون شهادات الجامعات أو المعاهد العليا أو المهندسون . ويتراوح راتب المعلمين بين ٨٠٠ و ١٢٠٠ روبل وفقاً لعدد ساعات عملهم .

المدارس الثانوية الليلية للعمال

يتعلم الشباب الذي يعمل في الصناعة والزراعة وليس له تعليم ثانوي في المدارس الخاصة وينص القانون على أن يشتغل الذين يتعلمون في هذه المدارس ٥ – ٦ ساعات فقط في اليوم بدون تخفيض الأجرة .

المدارس الداخلية (أو النظام الداخلي)

تنظم الحكومة السوفييتية بقصد زيادة أهمية دور المجتمع والقيام بمساعدة العائلة في تربية الاطفال شبكة واسعة من المدارس الداخلية التي يقوم فيها المعلمون بتحقيق واجب تعليم الأطفال وتربيتهم تحقيقاً رائعاً .

ويرسل الأبوان ، إذا أرادا اطفالهم الى هذه المدارس الداخلية التي تعلم

هؤلاء الأطفال وتربيهم وتقدم لهم الغذاء واللباس على حساب الدولة . وتنشىء لهذه المدارس البنايات العصرية من ثلاث أو أربع طوابق للسكن العام وتخصص في هذه البنايات أماكن للذكور والاناث منفردين . وتؤمن لجميع التلاميذ وسائل الراحة والدراسة .

وتوجد في تلك المدارس الداخلية غرف للألعاب ومطاعم وغرف للاستراحة وقاعات للرياضة وورش مجهزة بالآلات الحديثة وقاعات للسينما ومخابر للكيمياء والفيزياء وعلم الأحياء الخ .

التعليم العالي

توجد في الاتحاد السوفييتي شبكة من المدارس العليا الواسعة . يوجد الآن في بلادنا ٧٨٠ جامعة ومعهداً خاصاً تتراوح مدة التعليم فيها بين ٥ و ٦ سنوات . يتعلم فيها نحو مليونين وثلاثمائة الف طالب نصفهم تقريباً من النساء ويتعلم مثلاً في الجمهورية الاوكرانية وحدها في ١٤٠ مدرسة عليا نحو ٤٠٠ الف طالب . وهذا اكثر بكثير مما يوجد منهم في فرنسا وايطاليا معاً (ومن المعلوم ان عدد الطلاب في فرنسا عام ١٩٥٩ كان نحو ١٨٠ الف طالب) أن الواجب الأساسي للمدارس العليا هو تحضير الخبراء الماهرين والمطلعين على أحدث منجزات العلم والتكنيك الوطني والخارجي والذين لايتقنون استعمال التكنيك الحديث فحسب ، بل يخلقون تكنيك المستقبل أيضاً .

تحضير المعلمين

يجري تحضير المعلمين لشهادة التعليم العالي في الاتحاد السوفييتي في الجامعات العديدة وفي ٢٢٥ معهد للمعلمين خلال ٥ سنوات . ويجري تحضير المعلمين للتعليم في الصفوف الابتدائية في دور المعلمين خلال ٣ – ٤ سنوات ويجري توزيع المتخرجين من المعاهد العليا والمتوسطة حسب رغبتهم وتحصل كل مدرسة على

العدد اللازم من المعلمين كما يضمن لكل معلم الحصول على العمل حسب مهنته . وبالاضافة الى ذلك يحصل المعلم على شقة مريحة في المدينة أو القرية وله اجازة سنوية مدفوعة الاجر مدتها شهران .

ها هي حالة التعليم الشعبي في بلادنا وتلك هي الطريقة التي تحل بها مسألة تعليم الجيل الناشيء وتربيته في البلدان الاشتراكية التي تناضل شعبها مع شعوب العالم المحبة للسلام وبينها الشعوب العربية من أجل السلام والصداقة ومن أجل مستقبل سعيد لجميع الأطفال ومن أجل مستقبل البشرية كلها .

شكراً وسلام عليكم أيها الأصدقاء

١٩٦١/١/١٢

٩

الحقيقة الفلسفية

للدكتور بديع الكسم
استاذ مساعد في كلية الآداب

الانسان ، في جانب أصيل من جوانب كيانه الروحي ، ارادة وعي وتطلعٌ الى الحق . وقد يميل بنا الظن الى أنه تطلعٌ الى الحقائق كلها ، ورغبةٌ نهمة في معرفة كل شيء . ذلك أن نزعة غامضة ، خفية في اعماقه ، تصور له المثل الأعلى للمعرفة معرفة محيطة شاملة ، معرفة تهدم مثلها الأعلى عن طريق تحقيقه. وليس لنا أن نسأل هنا عما اذا كانت هذه النزعة الغامضة علامة من علامات الفكر المطلق تدمغ النفس المخلوقة وتدفعها الى التشبه بالعارف العليم قدر طاقتها ، أو أثراً ابليسياً من آثار شهوة العجرفة والفضول . ويكفينا أن نقرر ان الانسان في وجوده المتناهي وواقعه المتزمن ونشاطه الحي ، انما يتجلى في رفضه المستمر لجملة غير متناهية من الحقائق المحرمة والمعارف التافهة ، وفي اختياره الحر لنوع الحقائق التي تستحق أن تعرف أو يجب أن تعرف . فتطلع الانسان الى الحقيقة يعني اذن أنه انفتاح على النور وجهد متصل لتركيز الحقائق الكبرى ، الحقائق ـ القيم .

ونريد في حديثنا عن الحقيقة الفلسفية أن نقصر الكلام على الخصائص العامة للحقيقة المتضمنة في الحكم الفلسفي ، لنخلص الى ما يميزها من الحقائق الأخرى . نذكر اولاً بأن الحقيقة صفة من صفات الأحكام وحدها . فالحكم أو التصديق

يقرر علاقة بين موضوع ومحمول ، ويوصف بانه حق اذا تطابق مضمونه مع الواقع . الحقيقة اذن هي تطابق ما في الأذهان مع مافي الأعيان . والتعبير اللفظي عن الحكم هو القضية . فقولي : « الكون متناه في الزمان والمكان » قضية تعبر عن حكم يسند التناهي الى الكون ؛ وهي تتصف بالحقيقة أو الصدق اذا كان الكون فعلاً متناهياً في الزمان والمكان . واذا كانت الحقيقة صفة من صفات الحكم ، وكان الحكم بدوره فعلاً من أفعال العقل ، فلا معنى للتحدث عن الحقيقة الا حين يقوم عقلٌ معين باطلاق حكم معين . والنتيجة ان الحقيقة هي أولاً وبالذات حقيقة بالنسبة الى صاحبها ، لأنها متضمنةٌ في الحكم الذي يطلقه ، وملازمة للقضية التي يقررها . والواقع ألا فرق بين تقرير القضية وبين تقريرها على انها صادقة أو متصفة بالحقيقة .

نستطيع اذن أن نؤكد ، في خطوة أولى ، أن كل قضية ، مهما يكن مضمونها ، قضيةٌ صادقةٌ بالنسبة الى صاحبها الذي يقررها ، وأنها ليست صادقة الا بالنسبة اليه . ولا نريد أن ننتقل من هذا اليقين الأول قبل أن نرفع عنه كل لبس ونستخلص نتائجه في التطبيق .

قلنا ان القضية صادقةٌ بالنسبة الى صاحبها ، لأن الإنسان لا يملك أن يطلق حكماً لا يؤمن بصدقه . فمن الواضح أن الاعتقاد ملازم للحكم ، مقومٌ لوجوده كحكم أو تصديق ، بحيث يكفي أن ينسحب منه حتى يتفتت الحكم أو يعلق ألفاظاً في الفراغ . وينطبق قولنا ذلك على جميع ميادين المعرفة وصورها . فالمعرفة العامية معرفة صادقة تعبر عن الواقع عند صاحبها ، وهي صادقة صدقاً مطلقاً حتى يتكشف له خطؤها أو حتى يتجاوزها الى معرفة أدق وأشمل . وكذلك المعرفة العلمية والدينية والفلسفية . ويكفي أن يتأمل كل منا في لبنة المنطقية للقضية التي تعبر عن معتقد من معتقداته الدينية أو الفلسفية حتى يجد أنها لا تختلف مطلقاً ، من حيث كونها متصفة بالصدق ، عن القضية العلمية الخالصة .

قد يعترض هنا بأن الحقيقة الفلسفية لا تملك ، حتى بالنسبة الى صاحبها ، هذا اليقين الجازم الذي تملكه الحقيقة الرياضية أو الطبيعية . وجوابنا أن تاريخ الفلسفة يشهد أن الفيلسوف ، حين يقرر أحكامه تقريراً مليئاً خالياً من كل تحفظ ، فهو يقررها على أنها حقائق لا يقل يقينها عن يقين أية حقيقة علمية . فديكارت يصرح لنا بأن وجود الله أوثق عنده من حقائق الرياضة . أما إذا كان الفيلسوف يتردد أحياناً في بعض أحكامه ويقررها على أنها مرجحة فحسب ، فيجب أن نعد جملة التحفظات التي تمنعه من توكيد أحكامه توكيداً مطلقاً ، جزءاً من مضمون حكمه الحقيقي ، أي يجب بعبارة أخرى ، أن ندخل جهة الحكم في مادته بحيث يظل الحكم نقياً صافياً ، يعبر عن الحقيقة تعبيراً كاملاً . فإذا قيل إن أفلاطون — أو غيره من الفلاسفة — لم يكن واثقاً كل الوثوق من خلود النفس ، وإنه لم يقرر هذا الخلود إلا بوصفه مرجحاً ، قلنا إن القضية المعبرة عن موقف أفلاطون تعبيراً كاملاً تنطوي هي نفسها على هذا الترجيح وتصاغ بالعبارة القائلة إن خلود النفس أمر مرجح . ولكن هذه القضية لا بد أن تتصف بأنها ، بالنسبة الى صاحبها ، صادقة صدقاً يقينياً . طبيعي أن الخلود ، في ذاته ، لا يمكن أن يكون مرجحاً ؛ فهو إما أن يكون أو لا يكون . وإنما يُحمل الترجيح على حكم يتصل بدوره بمسألة الخلود . أنه إذن جزء من مضمون حكم على حكم ينتقل بنا من سطح مشكلات الوجود الى سطح مشكلات المعرفة . ولا يتسع الوقت هنا لتفصيل العلاقة بين هذين النوعين من المشكلات ، لهذا اعتذر عن عدم الكلام فيها .

وقد يُعترض أيضاً بأن القضية الفلسفية ، حتى ولو نظرنا اليها من حيث اتصافها بالصدق بالنسبة الى من يقررها ، تختلف عن غيرها من القضايا العلمية . ذلك أن القضية العلمية واضحة الحدود ، ثابتة التصورات بحيث نستطيع أن نقرر صدقها استناداً إلى دلالتها المحددة الثابتة . أما القضية الفلسفية ، كقولنا

مثلاً الله موجود ، فهي غير واضحة الحدود لأن المعنى المقصود بلفظة « الله » يختلف من فيلسوف إلى آخر ، كما يختلف معنى الوجود نفسه . وجوابنا أننا حين نربط القضية بصاحبها فإننا نقرر ، في الوقت ذاته ، أن معناها الحقيقي هو المعنى الذي يقصده من يقررها . فإله أفلاطون غير إله أرسطو ، وإله ديكارت غير إله باسكال . ولكن معنى اللفظة واضح في ذهن كل منهم ، ولا بدلنا لكي نفهم ما يقصده الفيلسوف نفسه ، من أن نرجع إلى تجربته الروحية وجملة مذهبه الفلسفي . وهذا يعني أن ألفاظاً واحدة قد تستخدم في الفلسفة لتدل على معان متغايرة . فبرجسون مثلاً يؤكد حرية الانسان . ويؤكد هذه الحرية أيضا لالاند . ولكن لالاند يقول بصدد الكلام على حرية برجسون : « وقانا الله من الحرية إن كانت الحرية هي هذه » . والخلاصة أن عجز اللغة عن أن تقدم لنا لفظة خاصة بكل فكرة هو الذي يجعل معنى القضية الفلسفية يتجاوز الألفاظ التي تعبر عنها ، دون أن يفقد وضوحه في ذهن صاحبه .

القضية إذن صادقة دائماً بالنسبة إلى من يقررها ، إذا أخذنا بعين الاعتبار أنه هو الذي يعطيها معناها ، وأنه يقررها دائماً بصورة مطلقة من كل قيد . وما دام ذلك صحيحاً بالنسبة الى القضية من حيث هي تو كيد ، أي مهما يكن مضمونها ، فلا مجال للتفريق هنا بين الحقائق العلمية وبين الحقائق الفلسفيه والدينية .

ولكننا قلنا أيضاً إن القضية ليست صادقه إلا بالنسبة الى صاحبها . وهذا القول بديهي في الواقع ، إذ كيف يقرر انسانٌ ما صدقَ قضية دون أن يتبناها ؟ ألا نشعر جميعاً بأننا لا نستطيع أن نعترف بصدق حكم من الأحكام إلا إذا كنا نعد أنفسنا أصحاباً لهذا الحكم ؟ فلسان حال كل منا إذن هو أن الحقيقة هي التي اعترف أنا نفسي بأنها حقيقة . ولا تكتسب أقوال الآخرين صفة الحقيقية عندي إلا حين أقررها . فكل فرد منا ملزم بأن يعد نفسه مقياساً للحقيقة ، أي مقياساً وحيداً للحقائق كلها . ولا مخرج له من ذلك الا بالتناقض ،

إذ من التناقض الواضح أن أعترف بصدق حكم قبل أن يصبح حكمي ، أي قبل أن أصدقه .

ولكن هذا لا يعني مطلقاً أن الحقيقة التي أقررهـا هي في نظري مجرد حقيقة ذاتية او شخصية . فأنا لا أستطيع أن أقرر حقيقة ما وأن أعدها في الوقت نفسه حقيقتي وحدي . ذلك اني حين أعترف بها كحقيقة ، إنما أعترف بها كحقيقة موضوعية مطلقة . بل إن تعريف الحقيقة من حيث هو تطابق الفكر مع الأشياء ، يتناقض مع المفهوم الذاتي للحقيقة . ومعنى ذلك أنه إذا كان على الفرد من جهة أولى أن ينتظر تصديقه الذاتي لحكم من الأحكام، حتى يعترف بحقيقة مضمونه ، فإنه يكفيه ، من جهة ثانية ، أن يعترف بهذه الحقيقة حتى يقرر أنها موضوعية مطلقة . فقولنا إذن إن كل فرد يعد نفسه بالضرورة مقياساً وحيداً للحقائق كلها إنما يعني أنه يعد نفسه مقياساً للحقائق المطلقة .

ربما بدا أن في ما انتهيت من الاشارة اليه مفارقة غريبة تبتعد بنا عن المفهوم المستقر في أنفسنا عن الحقيقة . ولكني أنبه أولاً الى أن الحقيقة التي يدور الكلام عليها إنما توجد في الأحكام ولا توجد الا في الأحكام . فهي اذن لا تعني الواقع او الوجود . وأنبه ثانياً الى ضرورة التخلي – ولو مؤقتاً – عن كل مفهوم مسبق عن الحقيقة وأنواعها المختلفة ، وعن كل محاولة لاستباق النتائج التي يظن أنها تترتب على ما سبق ان قررناه من توحيد معنى الحقيقة في الميادين المختلفة ، ومن ربط الاعتراف بالحقيقة بصاحب الحقيقة نفسه . وأنبه ثالثاً الى أن الحقيقة العلمية نفسها لابد أن تستند الى اقتناع الفرد بها حتى تصبح حقيقة بالنسبة اليه . فأنا لا أقبل حقيقة هندسية إلا لأن البرهان يلزمني بها بحيث يمتنع علي أن أقاومها ، وذلك بصرف النظر عن اقتناع الآخرين بها . فليست الكلية اذن شرطاً من شروط الحقيقة العلمية لأني أقبل هـذه الحقيقة من غـير اعتبار لقدرتها على أن تثبت في العقول جميعاً . وهي بالتالي لا تتميز من الحقائق الدينية

او الفلسفية . وأنبه رابعاً الى أنه اذا رجع كل منا الى تجربته الفكرية أحس بأن معنى الحقيقة في الحكم لا يتعلق بمضمون الأحكام ، وبأن هذا المعنى يظل بالتالي واحداً في جميع معتقداته ، وأحس أيضاً بأن الحقيقة التي يقررها هي وحدها الحقيقة الفعلية ، وبأنها في الوقت ذاته حقيقة مطلقة . وأنبه اخيراً الى انني لم أقل ابداً ان كل فرد منا هو فعلاً مقياس الحقائق وانما قلت إن كل فرد منا **يعد نفسه بالضرورة** مقياساً للحقائق . فاذا ما طبقت هذا القول على نفسي – كما يمكن أن يطبقه كل منكم ، على نفسه – قلت « ليس صحيحاً أن كل فرد مقياس للحقيقة المطلقة » كما يتوهم ، وذلك لأني انا نفسي مقياسها الوحيد .

* * *

ننتقل الآن الى نقطة ثانية لنسأل : متى يحق للفرد أن يطلق حكمه على أنه صادق ؟ لا شك أن الجواب المباشر على هذا السؤال هو أن الحكم لا يكون صادقاً إلا إذا قام عليه الدليل . فكل قضية تقرّر اذن ، وبصرف النظر عن مضمونها ، تعني أنها مبرهنة في نظر صاحبها . ذلك أن البرهان هو الذي يسمح لها أن توضع وتستقيم . إنه القوة التي تسندها من الداخل وتمنحها القدرة على الوجود . إن ادراك حقيقة من الحقائق هو ادراكها في منابعها وأسسها المشروعة . فالبرهان بهذا المعنى ، ونحن لا نستطيع أن نجد له معنى آخر ، ضروري لكل قضية مقررة ، إلا اذا كانت القضية بديهية في ذاتها ، أي تحمل برهانها في نفسها .

صحيح أن أشكال البرهان كثيرة . ونحن نستطيع أن نلح على الخصائص النوعية التي تميز البرهان الرياضي من البرهان الطبيعي او التاريخي او الفلسفي . ولكن عصب كل برهان ، مهما يكن شكله ، هو ما يحمله في طياته من قوة الاقناع والافحام . إن هذه القوة هي العنصر المشترك في البراهين جميعها ، بل هي

الخاصة التي تسمح لنا أن نسميها بالبراهين . وأول نتيجة لذلك أنه لا مجال للتمييز بين البرهان الكامل في علوم الرياضة مثلاً وبين البرهان الناقص في مجال الحقائق الفلسفية أو الدينية . فالفيلسوف لا يستطيع أن يعد برهانه أقل قوة من برهان العالم لأنه يعرف أن البرهان إما أن يكون او لا يكون . وكل ما هنالك أنه لا يشترط في صحة البرهان أن يفرض نفسه على العقول جميعاً ؛ بل يكفي ان يفرض نفسه عليه وحده . ولكن هل يشذ الفيلسوف في الواقع عن غيره من أصحاب الحقائق ، في هذه المسألة بالذات ؟ إن نظرة نلقيها على تكون البراهين في الميادين المختلفة للمعرفة تبين لنا أن البرهان لاينفصل أيضاً عن صاحبه . فمن الواضح أولاً إن حقائق العلم لا تقرر إلا على أنها مبرهنة . ولكننا أشرنا الى أن البرهان فيها لايتعلق بقدرته على اقناع العقول أي بطابعه الكلي ، وإنما يتعلق بقدرته على هدم كل مقاومة يحاول أن يقاومه بها فرد من الناس . فالحقيقة العلمية تستمد حقيقتها من برهانها الذاتي لا من ايمان الناس بها. ولا ننس مع ذلك أنه يكفي أن نترك نطاق العلوم الرياضية والطبيعية الى حد ما حتى نصطدم باختلاف الحقائق في العلوم الانسانية . فالحقيقة التي يقررها عالم من علماء النفس او الاجتماع او التاريخ وينقضها عالم آخر ، ليست عند صاحبها سوى حقيقة مبرهنة . ولا يطعن في برهانها عند هذا العالم ، أنه لم ينجح في ان يقنع بها غيره من العلماء .

وما قلناه عن الحقيقة العلمية نقوله أيضاً عن الحقيقة الدينية أو الايمانية . فالايمان هنا لا يعني انتفاء البرهان أصلاً وإلا لما فهمنا مطلقاً لماذا يقرر فرد من الناس هذه الحقيقة دون تلك ، في مجال المعتقدات . يقول الاكويني : « لا يؤمن الانسان إلا إذا رأى أنه يجب عليه أن يؤمن » . ومعنى ذلك أن الحقيقة الايمانيه تبرهن بصورة غير مباشرة وإن تعذر برهانها مباشرة . وليس البرهان غير المباشر أضعف من البرهان المباشر ما دمنا نعترف أنه برهان .

ولا نريد أن نحلل هنا هذا النمط من البرهان ، وما يستند اليه من مقدمات تعد بديهية عند صاحبها ، كالمعجزة او الكمال المذهبي او الثقة بالآخرين. والمهم أن نلاحظ حضوره بصورة صريحة او ضمنية في ذهن صاحب العقيدة الايمانية . انه برهان كامل بالنسبة إليه ما دام يسمح له أن يقرر قضيته تقريراً جازماً. أما اذا قيل هنا ايضاً إن الحقيقة الدينية لا تؤكد على نحو ما تؤكد الحقيقة العلمية عدنا الى ما كنا أشرنا إليه من ارتباط معنى القضية بصاحبها واعتبار القضية المجردة من كل شك أو تحفظ هي التي تعبر عن موقف صاحبها الفعلي .

والخلاصة أن الايمان معرفة مبرهنة بنوع غير مباشر من البرهان، يكتفي به صاحبه حين يقتنع به شخصياً ، ولو لم يقتنع به غيره ، ليؤكد حقيقته على أنها حقيقة مطلقة .

والحقيقة الفلسفية أخيراً حقيقة مبرهنة ، بمعنى أن صاحب النظرة الفلسفية لا يستطيع أن يؤكد أمراً الا اذا كان بديهياً في نظره أو مستندا الى حقائق بديهية . فالقضية الفلسفية التي لانعترف بأنها بديهية ولا نقدم لها برهاناً نعتقد بقوته الاقناعية ، قضية محرمة من الناحية النفسية والمنطقية والأخلاقية . فإذا حق للفيلسوف أن يتحرر من رقابة عقول الآخرين عليه فإنه لايحق له أن يؤكد مايشاء ويهوى . بل هو لا يستطيع أن يفعل ذلك برغم أنه يجد في كتابات الفلاسفة كل تقرير ممكن .

وطبيعي اننا لانقصد بالحكم هنا مجرد القول الظاهري الذي يمكن ان يكون كاذباً ، ولكننا نقصد به فعلاً عقلياً داخلياً مصحوباً باعتقاد . إن مايمنع الفيلسوف من أن يسترسل في احكامه ليس نقصاً في جرأته أو خوراً في اندفاعه، وانما هو انتهاء تجربته الفلسفية عند حد معين لايستطيع تجاوزه. فقد سأل الأب تونكيدك الفيلسوف برجسون عما إذا كان يرغب في إضافة شيء الى افكاره التي

أوردها في كتابه « التطور الخالق » فأجاب برجسون في رسالة خاصة : « اني، بوصفي فيلسوفاً ، لا أرى شيئاً استطيع أن أضيفه الآن . وذلك لأن المنهج الفلسفي كما أفهمه لايسمح لي بتقرير نتيجة تتجاوز اقل تجاوز ممكن الشروط الاختبارية التي تستند اليها . » ثم إن الفيلسوف لايرفض قولاً من الأقوال إلا على أساس اعتقاده بأنه قول غير مبرهن، وإلا لما استطاع أن يرفضه دون تناقض.

ومع ذلك فإنا نجد عدداً من الفلاسفة المعاصرين يضيقون بنير المنطق والبرهان. فنيتشه ، كما يقول سوريو، لايبرهن على أقواله وإنما يطلقها في كبرياء. وجابريل مارسيل ،على الرغم من ايمانه بقيمة التواصل، لايتردد في أن يقول: إن الفيلسوف الذي يعرض حقائقه التي اكتشفها ، في تسلسل جدلي مذهبي ، قد يشوه تشويهاً عميقاً طابعَ هذه الحقائق نفسها .ولوكيه يرى أن الحرية لاتبرهن لأن البرهان عليها يعني فرضها . ويقول ياسبرس : ان الاله المبرهن ليس إلهاً . ويعتقد شستوف بأن طريق الفلسفة يظل مقفلاً مادام المنطق سائداً .وتلميذه فوندان يريد أن يبعد عن نفسه جثة الضرورة ويعلن انه مستعد لأن ينكر العقل وأن يخرج له لسانه وأن يجيب على منطقه بالصواعق والرعود .

ويمكن أن نجيب على ذلك كله باختصار، بأن نيتشه إذا كان يقرر في كبرياء ودون برهان فهو يصرح من جهة ثانية بأنه ليس من ضيق الأفق بحيث يؤمن بمذهب معين ولو كان مذهبه . ومعنى ذلك ان الانسان لا يطالب بالبرهان إلا إذا كان جاداً في مايقول . أما جبريل مارسيل فليس هناك من يطلب اليه أن يعرض حقائقه بصورة جدلية لأن الجدل الحقيقي ينساب في لحمة التفكير نفسه. ولكن ليس هناك من هو مستعد للاستماع الى فيلسوف إذا أصر على أن يفر من مسؤولية أحكامه . هذا ولم يشترط أحد على لوكيه ومارسيل أن تخضع الحرية نفسها أو أن يخضع الاله نفسه لمنطق العقل الانساني ، وانما يُشترطُ أن يخضع ادعاء الفيلسوف لهذه الحقيقة دون تلك ، الى مايبرره في العقل . وأخيرا

لقد ذهب كل من شستوف وفوندان بعيدا في التمرد حتى تمردا على وهم من الأوهام . إذ لا يطلب من البديهية الفلسفية أن تكون بديهية عقلية يتفق فيها الناس جميعاً ، وإنما يكفي أن تكون بديهية عند صاحبها سواء اتصل مضمونها بالعقل أو بالعاطفة والقيم . فكأن أصحاب المدرسة اللاعقلية لا يثورون ضد البرهان إلا لأنهم يظنون ان البرهان الحقيقي هو الذي يستطيع أن يفرض نفسه على كل عقل . ويكفي أن نعود بالبرهان الى واقعه العيني ضمن التجربة التي يعيشها الفيلسوف حتى يستقيم قولنا بان القضية الفلسفية لا تقرر في ذهن صاحبها إلا بوصفها مبرهنة كاملة البرهان .

يلاحظ في كل ما قلناه أننا لم نتجاوز حدود الوصف والتحليل . بل لم يكن قصدنا أبدا أن نتجاوز هذه الحدود . فواقع الأمر أن الفلاسفة يؤلفون مذاهبهم من جملة الحقائق التي يبرهنون عليها . فلابن سينا حقائقه وبراهينه ، ولديكارت حقائقه وبراهينه ، ولهيجل حقائقه وبراهينه . ولم يتفق لفيلسوف أصيل أن تردد في توكيد ما يراه حقاً بسبب شعوره بأن الآخرين لن يقبلوا حقائقه . وهو لم يتردد في أن يعد حقائقه حقائقَ موضوعيةً مطلقة ، تسندها الأدلة الصحيحة . وليس هذا الموقفُ موقفَ الفلاسفة وحدهم ولكنه موقفُ العلماء في كل ميدان ، وموقف المؤمنين بالحقائق الدينية مهما يكن مضمون حقائقهم ، بل هو موقف كل واحد منا في جملة ما يُصدّقه ويؤمن به .

نقول إننا لم نتجاوز حدود الوصف والتحليل . ولكننا نعتقد أن النتيجة اللازمة عن هذا الوصف والتحليل نتيجة هامة . اذ يكفي أن يعي الفرد أنه لا يستطيع إلا أن يعد نفسه مقياساً للحقائق المطلقة حتى ينتبه الى خطورة المسؤولية التي يحمل أعباءها . إن وفاءه لمعنى الحقيقة يلزمه بأن يعيد النظر دائماً في جملة أحكامه عن طريق فحص البراهين التي تدعمها . فالتجربة تعلمنا أننا كثيراً ما نخطىء ونبدل أحكامنا . وسبيلنا الى رفع الخطأ الممكن أن نكون على صلة

حية دائمة بالحقائق التي انتهينا اليها . فإذا ما أُعطينا حق التقرير فيها فقد أُلزمنا أيضاً بواجب تطهيرها وتحريرها بفضل التجربة والتأمل . إننا لسنا أحرارا في توكيد الحقيقة التي نريد ولكننا أحرار في البحث عن الحقيقة التي تفرض نفسها علينا . إننا لا نملك الحقيقة إلا حين تملكنا .

* * *

ننتقل بعد ذلك الى نقطة ثالثة تتصل بما يميز القضية الفلسفية من غيرها من القضايا . ذلك أننا حتى الآن حاولنا أن نقرب بين صور المعرفة أو أن نوحد بينها على صعيد التقرير والبرهان . والواقع أن القضية الفلسفية انما تتميز بمضمونها لا بطريقة وضعها . ونحن حتى حين نعترف بأن لها منهجاً خاصاً بها، لا نستطيع أن نعرّفها بالوسائل التي توصلنا اليها ، لأننا لا نعرف مثلاً علم الفلك بأنه العلمُ الذي يعتمد على المراصد .

للفلسفة إذن موضوعها الخاص بها . وما دمنا نقصد بها في هذا الحديث الفلسفة الأولى أو ما بعد الطبيعة فهل نرجع الى تعريف ارسطو ونقول انها علم الوجود بما هو وجود ؟ الواقع أننا لا نجد فائدة كبيرة في البحث عن تحديد ثابت لموضوع الفلسفة ، نعرف مقدماً أنه لا يرضي الفلاسفة جميعاً . فتعريف ارسطو لا يقنع ديكارت ، وتعريف ديكارت غير تعريف هيجل . أما تعريف هيجل فقد جعل وليم جيمس يقفز فوق الأرض مرتين . وليس الأمر مقصورا على الاختلاف في الحلول وانما يتصل الاختلاف في الأسئلة نفسها . فالسؤال : لماذا كان وجود بدلاً من العدم ؟ سؤال رئيسي عند هيدجر . ولكن وليم جيمس يرى أن مهمة الفلسفة أن تفسر العالم كما هو في واقعه بدلاً من أن تسأل لماذا كان موجودا . وبرجسون يعد هذا السؤال سؤالاً زائفاً مبنياً على فكرة العدم الزائفة . وإذا كانت مشكلة المصير الانساني بعد الموت قد أقلقت كلاً من أفلاطون وباسكال ومارسيل فإنها لم تكن ذات بال عند هيجل وكرونشه

وميرلوبونتي . ولهذا قال ريكور إن مهمة الفيلسوف أن يخلق أسئلته وأن يجدد طرح المشكلات ، ولاحظ برهيه أن المشكلة الواحدة قد تأخذ أهمية كبيرة في مذهب معين وتفقد كل أهميتها في مذهب آخر .

ولكن هل يعني ذلك أن الفلسفة لاتملك موضوعها الخاص ؟ نعتقد أننا نستطيع أن ندرك هذا الموضوع اذا رجعنا الى منابع التجربة الفلسفية في أعماق الانسان . لقد قلنا في البدء ان انفتاح الانسان على الحقيقة يعني أنه اختيار للحقائق الكبرى . ونستطيع ان نقول الآن إن الفلسفة هي البحث عن أكثر الحقائق أهمية في حياة الانسان الروحية . والفيلسوف هو الذي يجدد هذه الحقائق ويطورها وفق تجربته وتطلعاته . ونحن نجد في تاريخ الفلسفة ما يؤيد هذه النظرة تأييداً قوياً . فأفلاطون يرى أن الفلسفة محاولة لبناء انسان جديد ، وأنها تطهر نفس الفيلسوف من علائق البدن في سبيل تحريره واعداده للاتصال بالحقائق المحضة . إنها اذن بناء للحياة واعداد للموت . والفلسفة عند أرسطو هي أسمى العلوم على الاطلاق ، وهي الهية بمعنيين : فهي تبحث في الأمور الالهية وهي أيضاً أجدر العلوم بأن تكون موضوعاً للعلم الالهي . ويكرر باسكال ان الانسان يستطيع أن يهمل معرفة رأي كوبرنيك ، ولكنه لايستطيع أن يهمل معرفة مصيره . وليس صحيحاً أن اسبينوزا كان يحمل مثلثاً في رأسه . فهو قد ثار على تفاهة الحياة اليومية وانطلق في البحث عن خير حقيقي يولد في نفسه الفرح الدائم . وهو حين سمى كتابه الفلسفي بالأخلاق كان يؤمن بأن هناك علاقة قوية بين وحدة الجوهر وأساس الحياة الاخلاقية . أما هيجل فقد كتب يقول : إن الفلسفة التي تستحق فعلاً هذا الاسم هي التي تستطيع أن تجيب على سؤالنا : ما معنى أن نتقرب من الله ؟ وبرجسون ، على رغم مهارته في هدم المشكلات الفلسفية المقلقة ، يعترف بأن الفلسفة ، اذا لم تستطع أن تقول شيئاً عن أخطر الأسئلة التي تطرحها الانسانية ، فانها لاتستحق تعب ساعة واحدة . والفلسفة

المعاصرة التي تعيش على القلق والتمزق تحاول أن تثبّت نظرها الى الهاوية وأن تبحث في الوقت نفسه عن معنى جديد للحياة . فألبير كامو يعلن أنه لا توجد إلا مشكلة فلسفية واحدة ، مشكلةٌ جادة حقاً ، هي مشكلة الانتحار . فاذا أجبنا عن السؤال : هل تستحق الحياة أن تُعاش أم لا تستحق؟ فقد أجبنا عن المشكلة الرئيسية في الفلسفة .

الحقيقة الفلسفية إذن تتميز بخطورة مضمونها الروحي . قد يقال إنها تقترب بذلك من بعض الحقائق الايمانية . والواقع أن القضية الايمانية تعبر في كثير من الاحيان عن جواب لمشكلة فلسفية . وبما ان صاحب القضية الايمانية ينظر إليها على أنها صادقة مبرهنة كما أسلفنا ، فهو يجد فيها حلاً صحيحاً لمشكلة فلسفية . ولا أهمية في رأينا للاختلاف بين الفلسفة والايمان في طريقة الوصول الى الحقيقة . فالفيلسوف الذي تقض مضاجعَه قضيّةُ مصيره بعد موته لا يستطيع أن يشترط في الجواب على سؤاله أن ينهج نهجاً معيناً أو أن يلجأ الى برهان مباشر . فاذا وجد جواب سؤاله في قضية ايمانية يعدها صادقة مبرهنة فقد وجد ضالته . ان سؤاله الفلسفي الحقيقي هو : هل النفس خالدة ؟ وليس أبداً : هل يستطيع العقل أن يثبت مباشرة خلود النفس ؟ وينتج عن ذلك ان الفلسفة الحية عند من يؤمن دينياً بخلود النفس إنما هي ايمانه ذاته ، ضمن الحدود التي يجيب فيها الايمان على أسئلته الفلسفية . وهذا ما نلاحظه في واقع الامر عند المؤمنين بالحقائق الدينية ، سواء أكانوا من الفلاسفة أو لم يكونوا . ونعتقد أن هذه النظرة تستطيع أن تحل الاشكال الضخم الذي اثير في اوروبا منذ ربع قرن حول معنى الفلسفة الدينية بصورة عامة والفلسفة المسيحية بصورة خاصة . فالذين يرفضون هذه الفلسفة الدينية من أمثال برهيه وبرنشفيك ، يفصلون بين المجالين وينظرون الى عبارة الفلسفة المسيحية مثلاً كما ينظرون الى عبارة الهندسة المسيحية . أما الذين يقبلون هذه الفلسفة من أمثال جلسون وبلوندل فإنهم

يفصلون أيضاً بين الدين والفلسفة ولكنهم إما أن يقولوا مع جلسون بأن المسيحية قد أثارت أمام الفكر الفلسفي مشكلات جديدة عليه كمشكلة اللانهاية والخلق ، بحيث تستحق الفلسفة التي تجيب على هذه المشكلات إجابة عقليه محضة اسم الفلسفة المسيحية، وإما أن يقولوا مع بلوندل بأن الفلسفة المسيحية هي الفلسفة العقلية المحضة التي تنتهي خطواتها عند فجوة لا تملؤها غير المسيحية . ونعتقد أن هذه الحلول المختلفة تنطلق من ربط الفلسفة بمنهج معين وتنتهي الى الفصل بين نوعين من الحقائق . ولكننا نرى وفق ما قدمناه أن الحقيقة الفلسفية هي التي يعيشها فعلاً صاحبها ، وهي التي تغذي واقعه الروحي . فجلسون مثلاً فيلسوف توماثي ومؤمن كاثوليكي ؛ وهو يرى أن الفلسفة لا تستطيع إثبات الخلق ، كما يفهمه الدين ، إثباتاً عقلياً ويؤمن في الوقت نفسه ، بوصفه مسيحياً ، بأن الخلق حقيقة مطلقة . فهو إذن لا يقف حيث تقف فلسفته العقلية وانما يتجاوزها الى ايمان غريب عنها . إنه إما أن يحيا حياة روحية مزدوجة وإما أن يبطل الطابَع الجدّي للفلسفة . لذلك نستطيع أن نخلص ، بناء على مفهومنا لوحدة الحقيقة ولتعادل الأدلة الى أن الفلسفة الجادةَ الدينيةَ التي لا تعبث هي الفلسفة المرتكزة على الايمان الديني ، أي هي الدين نفسه وقد أصبح عند صاحبه نظرةً حية في الوجود . ويكفي أن يقرر المؤمن حقائقه دون خجل كاذب ودون احساس بالنقص حتى يستطيع ادماجها ضمن مذهبه الفلسفي الشامل . وكل ما يطلب منه أن يكون واثقاً من صدق احكامه الايمانية وصحة أدلتها الخاصة .

• • •

الحقيقة الفلسفية اذن هي تلك التي يعيشها الفيلسوف ويعيش لأجلها لا تلك التي يعيش منها ويقتات ، ثم يتجاوزها في السر . انها حقيقة شخص معين يختار مشكلاته اختياراً حراً وينطلق في البحث عن حلول لها مستنداً الى جميع الوسائل التي يملكها ، حتى اذا تراءى له الحق أقرّ به واستكان إليه دون أن

يكف عن الانفتاح الى كل ما يزيده دقة وغنى وعمقاً .

لقد عاش الفلاسفة الصادقون فلسفاتهم وطوروها وفق الهامات العقل والتجربة والضمير . فما على الفرد منا إذن إلا أن يبني حياته الروحية بناء متصلاً متجددا. وإذا صح ماقدمناه من تحليل أولي بسيط لفعل التوكيد عامة وفعل التوكيد الفلسفي بصورة خاصة فهو يجنبنا طريق الريبية الرخوة وطريق التعصب المغلق في وقت واحد . إنه يجنبنا طريق الريبية لأن الريبية تتولد من فقدان الشعور الداخلي بالحقيقة . فصاحبها يقف عند اختلاف المذاهب والمعتقدات ليستخلص أن احكام الناس باطلة كلها أو صادقة كلها؛ والرأيان سواء . فالقول إنها باطلة كلها يرتكز في الواقع على مفهوم مجردٍ للحقيقة الكلية وعلى محاولةٍ للبحث عنها في متاهات الآراء والأقوال . فالريبي هنا يرفض الحكمين المتناقضين في موضوع واحد لأنه لم يستطع ان يجد في نفسه صدق أحدهما . إنه بدلاً من أن يتجه الى المشكلة بالذات من أجل أن يجد لها حلاً يرتضيه ، تجرفه تناقضات الناس بعيداً عن طريق الحق . أما القول انها صادقة كلها ، بمعنى أن كل فرد محق في أن يجعل نفسه مقياساً للحقيقة ، فهو قول يهدم معنى الحقيقة نفسه . ولا خلاص للانسان من كل ذلك الا في مجابهة المشكلات مجابهة مباشرة ودفع العقل في اكتشاف حلولها . وعندئذ تتحول المذاهب والعقائد المختلفة من متاهات أو أثقال الى أدوات تساعده على بلوغ الحقيقة . فإذا ما تحقق له ذلك قبض على المقياس الذي يسمح له بالحكم على الآراء المتضاربة . فالحقيقة التي ينتهي إليها هي اذن وحدها التي تنقذه من التشتت والغرق والضياع . وعند ذلك يتجاوز الريبية الى ايمان بحقيقة يملكها وتملكه .

ولكن تجاوز الريبية هذا لايمكن أن يقذف به الى الطرف الآخر ، طرف التعصب المغلق . ذلك أن المتعصب ليس هو من يتمسك بالحقيقة التي تملأ أفقه وإنما هو من يريد أن يفرض حقيقته فرضاً على غيره . إنه في أغلب الأحيان

ذلك الذي لم يعان تجربة الكشف الحر عن الحقيقة. لهذا يستبد به منطق القسر والجمود والعطالة . أما المؤمن الصادق بالحقيقة ، العارف باسرار اكتشافها ونموها داخل ذاته ، فهو بالضرورة منفتح على أفكار الناس وتجاربهم ، مؤمن بإمكان الالتقاء بهم على صعيد مرتفع . لاشك أنه غير مستعد للتفريط بحقائقه والتنازل عنها باسم التسامح الكاذب . فهو يفرق بين المساومة والتسامح الحق. المساومة بالحقيقة خيانة لها . أما التسامح مع الآخرين فهو تقرير لحقيقة عليا تؤكد قيمة الانسان وحقه في التفكير . إن المؤمن الصادق بالحقيقة يحترم كل باحث صادق عن الحقيقة . فهو لا يسمح لنفسه بأن يقسر الآخرين على الايمان بحقيقته لأنه يختزن طاقته الهجومية لهدم كل مامن شأنه ان يسلب الانسان كرامته ويفقده شرف الوجود الحر .

الحقيقة الفلسفية اذن لاتنفصل عن القيمة ، والقيمة لاتترسخ في النفس الا بالحرية . فإذا آمنا بالحقيقة والقيمة والحرية فقد ملكنا الطريق الى تحقيق الانسان .

١٩٦١/٥/٨

١٠

التدخين وسرطانات الرئة والحنجرة

الاستاذ الدكتور طاهر المرادي

استاذ الباثالوجيا في كلية الطب

قبل أن ألج في الموضوع مباشرة أود أن أفسر لكم بإيجاز بعض النقاط الغامضة التي تبحث عن السرطان ، هذا الموضوع الخطير الذي عجز العلماء حتى الآن عن معرفة أسبابه وأمراضه. وإذا كان يسمى هذا العصر من الوجهة العلمية عصر الذرة فإننا نحن الأطباء ندعوه بحق عصر البحث عن السرطان ، ولا غرو أن يصرف في هذا السبيل مئات الملايين من الدولارات سنوياً لاكتشاف أسباب هذا المرض العضال وكل ماله صلة به ، ومع ذلك فلم يتوصل العلم حتى الآن الى ما يرضيه رغم التحريات والبحوث الكثيرة القائمة في هذا الشأن . والمعترف به حتى الآن هو أن هنالك مسببين أساسيين يعزى إليهما حدوث السرطان أحدهما خارجي يؤثر في الجسم فيهيجه وثانيهما داخلي يتميز بقابلية الجسم نفسه لتشكيل الورم. أما المسبب الخارجي فهو مجموعة من مؤثرات تطغى على الجسم منها كيمياوية كالفحوم الهيدروجينية المستخرجة من القطران والأسفلت والبنزين الخام وغيرها ومنها فيزيكية كأشعة الشمس وأشعة إكس والراديوم وغيرها من الأجسام المشعة ومنها المؤثرات الجرثومية الطفيلية الفيروسية التي تسبب بدخولها في الجسم إلتهابات مختلفة الشدة والنوع والشكل كما أن للرضوض والصدمات أثرها المبين في تكوين بعض السرطانات وخصوصاً عند الشبان والاطفال .

وأما المسبب الداخلي فهو كامن في جسم الإنسان نفسه يخلق معه وينتقل إليه بالوراثة من أجداده وأسلافه دون أن يكون هذا الإنتقال حتمياً لأنه يتم في بعض أفراد الأسرة دون الآخرين فهو لا يتبع قانون مندل في الوراثة بكل ما في الكلمة من معنى ، وقد عرف منذ القدم أن بعض العوائل تصاب بالسرطان أكثر من غيرها ولكن هذا الداء لا يبدو في جميع أفراد العائلة بل يظهر في بعضهم من حين إلى آخر فإذا اجتمع في الفرد الواحد مسبب داخلي إرثي ومسبب خارجي مؤثر حدث السرطان وهذا ما يفسر لنا كثيراً من الأمور الغامضة في هذا الشأن حيث نرى ظهور سرطانات الثدي عند بعض النسوة عقب رض أو إلتهاب في أثدائهن بينما لا تصاب بها كثيرات منهن رغم تعرضهن للرضوض بنفس النسبة ، وما يقال عن ظهور سرطان الثدي وأثر الرض والاستعداد فيه يصح في سرطان الجلد وأثر الأشعة الشمسية في أمراضه . بهذه العجالة القصيرة حللت نوعاً ما أمراض السرطان كما هو متفق عليه حتى اليوم ، على انه قد تكون هنالك أسباب أخرى لم يعلم بها حتى الآن أو هي في طور الدراسة كالنظرية الفيروسية . نفسر بهذه النظرية أيضاً أسباب حدوث سرطانات الرئة والحنجرة عند بعض المدخنين دون غيرهم . فالتبغ مهيج ويحتوي كما سنرى على مواد كيماوية مسرطنة إذا دخلت في المجرى التنفسي هيجته وسببت فيه اضطرابات كثيرة ، فإذا كان في الشخص المدخن الأسباب الكامنة في جسمه ظهر عنده السرطان ، وإذا لم تكن فيه تلك الصفات لا يحدث عنده السرطان ، ولقد استرعى أخيراً انتباه العلماء كثرة ارتفاع نسب حدوث سرطانات الرئة والحنجرة إرتفاعاً كبيراً في القرن العشرين ، فبينما لم تزد وفيات سرطانات الرئة في الولايات المتحدة عام (١٩٣٠) عن (٢٥٠٠) وفاة ارتفع هذا الرقم إلى (٣٦٠٠٠) وفاة عام (١٩٦٠) علماً بأن كثيراً من السرطانات بقيت نسبتها ثابتة أو هي في دور الانخفاض . تساءل العلماء عن أسباب هذه الزيادة وفتشوا عنها فلم يجدوا تغييراً كبيراً في طراز حياة الأشخاص إلا في ناحيتين :

أولاهما كثرة هجرة السكان الى المدن الكبيرة للأشتغال في المعامل .

وثانيهما زيادة عدد المدخنين زيادة كبيرة ، واستناداً إلى النقطة الأخيرة ، بوشر بدراسة السرطان الحالية من هذه الوجهة منذ نيف وعشر سنوات ومازالت مستمرة حتى الآن .

لقد آزرت جمعيات مقاومة السرطان في البلدان المختلفة هذا التتبع العلمي فمولت العلماء بملايين الدولارات للتحري عن الحقيقة بينما سعت شركات التبغ التي تجني من وراء هذه المادة أرباحاً خيالية إلى مقاومة الرأي القائل بأن الدخان مولد للسرطان .

يدخن في الولايات المتحدة فقط يومياً (٥٨) مليون علبة كما أن الحكومة التي تجني من الضرائب على التدخين مبالغ كبيرة جداً أقض مضجعها انتشار هذا الرأي فشكلت لجاناً كثيرة مهمتها إيقاف الدعاية ضد التدخين والتحري عن الأسباب الحقيقية للسرطان في الجهاز التنفسي ، وقد أدى هذا التصادم الشديد إلى كشف بعض الحقائق أثر القيام بدراسات علمية واسعة في هذا الصدد . لقد تألفت لجان حكومية في البلدان المختلفة كما تشكلت أيضاً لجان دولية ، ومن أهم هذه اللجان (لجنة هل الانكليزية) التي درست وراقبت (٢٠,٠٠٠) ألف طبيب تجاوزت أعمارهم الخامسة والثلاثين مدة أربع سنوات ونصف السنة فوجدت أن نسب سرطانات الرئة في المدخنين منهم زادت أربعين ضعفاً عما عليه النسبة عند غير المدخنين منهم . ومن هذه اللجان أيضاً لجنة (هاموندهورن الاميركية) التي راقبت (١٨٧٧٨٣) رجلاً تتراوح أعمارهم بين الـ (٥٠) و (٥٩) سنة وبعد دراسة دامت أربع سنوات مات من هؤلاء (١١,٣٠٠) شخص منهم (٢٩٣) وفاة بسرطان الرئة و (٤) منهم فقط لم يدخنوا أما الباقون فكانوا من المدخنين كما بينت دراسة لجنة دورن الاميركية التابعة لوزارة الصحة العامة أن نسبة الاصابات بسرطان الرئة تزيد بين مدخني علبة

لفائف واحـدة إلى (١٦) مرة عن غير المدخنين ، ومع ذلك فما زال يوجد حتى عام (١٩٥٩) معارضون لهذه الفكرة إلا أن عددهم يقل سنة عن سنة أمام الحقائق والإحصاءات وتزايد عدد سرطانات الرئة المخيف .

يعلمنا تاريخ الطب أن دوائر الصحة العامة لا تنتظر دوماً معرفة العـامل الممرض حتى تصدر قوانينها بشأن حفظ الصحة ، بل تلجأ إلى أخذ بعض الاحتياطات قبل حين من ذلك .

ففي عام (١٧٩٦) نصح جينر بتلقيـح الإنسان بجرثوم جدري البقر وقاية من الجدري البشري واتخذت التدابير الصحية لتحقيق ذلك رغم جهـل العلماء بالجرثوم الحقيقي ولم يستند جينر في إعطاء توصيته ، إلا لأنه شاهد أن الفلاحين الذين يصابون بجدري البقر وهو مرض خفيف التأثير على الإنسان لا يصابون بالجدري البشري .

كما أن توصيات جون سنو بشأن عدم شرب الماء الملوث بالكوليرا طبقت في لندن عام (١٨٥٤) ولم تكتشف حقيقة آلية الأمراض والعامل الممرض إلا اربعين سنة بعد ذلك .

لقد كتب الدكتور رونستين رئيس قسم حفظ الصحة في جامعة هارفارد مخاطباً الحكومة الأميركية : إن علاقة التدخين بسرطان الرئة هي أقوى من ملاحظات جينر حول علاقة جدري البقر بجدري الإنسان فلماذا تنتظر الحكومة إكتشاف السبب الحقيقي للسرطان حتى تطبق نظمها الوقائية ضد التدخين .

بعد هذا كله بدأ المسؤولون بتنبيه الشعب وتحذيره من التدخين ففي انكلترا قامت حملة حكومية اجتماعية تحذر الشعب من التدخين ، وفي الولايات المتحدة تكونت هيئة من جمعية مقاومة السرطان الاميركية وجمعيـة أمراض القلب

الاميركية وجمعية التحريات عن السرطان ومؤسسة أمراض القلب وأذاعت أن هنالك علاقة وثيقة بين سرطان الرئة والتدخين كما أيدت المنظمة العالمية لحفظ الصحة بناء على احصائيات ودراسات أجرتها في سبع دول مختلفة وجود علاقة وثيقة جداً بين التدخين وسرطان الرئة ونتيجة لذلك كله تغيرت وجهة التتبع والبحث في الدراسات .

لقد انتشر التدخين انتشاراً كبيراً في هذا القرن وخصوصاً بعد الحرب العالمية الأولى وما زالت عادة التدخين آخذة بالازدياد يوماً بعد يوم حتى وصل أوجه بعيد الحرب العالمية الثانية والمؤسف إن التدخين يبدأ بالتقليد ثم يسري كعدوى الوباء من الفتيان الصغار الذين لم تتجاوز أعمارهم السنة الثالثة عشرة ، فلقد دلت الاحصائيات في امريكا على أن (١٦ ٪) من المدخنين بدأوا بالتدخين في الثالثة عشر تقريباً وأن (٥٢٪) من المدخنين بدأوا التدخين في سن الثامنة عشرة تقريباً وإن التقليد يلعب دوراً كبيراً فلقد ارتفعت نسبة المدخنين الذين يسيرون على محاكاة أبويهم في التدخين حتى بلغت الى (٤٤٪) بين الذكور و (٣٧٪) بين الاناث وتدنت النسبة الى (٣٧ ٪) بين الذكور و (٢٩٪) بين الاناث حينما لا يدخن من الوالدين إلا أحدهما فقط وبلغت النسبة (٢٩ ٪) بين الذكور و (١٦ ٪) بين الاناث عند المدخنين الذين لايدخن أبواهم مطلقاً وارتفعت نسبة سرطان الرئة بين أفراد الشعب ارتفاعاً متناسباً مع ذيوع التدخين وانتشاره .

يستند بحثنا هذا الى حقائق علمية شاهدناها في عملنا السريري وفي المخابر كما يستند الى مطالعات في بعض الكتب العلمية نخص بالذكر منها الأبحاث التي نشرها كبار علماء هذا العصر حول هذا الموضوع الخطير .

لقد بحث العلماء مطولاً عن أثر دخان اللفائف في سرطانات الجهاز التنفسي

وألخص في هـذا البحث ما ذكره الباحثون واختتمه بذكر الواجبات التي يترتب علينا جميعاً اتباعهـا للحيلولة دون اضطراد الازدياد في سرطانات جهاز التنفس .

لقد دلت الاحصائيات التي أجريناها بالاشتراك مع القائمين على شعبة الأذن والأنف والحنجرة إن سرطان الحنجرة لم يظهر إلا عند المدخنين او المدخنات حتى اننا لم نشاهد حادثة سرطان حنجري واحدة دون أن يكون الشخص متعاطياً التدخين لمدد مختلفة . أما في سرطانات الرئة فقـد تابعنا دراستنا مع شعبة الأمراض الصدرية التي أكدت لنـا ايضاً إن إحصائياتها تدل على أن السرطانات الرئوية عند الرجال والنساء لم تظهر إلا عند المدخنين ولا سيما كبارهم.

إلا أن هنالك بعض حوادث فردية قليلة جداً عددها لنا بعض الأطباء وقالوا إن أصحابها أصيبوا بسرطان الرئة وهم من غير المدخنين ولكن هـذه الحوادث قليلة جداً إذا ما قورنت بجمل الاصابات . أما من جهة التبغ نفسه فقد سعى العلماء إلى معرفة المادة التي تؤثر في الجهاز التنفسي فتسبب به الأورام فظهرت لهم عدة نقاط سعوا إلى حلها وهذه هي :

(١) هل يحتوي التبغ على مواد مسرطنة ؟ لقد عرف علمياً إن هنالك مواد تسرع في تكوين سرطان الجلد إذا دلك بها جلد بعض الحيوانات . وبعض هذه المواد تأتي من تقطير القطران وأهمها البانزبيرين والميثيل كولانترين والبانزانتراسين . لذلك حلل القطران المستحصل عليه من التبـغ بطرق تماثل تماماً طرق التدخين الاعتيادية فوجد أنه يحتوي على كميات كبيرة من المواد الآنفة الذكر .

(٢) هل يؤثر التبغ على حيوانات الاختبار ويسبب عندها سرطانات وهل هذا التأثير متساو في جميع الحيوانات ؟

اتفق معظم العلماء على أن القطران المستخرج من التبغ يؤثر على جلود حيوانات الاختبار وخصوصاً الأرانب والفئران وذلك بدلك آذانها مدة طويلة.

قاوم بعض العلماء أحداث السرطان على الجلد وبينوا أنه طالما تدرس علاقة التدخين بسرطانات جهاز التنفس فيجب إحداث السرطانات التجريبية في الرئة .

إتجه العلماء حينئذ إلى هذه الناحية من البحث ولم ينجحوا إلا في هذه السنة حيث قرأت في مجلة علمية ظهرت منذ شهرين ان العلماء تمكنوا من إحداث سرطان الرئة بواسطة دخان اللفائف عند الفأر ويعزى سبب عدم نجاح التجارب السابقة إلى صعوبة إدخال الدخان بكميات كافية وشدة كافية إلى الجهاز التنفسي كما أن عدداً كبيراً من الفئران كانت تموت من الدخان قبل أن يؤثر في رئاتها تأثيراً سرطانياً .

(٣) هل لاختلاف أنواع التبغ نفس التأثير في التسرطن ؟

دلت التحاليل المختلفة على أن بعض أنواع التبغ تحتوي على مجموع فحوم هيدروجينية مسرطنة أكثر من غيرها كما أن كميات النيكوتين تكون في أنواعها المتعددة مختلفة فالمواد الأساسية الموجودة في القطران والمستخرجة من دخان البورلي والفيرجينيا والماريلاند والتركي لها نفس التاثير المسرطن على جلد الفئران تقريباً . أما مايخص أنواع التبغ الموجودة في الغليون والسيكار واللفائف فلقد دلت التجارب على أن القطران المستخرج من السيكار والغليون أشد تأثيراً في تكوين سرطانات الجلد من قطران اللفائف ولعل ذلك يعود إلى بعض الاختلافات الحيوية كما يعود إلى حرارة احتراق التبغ وكيفية احتراقه وسنفسر ذلك في فقرات آتية .

إلا إن هنالك ناحية (وبائية) يجب أن نعالجها وهي أن السيكار والغليون يسببان سرطان اللسان والشفه والفم عند الانسان أكثر من دخان اللفائف الذي يسبب سرطان الرئة بنسبة أكبر ففي بلاد مثل كوبا حيث يكثر استعمال السيكار نرى أن سرطانات اللسان أعلى بكثير من أي بلد آخر وما سبب انخفاض سرطان الرئة النسبي عند مدخني الغليون والسيكار إلا لأن استنشاق كميات الدخان هي أضعف مما هي في تدخين اللفائف .

(٤) هل التبغ يؤثر بنفسه أم لأنه يحترق ويعطي قطرانا .

لقد دلت التجارب الحيوية على أن خلاصات التبغ تحتوي على كميات قليلة من الفحوم الهيدروجينية المتسلسلة المسرطنة وترتفع نسب هذه الفحوم بعد الاحتراق .

لقد أجريت تجارب كثيرة لتعيين الحرارة اللازمة لاحداث هذه المواد المسرطنة فوجد أنها لا تظهر بشكل بين إلا إذا تجاوزت درجة الاحتراق الـ (٧٠٠) درجة سنتغراد وتزيد كمية الفحوم المسرطنة في درجات الحرارة المتراوحة بين (٨٠٠ - ٨٨٠) درجة على أن مدة الاحتراق تدخل في حساب توليد المواد المسرطنة وهذا مايشاهد في الغليون والسيكار حيث ترتفع درجة الحرارة حين التدخين الى ٨٠٠ درجة تقريباً وتزيد مدة الاحتراق عما هي عليه في اللفافة لذلك كان تأثير قطران الغليون والسيكار أشد من تأثير اللفافة موضعياً على حيوانات التجربة .

(٥) هل زمن التدخين عامل أساسي في إحداث التخريش والتسرطن ؟

لم تظهر السرطانات عند الحيوانات المجرب عليها بالدلك إلا بعد مضي أربعة أشهر وكلما زاد الوقت ارتفعت نسب حدوث السرطان والأمر الذي يجدر

بنا أن ننتبه اليه هو أنه بالرغم من توقيف الدلك بالقطران التبغي بعد مدة دلك لاتقل عن ثمانية أشهر فان ظهور السرطان يبقى مستمراً بنسبة لاتقل عن الخمس وهذا ما يشاهد سريريا في ظهور سرطان الرئة عند بعض المدخنين الذين أوقفوا التدخين منذ سنين طويلة .

(٦) ماهي كميات التبغ اللازمة لأحداث السرطان ؟

إن كمية التبغ المدخنة لها أكبر تأثير في احداث السرطان فاذا كانت الكمية قليلة فلا تسبب احداث المرض وتزيد نسب حدوث السرطان كلما زادت مدة الدلك ويعود عدم ظهور سرطانات الرئة التجريبية على الفئران كما ذكرت آنفاً لموت الحيوانات قبل أن تؤثر فيها تأثيرها المسرطن أو لأن كمية التبغ المستنشقة كانت غير كافية .

(٧) تأثير التصفية .

لقد أجريت تجارب كثيرة في هذا المضمار فوجد أن التصفية لاتساعد مطلقاً في إيقاف الفحوم المسرطنة وان كمية هذه المواد تتعادل في اللفائف المصفاة والغير مصفاة ولكن لوحظ أن هذه التصفية تساعد في إيقاف كمية من القطران إلا أنه من المؤسف هو أن بعض الشركات زادت في طول بعض اللفائف (الطول الملوكي) طولاً جعل استفادة الشخص من التصفية معادلة لخسارته من طول اللفافة ومن المؤسف أيضاً أن بعض الشركات استعملت تبغاً يحتوي على كميات أعلى من القطران والواقع اننا إذا أردنا أن نستفيد من التصفية استفادة عملية وجب علينا أن نستعمل نوعاً من التبغ يعطي كميات قليلة من القطران وأن لا نزيد في طول اللفافة .

النتيجة : يستنتج من البحث الذي أجريناه في هذا الموضوع أن قضية التسرطن بالتبغ أمر مفروغ منه وأصبح حقيقة علمية واضحة . الا أنه يجب علينا أن نقر الحقيقة المؤلمة وهي أن التدخين آفة لا يمكن ايقاف تيارها مهما كانت النتائج الضارة منها كبيرة فالواجب على المتتبعين والعلماء ايجاد وسائل تحد من سرطنة التبغ .

(١) بتحسين التصفية (٢) رفع المواد الضارة بخلطه بمواد تمنع حدوث القطران المسرطن (٣) بتخفيض درجة الاحتراق بعد أن وجدت صلة بين ارتفاع الحرارة والتسرطن .

ان هذه الاتجاهات في البحث هي قيد الدرس الواقعي المثمر في أيامنا هذه.

ويجب على المربين وأولياء امور الطلاب إيجاد الوسائل اللازمة للحد من تدخين الشباب بمختلف الوسائل التربوية والجذرية المقبولة فمما لا شك فيه أن امتناع الرجل عن تعاطي التدخين أيام شبابه وخصوصاً أيام الدراسة الثانوية والجامعية يؤدي إلى هبوط نسبة التدخين عامة وإلى تقليل الاصابات بسرطانات الجهاز التنفسي خاصة .

وهنالك نصائح جوهرية مختلفة أسديها للمدخنين وهي :

١ – التقليل من تعاطي اللفائف بقدر المستطاع على أن يكون المقدار بين (١٠ – ١٥) لفافة وأن لا تتجاوز هذا العدد بوجه من الوجوه .

٢ – استعمال اللفائف المصفاة لأن التصفية تساعد في تخفيف كمية القطران الداخل الى الرئة .

٣ – تدخين النصف الأول من اللفافة واهمال النصف الثاني للأسباب الآتية:

(أ) ان نسبة المواد المسرطنة تكون زائدة في النصف القريب من الفم

[١١

بسبب تشربها بالمواد المسرطنة أثناء تدخين النصف الأول بحكم مرورها به حتى تصل إلى الرئة ويلعب التبغ هنا دور مصفاة ثانية .

(ب) تقل مدة الاحتراق حين يدخن نصف اللفافة ويزداد حينما تدخن بكاملها ولقد رأينا أهمية الدور الذي تلعبه مدة الاحتراق في توليد المواد المسرطنة في التبغ . وإني أرجو شركات التدخين الرأفة بهذا الشعب فتستعمل تبغاً جيداً مواده الضارة قليلة وورق لف ممتاز لا يحتوي على مواد تساعد على التسرطن مضيفة بذلك شراً إلى شر التبغ والسلام .

١٩٦١/٥/١٣

★ ★

١١

الشّخصيّةُ السّويّةُ والشّخصيّة غيرُ السّويّةِ

نعيم الرفاعي

استاذ التربية التجريبية في كلية التربية

في صباح أحد الأيام جاء إلى احدى العيادات السيكولوجية شاب في مقتبل العمر يطلب مقابلة الاخصائي . كان برفقة أبيه ، وكانت مظاهر الاثنين تدل على ان ثمة مشكلة قد تركت لديهما معاً آثاراً مؤلمة. وحين أتيح للشاب أن يقابل الاخصائي الذي جاء من أجله ، أعلمه أنه مريض نفسياً ، وأنه يأمل منه معالجته وشفاءه . ثم بدأ يحكي قصته بعد أن اطمأن إلى جلسته . كان مظهره في البدء يدل على أنه يريد أن يحكي قصته باختصار، وأن ينتهي بسرعة من رمي الحمل عن كتفيه . ولكنه أظهر بعد ذلك أنه يحفظ تفصيلات كثيرة ، وأنه على استعداد للادلاء بنصيب غير قليل منها . ولم يكن من السهل دفعه إلى الكلام عن نصيب آخر رغب في إخفائه .

كان في الثامنة عشرة من عمره ، وكان يتابع دراسته الثانوية . حجز نفسه في البيت منذ أشهر لأنه كان يخاف من الخروج . لم يكن يستطيع الدراسة لأن انتباهه يتشتت بسرعة . كان يضايقه أنه لم يكن يستطيع فعل أي شيء ، وكان يشعر بانقباض في الصدر من حين لآخر .

كان يخاف من الخروج إلى الشارع حتى لايراه الناس وهو في حالته تلك . وكان يشعر أن انتباهه يتشتت ، فكان يخاف أن يصيبه ذلك وهو يمشي

فتدوسه الحافلة ، أو يقع تحت عجلات السيارات . وكان كذلك يخاف أن يقعده انقباض الصدر، أو أن يغمى عليه ،ليستفيق بعد ذلك ويرى الناس حوله ينظرون إليه متفرجين ومشفقين ، وهو القوي جسداً الممتلىء شباباً . لهذا كله كان يصر على البقاء في البيت ، لا يخرج منه إلا إذا اطمأن إلى وجود سند له في أبيه أو أخيه .

أما في البيت فكانت تساوره الأوهام ،وتشتت انتباهه أحلام اليقظة ، ولم يكن لذلك يستطيع الدراسة ، مع أنه قبل فترة من الزمن كان كثير الاجتهاد مستمر النجاح . وأما ضيق نفسه الذي كان يأتيه غير منتظم ، ويشعر معه أنه يكاد يقضى عليه ، فكان يخيفه كثيراً . وكان يعبر بحركات يديه ، وحركات رأسه ، عن هذا الخوف حين كان يحدث السيكولوجي .

هذا الوضع الذي يراه السيكولوجي أمامه يطرح مشكلة تتصل بشخص ذلك الشاب ، وهو يرى حالات كثيرة من الاضطراب عند آخرين من الشباب والاطفال والكهول وينظر إليها بأجمعها على أنها حالات توضع أمامه للبحث ليكشف فيها عن صدق الاضطراب ، وعن مظاهره ، وأسبابه ، وأن يعمل على تجنيب الشخص المعني صعوبات الاضطراب الذي يمر به .

والحياة اليومية لكل واحد منا لا تبخل عليه بعرض مشكلات متعددة يمر بها آخرون يسمع أخبارهم أو يصادفهم. وبعضها قد يكون مشكلة حقيقية ، وبعضها ليس مشكلة حقيقية بل تظهر كذلك أمام الملاحظة السريعة ، أو تنقل إلى المستمع على أنها مشكلة . فهذا شاب يروى عنه أنه لا يقوى على مغالبة ميله إلى إيلام الآخرين والتلذذ برؤية آلامهم . وهذا كهل يعيش تحت سيطرة حقد مرير يكنه في داخله ، فيصرف أموره وأمور من تطو لهم يده تبعاً لمقتضيات حقده . وهذا أب يروي عن ابنه الصغير أنه دائم الحركة ، كثير

الخبث ، عظيم الدهاء ، وأنه قد أصبح يشعر معه وكأنه لا يحمل براءة الطفل بل يحمل مكر المجرم . وهذا طفل يرى في المدرسة وهو يحتمي بزاوية لا يفارقها خلال فترة الاستراحة ، ولا يستطيع أن يجد له رفيقاً ليتعامل معه. وهذه طفلة ترتعد وترتجف لاتفه الاسباب ، وهذه فتاة في مطلع بلوغها لا يروق لها إلا أن تقرأ نوعاً معيناً من الكتب .. الى آخر ما هنالك من قصص تطالعنا بها الحياة كل يوم .

هذه الحالات الشخصية المتعددة التي نراها في حياتنا اليومية ، لا نقف منها موقف المتسائل فحسب ، بل إننا كثيراً ماننتقل من الملاحظة أو الاستماع الى الحكم. فما أكثر ما نقول عن فلان إنه شخص غير متزن . وما أكثر ما نتحدث عن شخصية فلان بأنها غريبة التكوين . وما أكثر ما نصف ثالثاً بأنه شاذ . ونحن نفعل ذلك أكثر الاحيان بالنسبة للآخرين ، ولكن يندر أن نرى إنساناً يصف شخصه بأوصاف من هذا النوع .

إن الموضوع الذي نريد أن نعرض له هذا المساء هو هذه المشكلات التي تظهر لنا على شكل حالة مرضية أو شاذة للشخصية تصيبها بعد أن تكون شخصية سليمة أو سوية . فالحدود بين الاستواء والشذوذ ليست دائماً واضحة ، والكشف عن الشذوذ ليس دائماً أمراً سهلاً ، والخطأ في رمي الناس بالشذوذ ، بينما هم في تمام السلامة والاعتدال ، كثيراً ما يقع .

على أن أول ما يجب أن نبدأ به ، ونحن نباشر مسألة الاستواء وعدم الاستواء في الشخصية ، هو أن نعرض إلى الشخصية أولاً بالبحث لننتقل بعد ذلك إلى وضعها حين تكون سوية ، أو حين تكون غير سوية ، لنرى أين يقع الاضطراب فيها ، ولنرى الاساس الذي نعتمده في القول بأن الاضطراب يجعل منها شخصية غير سوية ، ثم لنرى بعد ذلك الوسيلة أو الوسائل التي نعتمدها في الكشف عن الاضطراب ودرجته .

ان أول ما يطرح من الاسئلة عادة في بحث الشخصية التعريف الذي يحدد بناءها أو مكانها . ونحن لا نريد التفصيل هنا ، ولا نرغب في أن يبعدنا الحديث في وجهات النظر عن غايتنا الاساسية من البحث . ولذلك نكتفي بالتعريف الذي يناسب وجهة النظر التي نفضلها والتي تقوم على دفع الشخصية إلى ميدان الملاحظة والقياس . ونشرح هذا التعريف كما يلي .

إننا ننظر إلى الناس عادة في أفعالهم وأقوالهم ، ونرى بسهولة أن كل واحد منهم شخص فرد يتميز عن غيره مهما اشترك معه في نقاط تشابه أو التقاء . كذلك نرى بسهولة أنه في تعامل مستمر مع الشروط والظروف التي تحيط بها : يأخذ منها ، ويتحمل آثارها ، وكثيراً ما يفعل فيها . ثم إنه كثيراً ما يجابه ظروفه بنجاح ، ويتلاءم معها تلاؤماً مناسباً ، وكثيراً ما يفشل في مجابهتها ، ويطول فشله ، ويصبح تكيفه معها غير مناسب ولا مرضٍ . فاذا جئنا إلى شخصية كل واحد فإننا نرى فيها الوحدة من جهة ، والتعقد من جهة ثانية ، والتميز من جهة ثالثة ، كما نراها من جهة رابعة ظاهرة في أفعاله وأقواله . فهي من الجهة الاولى كلٌ موحد ، يظهر نوعاً من الثبات والاستمرار والترابط الداخلي . وهي من الجهة الثانية تضم عددا كبيرا من العناصر قد اشتبكت فيما بينها اشتباكات متعددة الاشكال ، تتداخل فيها قدراته وذكاؤه مع دوافعه وميوله ، وادراكاته الحاضره مع مايخبئه لاشعوره ، وآماله حول المستقبل مع أغراض الساعة وحوافزها . وهي من الجهة الثالثة متميزة ، فهو إنسان كغيره ، ولكن العناصر التي تحملها شخصيته مع ذلك قد ركبت فيما بينها تركيباً فريدا تجعل منها شخصية متميزة خاصة . ثم انها في النهاية تكشف عن نفسها بطريقة سلوكه نحو مايحيط به من مؤثرات ، وما يمر به من مواقف .

فإذا وقفنا الآن قليلا عند المظهر الرابع لها ، فإننا نجد أننا نستطيع

كشف أمرين معاً يتصلان بها . أولهما أنها تظهر في عدد من الوظائف : فهو يفكر ، وهو يتخيل ، وهو يتزعم الجماعة ، وهو يتعاون مع الآخرين ، وهو منطلق في محبته للآخرين وتعاونه معهم .. الخ . وثانيهما أن سلوكه الذي يعبر عن هذه الوظائف يقوم في النهاية على عدد من الأسس نراها في تكرار اجراءاته في المناسبات والظروف المتشابهة . فشخصيته إذن تكشف عن نفسها في المهمات التي تقوم بها ، أكانت مهمات كلامية أم كانت مهمات إجرائية ، وتكشف كذلك في الوقت نفسه عن الاسس التي تقوم عليها وتجعل منها قاعدة لها في تلك المهمات . ومن هنا نستطيع أن نعرّف هذه الشخصية بما تكشفه عن نفسها قائلين مع كاتيل (R . B . Cattell) : إنها مايسمح لنا بالتنبؤ عمايفعله شخص ما في موقف ما » . بهذا التعريف نشير الى وحدتها ، واستمرارها ، وتميزها ، وتكشفها فيما تفعله ، إشارة تنصب على ماتفعل وتقول طبق اسس جعلت منها قاعدة لها .

اعتاد أحد زعماء مدرسة الجشتالت ، ونعني به ماكس فيرتايمر ـ (Max Wertheimer) أن يسأل لفيفاً من رفاقه الجلوس حوله وهو يضرب على البيانو سلسلة من المقطوعات يعبر بكل منها عن فردية كل واحد من الرفاق الموجودين حوله . واعتاد أن يطلب إليهم أن يكتب كل منهم على ورقة خاصة اسم الشخص الذي تصفه المقطوعة . وكان ذلك منه تمشياً مع فكرته العامة القائلة بان النظرة الكلية تكشف الشخص أكثر مما تكشفها النظرة التحليلية . وإجراء مثل هذا مألوف لدينا في حياتنا اليومية . فكثيراً مانكوّن في مخيلتنا نمطاً للشخصية ، ونفهم الآخرين عن طريق نسبتهم لذلك النمط . وليس قولنا عن بعض الشباب انهم « شباب جيمس دين » إلا اجراءاً من هذا النوع . إن هذه الطريقة في الحديث عن الشخصية على أساس إرجاعها إلى انماط طريقة مألوفة نجدها عند بعض القدماء ممن اهتموا بالشخصية مثل هبوقراط (Hippocrates) وغالن (Galen)

في تقسيمها الرباعي للمزاج ، كما نجدها بين المحدثين مثل يونغ Yung ، في نمطي الشخصية : الانطوائي والمنبسط . وهي في الوقت الحاضر الطريقة الغالبة في الحديث عن الشخصية غير السوية : فهناك الفصامي ، وهناك الذهاني ، وهناك المنغولي البليد ، وهناك المنطلق .. الخ .

كذلك اعتاد جماعة التحليل النفسي على الحديث عن الشخصية من حيث بناؤها الداخلي . فهي ثلاثية التركيب داخلياً تضم : الأنا والهو والذات العليا ، وقد ألفت فيما بينها عدداً من التركيبات والعقد ، وكل مايظهر على الشخصية يمكن إرجاعه في النهاية إلى بعض الأسس القائمة في واحد أو أكثر من هذه الاجزاء الثلاثة للبناء الداخلي ، ثم يمكن بعد ذلك ارجاعه إلى واحد من الاسس القائمة في زوايا اللاشعور .

ولكن الاتجاه الذي يتمثل في التعريف الذي أخذنا به يميل في بحث الشخصية عن النظرة العامة في البدء وعن البناء الداخلي الثلاثي ليأخذ منها وجهة نظر تركيبية تحليلية . يرى هذا الاتجاه أن الشخصية تنحل في النهاية إلى عدد من السمات يمكن كشفها ووصفها وإخضاعها للقياس في واحد من أشكاله المتعددة .

لنبحث الآن هذا الاتجاه .

ينطلق كل إنسان بأشكال متعددة من السلوك في المناسبات المختلفة التي يمر بها . يتكلم عن نفسه احياناً ، ويتعاون مع الآخرين أحياناً أخرى . يظهر لبقاً تارة ، ويظهر خشناً تارة اخرى . فإذا أخذنا كل سلوك ، وفحصناه فحصاً تحليلياً فإننا نرى أنه يدل على احتمال وجود سمة او سمات قائمة وراءه . أو لنقل بكلمة أصح ، إننا نرى فيه عنصراً أو أكثر يعطي الدليل على احتمال وجود سمة . فإذا تجمعت عدة عناصر تعطي الدليل على احتمال وجود سمة ما كان ذلك مما يؤكد وجودها . إننا نرى مثلاً رجلاً يتحدث كثيراً جاعلاً من نفسه مركز

الحديث . فإذا رأيناه مرات على هذا الشكل فهمناه من سلوكه الكلامي الظاهر في جعل نفسه مركز الحديث أنه مختال معجب بنفسه ، واعتبرنا هذه السمة موجودة في شخصيته . كذلك الأمر في المتعاون الذي يظهر سلوكه تعاونياً دائماً ، وكذلك الامر بالنسبة لسمة الصلة الاجتماعية . وهكذا يكون العمل الذي يقوم به مظهراً من مظاهر سلوكه بينما تكون السمة التي تبطن ذلك العمل صفة مميزة من صفاته الشخصية .

وبناء على ذلك نستطيع أن نصل هنا إلى النتائج التالية :

كل شخصية تتمثل في عدد من السمات .

كل سمة هي ميل للاستجابة بطريقة معينة نحو نوع من المؤثرات وهي ذاتها تتألف من عدد من العناصر .

كل سمة وكل عنصر من عناصرها يمكن أن يكشف في مظهر من مظاهر السلوك .

فاذا اجتمعت سمات معينة للشخصية فإنها تستطيع أن تجعل من الشخصية مايطابق نمطاً من أنماط الشخصية بشكل واضح .

أما النتيجة الأولى فتعني أن الشخصية كل مؤتلف من سمات . وأما الثانية فتشير إلى ثبات السمة والى العناصر ضمن السمات ، وهي عناصر يكشفها البحث التحليلي بسهولة . وأما الثالثة فتؤكد أن السمة صفة للشخصية ، ولكنها تكشف عن نفسها في مايظهر في السلوك . وأما الرابعة فتجعل نمط الشخصية في النهاية نتيجة اجتماع عدد من السمات بينها ترابط عال .

إن هذه السمات ليست أموراً حسية ، ولذلك لانستطيع قياسها مباشرة . ولكن يظهر من السلوك الذي يدل عليها أنه يشير إلى درجات فيها . وهذا يعني أن من الممكن وضعها في درجات ، أو قياسها عن طريق تحديد درجات السلوك الذي يكشف عنها . لنأخذ اللباقة في المعاملة الاجتماعية مثالاً على ذلك .

فإذا اخذنا مائة شخص مثلاً مرّ كل منهم بدوره في وضع تجريبي يقتضي اظهار اللباقة في معاملته للآخرين ، فإننا نرى بينهم فروقاً : فبعضهم تظهر اللباقة عنده من درجة عالية ، وآخر من درجة متوسطة ، وثالث تظهر عنده ضعيفة جداً . فإذا استطعنا تحليل اللباقة الاجتماعية الى عدد من الأجزاء ، فاننا نستطيع أن نكشف عن درجات متعددة لها . وهكذا تكون النتيجة اننا عرفنا بوجود درجات متعددة للسمة التي نحن بصدد قياسها .

على أن هناك وجهاً آخر للسمة غير درجتها ، وهو مقدار تكررها في عناصرها أو في مجموعها : فإذا اعتبرنا الإعتداء على الآخرين سمة لشخصية ما ، فإننا قد نراه يظهر مرة في الاسبوع ، وقد نراه يظهر مرات في اليوم .

على ضوء هـــذه النتائج لتحليل الشخصية إلى سمات ، نعود الآن الى بحث الشخصية السوية والشخصية غير السوية . ان كلاً منهما في النهاية شخصية تضم عدداً من السمات ، ثم ان كلا منهما تضم انماطاً متعددة وحالات فردية متعددة ومتميزة . فما هو الفرق اذن بين الطرفين ؟ أو ماهو ذلك الشيء الذي يجعل من الشخصية شخصية سوية أو يجعل منها شخصية غير سوية ؟.

قبل الاجابة على هـذا السؤال ، نعود الى بعض الأمثلة التي ذكرناها في مطلع هذا الحديث . لنأخذ وضع الطفل المنزوي في زاوية من زوايا المدرسة ساعة الاستراحة ، ولنسأل : هل يغلب على أكثرية أقرانه أن يفعلوا الشيء نفسه . قد يكون من الممكن أن نرى عند أبناء الثالثة بعض الانكماش لدى مقابلتهم لأول مرة شخصاً غريباً ، ولا نعتبر في ذلك شيئاً يستدعي البحث ، ولكن وضعية هذا الطفل في انزوائه بينما أكثرية اقرانه الغالبة تلعب وتتعاون في اللعب وضعية تستدعي التساؤل .

كذلك قد نشاهـد بين الشباب في سن الثامنة عشرة من يصعب عليه أن

يرى نفسه بين الناس موضع فحص وظن بأنه مريض . ولو سألنا مائة شاب من هـذا العمر لوجدنا أن الغالبية العظمى بينهم ، إن لم نقل الكل ، لا ترغب في وضع كهذا .

من هنا نرى أن الموقف الذي يتكرر ظهوره عنـد أغلبية الأقران لايستدعي القلق ، بينما يستدعيه الموقف الذي يندر ظهوره . ومن هنا نجـد المفتاح للتمييز بين الشخصية السوية والشخصية غير السوية في الاساس الاحصائي وفي الناحية الوظائفية ، ونضعه في النقطتين التاليتين معتمدين دائماً وجهة النظر التحليلية في الشخصية .

أولها أن السمة تكون سوية إذا أيّد ذلك الأساس الاحصائي ، ونعني بذلك مقدار ظهورها وتكرارها لدى مجموعة واسعة من الناس . لنشرح ذلك بمثال ، وليكن الخوف من الكلب لدى ابناء السابعة هو مظهر السمة التي نبحث أمرها . فإذا عرفنا أنه يظهر عندما يزيد على ٥٠٪ من ابناء السابعة ، فإننا نشعر عندئذ أنه ليس دليلاً على وجود سمة يمكن الحكم عليها بأنها غير سوية . أما اذا كان الخوف من الناس لدى أبناء الثامنة عشرة هو الموضوع الذي نبحث فيه ، ووجدنا انه لايتكرر أكثر من مرة أو مرتين في كل مائة حالة ، فإننا نستطيـع عندئذ أن نستدل منه على وجود سمة نحكم على صاحبها بوجود اضطراب في شخصيته يستدعي الفحص .

إلا أن علينا أن ننتبه ، في هذه النقطة ، إلى عدد من الأمور . فالبحث عن ظهور الصفة وتكرارها لدى مجموعة واسعة من الناس أمر لا نستطيـع التأكد منه حين تشمل مجموعة الناس بلاداً واسعة . وتجب لذلك الاشارة إلى أننا نعتمد في دراسة تكرار الصفة المبحوثة على عيّنة من الأفراد يكون عددها مناسباً للدراسة ، وتكون ممثلة تمثيلاً صحيحاً لمجموعة الناس الواسعة . ثم إن

ظهور الاضطراب ، أو ذلك المظهر الذي نبحثه ، عند الفرد يجب أن يكون تكراره لديه من درجة تسمح لنا بأن نعتبره مظهر سمة ثابتة عنده ثبوتاً نسبياً. فالخوف الذي يظهر مرة لدى أبناء الثامنة عشرة أو الخامسة والعشرين من كلب ضار ليس مسألة تستدعي القلق، حتى وإن لم يظهر الخوف في تلك المناسبة بالذات عند أقران ذلك الشاب. والنقطة هذه يوضحها تعريفنا للسمة الذي يؤكد على ثبوتها ثبوتاً نسبياً لتحمل ذلك الاسم . ثم إن علينا أن نأخذ المجتمع بعين الاعتبار . فالبيئات الاجتماعية الكبيرة تختلف من حيث مايسود عدداً من مظاهر حياتها ، والأفراد إنما ينشأون ضمن بيئات ، ويتلقون منها تأثيراتها ، ومايكون شاذاً في منطقة قد لايكون كذلك في منطقة أخرى . فالأساس الاحصائي الذي نقبله في تثبيب شذوذ صفة ماعند فرد يقوم أولاً ، وقبل كل شيء ، على مقدار تكرارها عند اقران الفرد ممن يحملون التأثيرات العامة للبيئة التي تضمنه .

أما النقطة الثانية فهي الناحية الوظيفية التي تلعبها السمة بالنسبة لبقية وظائف الشخصية . هنا نرى أن السمة التي نقول عنها إنها يمكن أن توصف بعد الاستواء أو الشذوذ لاتدعو إلى القلق بالنسبة للشخصية مالم تكن قد لعبت دورها بالنسبة لتناسق الشخصية ووحدتها . هذه النقطة نستطيع استخلاصها من التعريف الذي ذهبنا فيه إلى أن الشخصية كل مؤتلف من سمات متعددة . وهي أيضاً مايشير اليه جاسترو (Jastraw) حين يرى أن الشاذ ليس الحادث الفريد ، ولا هو الحادث العجيب ، ولا هو مجرد اختلاف فرد عن أقرانه ، بل هو في تلك السمة التي يختلف فيها الفرد عن أقرانه والتي يقودنا تحليلنا لها إلى رؤية آثارها التي تنطوي على الشذوذ والتي تكشف هي ذاتها عن المعنى الحقيقي للانحراف والشذوذ .

إننا نخلص من هاتين النقطتين الى القول بأن الشخصية لاتعتبر شاذة أو غير سوية لأنها تخالف العرف في ناحية من النواحي فقط ، أو لأنها تختلف عن الآخرين في مناسبة أو عدد قليل من المناسبات . إن الشذوذ اختلاف عن اكثرية

الآخرين يكون من درجة ملحوظة ، ويكون في ظهوره لدى الناس قليل التكرار ، وهو اختلاف ذو اثر واضح في الشخصية ككل وفي اضطراب ذلك الكل . ومن هنا نرى أن شخصية ذلك الشاب الذي ذكرنا قصته في مطلع هذا الحديث شخصية تستدعي الفحص والقلق ، وأن النظرة الأولى إليها تشير إلى امكان وجود شذوذ لديها .

وبقي علينا الآن أن نشير إلى سبل الكشف عن حالات الشذوذ . ولكن يجب أن نذكر قبل ذلك ، أن هذا الأساس الذي اعتمدناه في تحديد ماهو شاذ أو غير سوي ، ليس الوحيد بين الأسس التي ذكرها العاملون في هذا الميدان . لقد أخذ بعضهم مجرد الاختلاف عن مايسود البيئة . وأخذ آخرون الاختلاف عن البيئة في جهة من غير ان يكون لذلك الاختلاف انعكاس على وحدة الشخصية وتناسقها ، الى غير ذلك من الاتجاهات التي لا نستطيع الاحاطة بها هنا . وفي رأينا أن الاساس الاحصائي مع الأثر الوظائفي للسمة يشكلان معاً أساساً كافياً لتحديد الشذوذ وتميز ماهو غير سوي عما هو سوي مقبول .

نأتي الآن الى السؤال الأخير في هذا الحديث ، وهو : كيف نكتشف حالات الشذوذ ؟ لقد ذكرنا سابقاً أن السمة تظهر كميل للاستجابة بطريقة معينة تجاه نوع معين من المؤثرات . وذكرنا ان الكشف عنها يعتمد على بحث مايفعله الشخص أو يفكر به . إن هذا القول يبقى صحيحاً أكانت السمة المبحوثة سوية أو كانت تمر بحالة اضطراب . ولكن المشكلة الاساسية ليست في اطلاق حكم عام ، أو غير موزون ، على حالة نشاهدها ، بل هي الوصول الى قول دقيق يعتمد على أساس علمي من جهة ويأخذ شكلاً علمياً من جهة أخرى .

لقد ذكرنا في مطلع هذا الحديث أننا كثيرا مانسمع تعليقات عن حالة أطفال في المدرسة على أنها شاذة ، واننا كثيرا مانرى أنها ليست في حقيقتها كذلك ،

بل يكون صاحبها ، أو أصحابها ، محاطين بظرف خاص لم يحط بها الملاحظون علماً . وهكذا يقدر الملاحظون وجود الشذوذ حيث لا يكن موجودا . والحكم العلمي الدقيق ، الذي نعتمد فيه على أساس علمي ، هو مايعنينا . فسؤالنا إذن يتجه هنا نحو الوسائل العلمية ، أو الوسائل القياسية ، التي بها نتمكن من الكشف عن حالة الشذوذ والوصول من هذا الكشف إلى تقرير عنها .

ولما كانت حالات الشذوذ على درجات ، وكانت هذه الدرجات مستمرة الاتصال فيما بينها ، فإن بحثنا يتجه إلى تلك الوسائل التي تستطيع أن تشخص حالة الشذوذ تشخيصاً يعرفنا الفرع الذي ترجع اليه ، والمظاهر التي تظهر فيها ، والدرجة أو الدرجات التي هي عليها ، بحيث نستطيع وضع ذلك في النهاية في تقرير تشخيصي كاف عن الحالة المفحوصة .

إن هذه الوسائل التشخيصية التي نقيس بها الشخصية ، أو نروزها ، أو نختبرها ، لاترجع إلى نوع واحد ، ولا إلى شكل واحد . فقد قادت الدراسات الطويلة للشخصية في حالات استوائها ، وحالات عدم استوائها ، إلى إنشاء عدد كبير من هذه الاختبارات التي بها نقيس الشخصية . ومن الممكن إرجاع هذه الاشكال الكثيرة من الاختبارات إلى ثلاثة اصناف رئيسية يمكن اطلاق الاسماء الثلاثة التالية عليها : (١) الاختبارات المحددة البناء ، (٢) الاختبارات المحددة البناء جزئياً ، (٣) الاختبارات غير المحددة البناء . والفرق بين الاصناف الثلاثة راجع إلى مقدار توجيه المؤثر للشخص نحو نوع الاستجابة . فالمؤثر في الصنف الثالث ، أي الاختبارات غير المحددة البناء ، مؤثر غامض جداً أو لا معنى له في الأصل ، وكل مايقدمه الشخص من استجابة للمؤثر يكون من إنشائه الذاتي . أما الصنف الثاني فهو الذي يكون المؤثر فيه غامضاً في الأصل ولكن له معنى ما بالنسبة للشخص العادي ، أو يقود بسهولة إلى معنى من المعاني بالنسبة للشخص العادي . وهكذا تكون استجابة الشخص في جزء منها نتيجة لبناء الاختبار .

اما النوع الأول فهو الذي يحتم على الشخص الاجابة ضمن مجاري معينة ، مثل الأسئلة التي يجب فيها على المفحوص أن يجيب بكلمة « نعم » أو كلمة « لا » ، ولا مخرج له منها إلا إلى حالة « لا أعرف » أو لست « متأكداً » .

إن الصنف الأول كثيراً ما يطلق عليه اسم الاختبارات الموضوعية للشخصية . أما الثاني والثالث فكثيراً ما يطلق عليهما معاً اسم الاختبارات الاضفائية أو الاسقاطية . في الصنف الآن تكون الاجابة محددة . أما في الصنفين الثاني والثالث فالشخص يضفي على المؤثر الذي يراه شيئاً من نفسه وتكون استجابته ذاتية إلى حد بعيد . وتكون درجة الاضفاء أقوى بكثير في النوع الثالث حين ينظر مثلاً إلى مايشبه نقطة الحبر ويتحدث عما فيها، وتكون حدود الاضفاء متأثرة كثيراً بنوع المؤثر في الصنف الثاني حين يرى المفحوص مثلاً صورة طفل يجلس القرفصاء وقد اتكأ على طرف سرير وحوله عدد من الأشياء المبعثرة .

إننا نجد في الصنف الأول عدداً كبيراً جداً من اشكال الاختبارات . يذكر فريمان (Frank S. Freeman) في كتابه عن « نظرية الاختبار النفسي وتطبيقه » (١٩٥٠) أن هناك مايقرب من خمسمائة اختبار موضوعي من هذا الصنف . ويذكر برات (Stepha H. Pratt) في رسالة اعدها ١٩٥٢ لنيل الدكتوراه أن هناك مايقرب من ١٠٠٠ اختبار من هذا النوع . كذلك نجد عدداً غير قليل في الصنف الثاني والثالث ، وإن كان أقل بكثير مما نجد في الأول . إلا أن السؤال الذي يعرض أمامنا ، في كل الاحوال ، هو كيف تشخّص هذه الاختبارات الشخصية وسماتها .

الواقع أن بناء الاختبار عملية تجريبية شاقة ، وهي متعددة الجوانب ، وتقتضي الكثير من الجهد والوقت والبصيرة . ولنقل بكلمة مبسطة مايلي : كل

اختبار يضم عدداً من المؤثرات نسميها بنوداً أو اجزاءاً أو اختبارات جزئية. كل مؤثر يتطلب من المفحوص استجابة ما. لقد شملت المرحلة التجريبية الاستجابات الكثيرة الممكنة ، واعطتها دلالات بناء على المقارنات الواسعة . فكل مانفعله الآن حين نفحص شخصاً بواحد من هذه الاختبارات هو أن نحصل على استجاباته الدقيقة على المؤثرات التي نطرحها أمامه. ثم نجمع الاستجابات ونحولها أكثر الاحيان إلى لغة الأرقام أو الرموز . ثم نقارن الناتج مع ما عندنا من قبل (أي ماوضعه لنا واضع الاختبار) . وبناء على هذه المقارنة نثبت ما عند المفحوص من حالات الشذوذ ودرجاتها والاضطرابات التي قادت إليها ، شأننا في كل هذا شأن الطبيب الذي يتقصى المرض الداخلي عن طريق الكشف عن نواح متعددة في الجسد أثبت البحث الطويل السابق لغيره من الاطباء والعلماء لها دلالات معينة .

لننظر الآن إلى بعض الصور والرسوم ولنفحص كيف تأخذ منا وضعية المؤثر ، وكيف نستجيب لها ، وكيف تتضمن استجابتنا عدداً من النقاط يحولها الفاحص إلى رموز وارقام .

[هنا عرض المحاضر بواسطة الفانوس السحري عدداً من رسوم اختبار الرورشاخ (Rorschach) كما عرض عدداً من الرسوم من اختبار تفهم المواقف المعروف باسم (TAT) .

نعود الآن من جديد الى قصة الشاب الذي بدأنا بها ، ونفحص وضعه مستعملين هذه الوسائل التشخيصية. لقد اختبر ذلك الشاب على فترتين باختبارين مختلفين : أحدهما من الصنف الأول ، أي الصنف الموضوعي ، والثاني من الصنف الثالث وفيه الإجابة ذاتية وغير محددة. كان الاختبار الأول المستعمل اختبار الشخصية المتعددة الأوجه . أما الثاني فكان اختبار الرورشاخ .

يتألف الاختبار الأول مما يقرب من ٥٥٠ بندا عليه أن يجيب فيها بكلمات « نعم » او « كلا » او « لست متأكدا ». وقد أتم المفحوص الاختبار فيما يقرب من ساعتين وأخذ بذلك وقتاً يزيد قليلاً عن المعتاد. حسبت اجاباته اول الأمر ، ثم قورنت مع السلم الموضوع من قبل مؤلف الاختبار، وكان الرأي الأولي ان حالته سوية وليس لديه اي شذوذ يستدعي القلق او العلاج .

أما الاختبار الثاني فيتألف من عشر لوحات في كل منها رسم ليس له أي معنى في الأصل، ويكون على المفحوص ان يوجد فيه معنى او عددا من المعاني. أخذت اولاً اجابات المفحوص على اللوحات وسجلت ، ثم اخذ في المرحلة الثانية تفسيره للإجابات التي قدمها وتعليله لها . نقلت اجاباته الى رموز الورشاخ الاصطلاحية من حيث نوعية مضمونها ، وحدودها ، وتنوعها . . . الخ . وقد جاءت النتيجة هذه المرة مخالفة لما يستدعي الشاب معه العناية والعلاج .

أمام هاتين النتيجتين للاختبارين المختلفين بدأت المناقشة ، واعتبر الخلاف بينهما امرا يمكن ان يحدث في كثير من الحالات ، وليس شأن القياس النفسي هنا مختلفاً عن شأن التشخيص الطبي من حيث امكان وجود خلافات في الاختبارات الأولى . أعيد النظر في نتائج الاختبار الأول فرؤي انها تحتاج الى بحث من حيث ما يمكن ان تتضمنه من احتمالات الكذب والاصطناع . والواقع ان اختبار الشخصية المتعددة الأوجه ، رغماً عن موضوعيته ، يتضمن احتمالات كثيرة يمكن فيها ان يشوش كذب المفحوص ، او تسرعه، او احتياله، عددا من النتائج . وقد بحثت في الأصل هذه الاحتمالات ووضعت لها مفاتيح لتصحيح ما يمكن ان ينجم عنها . جرت العودة الآن الى نتائج اختبار الشاب، وقد صححت بالمفاتيح النتائج النهائية ، وقد وجد فعلاً ان كذبه في بنود متعددة

كان السبب في خطأ النتيجة وخاصة في نواحي : توهم المرض ، الهوس الخفيف ، الانطواء الاجتماعي . كما وجد ان النتائج النهائية الآن أصبحت اقرب الى ما كشف عنه الاختبار الاضفائي المستعمل .

إننا قد قصدنا من هذا المثال أن يظهر لنا الاحتمالات المتعددة في التشخيص في الاختبار النفسي . فالشخصية ، ككل مظهر نفسي ، ليست أمراً بسيط التركيب وإنما هي كيان معقد التركيب كثير النواحي . والتشخيص فيها لايكفي فيه النظر الأول ، ولا الاختبار السريع ، وإنما يجب فيه اعتماد الدقة في كل جهات الاختبار ، كما يجب فيه تعاون اختبارين أو أكثر ، في كثير من الحالات ، للكشف عن حقيقة الشذوذ ودرجته وتعقداته . ونعيد القول هنا مرة ثانية من أن الاختبار النفسي ليس وحده الذي يحتاج إلى الدقة والتكرار والتعاون بين الاختبارات ، بل إن التشخيص الطبي مثلاً يحتاج هو نفسه الى ترتيبات من هذا النوع .

والخلاصة اننا إذ نحاول في هذا الحديث عرض مشكلة الشخصية في استوائها وعدم استوائها ، في صحتها ومرضها ، عرضاً سهلاً لا نثير فيه خلافات السيكولوجيين ولا نذهب فيه بعيدا إلى اصطلاحات علم الشخصية وأنواع شذوذها ووسائل الكشف عليها ، إنما نبغي عرض المشكلة وتوجيه النظر إلى أهميتها والامكانات في مجابهة حالات الشذوذ التي تمر بها ! وإذا أردنا ان نختم هذا الحديث بكلمة تعطي الباحث في هذا الميدان حقه من الوصف ، قلنا إن وسيلة البحث الدقيقة تستطيع ان تدفع بالشخصية إلى الكشف عن نفسها بصدق في النهاية ، ولكن بعد عذاب طويل . ويبقى على الفاحص المؤهل الذي يجهد نفسه ، ويصبر ، وينوع الوسائل قبل أن يصل إلى غايته ، أن يقنع بمتعة الكشف عن واقع الشخص الانساني المناط به ، ومتعة مساعدته ليخلص من متاعبه ، وتبقى هذه المتعة خير ثواب للسيكولوجي في عمله الشاق .

١٩٦١/٤/٢٢

١٢

هِجْـرَة البويضَـةِ في جسْـمِ الحيواناتِ اللبونـةِ

أبحاث عملية تتعلق بقضية الانتقال الداخلي

للدكتور س . غونتر

استاذ زائر في كلية الطب

تمهيـد :

لم يظهر حتى الآن أي كتاب يعطي معلومات واسعة عن طريق التناسل تجاري ما نعرفه عن المواضيع الأخرى . فبينما نرى مثلاً أن مواضيع الدورة الدموية ، الهضم ، الغدد الصم وغيرها قد عولجت دقائقها ، نجد أن غريزة التناسل والتكون (التطور) لم تلق العناية اللازمة . وكثيراً ما نجد في المراجع العلمية تضاربا في الآراء فيما يتعلق بوظيفة الرحم والنفير والمبيض . يعود السبب في ذلك إلى أن أعضاء التناسل تتمتع بوضع خاص يصعب معه جعلها موضوعاً للتجارب العملية .

إن غريزة عملية التلقيح والحمل والولادة عند الانسان قد درس القسم الأكبر منها على عكس بحث الهجرة الطبيعية للبويضة داخل الجسم فانه لا يزال غامضاً .

فيمكننا أن نعرف **الهجرة الداخلية** بانها تحرك أي جسم سائل أو صلب من موضع إلى موضع آخر .

أما **الانتقال الداخلي** في بحث غريزة أعضاء التناسل الأنثوية فهو تحرك هذه العناصر من النفير أو جزء الرحم الكائن في إحدى الجهتين الى النفير أو جزء الرحم الكائن في الجهة الأخرى .

فالهجرة الداخلية للبويضة هي إذن وصول البويضة الصادرة عن المبيض داخل الأعضاء التناسلية إلى الجهة المقابلة من النفير وتوضعها هناك والمقصود بالبويضة هنا هو الكيس المصنع قبل أن يتكون فيه أي اتصال مشيمي بغشاء الرحم الداخلي .

وهـذا الانتقال الداخلي للبويضة : يدعى في الاصطلاح الطبي الانتقال الداخلي .

لمحة تاريخية :

لدى تدقيق المراجع العلمية تناول الدرس جميع الأبحاث العلمية بما فيها من آراء وملاحظات وتجريبات تتعلق بانتقال البويضة عند الانسان والحيوانات اللبونة .

فقد كان بيشوف Bischoff (١٨٤٥) أول من انتبه إلى أن عدد الأجسام الصفراء في أحد المبيضين لا يتناسب دوماً مع عدد الأجنة الساكنة في القرن الرحمي العائد للجهة نفسها . فاستنتج من ذلك ان هنالك انتقال تقوم به البويضة من القرن الرحمي المجاور للمبيض إلى القرن الرحمي الكائن في الجهة الأخرى .

أما التعبير الطبي « الانتقال الداخلي » فقد وضعه كوسماول Kussmaul ووضع مقابل ذلك باستنتاجه النظري المحض تعبير الانتقال الخارجي . فهو يرى امكانية انتقال البويضة من المبيض الى النفير الكائن في الجهة المقابلة عن طريق الجوف البطني والوصول منه للرحم. ان أبحاث بيشوف Bechoff و كوسماول Kussmaul دعت العلماء إلى التعرض مراراً لهذه المسألة طيلة المائة عام التالية . وتبين من تدقيق ما كتب في هـذا الموضوع أن هنالك آراء متعارضة حتى الوقت

الحاضر فيما يتعلق « بالانتقال الداخلي » وانه ليست هنالك تجارب عملية أجريت على الحيوانات .

فمثلا عثرت في المراجع المتعلقة ببحوث الانتقال الداخلي عند الانسان على أربعة عشر رأياً ستة منها ترفض نظرية الانتقال رفضاً باتا . والدافع الى تدقيق الموضوع من جديد هو مشاهدات حدثت أثناء عمليات أجريت بسبب حمل في قرن رحمي جانبي أو في رحم سبق أن بتر جزء منها أو حمل حصل في النفير فوجد في بعض الحالات النادرة أن النفير الكائن في الجهة التي حصل فيها الحمل مسدود وأن الجسم الأصفر موجود في المبيض الكائن في الجهة الأخرى .

وكذلك يمكن أن يقال الشيء نفسه في الطب البيطري فقد رفض تسعة عشر عالماً من أصل ثمانية وعشرين ، نظرية الانتقال الدخلي .

والتجارب العملية القليلة التي أجريت في هذا المضمار لم تؤد الى نتائج حاسمة .

مقارنة تشريحية :

تمتاز الاعضاء التناسلية الأنثوية عند الانسان بالرحم ذات القرن الواحد الذي ينتهي اليه النفيران اللذان لهما اتصال بالمبيضين وبحسب الوظائف الطبيعية يتكون عند الانسان جنين واحد يجعل من جسم الرحم مأوى له . لذلك فان اثبات وجود « الانتقال الداخلي » في رحم من هذا النوع ، غير ممكن والآراء المختلفة في هذا الموضوع في الطب البشري ترتكز على مشاهدات سريرية في حالات عسر الولادة بسبب تشوهات رحمية . لهذا لا يمكن استخلاص نتائج غريزية من حوادث مرضية .

على عكس الانسان فان لدى الحيوانات الأليفة الوحيدة الحمل أو المتعددة

الحمل رحماً ذات قرنين أو رحماً مزدوجة . وانفصال القرنين أحدهما عن الآخر أوضح لدى متعددة الحمل وأعمق وقد يكون تاماً حتى أننا نجد لدى بعض الحيوانات رحمين منفصلتين انفصالاً تاماً . وهذا القرنان يؤديان إلى النفيرين اللذين لهما اتصال بالمبيضين كما هي الحال عند الانسان . إن متعددات الحمل يندر أن تحمل جنيناً واحداً اذ أن الرحم تستطيع حمل عدد كبير من الأجنة وتؤويها حتى يتم تكونها . وعلى عكس الانسان فإن جسم الرحم يبقى فارغاً ويتوسع عند دفع الجنين أثناء الولادة . لهذا فإن اثبات حدوث الانتقال الداخلي في الرحم ذات القرنين لدى الحيوانات متعددة الحمل ممكن .

هذا وأن الآراء والمشاهدات حتى في الطب البيطري تتضارب حول هذا الموضوع وذلك لفقدان التجارب العملية المنتظمة .

تجارب شخصية خاصة على الحيوانات :

إن التجارب الشخصية أجريت على الكلاب ، وذلك لأنه لا يمكن حل مسألة الانتقال الداخلي بصورة قطعية إلا بواسطة الرحم ذات القرنين لدى الحيوانات متعددة الحمل .

وقد اتبعت في ذلك طريقة استئصال المبيض والنفير في إحدى جهتي القرن الرحمي وبعد ذلك يمكن بوضوح مشاهدة ما اذا كان الانتقال الداخلي سيحدث أم لا أي أن البيوض الملقحة الناشئة عن مبيض الجهة الواحدة هل ستعشش في الجهة الأخرى من القرن الرحمية أم لا . (صورة ١) .

وبعد تجارب عديدة أجريت على الكلاب أمكن استخلاص طريقة خاصة تتلخص بأن يجري عند أنثى الكلاب بعد اتخاذ اجراءات التعقيم الشديدة وخارج وقت النتر والتداخل الجراحي الآتي .

يفتح البطن على الخط المتوسط ما بين السرة والعانة وبعد فتح غشاء البطن يفتش عن الرحم ويربط الشريان والوريد المبيضي في أحد قرني الرحم كما يربط الشريان والوريد الرحمي عند رأس القرن المذكور . ثم يخزع جيب المبيض مع جزء صغير من القرن الرحمي (صورة ٢ و ٣) وتغلق الفوهة الناتجة بخياطة (فم الكيس) ثم يعاد الاتصال بين هذا القرن الرحمي والرباط المبيضي الخاص ثم يغلق غشاء البطن فالطبقة العضلية والصفاق بخياطات مستمرة أو متصالبة من الخمشة . أما الجلد فيغلق بخياطات عقدية وتعالج حسب الأصول ثم توضع الأربطة المستعملة في الطب البيطري لتخفيف التوتر على الجرح وبذلك لاتبقى هنالك حاجة إلى ضماده . وبعد ثلاثة أيام تنزع الأربطة وبعدها بيومين تنزع الخياطات . أي أن العملية التي لا اختلاطات فيها تعود فيها الكلاب بعد خمسة أيام إلى حالتها الطبيعية تماماً . وفي تجاربي الخاصة لم تحدث حتى الآن أية اختلاطات . فحرارة الجسم لم تختلف عما كانت عليه قبل التجربة وكذلك الشهية للطعام وإفراز البول والغائط كل ذلك بقي طبيعياً . كما أن تطور المبيض والتلقيح لم يطرأ عليهما أي اختلال .

إن تلقيح البويضة يحدث عند أنثى الكلاب في النفير . ومدة انتقال البويضة في النفير تقدر بتسعة إلى سبعة أيام وفي هذه المدة تصبح البيضة الملقحة مهيأة للتعشيش كما أنها تكون في الحالة الطبيعية قد وصلت إلى الغشاء الرحمي الذي يكون مهيأ لذلك الغرض . ومدة الحمل عند الكلاب هي ثمانية أسابيع .

لهذا يجب أن يجرى على أنثى الكلب تداخل جراحي آخر ليمكن التثبيت من حدوث « الانتقال لداخلي » فبعد الالقاح بأربعة أو خمسة أسابيع يفتح البطن حسب الطريقة التي أشرنا اليها سابقاً وتستخرج منه أعضاء التناسل الداخلية برمتها وفي هذا المحضر يمكن مشاهدة توزيع الأجنة ومشيماتها .

بهذه الطريقة أمكن حتى الآن إجراء ثلاث وستين تجربة على الإنتقال الداخلي في الرحم ذات القرنين عند أنثى الكلب وفحص نتائجها . فثبت وجود « الإنتقال الداخلي » لدى سبعة وأربعين منها أي أن الأجنة عششت في قرني الرحم . (صورة ٤ و ٥) ولكن القرن الكائن في الجهة السليمة كان دوماً يحتوي على عدد من الأجنة أكبر مما يوجد في القرن الآخر . وشذت عن هذه النتائج ست عشرة تجربة حيث كانت تجربة « الإنتقال الداخلي » سلبية في تسع منها إذ بقي القرن الذي أبعد مبيضه ونفيره خالياً من الأجنة . وفي الحالات السبع الأخرى حدث التهاب في القرن منها ثلاث حالات أقتصر فيها الإلتهاب على القرن الذي أبعد مبيضه وأخذ الحمل في القرن السليم مجراه الطبيعي ولم يتأثر .

ملخص :

إن الإنتقال الداخلي هو تحرك البويضات الصادرة عن أحد المبيضين داخل أعضاء التناسل الداخلية حتى تبلغ جزء الرحم أو النفير الكائنين في الجهة المقابلة وتعشش فيها . إن هذه المسألة العلمية سبق أن درست مرارا . إلا أنه تبين من الأبحاث التي نشرت حتى الآن إن الآراء في هذا الموضوع ما تزال متضاربة حتى يومنا هذا .

تتميز أعضاء التناسل الداخلية عند الإنسان بوجود رحم وحيدة القرن لذلك فان إثبات وجود الإنتقال الداخلي في مثل هذه الرحم غير ممكن وتضاربت الآراء سواء في الطب البشري او في الطب البيطري وذلك إن المشاهدات السريرية لا يمكن أن تتخذ أساساً للنظريات الغريزية وحتى الآن لم تجر تجارب عملية منتظمة على الحيوان .

إن تجاربي الخاصة أجريت على أنثى الكلب لأنه لا يمكن الوصول الى حل أكيد لهذه المسألة إلا بإجراء التجارب على الرحم ذات القرنين لدى الحيوانات

المتعددة الحمل . وقد انتهجت لنفسي طريقة في هـذه التجارب عمدت فيهـا الى استئصال المبيض والنفير في إحـدى الجهتين . وبذلك أمكن بعـد التلقيح مشاهدة ما إذا كان هنالك انتقال داخلي أي أن البويضات الصادرة عن المبيض الواحد تصل القرن المقابل وتعشش فيه .

وقـد استطعت حتى الآن اجراء ثلاث وستون تجربة على هجرة البويضة في الرحم ذات القرنين لدى أنثى الـكلب فـكانت نتيجة وجود الإنتقال الداخلي سبعاً وأربعين مرة ايجابية أي أن البويضات وصلت الى القرن المقابل وعششت فيه وكانت نتائج ست عشرة تجربة سلبية

١٩٦١/٤/١٢

*
* *

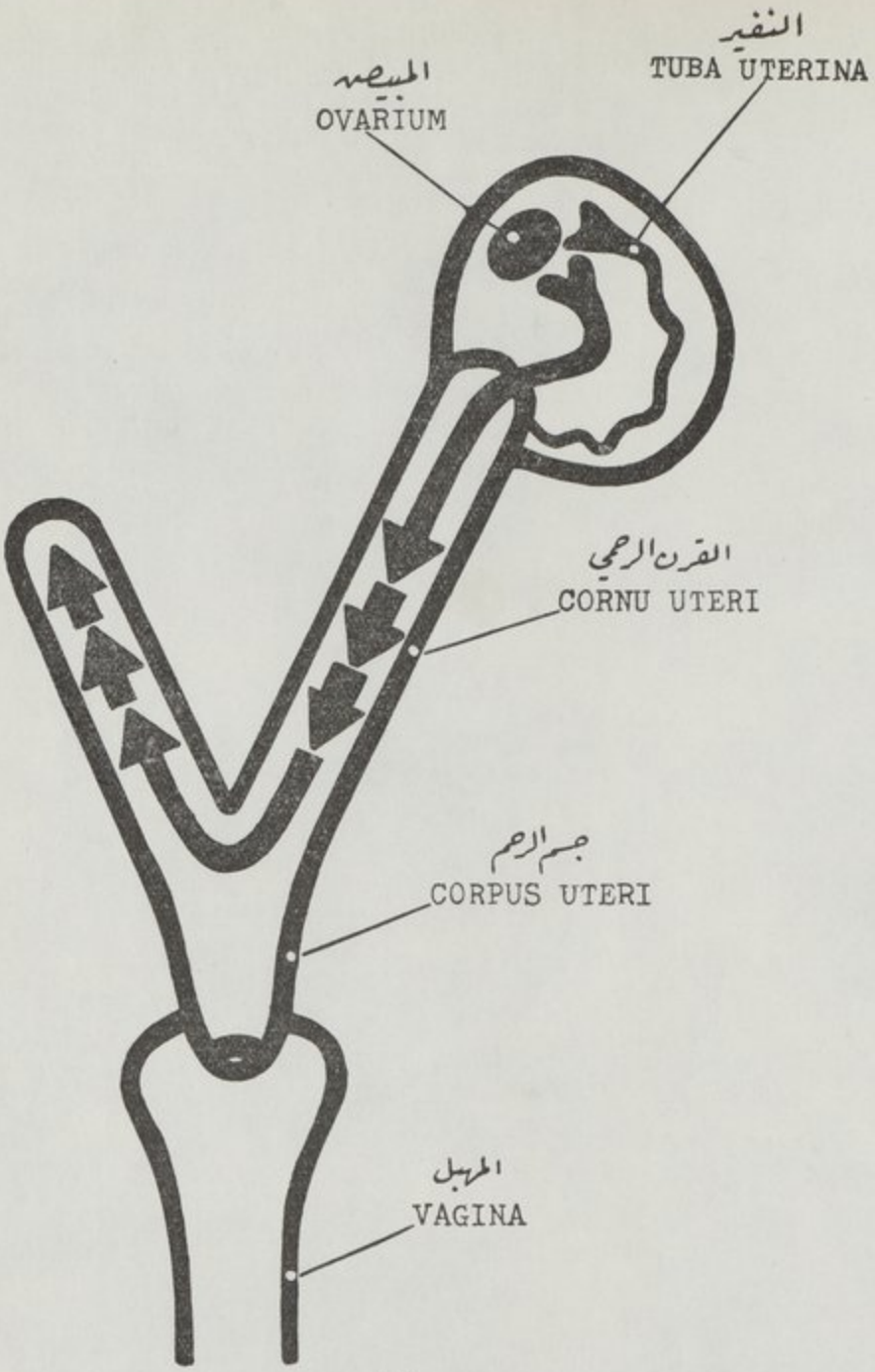

صورة (١)

صورة تفسيرية للأعضاء التناسلية لدى انثى الكلب

رحم ذات قرنين بعد تعقيم احدى الجهتين

اشارة : بحث «الانتقال الداخلي»

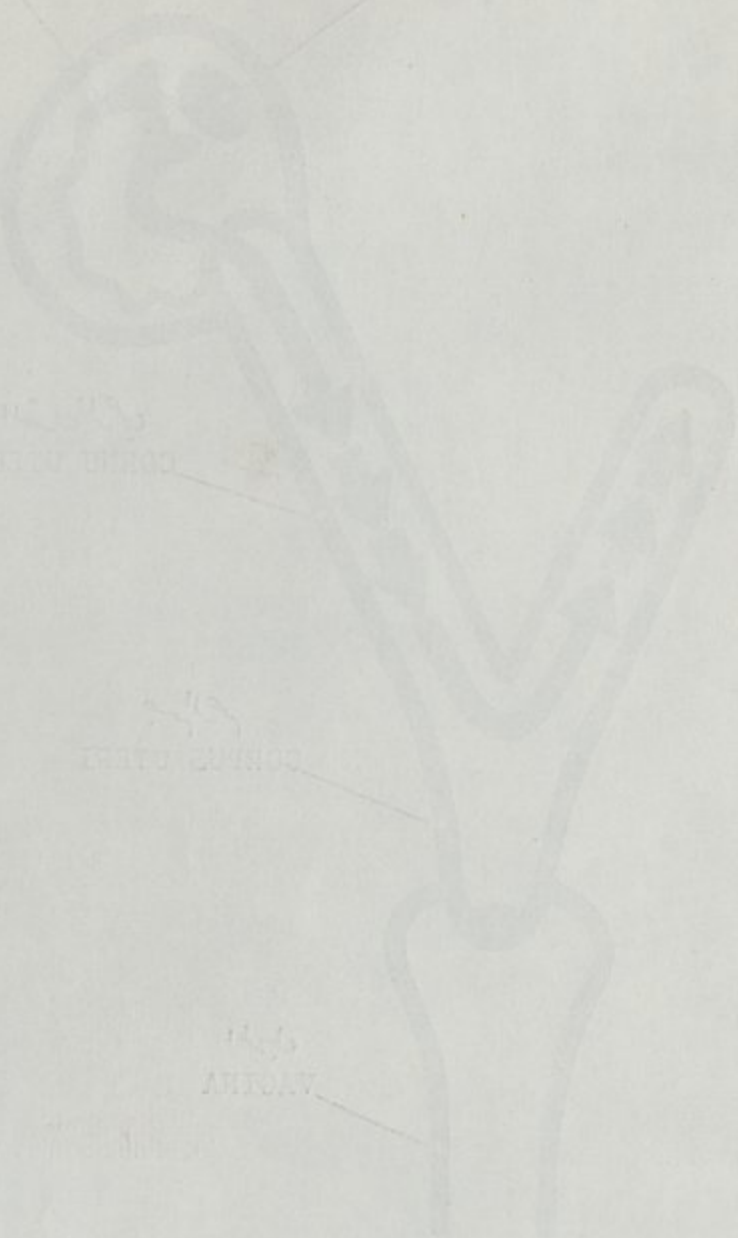

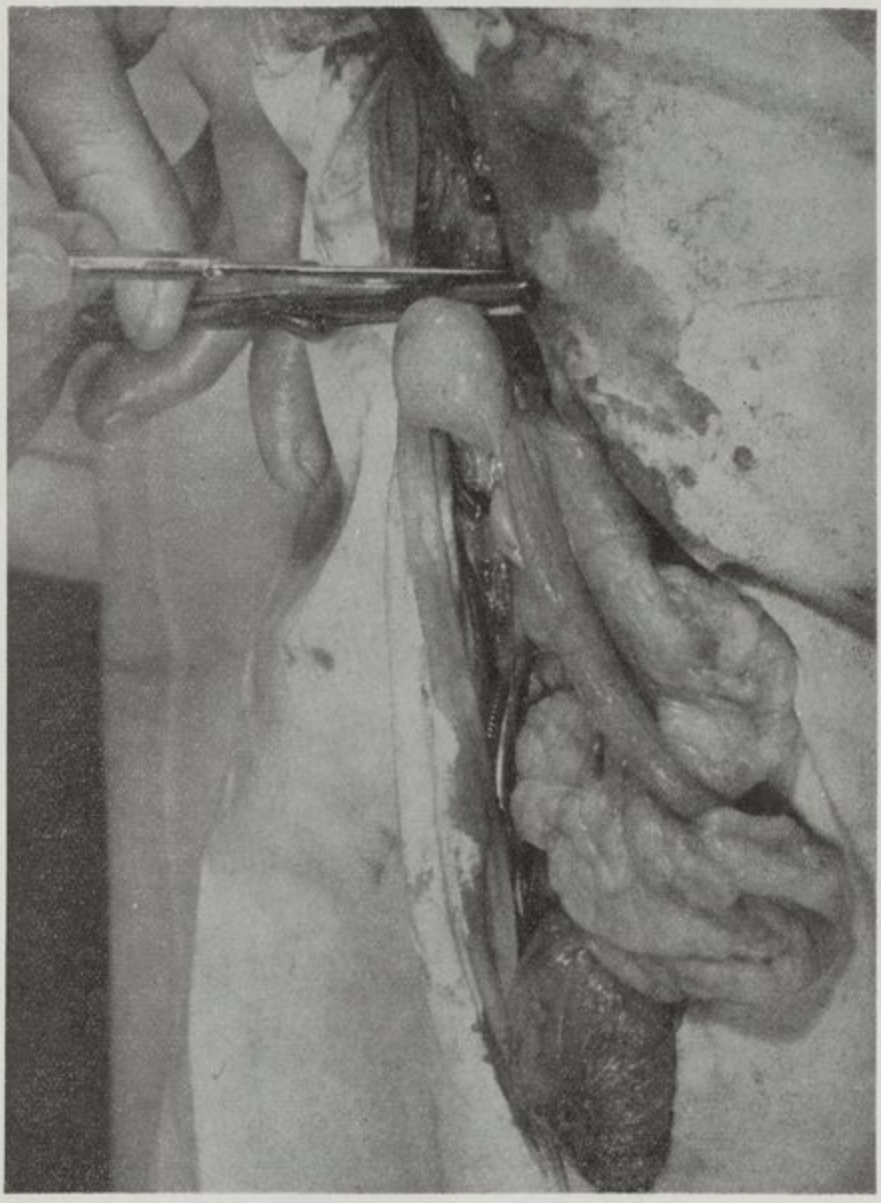

صورة (٢)

تعقيم احدى الجهتين لدى انثى كلب غير حامل

جرى خزع المبيض والنفير وذروة قرن الرحم في الجهة اليمنى

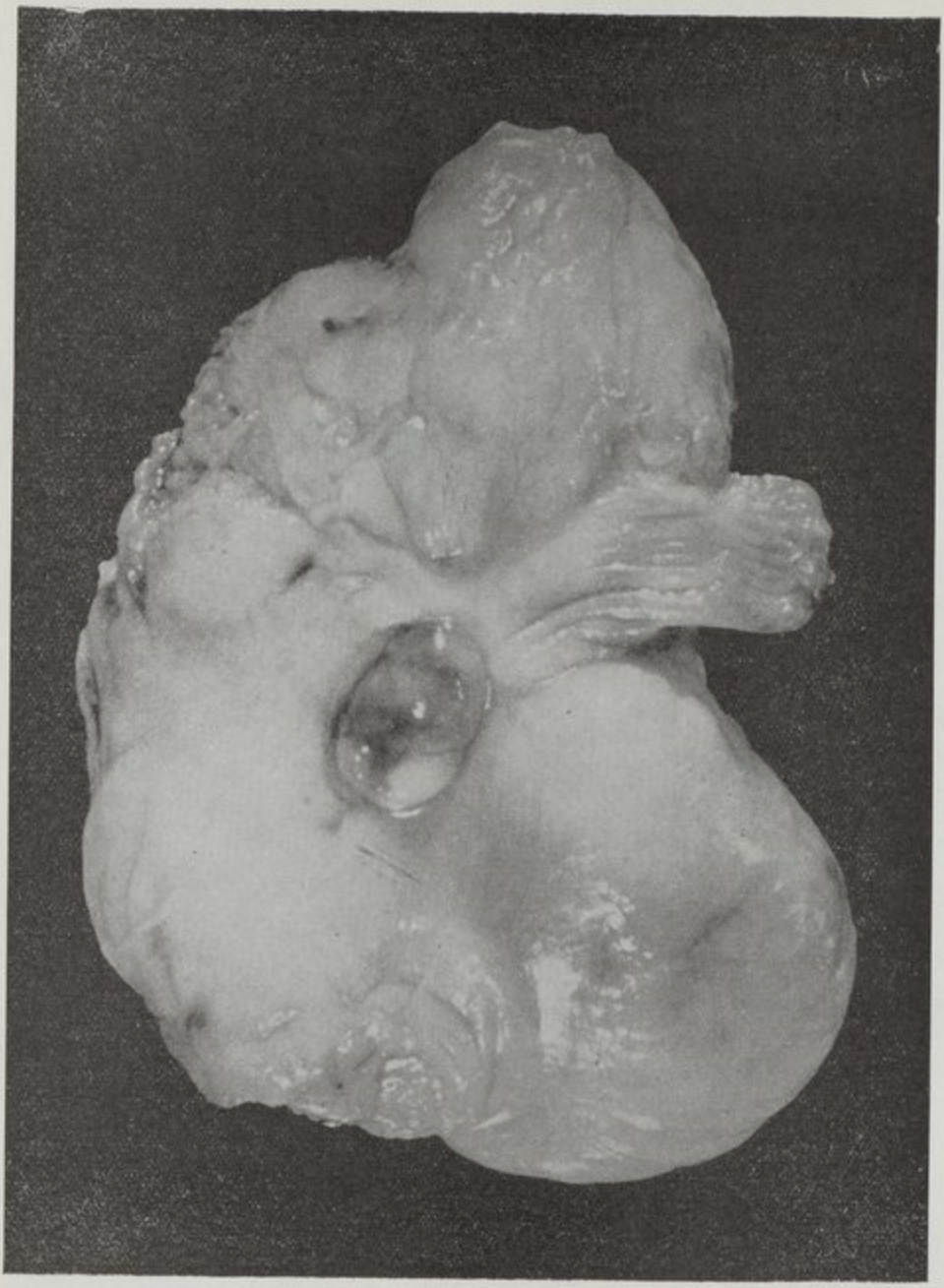

صورة (٣)

تعقيم احدى الجبتين في انثى الكلب التي ظهرت في الصورة (٢)
محضر يتألف من المبيض والنفير وذروة قرن الرحم للجهة اليمنى

صورة (٤)

خزع للجهاز التناسلي بكامله لدى انثى الكلب التي ظهرت في الصورة (٢)

محضر يتألف من الرحم الحامل مع مبيض ونفير الجهة اليسرى

يظهر القسم الأنبوبي في قرني الرحم بوضوح

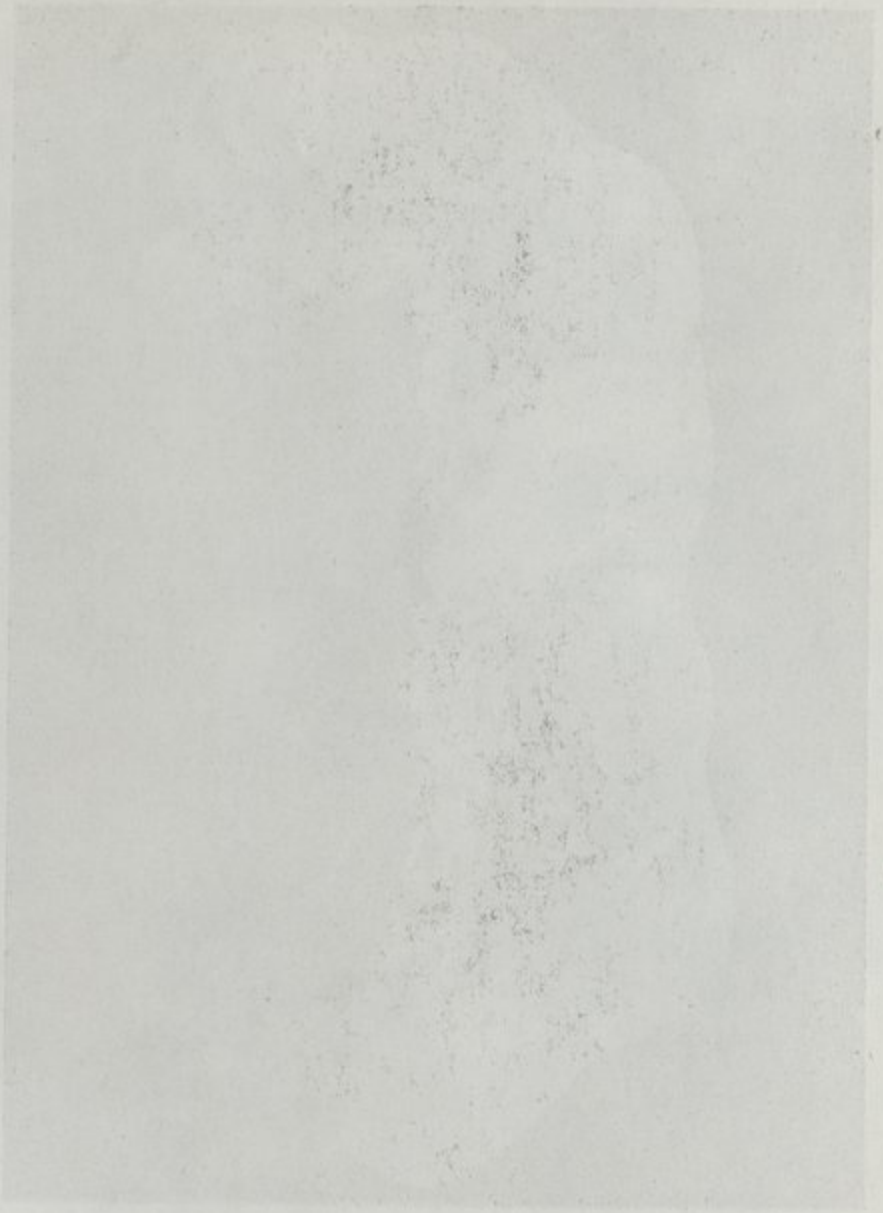

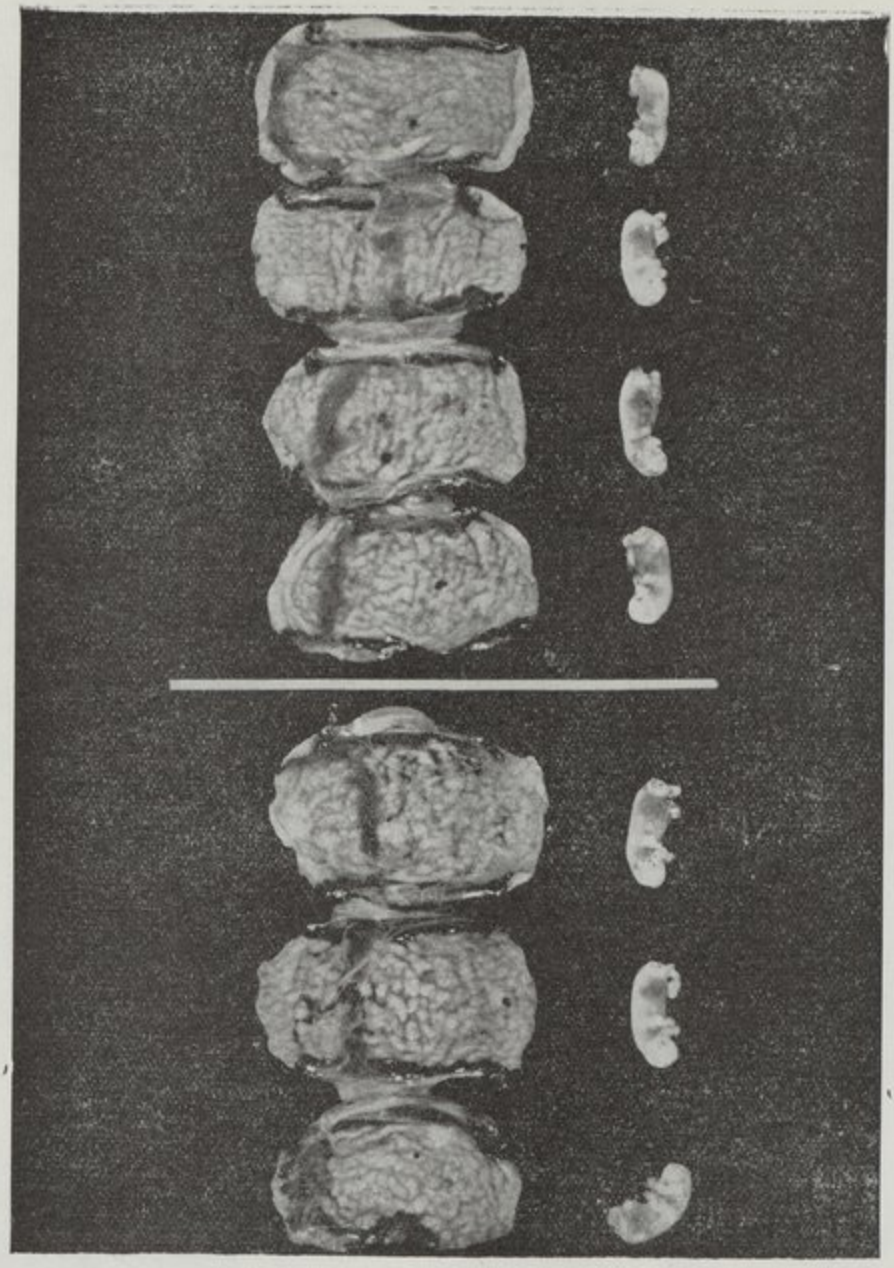

صورة (٥)

خزع الجهاز التناسلي بكامله لدى انثى الكلب التي ظهرت في الصورة (٢)

محضر يتألف من الرحم مع مبيض ونفير الجهة اليسرى

الأجنة والمشيات التي اخرجت من قرني الرحم

المصادر :

(Bischoff, Th. L. W) بيشوف - ت ل.ف

Entwicklungsgeschichte des Hundeeies.
Braunschweig 1845.

(Kussmaul, A.) آ - كوسماول

Von dem Mangel, der Verkümmerung und Verdoppelung der Gebärmutter, von der Nachempfängnis und der überwanderung des Eies.
Würzburg 1859.

١٣

القرويين أقدم جامعة في العالم

للاستاذ محمد المنتصر الكتاني

رئيس قسم علوم القرآن والسنة بكلية الشريعة

بناء فاس

في فاتح ربيع النبوي عام ١٩٢ ، شاد الإمام إدريس الثاني ، بن الإمام إدريس الأول ، بن عبد الله الكامل الشهيد ، بن الحسن المثني ، بن حسن السبط ، ابن الإمام علي بن أبي طالب . شاد إدريس الثاني مدينة فاس .

وفي أول جمعة تقام بفاس ، صعد بانيها إدريس المنبر خطيباً ، فكان مما قال وهو رافع يديه : اللهم إنك تعلم أني ما أردت ببناء هـذه المدينة ، مباهاة ولا مفاخرة ، ولا سمعة ولا مكابرة ، وإنما أردت أن تعبد فيها ، ويتلى كتابك ، وتقام فيها حدودك وشرائع دينك ، وسنة نبيك ﷺ ، ما بقيت الدنيـا . فأمن الناس على دعائه .

فاس مدينتان

وفاس يوم بنيت ، كانت تضم مدينتين يحيط بكل منهما سور ، ويفصل بينهما نهر ، ولا يزال الحد الفاصل بينهما ، يسمى (بين المدن) إلى الآن ، وهو اليوم حي قائم بنفسه . وفاس ذات المدينتين ، تسمى إحداهما عدوة الأندلس ،

وهي الأولى بناء ، وحين اختطها ادريس شرع في تحصينها بسور ذي أبراج وقلاع ، وقال : من بنى موضعاً أو اغترسه قبل تمام السور ، فهو له . فبنى الناس من ذلك الشيء الكثير ، دوراً وقصوراً وحدائق . وفي اليوم التالي لبناء المدينة الأولى ، بنى المدينة الثانية عام ١٩٣ ، فانتقل إدريس إليها ، وبنى مساكنه بها ، وسميت عدوة القرويين . قال عبد الملك الوراق :

كانت فاس في القديم بلدين ، لكل منهاسور يحيط بها ، وأبواب تختص به ، والنهر فاصل بينها ، وسميت إحدى العدوتين : عدوة القرويين ، لنزول العرب الوافدين من القيروان بها ، وكانوا ثلاثمائة أهل بيت ، وسميت الأخرى : عدوة الأندلس ، لنزول العرب الوافدين من الأندلس بها ، وكانوا جماً غفيراً : يقال أربعة آلاف أهل بيت .

توحيد مدينتي فاس

ومنذ القرن الخامس عام ٤٦٢ ، أيام الدولة المرابطية ، هدم يوسف بن تاشفين الأسوار الفاصلة بين المدينتين : عدوة الأندلس ، وعدوة القرويين ، وأحاطها بسور واحد ، وحصون واحدة ، وصير المدينتين مدينة واحدة ، هي فاس على وضعها الحاضر اليوم .

وفي أيام الإمام يحيى ، بن الإمام محمد ، بن الإمام إدريس الثاني ، الذي استمرت خلافته خمس عشرة عاماً ، وتوفي سنة ٢٤٩ ، عظمت الدولة الإدريسية ، واتسعت رقعتها ، واستبحر العمران في المغرب وخاصة في فاس ، وانتشر العدل والرخاء ، وفاض الخير ، وعم الأمان ، وقصد الناس فاس بالرحلة إليها والسكنى فيها ، من أقطار المغرب وإفريقيا والأندلس ، فبنيت المساجد والجوامع والمدارس ، وشيدت الأسواق والحمامات والفنادق ، ونثرت الضواحي والأرباض بين جنباتها ، خارج فاس حيث ضاقت بسكانها

واكتظت ، وكانت عدوة القرويين منهـا ، تسكنها أسرة من أعرق الأسر العربية الوافدة من القيروان ، هي محمـد بن عبد الله الفهري ، وبنوه ، وفيهم كريمتاه : فاطمة أم البنين ، ومريم .

مات محمد ، ولحق به بنوه ، وتركوا لفاطمـة ومريم مالاً طـائلاً ، وثراء عريضاً ، فرصدتاه لوجوه الخير والبر والإحسان .

فاشترت مريم أراضي وبنتها مسجداً عام ٢٤٥ ، وفي عام ٣٢١ نقلت إليه خطبة جامع الأشياخ ، وبذلك صـار مسجداً جامعاً ، وهو المعروف بجامع الأندلس منذ بنائه إلى اليوم ، حيث بني بعدوة الأندلس .

بناء القرويين

واشترت أختها فاطمة أم البنين أراضي ، وشرعت في بنائها مسجداً ، يوم فاتح رمضان عام ٢٤٥ ، في دولة زناتة بأمر من واليها ، حامد بن محمد الهمداني، نقلت إليه خطبة جامع الشرفاء ، وبذلك صار مسجداً جامعاً، وعرف بجامع القرويين منذ بنائه إلى اليوم ، حيث بني بعـدوة القرويين . ولم تزل أم البنين منذ الشروع في بنائه صائمة ، إلى أن تم وصلت فيه ، شكراً لله تعالى ، حيث وفقها لتشييده ، بمال حلال ، وتراب حلال ، وأيد طاهرة ، لم يلوثها الحرام .

وعلى مر الدهور والأعوام ، تنافس الملوك والدول ، في توسيع بنائه ، ورصد الأموال للقيام به ، فزاد فيه أيام الدولة الزناتية أميرهـا أحمد بن أبي بكر من خمس الغنائم ، عام ٣٤٥ ، وزاد فيه أيام الدولة المرابطية أمير المسلمين علي بن يوسف بن تاشفين ، ثم لم يزل يوسع ويجدد وتزداد أوقافه ، أيام دولة الموحدين ، ودولة المرينيين ، ودولة الوطاسيين ، ودولة السعديين ، إلى أيام دولتنا العلوية الحاضرة .

جامع القرويين

والقرويين من يوم بني ، أسس جامعة وجامعاً ، جامعاً لاجتماع جميع سكان فاس ، لاستماع خطبة الجمعة أربع مرات كل شهر ، ولا يجوز أن يكون للبلد الواحد إلا جامع واحد ، ولا يجوز تعدد الجوامع إلا حسب الحاجة ، فإن كفى البلد جامعان فلا يزاد ثالث ، كما هو مذهب مالك والأئمة الأربعة ، وجميع مذاهب الفقه الإسلامي ، فالمساجد تعد في البلد الواحد بالعشرات ، بل وبالمئات ، تصلي فيها جميع الصلوات إلا صلاة الجمعة ، والمساجد الجامعة لصلاة الجمعة مع جميع الصلوات ، ولا تعدد إلا لحاجة ملحة من تضخم السكان ، وإن كثرت فلا تزيد على عدد أصابع اليد .

وخطب القرويين جامعاً ، كانت دروساً عامة للجميع ، ومحاضرات علمية يحضرها الرجال والنساء والأطفال ، ولا يختار لها إلا كبار العلماء ، وبلغاء الخطباء ، والصالحون من الدعاة ، لتربية الشعب وتهذيبه وتعليمه ، وتوجيهه الوجهة الصالحة ، في دينه ودنياه ، بجميع أفراده .

خطباء القرويين

ومن نماذج هؤلاء الخطباء ، منذ القرن السادس الى القرن الثالث عشر الماضي ، المعلمون المربون الهداة :

بكر أبو محمد الجوراني ، الفقيه الإمام العارف ، له زيادات على المدونة ، خطب في القرويين وأم أربعين عاماً ، مات سنة ٥٩٨ .

وموسى أبو عمران ، المعلم الفقيه الصالح ، مات سنة ٥٩٩ .
وولده عبد الله بن موسى ، الفقيه المعلم .

ومحمد بن يوسف المزدغي ، المفسر المحدث ، الحافظ المفتي ، الفقيه المجتهد ، مشاور الدولة ، له مؤلفات في التفسير والحديث والفقه ، مات سنة ٦٥٥، وهو ابن اثنين وثلاثين عاماً .

ويوسف بن عمر الانفاسي ؛ العلامة الفقيه مفتي فاس ، مات سنة ٧٦١ ، عن مائة عام .

ومحمد بن الحاج الجزولى ، الفقيه المحدث القاضي ، من رجال القرن الثامن .

وأحمد القباب ، الإمام المحدث الفقيه ، المفتي قاضي جبل طارق ، ومشاور الدولة ، له فتاوى مدونة في معيار الونشريسي . وله مؤلفات ، ولد سنة ٧٢٤ ومات سنة ٧٧٨

ومحمد ابن عباد ، الامام الاديب ، العارف شارح حكم ابن عطاء الله ، ومرجزها في ٨٠١ بيت ، ولد مؤلفات اخرى ، مات سنة ٧٩٢ ، وقد أوصى عند موته بربعة توقف على القرويين ، فنفذت وصيته وفتحت الربعة ، واذا فيها ١٨٠٠ مثقال ذهباً . واذا بها كل ما اخذه اجرة على خطابته وامامته في القرويين ، تورع عن اخذها وردها لتنفق في مصالح القرويين ، فاشترى بها حمام ، وهو المعروف الى اليوم بحمام ابن عباد في شارع القطانين بفاس .

وعبد الله العبدوسي ، الامام الفقيه ، المحدث الحافظ ، مفتي فاس وعالمها ، ولى الفتوى بفاس وبمختلف مدن المغرب ، مات سنة ٨٤٩ .

واحمد الحباك ، العلامة الاديب ، الشاعر المتصوف ، الفقيه ، ولد سنة ٨٠٤ ومات بعد سنة ٨٧٠ .

وعيسى بن علال المصمودي ، فقيه فاس وقاضيها ، الرحالة مشاور الدولة مات سنة ٨٢٣ .

وعبد العزيز الورياجلي ، العلامة الزعيم ، الآمر بالمعروف والناهي عن المنكر ، مفتي فاس ، ولد سنة ٨٠٢ ومات سنة ٨٨٠ ، وهو الذي اوقف غابة زيتون ، على المنادى بعداقامة الصلاة بكلمة : عدلوا الصفوف رحمكم الله .

ويعقوب الحلفاوي ، العلامة المتصوف ، من رجال القرن التاسع .

ومحمد بن عبد العزيز التازغدري ، الفقيه الحافظ ، مفتي فاس ، ومشاور الدولة ، له فتاوي كثيرة مدونة في معيار الونشريسي ، مات قتيلاً سنة ٨٣٢.

ومحمد بن احمد ابن غازي ، العلامة الفقيه ، البطل المجاهد ، صاحب (شفاء الغليل في حل مقفل خليل) و (تكميل التقييد وتحليل التعقيد على المدونة) في ثلاثة أسفار ، وتاريخ (الروض الهتون في أخبار مكناسة الزيتون) وفهرسة (التعلل برسوم الأسناد بعد إنتقال أهل المنزل والناد) وغيرها من المؤلفات، ولد سنة ٨٥٨ ومات سنة ٩١٩ ، وحضر جنازته السلطان ورجال الدولة .

ومحمد بن حسون ، العلامة الفقيه ، مات سنة ٩١٤ .

ومحمد أبو شامة ابن ابراهيم ، العلامة الأديب ، الفقيه العابد ، ولد سنة ٩١٠ ومات سنة ٩٦٤ ، وحضر السلطان جنازته .

ومحمد بن عبد الرحمن المغراوي ، العلامة مفتي فاس،ولد سنة ٩٠٨ومات سنة ٩٨١ .

واحمد الدقون ، العلامة المحدث ، الأديب الشاعر ، مات سنة ٩٢١ .

وعلي المطغري أبو الحسن ابن هارون ،العلامة مفتي فاس ،ومدرس القرويين ، مات سنة ٩٥١ وقد نيف على الثمانين .

ويحيى السراج ، الفقيه الحافظ ،مفتي فاس ،ولدسنة ٩٢١ ومات سنة١٠٠٧.

ومحمد البوعناني ، قاضي فاس الجديد ، ولدسنة ١٠٢٨ ومات سنة ١٠٩٨.

ومحمد المرابط المغراوي ، العلامة الفقيه ، مات سنة ١٠٠٨ .

ومحمد بن أحمد الفاسي ، العلامة القاضي مفتي فاس ، وصاحب المؤلفات في الفقه والمنطق ، ولد سنة ١٠٠٩ ومات سنة ١٠٨٤ .

وحمدون المزوار ـ النقيب ـ العلامة القاضي المفتي ، ولد سنة ١٠١٤ ومات سنة ١٠٨٤ .

ومحمد العربي بُرْدُلّة ، العلامة المفتي ، قاضي فاس العادل ، وصاحب المؤلفات ، ولد سنة ١٠٤٢ ومات سنة ١١٣٣ .

وعلي قصارة ، العلامة المفتي ، والفقيه الفلكي ، وموقت منار القرويين ، مات سنة ١١٨٥ .

وأحمد الشدادي ، العلامة الحافظ ، والمفتي ، والقاضي العادل ، له مؤلفات في الفقه ، مات سنة ١١٤٦ .

ومحمد بن منصور ، قاضي فاس ، ومفتيها ، مات سنة ١١١٠ .

ومحمد أبو مدين الفاسي ، العلامة الأديب المؤلف ، ولد سنة ١١١٢ ومات سنة ١١٨١ .

وعلي البوعناني ، قاضي فاس ، مات سنة ١١٥٣ .

ومحمد بن أحمد التمّاق ، العلامة الفقيه المفتي ، قاضي فاس ، وله مؤلفات ، مات سنة ١١٥١ .

وأبو جيدة المشاط ، الفقيه الأديب ، فلكي فاس ، وموقت منار القرويين ، اعتبط شاباً سنة ١١٤٨ .

وحمدون الطاهري ، الفقيه المحدث ، مات سنة ١١٩١ .

وأحمد الزعري ، العلامة المفسر ، كان له في القرويين حلقة للتفسير ، ولد سنة ١١٥٣ ومات سنة ١٢٢٢ .

ومحمد الطالب ابن الحاج ، قاضي فاس ومدينة مراكش ، مات سنة ١٢٧٣ .

وإدريس البكراوي ، العلامة المقرىء ، مات سنة ١٢٥٧ .

قبلة القرويين

وقبلة جامع القرويين كانت مستقيمة ، الى أن حرفها يساراً منذ قرون محرفون ، وبقى هذا التحريف إلى الآن ، وقد عارضه عارفون ، واستنكره مصلحون ، وكتبوا في ذلك فتاوى ومؤلفات .

وقد قوم هذا الانحراف ، العلامة الفلكي أبو عبد الله البسّيتني ، برسالة خاصة في القبلة ، رد فيها على عبد الرحمن التاجدري ، مستنكراً فتواه وكتابته في تأييده لإنحراف قبلة القرويين ، وجعل يعدد أئمة الفقه والعلم الذين صلوا اليها من غير تحريف ، وعد منهم الإمام المجاهد ، الفقيه الحافظ ، من شارك في إدخال مذهب مالك للمغرب دراس بن اسماعيل أبو ميمونة ، المتوفي سنة ٣٥٧ .

والبسيتني هذا من علماء فاس ومفتيها ، فقيه حافظ رحلة ، له رسالة في تصحيح قبلة القرويين ، ورسالة في حقوق الرعية على الدولة ، وحقوق الدولة على الرعية ، وحضر السلطان محمد الشيخ الوطامي جنازته وهو يبكي ، وكان قد ترك المغرب للمشرق مغاضباً للدولة الوطاسية ، حيث ضاقت بمجاهرته بالحق ، واعلانه بذلك في وجوههم ، فبعث السلطان الخيل في أثره لرده ، مستسمحاً له ومسترضياً ، وتاركاً له يأمرهم بالمعروف وينهاهم عن المنكر ، كما يشاء ويريد .

فلكيو القرويين

وبمنارة القرويين غرفة موقوفة ، على توقيت الصلوات ، تعتبر الامام والقدوة لغيرها من مساجد فاس ، لايتولاها إلا بارع في علم الفلك ، .

فمن فلكييها في القرن التاسع ، عبد الرحمن الجاديري ، امام علم الفلك ، ولى توقيت القرويين ، وله في التوقيت وعلم الفلك مؤلفات كثيرة ، ولد سنة ٧٧٦ ومات سنة ٨١٨ .

ومسعود الطليطلي ، الفقيه موقت القرويين ، مات سنة ١١٠٤ .

وعلي قصارة ، وأبو جيدة المشاط ، وكلاهما من رجال القرن الثاني عشر وقد مضت كلمة عنهما .

وأدريس الحبابي ، العالم الفلكي الفرضي ، موقت القرويين ، مات سنة ١٢٩٩ .

وعبد القادر الحبابي أخوه ، العالم الحيسوبي الفلكي ، موقت القرويين ، مات سنة ١٢٩٨ .

اعلام القرويين

وفي القرن الثامن أمر السلطان أبو عنان فارس المريني ، برفع الأعلام على رؤوس المآذن ، في اوقات الصلوات النهارية ، وبرفع السرج المزهرة عليها ، في اوقات الصلوات الليلية ، لإعلام البعيد الناظر غير السامع بدخول وقت الصلاة ، كما أمر برفع الأعلام الزرقاء صبيحة يوم الجمعة للإعلام بها .

ساعة القرويين

وصنع الامير أبو عبد الله العزفي ، الساعة الشمسية ، بغرفة الموقتين بمنارة

القرويين ، سنة ٧٤٩ لمعرفة الأوقات وضبطها .

جامعة القرويين

والقرويين صارت جامعة ، من اول يوم تم فيه بناؤهـا جامعاً ، وقد نافستها جامعة أختها جامع الأندلس في القرن الرابع ، كما تنافست الاختان فاطمة ومريم في بنائها ، ولكن بعد ذلك صار جامع الأندلس فرعـاً فقط للقرويين ، من أكبر فروعه الملحقة به للتدريس والدراسة .

فمن أول يوم تم فيه بناء فاس ، وخطب ادريس بانيها أعلن أنه مابناها إلا ليتلى فيها كتاب الله ، وتقام فيها حدوده ، وتعلم فيها شرائع دين الأسلام قرآناً وحديثاً ، ومالا يتم تعلمها إلا بـه ، من مختلف العلوم والفنون . فاستجاب الله لارادة ادريس وبغيته ، فصـارت فاس دار علم ودين ، بظهور جامعـة القرويين فيها بعد ذلك بقليل ، في أيام سبطـه يحيى الاول بن محمد ابن ادريس .

جامعات اوربا

فأول جامعة تأسست في أوربا ، جامعة سالرن ، سنـة ١٠٥٠ ميلادية ، في ايطاليا ثم أصبحت معروفة بمدرسة نابولي ، ثم تأسست جامعة بولونيا للحقوق ثم جامعة باريس ، وقد اعترف بها لويس السابع سنـة ١١٨٠ م ، ثم تأسست جامعة بادو سنة ١٢٢٢ م ، ثم جامعة اكسفورد ، عام ١٢٤٩ م ثم جامعة كمبردج عام ١٢٨٤م ، وجامعة سالامانكا في اسبانيا سنة ١٢٤٣ م .

القرويين اقدم الجامعات

أما جامعة القرويين فقد مضى أنها أسست عام ٢٤٥ هـ ويوافقه سنة ٨٥٩ م

أي ظهرت جامعة القرويين ، قبل أقدم جامعة ظهرت في أوربا ، بمائتي عام إلا تسع سنوات .

وجامع الأزهر بناه جوهر المغربي سنة ٣٦٠ ، ولم يتخذ معناه الجامعي إلا سنة ٥٤٧ ، فالقرويين أقدم من الأزهر جامعاً ، بـ ١٢٥ عام ، وأقدم من الأزهر جامعة ، بـ ٣٠٢ عام ،

وقد ذكر دلفان في كتابه (حول فاس ، وجامعتها والتعليم العالي بها) المطبوع سنة ١٨٨٩ : ان فاس هي دار العلم ، وان القرويين هي (أول مدرسة في الدنيا)

وجامعة القرويين منذ القرن الثالث هي المنار الهادي في ظلمات الجهل ، والمشعل المنير بين يدي السارى ، فمنه انتشرت الثقافة الإسلامية ، والحضارة العربية ، في ديار العرب والمسلمين الغربية ، افريقيا والمغرب والأندلس ، جيلاً بعد جيل ، وقرناً بعد قرن ، الى عصرنا الحاضر ، مسلمين وأجانب ، فقد كانت جامعة القرويين بفاس الغاية التي تحط قوافل الرحالة عندها ، لتلقي علوم التفسير والحديث والفقه والأصلين : أصول الفقه ، وعلم الكلام ، ولتلقي علوم الوسائل والآلة من عربية : لغة ونحو وبلاغة وما اليها من نثر وشعر وادب ، ولتلقي علوم الفلسفة والحكمة والفلك والطب والهندسة . ولو ذهب مؤرخ يجمع علماء القرويين قديماً وحديثاً في كتاب ، لوصلت مجلداته إلى الخمسين جزء ، وقد لايتم بذلك فيما اعتقد ، وسيتجاوز كتاب علماء القرويين في القديم والحديث ، كتاب أعلام الاستاذ الزركلي ، بمجلداته العشر وآلاف اعلامه العشرة من غير شك ولا ارتياب ، هذا والأستاذ الزركلي لم يقصد أعلام مدينة مّا ، ولا أعلام جامعة مّا ولكنه تسامى لأن يجمع أعلام جميع ديار العرب وأوطانهم ، مستكثراً في أعلامه ، بأعداء العرب والاسلام ،

من كل مستشرق أو مستعرب أو مضلل ، فقصر وشذ واغرب[١] .

---

(١) فالمغرب رغم شهرته بين اهله بتضييع تاريخه دولاً وشعوباً واعلاماً، وقلة تاليفهم في ذلك ، فقد خلف سلفنا عشرات المؤلفات في تاريخهم، وتبع سلفنا في ذلك خلفنا بعشرات المؤلفات كذلك، مذيلين لتاريخهم ومكملين، مستدركين ومستأنفين، فمن اشهرها واكثرها تداولا: ملوك المغرب وفاس (القرطاس) لابن ابي زرع، وملوك المغرب وفاس (القرطاس) لصالح بن عبد الحليم، وأعلام فاس (الجذوة) لابن القاضي، ورجال فاس (جنازهر الآس) لعلي الجزنائي، وعلماء فاس وصلحاؤها (السلوة) في ثلاث مجلدات، لجدي محمد بن جعفر الكتاني رحمه الله ، ومناقب الامام ادريس بن ادريس (الدر النفيس) لاحمد بن عبد الحي الحلبي ، ومحاسن الامام ادريس بن ادريس (الازهار) لجدي ابن جعفر رحمه الله ، والاخبار المراكشية (الحلل) ينسب لابن الخطيب، واسماء الرجال (الدرة) لابن القاضي في مجلدين، ومحاسن من كان بالمغرب من القرن العاشر (الدوحة) لمحمد عسكر، والدولة المرينية (الذخيرة) لمجهول، واخبار عياض (الازهار) للمقري طبع من ثلاث مجلدات، واخبار الاندلس والمغرب (البيان المغرب) لابن عذاري طبع منه اربعة اجزاء، ودولة بني مرين (الروضة) لابن الاحمر، واخبار المغرب (المعجب) للمراكشي، وصلحاء درعة (الدرر) للدرعي، وحلى المغرب (المغرب) لابن سعيد، في مجلدين، وافريقية والمغرب (المسالك والممالك) للبكري، طبع منه جزء، واخبار ابي يعزي (المعزي) للتادلي، وخلافة المنصور - السعدي - (المنتقى) لابن القاضي، ومن لقيته من ادباء المغرب (المطرب) لابن الطيب العلمي، والفروع الحسنية والحسينية (الدرر) للفضيلي، في مجلدين، واخبار مكناسة الزيتون (الروض) لابن غازي . واخبار مكناس (الاتحاف) لابن زيدان، طبع منه خمس مجلدات ، وبقي منه خمسة لم تطبع ، واهل القرن الحادي عشر والثاني (نشر المثاني) لابن الطيب القادري، في مجلدين، واخبار ملوك القرن الحادي (نزهة الحادي) لليفرني، واخبار صلحاء القرن الحادي عشر (صفوة ما انتشر) لليفرني ، والادب في المغرب الاقصى للقباج في جزئين ، واخبار المغرب الاقصى (الاستقصاء) للناصري في تسع مجلدات، واعلام مراكش وأعمات (الاعلام) لابن ابراهيم ، طبع منه خمس مجلدات وبقي منه خمسة لم تطبع، واعلام الرباط (الاغتباط) لبوجندار ، في جزئين ، وادباء شنجيط (الوسيط) لابن الامين ، وعلماء سلا، لابن علي الدكالي ، في عدة مجلدات، وعلماء آسفي، للعبدي ، والمرأة المغربية ، للعبدي، وعلماء طنجه، لسكيرج ، وعلماء تطوان، للرهوني ، في عشر مجلدات، وتطوان لداود، في عدة اجزاء، طبع اولها ،وسوس العالمة، لمختار السوسي، في عدة اجزاء طبع اولها والنبوغ المغربي، لكنون، في جزئين ،هذا عدا تاريخ الالبات والمشيخات، للمراج ، والمنجور ، وابن غازي، واليوسي ، وابراهيم السجلماسي، وولده عبد العزيز، وعبد القادر الفاسي ،وولده عبد الرحمن، وولده محمد ، والمنجرة ، والعميري ، وابن عبد السلام بناني، وابن الحسن بناني، وابن سودة =

علم القرويين

وقديماً قيل عن فاس : إن العلم ينبع من فاس ، كما ينبع الماء من أرضها . وقالوا : ولد العلم بالمدينة ، وربى بمكة ، وطحن بمصر ، وغربل بفاس .

وفي القرن السادس وصف عبد الواحد المراكشي فاس ، في المعجب فقال : ومدينة فاس هي حاضرة المغرب في وقتنا هذا ، وموضع العلم فيه اجتمع فيها علم القيروان وعلم قرطبة ، وما زلت اسمع المشايخ يدعونها بغداد المغرب .

وفي القرن العاشر رحل علي بن ميمون لتلمسان ، وبجاية ، وتونس ، والشام ، والحجاز ، وغيرها من الأقطار ، فقال مقارنا بين علماء القرويين ، وعلماء غيرها من الشعوب التي زارها : ما رأيت في سائر مدن المغرب لا في مدينة تلمسان ، ولا بجاية ، ولا تونس ، ولا أقليم الشام بأسره ، ولا بلاد الحجاز ، فإني رأيت ذلك كله بالمشاهدة ، ولا بصر على ما تقرر عندي من العلم اليقيني ، بمشاهدة أناس من أهلها ، وبرؤيتي لبعض كتب أرباب الوقت ، ما رأيت مثل فاس ، ومثل علمائها في حفظ ظاهر الشرع العزيز بالقول والفعل ، وغزر الحفظ لنصوص إمامهم الإمام مالك ، وحفظ سائر العلوم الظاهرة ، من الفقه

=والهشتوكي ، والورزازي ، وابن عجيبة ، والكوهن . وعدا الكتب المفردة في تاريخ شخص معين قديماً وحديثاً . وعدا كتب الانساب ، وكل هذه الكتب التاريخية تشتمل على شرط الاستاذ الزركلي في أعلامه ، ففيها المصنفون ، والخلفاء ، والملوك ، والامراء ، والوزراء ، والقضاة ، والمغنون ، والمهاريون ، والشعراء ، والرواة ، واصول الانساب ، ومن ضربت به الامثال ، وكل من يتردد اسمه ، ويسأل عنه ، كما يقول . هذا ولم أشر الى العشرات من تآريخ الجزائر ، وتونس ، وليبيا ، ولا الى المأت من تآريخ الاندلسيين .

والحديث والتفسير ،وحفظ نصوص كل علم ، مثل النحو والفرائض ،والحساب والتوقيت والتعديل ، والتوحيد والمنطق ، والبيان والطب ، وسائر العلوم العقلية ، كل ذلك لا بد فيه عندهم من حفظ نص ذلك الفن ، ومن لم يستحضر النص على مسألة ما،في علم ما، إن تكلم فيه لا يلتفت إلى كلامه ، ولا يعبأ به، ولا يحسبونه من طلبة العلم .

علوم القرويين

وهكذا أيضاً يقول الأجانب عن جامعة القرويين ومدينة فاس ،

ففي أول القرن التاسع عشر الميلادي أقام في المغرب باديان بليش، أربع سنوات من سنة ١٨٠٣ - ١٨٠٧ ، وكتب عنه رحلة في ثلاث مجلدات طبعت في باريس سنة ١٨٨٤ ، جاء فيها : إن مدينة فاس هي في افريقيا ، أشبه بأثينا عاصمة الفكر في أوربا .

وفي القرن السادس عشر الميلادي، أقام اكلينار البلجيكي بفاس سنة ١٥٤٠، أيام السلطان احمد الأعرج السعدي عام ٩٤٨ هـ وكتب رسائل باللاتيني،وصف فيها القرويين ودروسه بها ، وعادات الطلبة والمدرسين ، وطريقة التدريس ، وفنون العلم المدروسة فيه ، فكانت : التفسير والحديث ، والأصول والفقه، والنحو والبيان ، والمعاني والبديع ، والمنطق والعروض ، والحساب والتنجيم، والكلام والتصوف ، واللغة والتصريف ، والتوحيد والتاريخ ، والجغرافيا والطب ، والقضاء والأحكام والأدب .

أجانب في القرويين

وكما حضر اكلينار البلجيكي في القرويين طالباً ، فوصف دروسه بها ، وعادات الطلبة والمدرسين ، حضر - فيما يقال - جيلبير وهو الذي تسمى بالبابا

سلفستر ، ودرس بالقرويين ، وهو الذي أدخل الأرقام العربيـة إلى أوربا ، نقلا لها عن المغرب ، أما الأرقام التي يستعملها اليوم المشارقة ، فهي أرقـام هندية ،وقد تركوا الأرقام العربية منذ قرون ، واقتصر على استعمالها منذالفتح الإسلامي ، المغرب ، وأفريقيا ، والأندلس ، واستعملتها أوربا نقلاً عنا منذ القرن السادس عشر الميلادي[١] .

كراسي القرويين

وجامعة القرويين كراسي للعلم ، عليها أوقاف خاصة ، لكل علم كرسي خاص به ، منذ قرون ، ولكل علم حلقـة تحيط بكرسيه وبالمدرس عليه ، كرسي للتفسير ، وكرسي للحديث ، وكرسي للفقه ، وهكذا ، وقد تتكرر الكراسي للعلم الواحد .

وكرسي العلم في جامعة القرويين ، يعتبر ولاية حكومية عليا ، كالوزارة والقضاء والفتيـا ، فقـد ذكر مترجمو محمد بن ادريس العراقي ، لمام النحاة في عصره ، وابن لمام المحدثين في عصره ، ذكروا عنه : أنه ولي تدريس كرسي سيبويه بالقرويين ، وكان خاصاً هذا الكرسي بمن يدرس كتـاب سيبويه في

---

(١) رأيت وانا تفيذ في المغرب بفاس وتطوان ، فرنسياً واسبانياً كلاهما درسـا في القرويين سنوات ، احدهما وهوالفرنسياسمه فلوري كان مدير شركة الكهرباء بفاس ، زار جدي ابن جعفر رحمه الله في داره بسبع لويات ، وذكر له انه قرأ عليه في القرويين الفقه والعربية والعلوم المعروفةفيها ، وذكّره بالامكنة التي كان يدرس فيها ذلك وكان يحضرها عليه مع الطلبة فتذكّره وكان متنكراً باسم إسلامي وزي مغربي ، اذ المالكية لايسمحون لغير المسلم بدخول المساجد ، فضلاً عن ملازمتها والتردد عليها ، ولو عرفت حقيقته لقتلهالناس ، وثانيهما الاسباني واسمه سردير ا كان مدير العدلية بتطوان (المنطقة الخليفية) اذ ذاك ، واشتهر بين قضاتها بالفقه ومعرفـة النوازل ، وكان اسمهالاسلامي الذي تنكر به عبدالرحمن ، وظل معروفاً في تطوان باسميهالاسلامي والنصراني : عبد الرحمن سردير ا .

النحو ، مات هذا النحوي الإمام عام ١١٤٢ ، وله على كتاب سيبويه رسائل كثيرة .

وقد قال مؤرخو علي المطغري المتوفي عام ٩٥١ : وقد نيف عن ٨٠ سنة ، أنه ولي الفتيا بفاس ، والتدريس ، والخطابة ، بالقرويين .

وقالوا عن عبد الواحد الونشريسي : أنه جمع بين خطط الولايات الثلاثة : الفتيا بفاس ، والقضاء بها ، والتدريس بالقرويين . فكرسي التدريس بها ، خطة من خطط الدولة ، وولاية من ولاياتها ، والونشريسي هذا ، له العديد من الكتب والمؤلفات ، منها : قواعد مذهب مالك ، وشرح على مختصر ابن الحاجب الفقهي ، في أربعة أسفار ، وشرح مطول على رسالة ابن أبي زيد القيرواني ، مات قتيلاً سنة ٩٥٥ عن نحو ٧٠ عاماً .

طلاب القرويين

والقرويين كانت منذ القديم يرحل إليها الطلاب من الأندلس وأفريقيا ، ويلزم علماءها المئات ، بل الآلاف من الطلبة ، وقد يحضر درس عالم واحد في القرويين ، بضعة آلاف طالب .

ففي القرن الثامن ، كان بين علماء القرويين جماعة أذكر منهم الآن ثلاثة فقط ، كانت كراسي علومهم يحيط بها المئات من طلبة العلم والآلاف منهم ، فيهم من الفقهاء والعلماء ، شبابهم وصغارهم .

فعبد المؤمن الجاناتي ، العلامة الفقيه ، كان يحضر كرسي فقهه أزيد من ٤٠٠ فقيه ، فيهم مائة معمم ، يحفظون المدونة ، وكان لا يعمم إلا من أذن له بالتدريس ، وأجازه به أساتذته ، ولد الجاناتي هذا سنة ٦٧٥ ومات سنة ٧٤٦ .

وعبد الرحمن الجزولي ، الفقيه الحافظ ، كان يحيط بكرسي فقهه ، أكثر

من ألف فقيه ، معظمهم يستظهر المدونة ذات العديد من المجلدات ، كتب طلابه من دروسه على رسالة ابن أبي زيد ، ثلاثة شروح : الكبير المسبع في سبعة أسفار ، والوسط المثلث ، في ثلاثة أسفار ، والصغير المثنى ، في سفرين ، مات سنة ٧٤١ ، عن ١٢٠ عاماً .

والحسن بن منديل المغيلي، الفقيه الحافظ ، المتوفي عام ٨٠٣ ،حضر دروسه الامام زروق فقال عنه : حضرت مجلس ابن منديل بجامع القرويين ، فحزرته بنحو من ثلاثة آلاف رجل .

ومنهم أحمد بن عبد الصمد العبادي ـ نسبة لسعد بن عبادة الأنصاري ـ المحدث ، له كتب ومؤلفات ، منها : الرد على رهبان طليطلة ، وغريب القرآن وناسخه ومنسوخه ، قال عنه ابن فرحون : التزم إسماع الحديث ، والتكلم على معانيه بجامع القرويين ، واستمر على ذلك صابراً محتسباً ، ونفع الله به خلقاً كثيراً ، وكان مجاهداً شجاعاً ، امتحن بالأسر سنة ٥٤٠ ،ثم خلصه الله تعالى، ولد سنة ٥١٩ ومات سنة ٥٨٢ .

ويوسف الأصولي ، العلامة الفقيه المتفنن ، الأديب المتكلم ، كان يقرىء بشرقي القرويين ، وكانت دروسه يرحل اليها الطلبة ، من مختلف مدن المغرب وقراه ، ومن الاندلس ، ولد سنة ٥٥٤ ومات سنة ٦١٤ .

مدارس القرويين

والقرويين حين اكتظت رحابها بالطلبة ، الراحلين لطلب العلم من ديار الاندلس واقريقيا ، وجميع مدائن المغرب وقراه ، ضاقت فاس عن أن تستوعب لهم المنزل والسكن ، ففكرت دولة المغرب ملوك المرابطين ، ثم ملوك بني مرين في حل لذلك ، فاهتدت الى بناء مدارس تكون ملحقة بالقرويين ،

فيها جميع وسائل الراحة لطالب العلم ، من مرافق للسكنى والمطالعة والمدارسة والصلاة ، فتم لهم ذلك في القرن الخامس ، ثم في القرن السابع .

وقد لاحظ ابن مرزوق : ان انشاء المدارس لسكنى الطلبة ، كان في المغرب غير معروف ، حتى أنشأ السلطان المجاهد العابد ابو يوسف يعقوب المريني مدرسة الحلفاويين بفاس عام ٦٧٠ ، ثم أنشأ السلطان ابو سعيد مدرسة العطارين ، ومدرسة البيضاء ، ثم مدرسة الصهريج ، ثم مدرسة الوادي ، ثم مدرسة مصباح ، وكلها في فاس ، ثم أنشأ السلطان أبو الحسن في كل بلد من بلاد المغرب ـ الأقصى والاوسط ـ مدرسة ، في تازة ، ومكناسة ، وسلا ، وطنجه ، وسبته ، وآنفا ، وآزمور ، وآسفى ، وآغمات ، ومراكش ، والقصر الكبير ، والعباد بتلمسان ، والجزائر .

ومفضل العذرى صاحب الشرطة والحسبة ـ مدير الامن ومدير البلدية ـ ، هو أول من سن سنة بناء المدارس بفاس ، اذ على يديه بنى يعقوب المريني مدرسة الحلفاويين .

هكذا يزعم ابن مرزوق ، ولكن المدارس عرفت بفاس قبل ذلك بقرنين ، في الدولة المرابطية ، أيام يوسف ابن تاشفين .

ففي القرطاس : ان أول مدرسة عرفت في فاس ، دار المرابطين لطلبة العلم ، بناها واجاج بن زلو اللمطي .

نعم : لم يتابع بناء المدارس ، وتنتشر إلا في القرن السابع أيام الدولة المرينية .

فكانت هذه المدارس لطلبة القرويين هي الحي الجامعي كما يقال له اليوم ، وعن القرويين أخذت أوربا فكرة الحي الجامعي بعد ذلك ، وكان لكل طالب عدا السكنى خبزة في اليوم تزن رطلاً مغربياً ، وهو يعادل رطلاً مصرياً .

وقد ذكر أكلينار البلجيكي وكان طالباً في القرويين عام ٩٤٨ ، ان فاس كان بها من المدارس مائتا مدرسة .

فمن هذه المدارس التي لاتزال قائمة الى اليوم ، مدارس للقرويين ، ومتاحف رائعة ، تسر الناظرين ، على كر القرون والاجيال .

مدرسة المرابطين : بناها يوسف بن تاشفين المرابطي ، على يدي واجاج بن زلو اللمطي . ويوسف عاش تسعين عاماً من ٤١٠ - ٥٠٠ وملك المغرب والاندلس نحواً من أربعين عاماً .

مدرسة الصابرين : هي مدرسة المرابطين ، التي شادها ابن تاشفين .

مدرسة ابى مدين : هي مدرسة الصابرين ، ومدرسة المرابطين قديماً ، واقتصر اسمها حديثاً على مدرسة ابى مدين .

مدرسة الحلفاويين : شادها سلطان المغربين الاقصى والاوسط والاندلس ، المجاهد ابو يوسف المريني عام ٦٧٠ على يدي صاحب شرطته وحسبته ، مفضل العذرى ، واوقف عليها الأوقاف ، وأجرى على طلبتها المرتبات ، ولما قدم عليه سنة ٦٨٤ في الجزيرة الخضراء بالاندلس ، الطاغية سانجة الاسباني متوددا ، وملتمساً منه الهدنة والمسالمة ، كان مما شرط عليه السلطان أبويوسف ، أن يبعث إليه بكتب العلم التي بأيدي النصارى ، منذ استيلائهم على المدن الاندلسية ، فبعث اليه منها ثلاثة عشر حملاً ، فيها جملة من المصاحف الكريمة ، وتفاسير القرآن كابن عطية والثعلبي ، وفيها جملة من كتب الحديث ، وشروحها كالتهذيب والاستذكار ، وفيها كتب من الاصول والفروع واللغة والعربية ، وغير ذلك ، فأمر السلطان بحملها الى فاس ، وتحبيسها على مدرسة الحلفاويين التي أسسها لطلبة العلم . قال الناصري في الاستقصا :

واقتفى أثره بنوه بعده ، فاستكثروا من بناء المدارس العلمية ، ورتب فيها الطلبة لقراءة القرآن ، والفقهاء لتدريس العلم ، وأجرى عليهم المرتبات ، والمؤن في كل شهر ، وحبّس عليها الرباع والضياع .

مدرسة الصفارين : هي مدرسة الحلفاويين ، وتعرف اليوم بمدرسة الصفارين فقط .

مدرسة العطارين : بناها السلطان أبو سعيد المريني عام ٧٢٣ ، فجاءت من أعجب مصانع الدول ، قال مؤرخوها : بحيث لم يبن ملك قبله مثلها ، وشحنها بالطلبة ، ورتب فيها إماماً ، ومؤذنين ، وقيمين بأمرها ، ورتب فيها الفقهاء لتدريس العلم ، واجرى على الكل المرتبات ، والمؤن فوق الكفاية ، واشترى عدة أملاك وأوقفها عليها .

مدرسة البيضاء : أمر ببنائها السلطان ابو سعيد المريني كذلك عام ٧٢٠ ، فبنيت أتقن بناء واحسنه ، ورتب فيها الطلبة لقراءة القرآن ، والفقهاء لتدريس العلم ، وأجرى عليهم المرتبات والمؤن في كل شهر ، وأوقف عليها الرباع والضياع . وجددها السلطان محمد بن عبد الله العلوي المتوفى سنة ١٢٠٤ .

مدرسة المدينة البيضاء : هي مدرسة البيضاء .

مدرسة فاس الجديد : هي مدرسة البيضاء ، سميت باسم المدينة المرينية ، التي بناها ملوك بني مرين ملحقة بفاس ، فكانت تسمى في أيامهم بالمدينة البيضاء وهي اليوم ومنذ اجيال لاتسمى إلا بفاس الجديد .

مدرسة الصهريج : بناها السلطان ابو سعيد المريني ايضاً ، ثم ساق اليها ابو الحسن المريني بيلة الرخام الابيض ، المجلوبة من المرية بالاندلس ، زنتها ثلاثة واربعون ومائة قنطار . وجددها السلطان محمد بن عبد الله العلوي المتوفى سنة ١٢٠٤ .

مدرسة الرخام: بناها السلطان ابو الحسن المريني ، المتوفي سنة ٧٥٢، ونقل اليها البيلة المجلوبة من المرية ، لمدرسة الصهريج ، بعد وضعها فيها بأعوام .

مدرسة مصباح : هي مدرسة الرخام ، سميت بمدرسة مصباح لان اول من درس فيها ، مصباح بن عبد الله الياصلوني ، الفقيه الحافظ المفتي ، المتوفي سنة ٧٥٠ .

المدرسة المصباحية : هي مدرسة مصباح ، ولا تسمى اليوم الا بالمدرسة المصباحية ، وترك اسم مدرسة الرخام ، واسم مدرسة مصباح ، الا في كتب التاريخ .

المدرسة العنانية : بناها السلطان ابو عنان المريني فارس المتوكل على الله ، العلامة الاديب ، ولما تم بناؤها العجيب المدهش ، اعطاه القائم عليها قائمة بالمصاريف ، فرأى مالاً كثيراً ، فأخذ القائمة ورماها في النهر ، وانشد :

ليس لما قرت به العين ثمن لا بأس بالغالي اذا قيل حسن

وامر بصنع الساعة الشمسية المقابلة للمدرسة ، صنعها الفلكي الموقت ابو الحسن علي بن احمد التلمساني المعدل عام ٧٥٨ .

وقد جددها السلطان سليمان العلوي ، المتوفي سنة ١٢٣٨ .

المدرسة المتوكلية : هي المدرسة العنانية ، ولا تعرف اليوم الا بالمدرسة العنانية .

مدرسة ابي عنان : هي المدرسة العنانية .

مدرسة جامع الاندلس : بناها ابو الحسن المريني ايام ولايته لعهد السلطان ابي سعيد المريني عام ٧٢١ ، فجاءت على اكمل الصفات واعجبها ، وبنى حولها

سقاية ، وداراً للوضوء ، وفندقاً لطلبة العلم ، وانفق على ذلك اموالاً جليلة ، تزيد على مائة الف دينار ، وشحنها بطلبة العلم ، وقراء القرآن ، وأوقف عليها رباعاً كثيرة ، ورتب فيها الفقهاء للتدريس ، واجرى عليهم النفقة والكسوة .

مدرسة الوادي : انشأها السلطان ابو سعيد المريني عام ٧٢٣ ، ثم جددها السلطان سليمان العلوي المتوفي سنة ١٢٣٨ .

مدرسة الشراطين : انشأها السلطان الرشيد العلوي ، وقد ولدعام ١٠٤٠ وبويع عام ١٠٧٦ ومات سنة ١٠٨٢ .

مدرسة باب الجيسة : شادها السلطان محمد بن عبد الله العلوي المتوفي سنة ١٢٠٤ .

مدرسة بريمة : شادها السلطان محمد بن عبد الله العلوي .

مكتبة القرويين

مكتبة القرويين اسسها سنة ٧٥٠ السلطان ابو عنان المريني ، قال ابن القاضي في الجذوة : ملأها بكل نفيس من العلوم ، كعلوم الاديان ، والابدان ، والاذهان ، واللسان ، وغيرها من العلوم على اختلاف انواعها .

وضمت اليها مكتبة السلطان يوسف الموحدي ، وقد كانت له مكتبة عني بجمعها من اقطار الدنيا ، وجمع لها كل ذخيرة ونفيسة من الكتب ، فقد ذكر المراكشي في المعجب : ان يوسف لم يزل يجمع الكتب من اقطار الاندلس والمغرب ، ويبحث عن العلماء ، وخاصة اهل النظر ، الى ان اجتمع له منهم ما لم يجتمع لملك قبله من ملوك المغرب .

وبلغت مكتبة القرويين بضم مكتبة الموحدين لها ، من كنوز الكتب ولآليها ، كثرة وقيمة ، ما اصبحت تضاهي به مكتبة الخليفة الاموي الحكم

الثاني الاندلسي ، وقد ذكر غوستاف لوبون في حضارة العرب : ان مكتبة الحكم الثاني اشتملت على ستمائة الف مجلد ، في حين ان شارل الفرنسي الموصوف عند قومه بالحكيم ، لم يستطع ان يجمع بعد ذلك العصر بأربعة قرون ، في المكتبة الوطنية بفرنسا اكثر من تسعمائة مجلد .

وضمت كتب السلطان أبي يوسف المريني لمكتبة القرويين ، الكتب التي اشترطها على طاغية الإسبان سانجة ، حين عرض على أبي يوسف المثول بين يديه في الجزيرة الخضراء بالأندلس ، فكانت ثلاثة عشر حملا سيقت إليه من المدائن الأندلسية المحتلة ، فأوقفها على مدرسة الحلفاويين حين شادها - مدرسة الصفارين اليوم - ثم جمعت الى مكتبة القرويين .

ثم ضمت المكتبة المنصورية في القرن العاشر لمكتبة القرويين ، وهي التي أسسها السلطان أحمد المنصور الذهبي ، وكان له سفراء يجمعون له الكتب من مختلف ديار العالم الإسلامي ، اسطمبول ، ومصر ، والشام ، وغيرها ، وكان له وكلاء من أهالي هذه البلاد ، يستوردون له منها ما يريده من الكتب ، منهم الرئيس الأديب محمد الأمين الدفتري .

وقد قدرت كتب مكتبة القرويين في آخر القرن الماضي ، بثلاثين ألف مجلد . وهي معروضة ولا تزال على كل طالب علم ، من القرويين أو غيرها ، وعلى كل راغب في البحث والإطلاع والتدوين والتأليف ، من داخل البلاد أو خارجها ، تكون المكتبة بقيمها ، وكتبها ، وخدمها ، في خدمة الجميع وتحقيق رغباتهم .

مجتمع القرويين

والقرويين كانت لمدة ألف عام أو تزيد ، هي المصنع الذي تستورد منه

الدولة المغربية، جميع أجهزتها وإطاراتها، فمن علماء القرويين كانت ملوك الدولة، ومن علمائها كان الوزراء والسفراء، والولاة، والمحتسبون، والمشاورون، وما إلى ذلك، من كل منصب رفيع.

وبعلماء القرويين خلد الاسلام في المغرب، أحد عشر قرنا، وخلدت العربية كذلك، وبعلماء القرويين دامت الثقافة الاسلامية، وعلوم الاسلام في المغرب وبهم دامت حضارة العرب، وعلوم العربية كذلك.

فمن علماء القرويين كان المجاهدون والمحاربون، ومنهم كان ولا يزال الثائرون على الظلم والظالمين، والمجاهرون بكلمة حق عند سلطان جائر، ومنهم أئمة الاجتهاد في الاسلام، وأئمة التفسير والحديث والفقه، وسائر علوم الاسلام والعربية، ومنهم كان الفلاسفة والأطباء والمهندسون، ومنهم كان ولا يزال الخطباء والكتاب والشعراء والمؤلفون.

وعلماء القرويين منهم كانت قادة الشعب المغربي، يقودونه للعزة والمجد، ولمثل الاسلام والعروبة العليا، من شهامة وإباء وعلاء، يقودونه لذلك على مر العصور والأعوام، وبعلماء القرويين ذلت غزاة المغرب قديماً وحديثاً، من إسبان وبرتغال وانكليز وفرنسيين وغيرهم.

وعلماء القرويين كان مقامهم بين الشعب والدولة أعلى مقام، إليهم تتقرب ملوك المغرب بالتلمذة والزيارة والخضوع، فنصائحهم حكم، وصيحتهم حرب، فكم أطاحوا قديماً وحديثاً من عروش ارتدت أو خانت، وكم أزهقوا من أرواح لكل من تحدثه نفسه من الملوك فمن دونهم، بالانحراف عن الاسلام، وبالتنكر للعربية، وبالتهاون في الدفاع عن الوطن، أو الدفاع عن تراثه، من عقيدة ولغة وحضارة.

ملوك القرويين

ملوك المغرب إما أنهم من طلاب القرويين ، ثم من علمائه ، وإما ممن يلزم علماء القرويين ، مستنصحاً ومستهدياً ومتأدباً ، يزورهم لبيوتهم ، ويحضر مجالس علمهم في القرويين ، يعودهم إذا مرضوا ، ويسترضيهم إذا غضبوا ، ويشيعهم إذا ماتوا ، يفرح لفرحهم ، ويبكي لبكائهم ، يفعلون ذلك معرفة بحقهم ، او تقرباً للشعب .

فمن ملوك علماء القرويين :

ملوك الدولة المرينية ، أبو سعيد عثمان بن يعقوب ، المجاهد صاحب الأساطيل التي كانت تمخر عباب البحرين المحيط والمتوسط ، كان يحضر في القرويين دروس الفقيه أبي الحسن الصغير ، ولد سنة ٦٧٥ ومات سنة ٧٣١ .

وأبو عنان فارس المتوكل على الله ، كان فقيهاً مناظراً ، عارفاً بالمنطق ، وأصول الدين ، وكان مفسراً محدثاً ، وكاتباً شاعرا ، من اساتذته محمد بن ابراهيم الأبلي ، الإمام الفيلسوف المجاهد ، المولود سنة ٦٨١ والمتوفي سنة ٧٥٧ ، وقرأ الحديث والتجويد ، على محمد بن عبد الرزاق الجزولي ، العلامة المربى ، والقاضي الرحالة ، والفقيه المحدث ، المتوفي سنة ٧٥٨ ، وقرأ التجويد على محمد بن ابراهيم الصفار ، إمام القراآت ، صاحب التآليف في علومها ، كان يعارضه القرآن برواياته السبع ، ومات سنة ٧٦١ ، قتل أبا عنان وزيره الحسن ابن عمر الفودودى غطاً وغماً وهو مريض ، سنة ٧٥٩ وسنه لاتزيد على ثلاثين عاماً ، وبقي سلطاناً عشر سنين .

وعبد العزيز المنتصر بالله ، الفارس المجاهد ، كان يحضر دروس التفسير والحديث ، وكان يقرض الشعر ويحب سماعه ، مات سنة ٧٩٩ .

وملوك الدولة المرينية وصفهم مؤرخهم : بانهم كانوا من أحسن الملوك سيرة وسياسة ونباهة ، وكان فيهم الفقهاء ، والملازمون لمجالسة العلماء ، وكانوا مقر العلوم والأخبار المشرقية والمغربية ، ومحل اجتماع دائرة العلم الذي عليه المدار ، قالوا : ولذلك استفحل ملكهم ، وطالت دولتهم ، وعظمت صولتهم ، وعدد ملوكهم ثمانية وعشرون ملكاً ، ومدة دولتهم بضع وخمسون ومائتا عام .

وملوك الدولة السعدية ، احمد الاعرج بن محمد القائم بأمر الله ، المجاهد المحرر ، قد شن الغارات على العدو المحتل للشواطىء المغربية في القرن العاشر ، الاسبان والبرتغال وغيرهم ، كان عالماً مدرساً في القرويين قبل الملك ، وكان ذا كرسي راتب فيه لتدريس العلم ، ولد سنة ٨٩١ ومات سنة ٩٥١ .

واحمد المنصور الذهبي المجاهد الفاتح ، كان عالماً متضلعاً في التفسير والحديث والفقه ، وعلوم الآلة من أصول وعربية ، مع معرفة الهيئة والهندسة ، والجبر والمقابلة ، والتعديل والتاريخ والادب ، له شعر ونثر ، ومؤلفات منها كتاب السياسة ، وله اجوبة علمية جيدة مدونة ، ولد سنة ٩٥٦ ومات سنة ١٠١٢ ، قرأ في القرويين على عبد الواحد الحميدي ، واحمد القدومي ، ويحيى السراج ، واحمد المنجور ، ورضوان الجنوي ، وسقين ، عده القصار من المجددين للاسلام على رأس القرن العاشر ، خصه بالتأليف ابن القاضي في كتاب سماه : المنتقى المقصور على مآثر خلافة المنصور ، والف فيه كذلك مفرداً له بكتاب محمد بن احمد بن عيسى الكاتب ، سماه : الممدود والمقصور من سنا السلطان ابي العباس المنصور .

وملوك دولتنا العلوية الحاضرة ، الرشيد بن الشريف ، كان يحضر دروس الحسن اليوسي ، الامام الحافظ المؤلف ، وقد عده معاصروه ومترجموه : مجدد الاسلام في القرن الحادي عشر ، مات سنة ١١٠٢ ، وقد طلب الرشيد اليوسي لقصره ليقرأ عليه فامتنع ، وقال : العلم يوتى ولا يأتى ، فاستجاب له ، وذهب

إليه ليحضر دروسه في القرويين ، ولد الرشيد سنة ١٠٤٠ ومات سنة ١٠٨٢ .

ومحمد بن عبدالله ، العلامة المؤلف المجاهد الفاتح ، حرر مدينة الجديدة من الاحتلال البرتغالي ، وطرد البرتغال الى البحر ، وأسس كثيراً من المساجد والمدارس ، وشاد عدة قناطر ، وبنى مدينة الصويرة، مات سنة ١٢٠٤ .

وسليمان بن محمد، العلامة الفقيه الداعية، لازم القراءة وطلب العلم في القرويين سنوات ، فقرأ الحديث والفقه ، والعربية والبيان والمنطق ، على عبد القادر ابن شقرون ، المتوفى سنة ١٢١٩ ، واعتمده فيها ، وقرأ النحو والفقه والحساب والفرائض، على محمد بن احمد بنيس ، المولود سنة ١١٦٠ والمتوفى سنة ١٢١٣ ، وقرأ على محمد بن طاهر الهواري ، المتوفى سنة ١٢٢٠ ، النحو والادب والبيان والمنطق ، وقرأ على محمد بن مسعود الطرنباطي، المتوفى سنة ١٢١٤ ، الادب والعربية والفقه ، وقرأ على محمد بن عبدالسلام الفاسي ، المتوفى سنة ١٢١٤ ، عن نحو ٨٥ عاماً ، التجويد وعلم القراآت وغيرها ، وقرأ علي الطيب بن كيران ، المولود سنة ١١٧٢ والمتوفى سنة ١٢٢٧ ، واعتمده في علوم البلاغة والمنطق ، والعربية والتصريف ، وقرأ على محمد بن عمر الزروالي المتوفى سنة ١٢٣٠ الفقه والحديث ، والبيان والاصول والتصوف ، وقرأ النحو والادب والفقه ، على محمد بن عامر التادلي ، المتوفى سنة ١٢٣٤ ، كما قرأ على حمدون ابن الحاج ، والتاودي ابن سودة ، وغيرهم من اعلام القرويين ، ولد سليمان سنة ١١٨٠ وبويع سنة ١٢٠٦ ومات سنة ١٢٣٨ .

ومن الملوك المتأدبين مع علماء القرويين :

محمد بن علي الكتاني، قال عنه الحاتمي في الفتوحات :رأيت أبا عبد الله الكتاني بمدينة فاس ، إماماً من أئمة المسلمين في أصول الدين والفقه . توفى سنة ٥٩٧ ، وشهد أمير المؤمنين جنازته ، وينسب له كتاب المستفاد ، في مناقب الصالحين والعباد ، من مدينة فاس وما والاها من البلاد ، وانما هو لمحمد بن قاسم التميمي .

وعبد الرحمن الجزولي ، الفقيه الحافظ ، المتوفي سنة ٧٤١ ، كان السلطان أبو الحسن المريني إذا لقيه ، نزل له عن فرسه إجلالاً له .

وإبراهيم التسولي ابن أبي يحيى ، الفقيه الحافظ ، والسفير المؤلف ، كان يزوره السلطان في منزله ، مات سنة ٧٤٨ .

وعمر الرجراجي ، العلامة الرحالة المؤلف ، الزعيم الآمر بالمعروف والناهي عن المنكر ، كان يقيم الحدود على من لا تجرؤ الولاة على إقامتها عليه ، فتناصره الأمة على ذلك خاصة وعامة ، وكان يتفقد شؤون القضاة وولاة الأوقاف ، ويغير منهم من لا يصلح لعمله ، فتطيع العامة أمره ، وتنفذ إصلاحه ، معلناً بكلمة الحق ، لا تأخذه في الله لومة لائم ، وكان السلطان يمتثل أمره ، ويزوره ويعظمه ، مات سنة ٨١٠ .

اليسيتني أبو عبد الله محمد بن أحمد ، الفقيه الحافظ الرحالة ، مفتي فاس ، وقد مضت كلمة عنه في (فلكيو القرويين) وأن السلطان محمد الشيخ السعدي بكى حين بلغته وفاته ، وحضر جنازته ودفنه وهو يبكي .

وأبو القاسم ابن أبراهيم ، العلامة المفسر ، المولود سنة ٨٩٦ والمتوفي سنة ٩٧٨ ، حضر جنازته السلطان محمد المتوكل السعدي .

ومحمد أبو شامة ابن ابراهيم ، الفقيه العلامة ، حضر جنازته السلطان ، وقد مضت كلمة عنه في (خطباء القرويين) .

وأبو القاسم الحساني ابن خجو ، الفقيه الحافظ ، المفتي المؤلف ، الزعيم الآمر بالمعروف والناهي عن المنكر ، من لا يخاف في الله لومة لائم ، حضر السلطان محمد الشيخ السعدي جنازته ، مات سنة ٩٥٦ .

ورضوان الجنوي ، من قيل عنه : أنه ابن حنبل فقهاً وحديثا ، و لجنيد معرفة وتصوفاً ، حضر جنازته السلطان ، ولد سنة ٩١٠ ومات سنة ٩٩١ .

وعثمان اللمطي ، العلامة الأديب ، المولود سنة ٨٨٨ والمتوفي سنة ٩٥٤ ، حضر جنازته السلطان .

ومحمد ابن غازي ، العلامة المجاهد ، المؤلف في الحديث والتاريخ ، وفي الفقه على مختصر خليل والمدونة ، المولود سنة ٨٥٨ والمتوفي سنة ٩١٩ ، حضر جنازته السلطان ووجوه دولته ، مضت كلمة عنه في (خطباء القرويين) .

وعلي المطغري أبو الحسن ابن هارون ، مدرس القرويين ، ومفتي فاس ، مات سنة ٩٥١ وقد نيف على ٨٠ عاماً ، حضر لدفنه السلطان أحمد الوطاسي ، وقد مضت عنه كلمة في (خطباء القرويين) .

ويحيى الشفشاوني ، العلامة الصالح ، زاره السلطان سليمان العلوي في داره بالدرب الطويل ، مات سنة ١٢٢٨ .

وعبد القادر ابن شقرون ، العلامة المؤلف القاضي ، عاده السلطان سليمان العلوي في داره وهو مريض ، ولما توفي حضر لجنازته والصلاة عليه ، وظل قائماً على قبره إلى تمام دفنه ، مات سنة ١٢١٩ .

واحمد ابن سودة ، العلامة القاضي ، المتوفي سنة ١٢٣٥ ، عاده في داره وهو مريض السلطان سليمان العلوي .

وعبد الهادي العلوي ، العلامة القاضي ، شارح (تيسير الوصول إلى جامع الأصول) لأبن الديبع ، صاهره السلطان عبد الرحمن العلوي بابنته خديجة ،

وحين مات سنة ١٢٧٢ ، حضر لجنازته السلطان محمد بن عبد الرحمن العلوي – وهو ولي العهد – ومعه وجوه الدولة .

مجاهدو القرويين

وعلماء القرويين كانوا قدوة الأمة في حالهم ومقالهم ، لا يضنون ببذل أرواحهم في سبيل الله ، ولا يرون لدمائهم شأناً إذا طلبت الأمة منهم إراقتها ، ذوداً عن الاسلام ، ودفاعاً عن الأوطان ، وسحقاً لكل عدو محتل ، وكل باغ يريد الشقاق ، وكل دخيل منحل الخلق ، أو متحلل العقيدة ، يريد بالأمة فتنة تدع الحليم فيهم حيران .

فمن هؤلاء المجاهدين :

دراس بن اسماعيل أبو ميمونة ، الفقيه الرحالة ، والمحدث الحافظ ، دخل الأندلس مرات طالباً للعلم ، ومجاهداً للعدو ، مات سنة ٣٥٧ .

وأحمد العبادي ، المحدث المؤلف الداعية ، كان مجاهداً شجاعاً ، امتحن بالأسر ، ثم خلصه الله تعالى ، مضت كلمة عنه في (طلاب القرويين) .

ومحمد بن ابراهيم الأبلي ، الامام الفيلسوف المتفنن ، شيخ السلطان أبي عنان المريني ، حارب في معركة طريف بالاندلس ، ومعركة القيروان مع السلطان أبي الحسن المريني ، قال عنه المقري : هو عالم الدنيا ، مضت عنه كلمة في (ملوك القرويين) .

وعبد الله الورياجلي ، العلامة الامام ، شدت إليه الرحال لطلب العلم ، كاد يبلغ درجة الاجتهاد أو قد بلغها ، كان يقرىء الفقه بالمذاهب الأربعة ، ويقارن بين المذاهب ، ويرجح مذهب مالك بالدليل ، ولا يعني إلا بخلاف الأئمة المجتهدين ، ويترك الخلاف داخل المذاهب ، كان يرابط في الثغور للجهاد ، وحراسة المسلمين وأوطانهم من العدو ، وينشر العلم بين الطلاب ، ويربي المريدين وهو مرابط ومجاهد ، مات سنة ٨٩٤ ، كان من عادته أن يشتغل

بالتدريس في فصلي الشتاء والربيع ، ويخرج في الصيف والخريف فيرابط في ثغور القبائل الهبطية .

وابن غازي محمد بن أحمد ، الفقيه العلامة ، جاهد مع السلطان محمد الشيخ الوطاسي في مرسى أصيلا ، إلى أن رمى العدو الاسباني إلى البحر وحررت المدينة ، ولد سنة ٨٥٨ ومات سنة ٩١٩ ، مضت عنه كلمة في (خطباء القرويين).

وابن القاضي أحمد ، العلامة الفقيه ، والمهندس المؤلف ، جاهد حتى أسره النصارى ، وظل أسيراً عندهم نحواً من سنة ، في بلاء عظيم من الجوع والبرد والضرب الشديد وتكليفه بما لا يطاق ، حتى افتداه منهم السلطان المنصور السعدي بنحو عشرين ألف أوقية (فضة) ، وهو صاحب المؤلفات : (المنتقى المقصور على محاسن الخليفة أبي العباس المنصور) و (جذوة الاقتباس فيمن حل من الأعلام مدينة فاس) و (درة الحجال في أسماء الرجال) و (غنية الرائض في طبقات أهل الحساب و الفرائض) و (درة السلوك فيمن حوى الملك من الملوك) و (المدخل إلى علم الهندسة) وله غيرها ، مات سنة ١٠٢٥.

ومحمد بن علي القنطري ، المفسر المحدث الحافظ ، والأديب الشاعر ، كان فارساً مجيداً للفروسية ، وظل ملازماً للجهاد وهو يبلي فيه البلاء الحسن ، إلى أن استشهد في المعركة ، ولد سنة ٩٦٠ ومات سنة ١٠١٨ .

وابن عاشر عبد الواحد ، الفقيه الحافظ ، الرحالة المؤلف ، صاحب المنظومة الفقهية الشهيرة : المرشد المعين على الضروري من علوم الدين ، لزم الجهاد وحضر المعارك مرات ، ولد سنة ٩٩٠ ومات سنة ١٠٤٠ .

وأحمد القادري ، المؤرخ الأديب ، والشاعر الكاتب ، والعابد الرحالة ، كان شجاعاً فارساً ، إشتهر بالنجدة والأريحية ، لا تخلو داره من الأسلحة المتنوعة ، ولا يرى إلا وهو متقلد سلاحه ، له رحلة ، ومؤلفات ، ولد سنة ١٠٥٠ ومات سنة ١١٣٣ .

إدريس بن الطائع الكتاني، جدجدي محمد بن جعفر رحمهم الله، الفقيه العدل المجاهد، حضر معركة تطوان ضد العدو الاسباني، أيام دولة السلطان محمد بن عبد الله العلوي، فقاتل قتالاً شديداً إلى أن سقط جريحاً في المعركة، فأمره العدو، ثم فادى به السلطان صلحاً، وظلت جراحاته تنتابه وتعاوده إلى أن استشهد بها سنة ١٢٨١، قال في (الشرب المحتضر في رجال القرن الثالث عشر): وحضر معه المعركة أخوه المنتصر بالله، العابد العارف، فقاتل قتاله وأبلى بلاءه، واعتبط شاباً حصوراً سنة ١٢٧٨، رحمه الله.

ثوار القرويين

ثورة علماء القرويين هي ثورة الحق على الباطل، هي ثورة لله يبذلون لها النفس والنفيس، هم حراس التراث الذي خلفه عقبة وابن نصير وادريس، من دين ولغة وحضارة، فكل من حاول من مرتد أو خئون، أن يمس هذه المبادىء، التي هي للأمة بمثابة الأرواح تسري في الأشباح، والتي هي بمثابة الدماء تجري في العروق، كل من أراد أن يمس هذه المبادىء بسوء، الا ويهب علماء القرويين في وجهه هبة الآساد، يذيقونه الصاب والعلقم، ثم يرمون به رمي الجيف على المزابل، فكم أذلوا من دول، وخلعوا من عروش، وأطاحوا من رؤوس، كانت يوماً ما محسوبة عليهم ومعدودة فيهم، لتواطئها مع الخونة من الملوك، وخروجها عن صف العلماء، وانحرافها عن طريقتهم المثلى، وكمثال لذلك، سأكتفي بعرض ثلاث شخصيات، تمثلت فيهم تلك المثل والمعاني، اثنتان من علماء القرويين في القديم، وثالثة من علماء القرويين في الحديث.

فمن تاريخ القرويين في القديم :

ابن القاضي محمد بن أبي القاسم ، فقيه القرويين وعالمها ، الرحالة الفلكي ، صاحب المؤلفات ، لم تشفع فيه نسبته لعلماء القرويين ، ولم يفلته ثوار القرويين حتى وهو فوق كرسيه يدرّس العلم بها ، حين انحرف عن أخلاق العلماء ، وحاد عن مذهبهم ، فمالأ الخيانة فوافق على تسليم جزء من الوطن للعدو المحتل ، وتواطأ مع ملك خائن على تمكين الأعداء الاسبانيين من احتلال مرسى العرائش ، هذا الملك هو السلطان محمد الشيخ الوطاسي ، فكان أن ثاروا عليه في القرويين بعد أن قام من مجلس تدريسه عشاء ، سنة ١٠٤٠ وقتلوه ، قال في نشر المثاني : وسبب قتله ما اتهم به من موافقته على تمكين النصارى من ثغر العرائش ، إذ كان حضر مع من استدعى محمد الشيخ لذلك من العلماء .

وعبد العزيز الورياجلي ، العلامة مفتي فاس ، خطيب القرويين وإمامها ، وقد مضت عنه كلمة في (خطباء القرويين) كان آمراً بالمعروف ناهياً عن المنكر ، جلداً في الدعوة إلى الله ، صلباً في الحق ، لا يهاب أحداً في الله ، ولا تأخذه فيه لومة لائم .

الورياجلي هذا عاصر السلطان عبد الحق المريني ، فرآه يتخذ أشد الناس عداوة للذين أمنوا : اليهود ، وليجة من دون الله ورسوله والمؤمنين ، فاختار لنفسه منهم وزيرين ، هما : هارون ، وشاويل ، رغبة منه في التنكيل بالمسلمين وإذلالهم ، فطغا اليهوديان وبغيا ، وشرعا في اضطهاد أهل فاس ، وضربهم ومصادرة أموالهم ، وملأ وزارتيهما باليهود ، فانتفخوا بها إنتفاخ الضفادع ، وانتفشوا إنتفاش الظرباء ، وطفقوا يتحكمون في السادة من الأشراف والعلماء كما يتحكمون في الضعاف من النساء والأطفال ، مقتفين طريقة وزيريهم اليهوديين ، في اضطهاد المسلمين وإذلالهم ، وطفح الكيل يوماً حين عمد وزير

منها إلى امرأة من فاس ، شريفة في قومها ، فقبض عليها ، ورمى بها أرضاً ، وأخذ يلهب جسدها بالسياط ، وهي تستغيث برسول الله ، والوزير اليهودي لا تزيده استغاثتها ، وذكرها لرسول الله ، إلا غيظاً وحنقاً ، فيزيدها ضرباً وعذاباً ، فثار من حضر ذلك من المسلمين ، وفزعوا الى علمائهم مستنجدين .

ففزع لهم وأنجدهم عبد العزيز الورياجلي ، وقال : أنا لها ، فالتفّت الجموع من الشعب حوله ، وتقدم بهم الى حي اليهود ، في حملة تأديبية زاجرة ، فقتلوا رؤوس الفتنة منهم ، وصادروا أموالهم ، واعتقلوا الوزير اليهودي ضارب المرأة ، ثم تقدم بهم الورياجلي الى القصر الملكي ، فاحتله بهم ، واعتقل ساكنه السلطان المريني ، وانتظم وزيره اليهودي المعتقل في رمح بمحضر سلطانه ، وقيل للسلطان: الى متى ونحن في تحكم اليهود، واتباع أمرهم ،والعمل بإشارتهم ؟ ثم تعاورت اليهودي الرماح من كل جانب ، فخر صريعاً لليدين وللفم .

ثم تقدم الورياجلي الى السلطان يعقوب المريني ، فاعتقله بين تكبير الجماهير الغاضبة وتهليلهم ، قائلاً له : ليس لك بعد اليوم اختيار في نفسك ، فاستسلم له مهاناً ذليلا ، فاركبه على بغل ، ونزلت به الجماهير من قصره في خارج البلد ـ فاس الجديد ـ مسوقاً الى داخل فاس ، في يوم مشهود حضره الناس من كل حدب وصوب .

وحين توسط الورياجلي فاس ، أعلن خلع السلطان المريني ، بين هتاف الجماهير بذم السلطان والتشنيع عليه ، ثم نادى الورياجلي ببيعة كبير العائلة الإدريسية ونقيبها محمد بن علي الشريف الادريسي ، خليفة نبوياً وأميراً للمؤمنين ، فصاحت الجموع التي مع الورياجلي ببيعة الإدريسي ، والدعاء له بالنصر والتأييد ، ثم ذهبت الجماهير الى بيت السلطان الجديد محمد بن علي الادريسي ، فجددوا له البيعة ، وحيوه بتحية الخلافة ، وخرجوا به في موكب

حافل على ملأ من النـاس ، ثم حمل السلطان المخلوع فوضع بين يديه ، فتولى السلطان الادريسي نزع خاتم الملك وشعار الخلافة من يده، ثم جنّب الى مصرعه، فضربت عنقه يوم جمعة ، في يوم ليلة القدر ، من رمضان سنة ٨٦٩ ، وبهلكه انقرضت دولة المرينيين ، وبقى الادريسي سلطاناً على المغرب الى عام ٨٧٥ .

وذهب السلطان عبد الحق المريني مثلاً في الآخرين ، لكل من سولت له نفسـه من الملوك فمن دونهم أن يعز من أذل الله ، أو أن يجعل للكافرين على المؤمنين سبيلاً ، فيكون مصيره مصيرهم ذلاً وهواناً . فترى الذين في قلوبهم مرض ، يسارعون فيهم ، يقولون نخشى أن تصيبنا دائرة ، فعسى الله أن يأتي بالفتح ، أوامر من عنده ، فيصبحوا على ماأسروا في أنفسهم نادمين . اؤلئك الذين لعنهم الله ، ومن يلعن الله فلن تجد له نصيراً . وإذ تـأذن ربك ليبعثن عليهم إلى يوم القيامة من يسومهم سوء العذاب .

ومن تاريخ ثورة القرويين في الحديث :

محمد بن عبد الكريم الخطابي ، الامير الفقيه القاضي ، درس في القرويين سنوات، هو وأخوه الأمير محمد بن عبد الكريم ، وكان ساكناً في مدارسها (حي القرويين الجامعي) ثم والى قضاء مدينة مليلية سنوات، ثم ثار في جبال الريف على الاحتلال الاسباني ، فأصلى العدو الاسباني ناراً حامية مدة خمس سنوات ، إلى أن طرده للسواحل ، مذيقاً اسبانيا وجيشها المكون من مائتي الف محارب ، مرارة الهزيمة والفرار ، وذل الأسر والاندحار ، ولولا تدخل فرنسا العدو المحتل لباقي المغرب ، لكان للمغرب وشمال افريقيا، ثم لبلاد العرب تاريخ حديث غير هذا التاريخ ، فكان الأمير محمد بن عبد الكريم أول من ثار من العرب على الاحتلال الأوربي، وكانت ثورة الريف أول ثورة عربية على الصليبية الأوربية في العصر الحديث ، ولما تتابعت الثورات العربية بعد ثورته ، وقد

أسس أول جمهورية عربية في ديار العرب ، وأول جمهورية اسلامية في ديار المسلمين ، فكان بذلك أول رئيس جمهورية عربية ، وأول رئيس جمهورية اسلامية ، كل ذلك بمؤازرة أخيه الأمير محمد القائد العام لجيوش جمهورية الريف وبمشاركته .

ولقد صدق الرئيس جمال عبد الناصر حين أعلن مرات : في كتاباته وخطبه أن الاحتلال الأوربي لديار العرب والمسلمين ، ان هو إلا امتداد للحروب الصليبية .

في سعير معارك الحرب الريفية ، رحل ملك اسبانيا اذ ذاك الفونس الثالث عشر ، ومعه جنرالاته الأهوج بريمودى ريفيرا ، إلى الفاتيكان فمثلا بين يدي بابها ، وخطب الملك أمامه خطاباً ، يستغيث به ويستنجده لحرب الاسلام في الريف ، مما جاء فيه : إن اسبانيا أيضاً — أي كأوربا كلها — قد تجندت لحرب المسلمين فى افريقيا ، حرباً لاتنفك عنها حتى تفوز بغرس الصليب في ديار المسلمين ، وتجعل أتباع محمد يخنعون له قهراً . ورد هذا بالنص في (مجلة المجلات) الانكليزية ، في عددها الصادر في يناير — فبراير ١٩٢٥ .

وأنا تارك بعد هذا ، الكلام عن الامير محمد بن عبد الكريم ، لمؤرخ عارف ثقته ، وعربي عمل لعزة قومه دهرا ، وداعية اسلامي ، كان الخادم الأمين لجميع قضايا الاسلام والمسلمين في الأرض : الأمير شكيب ارسلان رحمه الله ، قال :

لانبالغ إذا قلنا : إن الامير محمد بن عبد الكريم ، بطل الإسلام ، وأسده الضرغام ، والعلم المفرد ، لابل إذا نظر الناس بعين الانصاف ، يجدونه بطل العصر الحاضر ، بين جميع الامم ، لا بين المسلمين وحدهم . وقال :

لا نجد في شخصية (المارشال فوش) ، قائد جيوش الحلفاء ، الذي حاز الغلبة القاطعة ، في أعظم حرب عرفها التاريخ . ولا في شخصية (المارشال هندنبورغ) ، الذي وقف في وجه قوى ، تفوق قواه عدة مرات ، مدة تزيد على أربع سنوات . ولا في شخصية (مصطفى كمال) ، الذي أحيى الدولة التركية ، بعد أن أرادت انكلترا أن تطويها طي السجل للكتاب . ولا في شخصية (لنين) ، الذي ثلّ عرش أعظم قيصرية في العالم ، وحل محلها بحكومة صعاليك مفاليس ، لم يسبق لها مثيل على وجه الكرة : مانجده من حقيقة الرجولة والبطولة ، التي نجد في شخصية محمد بن عبد الكريم الريفي ثم قال :

فان فوش عندما انتصر على جيوش الالمان ، كانت تحت قيادته نحو خمسة عشر مليون جندي ، تامة العدد والاعتاد ، وراءها سبعة وعشرون دولة ، هن أكثر سكان المعمور ، وأوفرهم ثروة .

وإن هندنبورغ عندما تواقف مع هذه السبع والعشرين دولة مجتمعة ، إنما كان على رأس الجيش الالماني الشهير ، أحسن جيوش العالم دربة ونظاماً وإتقان عدة .

وإن مصطفى كمال نهض بامة قديمة العهد بالاستقلال ، حديثة العهد باتساع السلطنة والبسطة ، مالكة للكثير من أسباب الدفاع ، قد أراد لويد جورج أن يحرمها كيانها السياسي دفعة واحدة ؛ فرماها بدولة صغيرة ، الدولة اليونانية ، وليست بكفء للترك ، في قوة ، ولا منعة ، ولا عدد ، ولا نخوة .

وإن لنين كان يمثل ألوفاً ومآت الالوف ، من الصعاليك الذين كانت لهم جمعيات ، واشجة العروق في جميع البلاد ، على حين ضرست روسيا الحرب الكبرى تضريساً ، اتى فيها على الحرث والنسل ، وأنشب فيها أنياب الجوع ،

فتهيأت فيها الفرصة لثل أعظم عرش ، بنيت قوائمه على الظلم والغشم ، فكان أعظم عامل للانقلاب الهائل ، هو رد الفعل ، وأقوى نصير للنين على تأسيس الحكومة الشيوعية ، هو ماينشأ من تجاوز الحد ، من تحول الامر الى الضد ، سنة الله في الخلق ، وما لسنة الله من مرد .

أما محمد بن عبد الكريم ، فانه تغلب على اسبانيا ، وهزم جيوشها عن الريف ، وهو بالقياس إلى اسبانيا بمثابة واحد إلى أربعين في العدد ، وأقل من ذلك في العتاد ، فلم يكن في الريف مليون نسمة ، وأما من جهة الثروة فلا ثروة في هذه المنطقة ، وفي الحقيقة لا ريف – خصب وسعة – في الريف ، وقد ساقت اسبانيا إلى ميدان حرب الريف فيألق جرارة ، كانت تبلغ أحياناً الى مائتي الف جندي ، وقال :

ومحمد بن عبد الكريم رجل أخذ مكانه في التاريخ ، وأخجل جميع عظماء الرجال ، بعظمة عمله ، وصغرهم في أعين أنفسهم ، حتى إذا ما أخذت أحدهم هزة بأو وعجب ، فتذكر عظمة ابن عبد الكريم ، مع فقدان جميع الوسائل التي لايتأتى الظفر بدونها ، رأى نفسه غير عظيم بجانب ذلك العبقري الكبير ، [من أجل ذلك] لهجت الألسن لاسيما في بلاد العرب ، والهند ، بذكر محمد ابن عبدالكريم ، وأجمع الناس على أنه أحق انسان بلقب :بطل الاسلام ،وقال:

ولا جرم أن حرب الريف ، ومقاومة السنوسيين في طرابلس ،قدرفعت من شأن الاسلام ، وحدت أوربا على ان تحسب له حساباً ، ولا تسترسل في الاغترار بقوتها ، والاحتقار للأمم الإسلامية التي كانت تحسبها بتجردها من السلاح الحديث ، أمماً قد انطوى بساطها .

زعماء القرويين

وعلماء القرويين نفخوا في الأمة روح العزة والكرامة ، فلم يهلهم غضب

الملوك ، ولا تجبر الجبارين ، فأعلنوا كلمة الحق في وجوههم ، ولم تأخذهم في ذلك لومة لائم ، ولا عذل عاذل ، عملهم الدعوة الى الله حالّين ومرتحلين ، ربوا الناس على قول ذلك وفعله ، في الخاصة والعامة ، فكانوا بذلك زعماء الامة الهادين ، يأمرونهم بالمعروف ، وينهونهم عن المنكر ، ويسارعون بهم إلى الخيرات ، قد استعذبوا العذاب في سبيلهم ، تعبوا هم لتستريح الأمة ، وشقوا لإسعادهم ، وشربوا أجاج الماء ليروّوهم ، وأكلوا جلف الطعام ليشبعوهم ، ولبسوا خشن الثياب ليكسوهم ، ماتوا هم ليعيش الناس ، ذاك إرثهم الذي ورثوه عن رسول الله صلوات الله عليه ، ومالك الشيء حريّ ببذله وعطاءه ، هذا وهو من السوقة ، فكيف به إذا كان زعيم القوم وسيدهم ، وممن تخلق بأخلاق هؤلاء الزعماء ، من علماء القرويين ، على مختلف عصورها :

اسحاق الورياجلي الأعرج ، العلامة فقيه فاس ، وصاحب الطرر على المدونة ، كان آمراً بالمعروف ، ناهياً عن المنكر ، وكان يأمر بذلك السلطان يعقوب المريني ، فأكثر عليه مرة ، فقال له : اخرج من بلدي . فلما خرج ، ندم السلطان ، وأصابه وجع شديد ، فأمر برده ، فقال : لا أدخل حتى يخرج هو ، ولا أكون أنا وهو في بلد واحد . فخرج السلطان من فاس ، وبنى بضاحيتها مدينة ملحقة بها سنة ٦٧٤ ، عرفت بالمدينة البيضاء ، ثم بفاس الجديد ، مات الورياجلي سنة ٦٨٣ .

وعبد العزيز القروي ، الفقيه العلامة ، شارح المدونة ، وناظر المارستان بفاس ، أمره السلطان أبو الحسن المريني بالخروج مع عامل الزكاة ، فأجابه : أما تستحي من الله أن تأخذ لقباً من ألقاب الشريعة ، وتضعه على مغرم من المغارم ، فغضب السلطان ، وضربه بخنجر في غمده كان في يده ، وقال له : هكذا تقول لي ؟ فبادر اليه وزيره وأخرجه ، إطفاء لغيظ السلطان ، فندم السلطان ، واشتد وجع يده التي ضربه بها ، فخرج ، وقال : ردوه علي ، فردوه ، واعتذر اليه السلطان ،

وقال له : طيب نفسك علي ، فإني علمت أنك ماقلت إلا الحق ، فأجابه : يغفر الله لي ولك، وانصرف عنه ، فكان السلطان بعد ذلك يزوره في داره ، مات سنة ٧٥٠ .

ومحمد بن موسى الحلفاوي ، الفقيه المحدث الصالح ، كان آمراً بالمعروف ، ناهياً عن المنكر ، حسم الله به داء الفساد ، وقمع به الاشرار عن بغيهم ،له في ذلك قصص مشهورة مع السلطان أبي عنان المريني ، وكان يعينه بالضرب على أيدي المعتدين ، مات سنة ٧٥٨ .

وسليمان بن يوسف الأنفاسي ،العلامة الفقيه ، إمام القرويين،طلب السلطان عبد العزيز المريني الاجتماع به ، فرفض رؤيته ، والاجتماع به ،مات سنة ٧٧٩ عن سن تقرب من أربعين عاماً .

وعبد الواحد الونشريسي ، العلامة قاضي فاس العادل ، ومفتيها ، صاحب التآليف ، خرج يوماً ليصلي بالناس صلاة العيد بالمصلى ، فانتظر السلطان احمد المريني ، فلم يخرج الى وقت الظهر ، فلما وصل السلطان ، رقى الونشريسي المنبر ، وقال : يا معشر المسلمين ! عظم الله أجركم في صلاة العيد ، فقد صارت ظهراً ، ثم أمر المؤذن فأذن ، وأقام الصلاة ، وصلى بالناس صلاة الظهر ، وانصرف ، ولم يهتم بالسلطان ، مات سنة ٨٧٤ قتيلاً عن سبعين سنة .

وعمر الوجراجي ، كان ينهى عن المنكر بيده، ويقيم الحدود على من لا تطوله أيدي الحكام ، وأعانه على ذلك العامة والخاصة ، وكان يتفقد أمر القضاة ، وأصحاب الأحباس ، ويغير من لا يصلح منهم ، وكان السلطان يمتثل أمره ، مضت كلمة عنه في (ملوك القرويين) .

وعبد الله العبدوسي ، الإمام الفقيه المحدث ، مفتي فاس والمغرب ، أمات الكثير من البدع المنتشرة في المغرب، وأقام الحدود على الجناة ، وأجبر الناس

على تعاطي الحقوق بدنهم، كان أكثر علمه فقه الحديث، له فتاوى نقلها الونشريسي في المعيار، ونقلها غيره، كان يعيش بعمل الخوص بيديه، أفردت ترجمته بالتأليف، مات سنة ٨٤٩.

وعبد الوهاب الزقاق، الإمام الحافظ، قاضي فاس، ومفتيها الطبيب، كان خزانة من خزائن العلم، له فتاوى معروفة، ومؤلفات، كان شديد الشكيمة في أحكامه، لا يخاف في الله لومة لائم، استشهد بطلاً لتمسكه ببيعة السلطان أبي حسون المريني، اعتقله لذلك السلطان محمد الشيخ الوكاسي، وضربه بالسياط، ونكل به، ثم أوقفه بين يديه، وقال له: أنت زق الضلال، فأجابه: لا والله، بل أنا زق العلم والهداية، فقال له: اختر بأي شيء تموت. فأجابه: اختر لنفسك، فان المرء مقتول بما قتل به. فقال السلطان لجلاديه: اقطعوا رأسه بشاطور، فقطعوه. وصدقت في السلطان فراسة الشهيد، فمات بعد ذلك مقطوعة رأسه بشاطور.

وأبو القاسم ابن خجو الحساني، الآمر بالمعروف، والناهي عن المنكر، من لا يخاف في الله لومة لائم، مضت كلمة عنه في (ملوك القرويين).

واحمد الحباك، الفقيه النحوي المتفنن، كان آية من آيات الله في الدعوة الى الله، والقول بالحق، وتغيير المنكر، لا تأخذه في الله لومة لائم، مات مسموماً سنة ٩٣٨.

وعبد الرحمن سقين، الامام الفقيه، محدث فاس الرحلة، وراوية المغرب، داعية الاسلام في افريقيا، وناشره في أقطار السودان، رحل للشرق حاجاً، ثم دخل لبلاد السودان سنة ٩٠٩، ودخل كنوا، وحدّث بحضر ملوكهم، ونشر الاسلام والعلم والحديث بينهم، وأقام فيهم سنين، وولد له عندهم أولاد، ثم رجع لفاس سنة ٩٢٤، فأقرأ التفسير، والموطأ، والكتب الست، تلاميذه

موزعون على مختلف ديار المسلمين ، لم ير مثله في علم الحديث . مات سنة ٩٥٦ عن ٨٦ عاماً .

وجعفر بن إدريس الكتاني ، جد والدي رحمهم الله ، اجمع مترجموه : على أن امام من أئمة المالكية ، يعرفونه بخليفة مالك ، كان مرجعاً لقضاة المغرب في حل معضلاتهم ، عرض عليه القضاء في غير ما مدينة من المدائن فأباه، ولكنه ظل المرجع في جميع الأحكام ،التي تستأنف عند السلطان الحسن الأول العلوي، وعند ولده السلطان عبد العزيز دهراً طويلاً ، فلا يوقفانها مالم يمحصها هو ويحكم فيها ، كان سيفاً مصلتاً على رقاب المتجنسين بجنسيات الأعداء من الأجانب ، فقد ملأ المنابر خطباً ، والكرامي فتاوى بردتهم ، ووجوب قتلهم مالم يتوبوا، ومصادرة أموالهم ، ودفنهم في غير مقابر المسلمين ، كتب في ذلك كتابه الشهير (الدواهي المدهية في الفرق المحمية) ، وحين حاولت فرنسا أن تحتل شنخيط ـ موريطانيا ـ كتب في ذلك رسالة شهيرة ، يوجب فيها قتال السلطان لها ، واستنفاره الرجال لتحريرها ، مؤلفاته في مختلف علوم القرويين قدقاربت المائة، بين رسالة وكتاب ، مات رحمه الله سنة ١٣٢٣ ، وقدجاوزت سنه الثمانين عاماً.

ومحمد بن جعفر الكتاني ، جدي رحمه الله ، أجمع مترجموه : على أنه امام من أئمة الحديث ، وعلم من أعلام الفقه ، وداعية الى الله حيث أقام وارتحل ، في المغرب والحجاز والشام ،كتب في دعوة المغرب للجهاد والمقاومة، وكتاب النصيحة ، كتبه للسلطان عبد العزيز العلوي ، وكانت فرنسا على وشك أن تحتل المغرب ، يدعوه فيه للجهاد ووجوب استنفار الناس اليه ، والا ضاعت البلاد واستعمرها العدو ، وحين رأى السلطان لم يستجب له ، هاجر بأهله وأولاده وأصحابه للحجاز ، وحين الحرب العامة الأولى اضطر للهجرة إلى الشام ، وقد شرح هذه النصيحة عالم الرباط المدني ابن الحسني في أربع مجلدات ،وكانت لسان المجاهدين في الحرب الريفية طيلة خمس سنوات ، في خطبهم ونشراتهم ودعواتهم

للقتال ،زاره في دمشق مرة الملك فيصل بن الحسين فأراد ان يشرب الدخان بحضرته فمنعه ، وحين طلب منه رد زيارته وفعل ، فلما انتهت الزيارة وقف الملك لتوديعه ، فلم ير قيامه كافياً وأخذ بيده الى الباب ، وهو يقول له : تعال معي أعلمك سنة جدك النبي في تشييع الضيف ، قال عنه احد مؤرخيه ، الكاتب شاعر فاس محمد غريط : كان من طبقة سفيان الثوري وعبد الله بن المبارك ، لم يكن يميل الى الملوك فمن دونهم ، ولا يدخل دورهم ولا يتناول طعامهم ولا يقبل صلاتهم . له مؤلفات في مختلف العلوم ما بين رسالة وكتاب تصل الى الثمانين ، ولد سنة ١٢٧٤ ومات رحمه الله سنة ١٣٤٥ .

ومحمد بن عبد الكبير الكتاني ، اجمع مترجموه على أنه امام من أئمة التربية، وعلم من أعلام الهداية له العديد من المؤلفات اكثرها في التربية والتصوف ، أتباعه تجاوزوا في العدد ألف ألف مريد ، كان يروضهم على العبادة ليلا ، وعلى الجهاد نهاراً ، ليكونوا على قدم الصحابة رهباناً بالليل وفرساناً بالنهار ، كان وردمريديه في العشيّ ، التدريب على الرماية والمبارزة والفروسية والعد والسباحة ، هو صاحب الوثيقة الشهيرة في بيعة السلطان عبد الحفيظ العلوي ، حين تمت له الغلبة على أخيه السلطان عبد العزيز في خروجه عليه ، أملاها على احمد المواز ليكتبها بخطه الجميل ، قيد فيها ملكيته بالشورى ، وجعل فيها الكلمة الاخيرة للشعب في كل أمر يعرض على الدولة ، وقد أجمع زعماء الاحزاب المغربية بعد ذلك ، على أن هذه الوثيقة ستبقى الدستور الخالد في نظام الحكم في المغرب ، وبها أصبحت معاهدة الحماية التي عقدها السلطان عبد الحفيظ مع فرنسا لاغية ، لانها لم تعرض على الأمة ، ولم توافق عليها ، ولكن السلطان عبد الحفيظ حين تم له الملك لم يرقه نص البيعة ، فانتهز فرصة ذهاب ابن عبد الكبير في أهله وأولاده واصحابه للقبائل المجاورة لفاس ، فبعث اليه سرية من الجيش اتت بهم في الحديد والاغلال ، وبعد زمن اطلق سراح

من معه ، وسلم هو للسياط والعذاب الى ان استشهد رحمه الله ، سنه ١٣٢٧ عن سبع وثلاثين عاما .

ولاة القرويين

سبق أن قلت قبل في (مجتمع القرويين) : إن مصنع الدولة المغربية الذي تستورد منه الرجال لأجهزتها ولأطاراتها ، هو القرويين، لمدة ألف سنة أو تزيد، فمن علمائها ملوك الدولة ، ومستشاروها ، ووزراؤها ، وحكامها ، وقوادها ، ومحتسبوها ، ومشاورو الدولة ، وغيرها من المناصب الرفيعة ، وسآتي لذلك بأمثلة تاريخية ، من مختلف العصور .

محمد بن حكيم الجذامي ، الإمام الأديب ، والفقيه المتفنن ، حاكم فاس ، ومفتيها ، درّس كتاب سيبويه، وله شرح على الايضاح لأبي علي الفارسي، مات سنة ٥٣٨ .

وإدريس العراقي ، مستشار السلطان إسماعيل العلوي ، وأولاده السلاطين من بعده ، كانت له مكتبة يضرب بها المثل ، كثرة كتب قيمة ونوادر ثمينة ، وأكثرها كتب الأدب والتاريخ ، مات سنة ١١٥٠ .

ومحمد بن الطيب المريني ،العلامة الأديب ،محتسب فاس، مات سنة ١١٤٥.

ويوسف البوعناني ، ولاه السلطان قضاء فاس ، وهو ابن عشرين سنة ، ثم ولاه قضاء القضاة – وزارة العدل – وفوض له في تولية القضاة والأئمة ، والخطباء – وزارة الأوقاف – ونظّار المال وزارة المالية – والمحتسبين – وزارة البلديات – أي : جمعت له في وقت واحد بين وزارة العدل ، ووزارة الأوقاف ، ووزارة المال ، ووزارة البلديات ، مات سنة ١٢٠٦ .

وابن الحاج محمد بن إدريس العمراوي ، كان وزيرا للسلطان عبد الرحمن العلوي ، وكاتب يده وشاعره ، كان أديباً حيسوبياً فلكياً ، وله دواوين شعرية ، في المدائح النبوية ، ومديح السلاطين ، وله مؤلفات ، منها : الغمام الصيّب في مناقب [الكتاني] مولاي الطيب ، مات سنة ١٢٦٤ .

وابن زاكور محمد بن علي ، العلامة الفقيه ، كان أمين مالية السلطان سليمان العلوي ـ وزير الخزانة ـ ومحتسب الدولة ـ وزير البلديات ـ مات سنة ١٢١٤ .

وحمدون ابن الحاج ، الامام المتفنن ، صاحب التآليف ، وصفه جدي محمد بن جعفر الكتاني رحمه الله في السلوة ، فقال : كان رحمه الله ممن انتهت إليه الرياسة في جميع العلوم ، واستكمل أدوات الاجتهاد على الخصوص والعموم ، وأحرز قصبات السبق في مجال الاستنباط ، وارتبطت بذهنه العلل ومسالكها أي ارتباط . ولي حسبة فاس ، فأمر بالمعروف ونهى عن المنكر ، وولي قيادة إقليم الغرب ، فأحيا فيه السنة وأمات البدعة ، وجبى الزكاة والخراج والعشور ، وأسقط الضرائب والمغارم السلطانية ، له ملحمة في السيرة النبوية في نحو أربعة آلاف بيت ، وشرح عليها في خمسة أسفار ، ولد سنة ١١٧٤ ، ومات سنة ١٢٣٢ .

مشاورو القرويين

(أهل الشورى) ، أو (المشاورون) ، مؤسسة حكومية ، كانت في الأندلس والمغرب ، تعرض عليها مشاريع الأحكام والقوانين ، التي يريد السلطان اصدارها ، لتوافق عليها وتقرها ، بعد درسها والبحث فيها ، فإذا رأتها مخالفة للمعروف من مذهب الدولة ، الأوزاعية ، أو الظاهرية ، أو المالكية ، ـ وكان مذهب الأوزاعي مذهب الدولة الأندلسية حقبة من الدهر ، في الأيام الأولى لبني أمية الأندلسيين ، وكان مذهب ابن حزم مذهب الدولة المغربية في فترة من الزمن ، أيام ملوك الموحدين ـ فإذا رآها أهل الشورى

مخالفة لأحكام المذهب أو قواعده ، رفضوا إقرارها، والموافقة عليها ، فيضطر السلطان عند ذلك ، لسحب مشاريع أحكامه وقوانينه واسقاطها ، فإذا حاول أن يصدرها بعد رفض المشاورين لها ، أو دون عرضها عليهم ، عرّض نفسه للثورة عليه ، أو خلعه ونصب غيره مكانه ، والأمثلة على ذلك كثيرة ، في التاريخين : الأندلسي والمغربي ، و (أهل الشورى) يقابله اليوم مجلس الدولة في نظم الحكم الحديثة ، و (المشاورون) يقابلهم أعضاء مجلس الدولة في العصر الحديث ، فالمشاور لا يكون إلا من كبار الفقهاء ، وعضو مجلس الدولة لا يكون من الحقوقيين المتضلعين، ولعلهم اقتبسوا ذلك عن الاندلس والمغرب، ومن علماء القرويين (المشاورين) .

محمد بن يوسف المزدغي ، المحدث الحافظ ، والمفتي المجتهد ، له تفسير وصل فيه الى سورة الفتح ، واخترمته المنية دون إتمامه ، كان مشاور الدولة، مضت عنه كلمة في (خطباء القرويين) .

وعبد النور العمراني ، القاضي ، كان من مقدمي أهل الشورى ، له تقييد على المدونة ، وله فتاوى، جمعها له الونشريسي في المعيار ، ولد سنة ٦٨٥ .

وأحمد القباب ، الامام الفقيه ، والمحدث الحافظ ، المفتي قاضي جبل طارق كان مشاور الدولة ، درّس الموطا بالقرويين وكان يطالع له خمسين كتاباً ؛ له مؤلفات ، منها : شرح قواعد عياض ، وشرح بيوع ابن جماعة ، ومناظرات القباب مع سعيد العقباني ، جمعها له سعيد ، مضت عنه كلمة في (خطباء القرويين).

وعيسى المصمودي ، فقيه فاس ، وقاضيها ، الرحالة ، كان مشاور الدولة مضت عنه كلمة في (خطباء القرويين) .

سفراء القرويين

علماء القرويين، كما تكونت منهم إطارات الدولة المغربية وأجهزتها في داخل البلاد ، منهم كانت سفراء الدولة و ممثلوها خارج البلاد ، فكانوا بذلك ألسنتها الناطقة ، وأيديها العاملة على رفعتها في الخارج ، فكم من دولة عدوة حولوها صديقاً

حميماً ، بل حليفاً في الحرب وللسلام ، وكم من دولة صديقة صيروها بسياستهم جزء من الدولة ، وقسماً من أقسامها ، الى ان امتدت رقعة الدولة المغربية زمناً ، من السلوم شرقاً ، الى جبال البرنيه غرباً ، منتظمة ولايات طرابلس ، وبرقة ، وفزان ، وتونس ، والجزائر ، والصحراء الكبرى ، وشعوب افريقيا السوداء ، واسبانيا ، والبرتغال ، وجنوب فرنسا ، ولم يبق في العالم الاسلامي - وهو اذ ذاك سيد الدنيا وموجهها - الا حاكمان : خليفة الشرق الاسلامي في بغداد ، وخليفة الغرب الاسلامي في مراكش ، فمن هؤلاء السفراء :

محمد بن محمد المقّري ، الامام المتفنن ، القاضي ، سفير السلطان ابي عنان المريني في الاندلس ، قال عنه ابن مرزوق : قد وصل الى درجة الاجتهاد في المذهب ، بحيث يختار الاقوال ويزيف ، له مؤلفات ، منها : القواعد في الفقه ، اشتمل على مائتي قاعدة وألف قاعدة ، قال عنه الونشريسي : وهو كتاب غزير العلم كثير الفوائد ، لم يسبق لمثله ، خص حياته الحفيد ابن مرزوق بكتاب ، مات سنه ٧٥٩ .

وابن أبي يحيى إبراهيم التسولى ، الفقيه الحافظ ، صاحب المؤلفات ، منها : شرح على المدونة ، وشرح على الرسالة ، وهو أحد سفراء الدولة المرينية ، واحد كتابها ، مضت عنه كلمة في (ملوك القرويين) .

وعلى الزرويلي أبو الحسن الصغيّر ، الفقيه الحافظ ، كان يدرّس الفقه ويحفظ له ماينيف على ٨٠ كتاباً فقهياً ، كان قاضي مدينة نازه ، ومدينة فاس ، فاقام الحق على السوقة والامير ، وجرى في العدل على صراط مستقيم له مؤلفات ، كان سفير السلطان سليمان المريني في الاندلس ، مات سنة ٧١٩ عن سن تناهز ١٢٠ عام .

ومحمد المغربي ، العلامة قاضي فاس ، وكاتب بيعة السلطان أبي عنان المريني ، وسفيره في الأندلس ، مات سنة ٧٥٨ .

ومحمد بن محمد الجزولى ، المسند الراوية الرحالة ، أحد السفراء ، مات سنة ٩٨٨ .

وحمو بن عبد الوهاب الوزير ،الفقيه المتفنن ، الكاتب الأديب ،كان سفير السلطان إسماعيل العلوي في إسبانيا ، لفداء أسرى المسلمين ، ولجلب ما يوجد من كتب للمسلمين ، في مساجد الأندلس المهجورة ، وقد ألف رحلة عن سفارته، سماها : رحلة الوزير في افتكاك الأسير ، مات سنة ١١١٩ .

ومحمد المدني ابن جلون ، العلامة القاضي ، الفقيه المحدث الأديب ،المؤلف المكثر ، من أساتذة جدي محمد بن جعفر الكتاني رحمهم الله ، كان من سفراء السلطان الحسن الأول العلوي ، ولد سنة ١٢٦٤ ومات سنة ١٣٩٨ .

علماء القرويين

القرويين منذ أسست طيلة أحد عشر قرناً ، ولسنوات خلت كان يدرس فيها جميع العلوم الاسلامية ، من قرآن ، وتفسير ، وحديث ، وفقه، وأصول، وتصوف ، وسيرة ، ولغة ، وأدب ، وتاريخ ، وجغرافيا ،وطب ،وهندسة وفلسفة ، وفنون ، وما يمت إلى هذه العلوم بسبب .

كان يدرس فيها علوم الدين ، كما تدرس علوم الدنيا ، ويجمع النوعين كلمة العلوم الاسلامية ،والاسلام بطبيعته دين ودنيا ،فإذا حاول أحد أن يفصل ديناً عن دنيا ، أو دنيا عن دين ، فليعط لذلك أي إسم شاء ، إلا إسم الاسلام ، فكما أن إسم الانسان علم عليه بجسده وروحه ما دام حياً ، فإذا مات ، قيل عن جسده : جثة ، وقيل عن الحياة التي كانت تحرك الجثة : روح .فيقال إذ ذاك: روح فلان ،وجثة فلان .

فمن وصف العلوم الاسلامية : بالروحية فقط ، أو بالدينية فقط ، فقد قتل الاسلام وعلومه ، وجعل منه جثة لا تصلح لشيء إلا للدفن ، وجعل مما سماه علوماً روحية ، شيئاً غامضاً غموض الروح . ويسألونك عن الروح ؟ قل : الروح من أمر ربي ، وما أوتيتم من العلم إلا قليلا .

فالعلوم الاسلامية دعوة للحياة والمادة ، كما هي دعوة للآخرة والروح ، يا أيها الذين آمنوا استجيبوا لله وللرسول إذا دعاكم لما يحييكم .والعلوم الاسلامية

تعمل لنصر الانسان في الدنيا أولاً ، ثم لنصره في الدين ثانياً ، إنا لننصر رسلنا والذين آمنوا في الحياة الدنيا ، ويوم يقوم الأشهاد . بل العلوم الاسلامية تهيب بالانسان أن لا يترك الدنيا وينساها ، وابتغ فيما آتاك الله الدار الآخرة ولا تنس نصيبك من الدنيا .

وجامعة القرويين بعلومها الاسلامية الدينية والدنيوية معاً ، ليست بدعاً بين الجامعات الاسلامية الأخرى ، كالزيتونة ، والأزهر ، والنجف ، ونظيراتها في باكستان والهند ، وبقية العالم الاسلامي ، فكلها كان فيها من العلوم المشتركة بين الدين والدنيا ما كان في القرويين ، وكلها كان فيها من علماء الدنيا والدين ما كان في القرويين .

وإنما تغيرت دنيا الاسلام ، وإنما بدلت دنيا المسلمين ، يوم غزتهم الصليبية الثانية ، يوم غزتهم أوربا في العصر الحديث ، فلم تقنع الصليبية المستكلبة باستعمار الأرض واحتلالها ، لانها علمت من التاريخ أنه ما من قوي الا ومآله الى الضعف ، وما من أرض احتلت الا ومآل مستعمريها الى الجلاء والطرد ، فراحت الصليبية لذلك تغزو العقول والقلوب ، ولم تجد طريقاً أسلم للوصول الى غزو الاسلام واستعماره من احتلال القلوب والعقول .

ومنذ الحرب العالمية الأولى ، شرعت أوربا في غزو المدارس والمحاكم ، ثم شرعت في غزو الآداب والعادات ، بإسم المدنية والتقدمية والترقي ، وماإليها من شعارات كاذبة مزيفة . ولكيلا تتدخل – في زعمها – في الدين ، فصلت الدين عن الدولة ، لتخرج الاسلام ودساتيره وقوانينه ، من الحكم والقضاء ، وعن المحاكم والقضاة . ولكيلا تتدخل – في زعمها – في الدين ، فصلت ماأسمته بالتعليم الديني عن ما أسمته بالتعليم المدني ، لتخرج الاسلام وعلومه وآدابه وحضارته ، من التربية والتعليم ، وعن المدارس والمعاهد والجامعات ، فتم لأوربا من ذلك ما شاءت وأرادت . وليأخذ هذا الغزو طابعه الصليبي ، أعلن الماريشال اللانبي الانكليزي حين احتل بيت المقدس في الحرب العالمية الأولى : الآن فقط انتهت الحروب الصليبية . وأعلن الجنرال غورو الفرنسي حين احتل

دمشق ، في الحرب العالمية الأولى كذلك، فوقف على قبر صلاح الدين الأيوبي قاهر الصليبية الأولى ، وضرب القبر بقدمه ، وقال : قم يا صلاح الدين فها نحن هنا .

وانتهى غزو الأرض ، وخرج الغزاة ، وقضي على الاستعمار الأرضي أو قد كاد ، ولكن غزو العقول والقلوب ، ابتدأ من جديد ، اذ لم يكد يخرج المستعمرون من البلاد، حتى فرقوا الشعب أحزاباً وشيعاً ، كل حزب بما لديهم فرحون ، هذا دراسته دينية فهو رجعي متزمت ، وهذا دراسته مدنية فهو تقدمي متحرر ، وصدق نابليون الطاغية الفرنسي ، وقد يصدق الكذوب ، حين قال : ستنتهي فتوحاتي بخروج جيوشي ، وستبتديء فتوحاتي من جديد، ما عاش قانوني يحكم دولة أو شعباً .

ولنطرد الغزاة والمستعمرين ، ولنعود أحراراً كما ولدنا ، سادة كما كنا ، يجب أن نتحرر من الاستعمار الفكري ، ونتحرر من الاستعمار العاطفي ، كما تحررنا من استعمار الأرض والتراب ، ولا يتم تحرر العقل والقلب من الاستعمار ، ما لم نحرر التعليم ، وما لم نحرر المحكمة ، فيجب أن نعيد النظر في برامج المدارس والمعاهد والجامعات ، كتاباً ومنهاجاً ومعلماً ، ويجب أن نعيد النظر في نظام المحاكم ، قانوناً وقضاءً وقاضياً ، نعيد النظر في كل ذلك بما يتفق وعروبتنا ودينا وحضارتنا ، حتى لا تبقى في البلاد أوزاع شتى من التعليم ، هذا ديني وهذا مدني ، هذا روحي ، وهذا لاديني ، وحتى لا تبقى في البلاد أوزاع شتى من المحاكم ، هذه شرعية وهذه مدنية ، وبذلك تنتهي التفرقة ، وتزول أسبابها ، فلا يبقى الا تعليم واحد ، ومحكمة واحدة .

ولقد كان موفقاً الرئيس جمال عبد الناصر كل التوفيق ،في اصداره لقانون جامعة الازهر الجديد ، وإنه ليصلح مثالاً يحتذى لجامعات القرويين والزيتونة والنجف ، في المغرب وتونس والعراق ، وغيرها من الجامعات الاسلامية ، وأنه ليصلح مثالاً يحتذى لتوحيد التعليم في جميع جامعات الجمهورية العربية

وباقي البلاد العربية الأخرى ، على طريقته ومنواله ، هذا اذا أحسن تنفيذ هذا القانون الجديد ، وأحسن اختبار القائمين به والقائمين عليه .

والقرويين في القرن العاشر ، قال عنها ابن ميمون : ان فاس كان يدرس فيها الطب ، وسائر العلوم العقلية . ومضت كلمته هذه في (علم القرويين) . وقال عنها اكلينار البلجيكي في اواسط القرن السادس عشر ، وقد كان طالباً في القرويين : كان يدرس فيها الطب . وقال بليش في اول القرن التاسع عشر ، وقد أقام في المغرب أربع سنوات : إن مدينة فاس هي في افريقيا أشبه بأثينا عاصمة الفكر في اوربا ، وقد مضت الكلمتان في (علوم القرويين) .

وعلماء القرويين في التاريخ ، كان فيهم أئمة لكل علم من علوم الاسلام ، والتفسير ، والحديث ، وفقه الاجتهاد ، وفقه المالكية ، وفقه الشافعية ، والاصول ، والفلسفة ، واللغة ، والنحو ، والادب ، والموسيقى ، والطب ؛ والهندسة ، وكان من بين علمائها عالمات ، وسآتي لكل ذلك بأمثلة تاريخية . تثبت هذا التنوع في علماء القرويين وتؤيده .

فمن أئمة التفسير بين علماء القرويين :

محمد بن يوسف المزدغي ، له تفسير انتهى فيه الى سورة الفتح ، واختطفه الموت قبل اتمامه ، وهو ابن ٣٢ عاماً ، مضت عنه كلمة في (مشاورو القرويين)

ومن أئمة الحديث بين علماء القرويين :

محمد بن قاسم التميمي : العلامة المفتي الصالح ، المحدث الحافظ ، له رسالة البرهان في ذكر حنين النفوس الى الاحبة والاوطان ، واللمعة في ذكر ازواج النبي واولاده السبعة ، والمستفاد في مناقب العباد بمدينة فاس وما يليها من البلاد ، في سفرين ، قال الحاتمي في الفتوحات : انه سمعه عليه بقرائته بفاس سنة ٥٩٣ .

وأبو بكر بن خلف المواق ، قاضي فاس ، والفقيه الحافظ لفقه مالك ، ولخلاف أئمة الفقه ـ الفقه المقارن ـ ، والمحدث فقهاً وجرحاً وتعديلا وسنداً ، له كتاب في المكاييل والأوزان ، مات سنة ٥٩٩ .

وابن حنين علي الكناني ، المحدث الحافظ ، تلميذ الغزالي ، ولد سنة ٤٧٦ ومات سنة ٥٦٩ ، وكان آل ابن حنين يضرب المثال بجمال رجالهم ، وحسن نسائهم .

وابن رشيد محمد بن عمر السبتي ، المحدث الحافظ الرحالة ، له مؤلفات ، منها رحلته : ملأ العيبة ، في أربعة أسفار ، جمع فيها من الفوائد الحديثة ، والفرائد الأدبية كل غريبة وعجيبة ، ولد سنة ٦٥٧ ومات سنة ٧٢١ .

ورضوان الجنوى ، انفرد بالامامة في علمي الحديث والتصوف ، من مدينة جنوة بايطاليا ، ثم من الله عليه بالاسلام ، وكان نصرانياً ، وكانت أمه يهودية اسلمت وحسن اسلامها ، كان يقول مفتخراً باسلامه : خرجت من بين فرث ودم لبناً خالصاً سائغاً للشاربين ، وكان يقول معتزاً باسلامه : لو مثلت لي الشريعة حصناً وقيل لي : اهدمه أو تحز عنقك ، لاخترت ان تحز عنقي ولا أهدم منه ذرة من تراب ، ولتلميذه العلامة المرابي فيه كتاب ، سماه : تحفة الاخوان في مناقب سيدي رضوان ، ولد سنة ٩١٠ ومات سنة ٩٩١ .

وادريس العراقي ، محدث المغرب الحافظ ، قال عنه عمر الفاسي : انه أحفظ من ابن حجر العسقلاني ، استدرك على الجامع الكبير للسيوطي نحوا من خمسة آلاف حديث ، وله شرح على الشمائل فريد في بابه ، ولم ينسج على منواله ، درّست به الشمائل النبوية في فاس منذ عشرين سنة ، مات سنة ١١٨٣ .

ومن أئمة الاجتهاد بين علماء القرويين :

عبد الرحيم البزناسني ، الامام المتفنن الرحالة ، كان اماماً في مذهب مالك ، وفي أصول الفقه على طريقة الاقدمين اهل الاجتهاد ، كان معاصراً لابن شاس شيخ المالكية الشهيد ، المتوفي سنة ٦١٦ .

ومحمد بن يوسف المزدغي ، المفسر المحدث ، المشاور المجتهد ، مضت عنه كلمة في (مشاورو القرويين) .

ومحمد بن محمد المقّري ، ممن شدت اليه الرحال في طلب العلم ، قال عنه ابن

مرزوق : انه وصل الى درجة الاجتهاد في المذهب ، بحيث يختار الأقوال ويزيف . مضت عنه كلمة في (سفراء القرويين) .

وعبد الله الو رياجلي ، كاد أن يبلغ درجة الاجتهاد ، أو قد بلغها ، مضت عنه كلمة في (مجاهدو القرويين) .

وأحمد بن مبارك اللمطي ، الإمام الفقيه المجتهد ، له عارضة في المقابلة بين أقاويل العلماء ، والبحث معهم ، وكان يصرح لنفسه بالاجتهاد ، ويرد على اكابر فقهاء المتقدمين والمتأخرين ، له مؤلفات ، وهو صاحب كتاب : الابريز في عبد العزيز (العارف الدباغ) ، مات سنة ١١٥٥ .

وحمدون ابن الحاج ، قد مضت عنه كلمة في (ولاة القرويين) وأن جدي ابن جعفر الكتاني رحمه الله وصفه بقوله : استكمل أدوات الإجتهاد على الخصوص والعموم ، وأحرز قصبات السبق في مجال الإستنباط ، وارتبطت بذهنه العلل ومسالكها أي ارتباط .

ومن أئمة المالكية بين علماء القرويين :

دراس بن إسماعيل أبو ميمونة ، الفقيه الحافظ المجاهد ، ممن نشر مذهب مالك في المغرب ، مضت عنه كلمة في (مجاهدو القرويين) .

وجبر الله الأندلسي ، الفقيه ممن أدخل مذهب مالك لفاس ، من رجال القرن الرابع .

وأبو خزر يخلف بن خزر الأوْربي — أوربة قبيلة من قبائل البربر — الحافظ الفقيه ، مدرس فاس ومفتيها ، مات سنة ٥٧٢ .

وأحمد الونشريسي ، الإمام الفقيه ، قال عنه ابن غازي : لو أن رجلا حلف بطلاق زوجته أن أبا العباس الونشريسي أحاط بمذهب مالك ، أصوله وفروعه ، لكان باراً في يمينه ، ولا تطلق عليه زوجته ، وهو صاحب المعلمة الفقهية على مذهب مالك ، في وقائع الأحكام الصادرة من القضاة والحكام ، على مدا قرون وأجيال ، وهي : المعيار المغرب والجامع المعرب عن فتاوى علماء أفريقيا

والأندلس والمغرب ، في اثني عشر مجلداً ، قال عنه فقهاء المالكية : فاق به الأوائل والأواخر . استعان في تأليفه بمكتبة تلميذه الفقيه أبي عبد الله محمد بن محمد الغرديس ، التي احتوت على فنون العلم والتصانيف ، المعتبرة في نوازل الفقه وغيرها ، لاسيما فتاوى أهل فاس وأهل الأندلس ، وله مؤلفات أخرى فقهية غير المعيار، منها : كتاب قواعد الإمام مالك ، وشرح على مختصر ابن الحاجب ، في ثلاثة أسفار ، وله فهرسة – ثبت – مات سنة ٩١٤ .

وأحمد المجلدي ، العلامة الفقيه ، قاضي فاس الجديد ، له مؤلفات منها : اختصار معيار الونشريسي ، في مجلد ضخم ، وشرح على مختصر خليل ، وكتاب في الحسبة ، مات سنة ١٠٩٤ .

والمذهب الشافعي في المغرب ، أندر من الكبريت الأحمر ، ومع ذلك كان يظهر به في عصر دون عصر ، أئمة يدعون له ، ويحاولون نشر كتبه .

ومن شافعية علماء القرويين :

أبو جيدة اليزغيني ، الإمام الفقيه في المذهبين : المالكي والشافعي ، له مؤلفات، منها: وثائق الشافعية ، ذهب للحج مرة، وحين رجع لفاس، خرجت المدينة كلها لاستقباله رجالاً ونساء ، فقال : ما بال النساء ؟ فقيل له : خرجن إجلالاً لك، وفرحاً بقدمك ، وبسلامة عودتك. فرفع يديه إلى السماء، وقال: اللهم لاتشقهن . قال مترجموه: فلم تزل نساء فاس لايخدمن أنفسهن، مخدومات ولا يخدمن أحداً ، ببركة دعاء أبي جيدة لهن ، منذ القرن الرابع، وقد مات أبو جيدة سنة بضع و ٣٦٠ .

وابن الرمامة محمد بن علي القلعي ، قاضي فاس ومفتيها ، الفقيه النظار ، كان يميل لمذهب الشافعي ، ولد سنة ٤٧٨ ومات سنه ٥٦٧ .

واحمد بن عبد الحي الحلبي ، الامام في مذهب الشافعي ، والاديب الصوفي ورد لفاس من حلب ، فاتخذها دارا ومقاماً ، وصفه جدى محمد بن جعفر الكتاني رحمه الله تعالى في السلوة ، وقال : نشأ ببلده حلب ، وفيها حلب من

ثدى العلوم ، حلب ، ثم رحل لفاس ، فصارت له خير كناس ، فاعظم أهلها بعد الاختبار أمره ، وأصغروا دونه زيد الأدب وعمره ، وتلمذ له الأكابر وخوطب بولاية الكراسي والمنابر — كراسي التدريس ومنابر الخطابة — له مؤلفات، في الادب والتاريخ والتصوف ، منها : الحلل السندسية في مدح الشمائل المحمدية ، ومقامات عارض بها مقامات الحريري ، والدر النفيس في مناقب مولانا ادريس ، المؤسس الثاني للدولة الادريسية في المغرب، مات رحمه الله سنة ١١٢٠ .[١]

ومن أئمة الاصول بين علماء القرويين :

عثمان السلاجي ،العلامة الاصولي المتكلم، به نشأ علم الاصول في المغرب، قال مترجموه : ورتبته في الاصول كرتبة ابي المعالي الجويني امام الحرمين ، وله في الاصول مؤلفات ، منها : كتاب البرهانية ، وضعه للفقيه الاندلسية خيرونة. مات سنة ٥٦٤ .

ومن فلاسفة علماء القرويين :

ابن الصائغ ابو بكر محمد بن باجه ، الاديب الطبيب الفيلسوف ، قال عنه أبو حيان : كان يشبه بابن سينا ، مات مسموماً سنة ٥٣٣ ، له مؤلفات في الطب والفلسفة .

ومحمد بن ابراهيم الابلي ، الفيلسوف ، عالم الدنيا ، كما وصفه المقري ، مضت عنه كلمة في (مجاهد والقرويين) .

ومحمد ابن البقال ، العلامة الفقيه ، والاديب الفيلسوف، كان يدرس الفقه بالخلاف العالي ـ الفقه المقارن — ويدرس التفسير ، قال عنه مترجموه : لم ير في وقته من حصل من علوم الفلاسفة مثل ماحصله ، مع الدين المتين ، والتزام أحكام الشريعة وآدابها ، مات سنة ٧٢٥ وقد قاربت سنه الخمسين عاما .

---

(١) قال في السلوة : وجل الموجودين الآن — ١٣١٦ - من الشرعية الكتانية. من حفدة هذا السيد الجليل فصاحب السلوة هو محمد بن جعفر بن ادريس بن محمد الطائع بن ادريس بن محمد الزمزمي بن فاطمة بنت احمد بن عبد الحي الحلبي وابن محمد بن العربي الكتاني .

وسليمان الفشتالي ، العلامة الفيلسوف الطبيب ، مات سنة ١٢٠٨ .

ومن أئمة اللغة بين علماء القرويين :

مصعب ابو ذر الخشني ، العلامة اللغوي الأديب ، والمحدث القاضي ، شارح سيرة ابن اسحاق ، ولد سنة ٥٣٥ ومات سنة ٦٠٤ .

ومحمد بن الطيب الصميلي الشرقي ، الامام اللغوي ، صاحب المستدرك على القاموس ، في اربع مجلدات ، ولد بفاس ١١١٠ ومات بالمدينة المنورة وهو خطيب مسجدها النبوي سنة ١١٧٠ .

ومن أئمة النحاة بين علماء القرويين :

ابن آجرّوم محمد الصنهاجي ، امام النحاة على مذهب الكوفيين ، وصاحب المقدمة في النحو (الآجرومية) الشهيرة ، وكان مجودا ، وله شرح على حرز الاماني وكان حبسوبيا فرضيا ، وآجروم بلغة البربر الفقيه الصوفي ، ولد سنة ٦٧٢ ومات سنة ٧٢٣ .

وعبد الرحمن المكودي ، كان يدرّس كتاب سيبوية ، وله شرح مشهور على الالفية ، وشرح على المقصور والممدود لابن مالك ، وعارض مقصورة ابن دريد وشرحها ، وله نظم في شرح غريب اللغة ونظم فيما عرب من الالفاظ العجمية ، وشرح على الاجرومية ، ورجز في التصريف في نحو من اربعمائة بيت ، مات سنة ٨٠٧ .

ومن أئمة الادب بين علماء القرويين :

مالك ابن المرحل ، شاعر المغرب الفحل ، وامام اللغة وعلوم العربية ؛ القاضي الفقيه الاديب ، له مؤلفات ، منها : الموشحات النبوية على حروف المعجم ، التزم فيها ما لايلزم ، التزم افتتاح ابياتها بحروف رويّها ، وله شرح على فصيح ثعلب ، ولد سنة ٦٠٤ ومات سنة ٦٩٩ .

ومن الموسيقيين بين علماء القرويين :

احمد المنجور ، الامام الفقيه المفتي المتفنن ، صاحب المؤلفات ، قال عنه

مترجموه : كان من عباد الله الصالحين . وقال عنه ابن القاضي : الدنيا تصغر في عيني كلما تذكرت أكل التراب للسانه ، والدود لبنانه . كان يقول : العلوم كلها نافعة . كان يتقن لعبة الشطرنج، ويضرب على العود ، مع معرفة بالالحان، ووضعها ، وكان مولعاً بامثلة العامة ، خصوصاً أمثلة عامة الاندلس ، يستحسن لهجتهم ولكنتهم ،ويثني على الاندلسيين ، ويبكي على ضياع الاندلس ، ويتحرق شوقاً لاسترجاعها ، مات سنة ٩٢٦ .

وعبد السلام ابو غالب ، العلامة الفقيه الأديب ، من أساتذة جد والدي: جعفر الكتاني رحمها الله ، كان يحضر مجالس الطرب بآلاتها الوترية ، ويحن لسماعها ، ويضرب بها في جودة واتقان ، ويعيب على ضاربيها اذا غلطوا ، ويستغرق فيها استغراقاً شديداً ، هذا وأجمع مترجموه : على شدة زهده وعظيم ورعه ، وكبير عرفانه ، مات سنة ١٢٩٠ .

ومن أطباء علماء القرويين :

ابن الصانع ابو بكر ابن باجه ، الأديب الطبيب الفيلسوف ، وقد مضت عنه كلمة في فلاسفة (علماء القرويين) .

ويحيى بن حامد اليعزوي ، قاضي فاس الجديد ، الفقيه الأديب المتفنن ، كان عارفاً بالطب والتنجيم ، مات سنة ٨٨٩ .

وعبد الوهاب الزقاق ، الفقيه الحافظ ، والمفتي القاضي ، والزعيم الطبيب مضت عنه كلمة في (زعماء القرويين) .

وابن زاكور محمد بن قاسم ، الحافظ الفقيه ، والعلامة الأديب، والمؤلف الطبيب ، قال عنه جدي ابن جعفر رحمه الله : الشيخ الذي شب به زمان الأدب بعد الهرم ، وهذب أسرار البيان بعدما اشرفت على العدم ، من ركضت في مضامير البلاغة صافنات جياده ، وعقد شذور البراعة على لبات هذا العصر وأجياده . له مؤلفات في علوم شتى ، منها : شرح حافل على ديوان الحماسة لأبي تمام ، في ثلاثة أسفار ، وتذييل لأرجوزه ابن سينا في الطب ، مات سنة ١١٢٠ .

وعبد الوهاب آدرّاق ، الطبيب ابن الطبيب ، ورئيس الاطباء في عصره ، له في الطب أراجيز ورسائل ، منها : تعليق على كتاب النزهة لداود الانطاكي ، وأرجوزة ذيل بها أرجوزة ابن سينا في الطب ، ولد سنة ١٠٧٩ ومات سنة ١١٥٩ .

ومن مهندسي علماء القرويين :

ابن سودة محمد بن التاودي ، كان عارفاً بعلم الحساب والتنجيم والهندسة ، مات سنة ١١٩٤ ، وهو ابن ٣٥ عاماً .

ومن عالمات القرويين :

أم هاني بنت محمد العبدوسي ، العالمة ، أخت العلامة عبد الله العبدوسي ، من القرن التاسع ، بيتها بيت كبير في المغرب ، دام العلم فيهم ورياسة العلم ، دهراً طويلا ، في رجالهم ونسائهم ، وهي آخر علماءه .

وللصديق المرحوم الاستاذ محمد العبدي الآسفي ، كتاب في عالمات المغرب ، في جزئين ، عسى الله ان يهيء له من يطبعه وينشره على الناس .

وقلة مابيدي من مصادر تاريخ المغرب ، لم تسعفني بأكثر من هـــذا عن تاريخ القرويين .

أما بعد :

فجامعة القرويين ، هي أمانة الأجيال ، من الآباء والأجداد ، منذ أحد عشر قرناً ، في أعناق علماء القرويين اليوم ، فليعزّوها ، وليعملوا على رفعتها ، ففي عزها عزهم ، وفي رفعتها رفعتهم ، وعسى أن لايتهاونوا بها ، ولا يقلصوا منها ، وإن لا يفعلوا ، اضطرّوا علماء المسلمين في خارج المغرب ، للدفاع عنها ، والعمل على خلودها ، فتراث الاسلام ، في أي بلد كان من العالم الاسلامي ليس هو مقصوراً على واحد من الناس بعينه ، ولا على جماعة بعينها ، ولكنه الذخيرة والإرث المشترك بين جميـع المسلمين .

ولله العزة ولرسوله وللمؤمنين ، ولكن المنافقين لايعلمون ، والحمد لله رب العـالمين .

١٩٦١/٥/٢

مصادر بحث القرويين

١) (ابن الزيات) يوسف التادلي : التشوف الى معرفة رجال التصوف .
٢) (ابن العربي) محمد بن علي الحاتمي : الفتوحات المكية .
٣) (ابن خلدون) عبد الرحمن التونسي : العبر في ايام العرب والعجم والبربر .
٤) (ابن فرحون) ابراهيم اليعمري : الديباج المذهب لمعرفة علماء المذهب .
٥) (ابن ابي زرع) احمد : الانيس المطرب وروض القرطاس ، في اخبار ملوك المغرب وتاريخ مدينة فاس .
٦) (السيوطي) عبد الرحمن : بغية الرواة في طبقات اللغويين والنحاة .
٧) (ابن القاضي) احمد الفاسي : درة الحجال في اسماء الرجال .
٨) (ابن القاضي) احمد الفاسي : جذوة الاقتباس فيمن حل من الاعلام مدينة فاس .
٩) (المقري) احمد التلمساني : نفح الطيب من غصن الاندلس الرطيب وذكر وزيرها لسان الدين ابن الخطيب .
١٠) (المقري) احمد التلمساني : ازهار الرياض في اخبار عياض .
١١) (القادري) محمد بن الطيب : نشر المثاني لأهل القرن الحادي عشر والثاني .
١٢) احمد الناصري : الاستقصا لأخبار دول المغرب الاقصى .
١٣) جعفر ابن ادريس الكتاني : الشرب المحتضر في رجال القرن الثالث عشر .
١٤) محمد بن جعفر الكتاني : سلوة الانفاس فيمن اقبر من العلماء والصلحاء بمدينة فاس .
١٥) عبد العزيز ابن عبد الله : مقال له في مجلة دعوة الحق المغربية عدد جمادى الاولى سنة ١٣٨٠ .

فهرس بحث القرويين

	ص		ص
بناء فاس	١	علوم القرويين	١٤
فاس مدينتان	١	أجانب القرويين	١٤
توحيد مدينتي فاس	٢	كراسي القرويين	١٥
بناء القرويين	٣	طلاب القرويين	١٦
جامع القرويين	٤	مدارس القرويين	١٧
خطباء القرويين	٤	مكتبة القرويين	٢٢
قبلة القرويين	٨	مجتمع القرويين	٢٣
فلكيو القرويين	٩	ملوك القرويين	٢٥
أعلام القرويين	٩	مجاهدو القرويين	٣٠
ساعة القرويين	٩	ثوار القرويين	٣٢
جامعة القرويين	١٠	زعماء القرويين	٣٨
جامعات القرويين	١٠	ولاة القرويين	٤٢
القرويين اقدم الجامعات	١٠	مشاورو القرويين	٤٣
علم القرويين	١٣	سفراء القرويين	٤٥

علماء القرويين (٤٦) فمن ائمة التفسير (٥٠) ومن ائمة الحديث (٥٠) ومن ائمة الاجتهاد (٥١) ومن أئمة المالكية (٥٢) ومن الشافعية (٥٣) ومن ائمة الاصول (٥٤) ومن الفلاسفة (٥٤) ومن ائمة اللغة (٥٥) ومن ائمة النحاة (٥٥) ومن ائمة الادب (٥٥) ومن الموسيقيين (٥٦) ومن الاطباء (٥٦) ومن المهندسين (٥٧) ومن العالمات (٥٧) .

we look at the history of the world, we will find that some of the greatest contributions have been made by very small groups of people. Great values are enunciated at first through the personality of one man. With a few companions as followers, he brings them to the world at large and gradually his teachings spread. Values have such a vitality, such an inner force and vigour that regardless of numbers, they always win.

The values for which Islam has stood will continue throughout the ages. They have become part of the heritage of everyone, - whether he calls himself a Muslim, a Christian a Buddhist or a Hindu. The great values of the other religions must be accepted by those who profess the Muslim faith just as men and women who formally belong to other religions must accept the basic values of Islam. This is the supreme lesson proclaimed by the impact of Islam on contemporary India.

31 / 5 / 1961

★★★

Regarding the law of inheritance, we need refer only to the Hindu Women's Property Act that was recently passed in India. This has taken over almost literally the provisions of Muslim Law. There were two contrary views on the subject. One view was that since daughters and sons are equal in the eye of law, let property also be divided equally between sons and daughters. Another group opposed it on the ground that a woman has as *Streedhan* what her father and her husband gives. As such she should have no right to inherit the father's property. After a great debate, there was a compromise and under the law which had been passed a girl's inheritance is half the boy's. This law is evidence of how Islamic principles have influenced the Indian attitude.

These are some of the ways in which Islam has influenced India. These are the ways in which a great religion and a great culture influence at first men and women of its own faith, and then all humanity. In fact, nothing of value to man, and certainly not religion, can be restricted to any special group. Whenever any religion formulates a value that value must in course of time become a part of the possession of the entire human race. Anything which cannot become a part of all men cannot be a value.

Many of the things which we take for granted today have come from sources we have forgotten. We do not sometimes even realise whence they came, for now they have become a part of our heritage. And in such contributions of value, there is never any question of numbers. In fact, If

ballistic development means knowledge ; the supersonic bomber means kuowledge. Science and technology are today essential conditions not only for destruction but also for construction. Food itself depends on application of science to agriculture. In fact, all production depends on superior techniques. Transport depends on science. Trains and steamers and now air transport are the result of science.

Partly as a result of the democratic urge, partly out of the recognition of the value of knowledge, the Indian Constitution provides that there shall be free education for all up to the age of fourteen. Other constitutions of the world also have similar provisions but Muslims can take pride in the fact that this is one of the special contributions of Islam to world civilisation and culture. Islam for the first time stressed the importance of universal education though unfortunately many Muslims are not themselves following the teachings of Islam. So long as Muslims laid due emphasis on knowledge and equality of men and women in learning, Muslim societies prospered and their decline began only when they failed to carry out the teachings of Islam.

Finally, we come to the value of social justice. I mentioned two things: Zakat and the law of inheritance. Zakat may be regarded as the first social security law in the world. We will find that many of the other social welfare legislations which seek to provide social justice and secure concessions for the under-privileged in order to create conditions for general disappearance of inequalities may be traced to the influence of Islam.

cheat about equality in most spheres of life. Men can worship together once a year in a congregation. They can pretend to be brothers and sisters on ceremonial occasions and eat togethers and hold social intercourse. There is one test, the test of marriage which permits no subterfuge. Many societies, many races, many civilisations fail to pass this test. Judged by this test it would not be unfair to say that Islam comes off better than most religions of the world. In all religions, men's equality is accepted in theory but it is not always realised in practice. Unfortunately, certain areas of the world do not accept it even in theory. South Africa is an obvious case. It claims to be civilised, and yet refuses to accept the equality of man. A part of the African continent refuses to accept as equal the African citizen. Rulers of South Africa take pride in inequality and yet claim equality with civilised countries of the world!

We come next to the question of provision of education. Our Constitution places great emphasis on education and equality of opportunity for all. Equality of opportunity in the modern world means equality of opportunity for learning for education, for training.

The present world is essentially a world of science and technology, From the earliest times, knowledge has been power, but in earlier days, this was not always recognised. Today, it is literally true. Experience throughout the world proves that knowledge is power. The hydrogen bomb depends on knowledge; atom bombs require knowledge;

Indian Constitution is silent about religion. It is true that all religions preach the same basic truths, but when we seek to state them in words or embody them in institutions, differences arise and are bound to arise. It would not do for the State to give precedence to any one over any other. And yet no eternal truth can be expressed without giving it a particular form. The framers of our Constitution therefore recommended that the State should not concern itself with religion; though of course, neither should the State deny or disregard it.

The next value emphasized by Islam is the brotherhood of man. It has found expression in the principle of equality of all in the eye of law. If there is any value that is passionately enunciated in our Constitution, it is the emphasis on the equal right of all citizens. In this respect our Constitution is among the most advanced on the world. The Indian Constitution has both in theory and in practice given perhaps greater recognition to women's rights than most constitutions of the world. Further in India, these rights of women have come to them without struggle and conflict. Women have secured their rights not through a women's movement against men, but with the cooperation and through the initiative of the men themselves, The rights the Indian women enjoy, the duties to which they have been called have come to them without any strife, struggle or clash.

Islam lays the greatest emphasis on the brotherhood of man, on the equality of all in the eye of law. Bernard Shaw has in one of his books provided a paradoxical but infallible test for such equality. He has said that men can

also true of all religious experience that while the basic values are recognised by all, some religions seem to place a greater emphasis on one value or the other. To develop the point adequately would require many qualifications and more time than I have today. I shall therefore state it simply and dogmatically and say that while all the values are recognised in all the great religions, Christianity has placed a greater emphasis on the value of love; Hinduism on the value of devotion; Buddhism, on the value of truth; and Islam, on the value of justice, justice among individuals, communities and nations.

I wish to describe very briefly how these values of Islam have influenced the outlook of modern India as reflected in the Constitution of the Indian Republic.

The first value, the unity of the Godhead, has no direct place in our Constitution. India is a secular democratic State and has no official religion. This does not mean that India is uninterested in religion or antireligious. The whole history of India proves our deep interest and faith in religion. It simply means that the State takes no sides on questions which relate to the unseen and affect the relations of man to his creator. These are questions beyond the ken of day to day experience and our constitution is silent on them. In a way this attitude reminds one of the attitude of the Buddha. Just as the Buddha never said categorically whether he believed in God or not, our Constitution makes no reference to the Godhead.

There is, I think, a very good practical reason why the

the scholar is of equal value,

The fourth value which Islam emphasized was social justice, justice for the individual, for the group and for the community. This value found expression in two special laws - the law of Zakat and the law of inheritance. One may say that the law of Zakat is perhaps the first recognised income - tax in the world. Everyone, rich or poor must according to the law of Zakat pay two and a half per cent of his wealth to the community. Thus was built Baitul Mal, the common wealth, or the capital of the entire community. This fund was meant for the service of the old, the sick, the infirm, in a word, of all who are unable to maintain themselves by their own efforts. The orphans, the widows, the old and the disabled have a claim upon the community and that claim was to be met out of Baitul Mal. Zakat is thus not only the first income-tax, it is also the first Social Insurance law in the world. The Muslim law of inheritance guaranteed that riches would be reduced through constant division. No family could thus remain wealthy on the basis of inheritance alone. There is a saying that when a Muslim dies, even the cat in his house inherits a part of his wealth. Property is continually distributed so that large accumulations of capital are impossible unless each generation adds something to what it has inherited. This is why it is sometimes said that a family under Muslim law cannot remain wealthy for more than two or at most three generations.

These are some of the basic values of Islam, values which it shares with all great religions of the world. It is

Godhead. If Islam also emphasizes this unity, it only distinction is that it places a greater emphasis, on this aspect than most other religions. All religions again accept in principle, even though many of them often fail to carry it out in practice, the conception of the brotherhood of man, that all men are equal, regardless of colour, race, nationality, religion, or political, social or economic beliefs. Rich and poor, black and white, learned and unlettered — all men are equal and the children of God. There is no religion which can accept basic inequality between man and man. It was however very hard to realise it in practice and many religions have not lived up the ideals they preached. It is perhaps Islam's special glory that it came nearer to the realisation of this ideal than almost any other religion of the world.

A third concept — a basic concept — of almost all religions, and certainly a concept which was greatly emphasized by Islam, is love of truth and the desire for knowledge. All religions have placed a great value on knowledge and truth. Islam placed the greatest emphasis on the acquisition of knowledge and declared that men must go to the farthest corners of the world in order to acquire knowledge. In those days China was usually regarded as the end of the world and when the Hadith said that people must go to China for knowledge, it simply meant that knowledge must be acquired from the farthest corners of the globe. Then again, Islam lays down that men and women must acquire knowledge equally. For both it is equally an obligation. We all remember the Hadith that if the blood of the martyr is valuable, the ink of

have shaped and are shaping our political and legal concepts in independent republican India,

The eternal values are of course common to all great religions of the world. All religions emphasize the unity of the Godhead, though different religions may refer to different manifestations of God and sometimes imaginatively think of them as separate entities· They are however separats only as conceptual constructions and in Indian thought, they are all regarded as emanation of the one supreme principale which is accepted by almost all religions as the basic fact of the universe and the foundation of reality.

The Greeks referred to the Unknown God, who was the God of all power. In Hindu philosophy, we have the concept of the Brahman, Brahman of which all else are mere amanations. So we find it in practically all the major religions of the world. Buddhism and Jainism are perhaps the only two exceptions, because they do not state explicitiy their concept of the Godhead. It is not necessory to discuss today whether the Buddha believed in God or not. I think it will be fair to say that he never expressed categorically his view one way or the other. he seems to have held that there is so much misery and sorrow in the world, so many practical problems to be solved, so many moral issues which demand our attention and consume our energies, thoughts and feelings that we need not concern ourselves too much with a question to which nobody can give a final answer.

With the possible exception of Buddhism and Jainism, all other religions of the world emphasize the unity of the

pracchanna Bauddha, or secret Buddhist. Many of the orthodox people of the day would have nothing to do with him, and tradition has it that when his mother died,none of the local Brahmins would help him to perform her last rites.It is a strange irony that Sonkara who is now regarded as one of the greatest champions of Hinduism had to take the help of non-Brahmins for his mother's funeral rites!

Some type of Buddhism was prevalent in the area where Sankara was born, although we do not know whether it was Mahayana or Hinayana or some other school that no longer exists. That Sankara was influenced by Buddhist thought is beyond question. One would like to think that an intellect so acute and sensitive as his was alive also to the new influence that was coming to his homeland through the advent of Muslim traders and teachers. There are elements in his thought which may each be derived in isolation from different aspects of Hindu thought, from the Upanishads and from other religious and philosophical literature of ancient India. In their combination and in their general pattern and outlook and the intensity with which they are preached, they however remind one of the structure of thought and the early vigour of Islam.

The influence of Islam on the architecture, painting, language, customs, morals, social outlook, and religious beliefs in mediæval India is well known, but today I wish to speak neither of the first contacts of Islam with India nor with these mediæval manifestations. I would like to discuss today the way in which some of the basic values of Islam are working and active in contemporary India, and how they

The Arab countries stood for rationality, progress, justice, democracy and universalism. Let India and Arab lands work in unison today for the emergence of a truly human civilization that will achieve a new level of culture for the entire world.

I.

I would like to speak to you today about the contribution of Islam to the outlook and institutions of modern India. The story of Islam's relations with India goes back many centuries. In fact, Muslims first came to India within about 20 years of the death of the Prophet. Some tombs in Kerala help us to fix the date. It is also important to remember that the earliest Muslims who came to India were peaceful traders. Indian histories often refer to Mohammed bin Kasim's conquest of Sind as the first appearance of Muslims in India, but some 80 years earlier, Muslim traders, merchants and travellers had already appeared on the Malabar Coast.

In *The Indian Heritage*, I have described some of the reasons which make me think that Sankara, one of the greatest philosophers of India and the world, was influenced by this early contacts of Islam and India. Sankara was in many ways one of the most significant figures of the 8th century not only in India but the world. He was a great scholar in Buddhist logic an culture, but he used the weapons of Buddhist logic against the prevailing Buddhist order of the day. Inspite of his attacks on Buddhism, many orthodox Hindus looked at him with suspicion and called him a

the earliest script of India, was derived form a Phoenician script. It has been suggested that the use of stone in Indian architecture and sculpture was derived from Western Asia. We also know that India's trade with ancient Egypt in prehistoric times and with Greece and Rome in the early historic period was carried on with the help of Arab intermediaries. Indian traders rarely went beyond the Red Sea and Western traders often stopped in the same region.

Many of these earlier contacts are conjectural, but since the time of Alexander, the record becomes more definite. The contacts grew till after the advent of Islam, Arab influence became a dominant factor in Indian life. I have discussed elsewhere, in *The Indian Heritage*, which I am happy to say has been translated into Arabic with an introduction from my esteemed friend Dr. Omar Abou Riech, the famous Arab poet, in some detail how Islamic influence has moulded Indian thought and practice. It is enough to say today that Muslims constitute one of the major elements in Indian life and modern Indian culture shows traces of Islamic influence in almost every sphere of life.

Infortunately for the world, both India and Arab lands suffered a period of economic and political eclipse towards the beginning of the modern age. We are happy that these dark day are over and India and Arab lands are again in a position to make their contributions in all fields of human endeavour. India was once the symbol of continuity, comprehensiveness toleration,nnderstanding and compassion.

ISLAM AND MODERN INDIA

by

Humayun Kabir

Union Minister for scientific research and cultural affairs

I am deeply grateful to the Government of the U.A.R. and the University of Damascus for the honour they have done me in asking me to visit this ancient land of glory as their guest. I know that the honour is not intended for me in my personal capacity but as a representative of India and I bring to our Arab friends warm greetings and good wishes of the Indian people on this happy occasion.

The relations between India and the Arab lands go back to the beginnings of history. Even before the advent of the Aryans into India, there were contacts between the peoples of Harappan culture and Arab lands. Figures of apes and Indian elephants are found on the obelix of Shalmenesher III in the 9th century before Christ. It is said that during the reign of Solomon, a navy from Tyre went to India and brought back among other things ivory, ape, peacocks and precious stones. Logs of Indian teak have been found in the 6th century temple of the Moon at Mugheir and in the palace of Nebuchadnezzer.

As in all cases of cultural contacts, Indo-Arab influences were also a two-way traffic. It is generally held that *Brahmi*,

On voudrait parvenir à la coordination souhaitée parmi les nombreuses interventions de l'Etat et à une connexion plus rationnelle entre les programmes financiers de l'Etat et les programmes d'aménagements régionaux. Il s'agit d'un thème difficile, mais qui désormais est mûr. Les événements futurs nous diront si l'orientation politique italienne accueillera aussi dans le domaine de l'urbanisme régional ces principes qui sont déjà mis en pratique dans plusieurs secteurs et si elle donnera une impulsion résolutive à la conclusion et à la phase exécutive des études, commencées et portées déjà à bon point. Les urbanistes italiens, qui ont embrassé ces noux-eaux devoirs avec enthousiasme, gardent des bons espoirs.

Damas, 20 Avril 1961

❀ ❀ ❀

conviction que le régime de liberté doit être consideré à peu près absolu. Manifestement ou non ils s'opposent à l'aménagement régional, en acceptant en tout cas de prendre en considération seulement les problèmes techniques concernant les routes, les chemins de fer, les canaux, comme si ces problèmes n'étaient pas rigoureusement liés à ceux des nouvelles localisation industrielles et d'habitations et avec celui général de l'affectation du terrain.

Comme dans toutes les sphères d'action humaines, aussi et surtout au cours des délicates opérations de l'urbanisme, il faut trouver une ligne d'équilibre qui est, après tout, la lien de convergence entre l'intérêt individuel et les exigences de la collectivité. Il faut se conduire avec sagesse et modération. Il faut surtout employer de la persuasion, cette grande force vivifiante qui aplanit grand nombre de difficultés et détourne beaucoup d'oppositions: la persuasion dans les hommes de Gouvernement, dans les fonctionnaires publics, dans les techniciens, dans la population.

Une oeuvre intelligente de diffusion culturelle et pratique peut atteindre de bons résultats, mais il faut franchement reconnaître que ce n'est pas le propre du caractère du peuple italien d'adhérer le mieux à l'idée de planification. Pour cette raison nous remarquons qu'il y a la nécessité de proportionner les instruments législatifs aux exigences que la culture met en premier plan. Et les derniers Congrés d'Urbanisme et les études qu'on encourage chez nos Universités concordent tous à manifester la nécessité d'avoir un nouveau *Code de l'Urbanisme*, au but d'intégrer la loi actuellement en vigueur et de donner aux plans une valeur de programme bien défini.

tâche beaucoup plus vaste et active de propulsion et de développement, la tâche, c'est-à-dire, de pousser chaque territoire à l'utilisation la plus efficiente de toutes ses ressources actuelles et potentielles. Chacun comprend comment cet agrandissement du rayon visuel et de la sphère d'action qui embrasse des problèmes de nature économique rencontre des difficultés d'ordre très différent, à cause de nombreuses raisons: avant tout, car la formulation trop générique et indéterminée de la loi en matière de plans régionaux ne peut constituer un guide sûr dans ce champ si difficile et délicat; en second lieu parce que, aux termes de l'actuelle constitution, le droit de déliberer dans le domaine de l'urbanisme et, plus précisement, dans celui des plans régionaux, est délégué aux nouvelles administrations régionales, lesquelles, cependant, à l'exception du cas de la Sicile, de la Sardaigne, de la Vallée d'Aoste, du Trentin-Alto Adige qui ont des statuts autonomes, ne sont pas encore instituées et dont on ne sait non plus quand elles le seront; enfin, parce que les Administrations communales, jalouses des privilèges que la Constitution leur a donnés, voudraient toutes jouir de pareils bénéfices et ne veulent pas tolérer aucun sacrifice, vrai ou supposé, ni d'obligations ni de restrictions sur les terres soumises à leur juridiction, ni de limitations dans l'utilisation du terrain, exception faite pour le cas où il ne faut pas troubler les intérêts des populations.

A toutes ces difficultés il faut ajouter l'opposition de certaines catégories d'opérateurs économiques qui envisagent dans tout essai de planification seulement un aspect restrictif de leur liberté d'action. Etant tout à fait sûrs dans leur

ce n'est pas tout là, car dans quelques régions, et il faut citer en premier lieu la Lombardie et le Latium, ayant achevé l'arrangement et l'interprétation des enquêtes, on a donné commencement à la seconde partie du travail, engageant au même degré, mais bien plus délicate, du plan ou bien du programme ou bien de la prévision, c'est-à-dire, dans un seul mot, de l'aménagement

Ce travail consiste dans la tâche d'élaborer les tables graphiques et de leur conférer une signification légale et exécutive au moyen d'une série de règles.

Comme les aménagements régionaux sont nécessaires pour la résolution, comme j'ai dit, des problèmes concernant les territoires les plus pauvres et sous-développés, autant ils sont nécessaire pour discipliner les zones qui présentent un fort développement d'industries, de commerces, de circulation et, par conséquent, de bâtiments de tout sorte.

Observons la ville de Milan avec son territoire.

Les industries se localisent partout au dehors des frontières administratives de la Municipalité de Milan.

Elles se placent partout. Et les conséquences?.

Il est superflu de signaler jusqu'à quel point ce travail est complexe et combien il résulte utile. Mais en dehors de la complexité, qui est par nature propre de tout problème technique de vaste portée, nous devons enregistrer une série de difficultés sérieuses qui entravent le chemin à chaque pas. D'abord nous devons signaler la tendance aujourd'hui diffusée partout à substituer la simple fonction de coordination que la loi désigne aux plans d'aménagement régionaux par une

Au but de mieux illustrer mon discours je vous porterai l'exemple du Comité régional de la Lombardie, auquel j'ai l'honneur de donner mon oeuvre en qualité de membre du Centre exécutif: ce Comité embrasse toute la région de la Lombardie, qui s'étend sur une superficie de 23. 800 kilomètres carrés avec une population qui dépasse les 6.500.000 habitants et se compose de neuf Comités provinciaux, se rapportant aux provinces de Milan, Côme, Varése, Sondrio, Bergame, Brescia, Pavie, Crémone, Mantoue. Dans l'Italie centrale et dans l'Italie méridionale, au contraire, l'action de l'Administration centrale doit être nécessairement bien plus intense et elle doit décidément se charger de la direction et du poids du travail à accomplir. Les Comités, dans certains cas, sont constitués par des fonctionnaires du Gouvernement et de la Province, qui travaillent ayant à leur côté des architectes indépendants; naturellement ils ne font pas défaut les représentants des institutions locales.

Pendant ces dernières cinq années un travail remarquable a été réalisé, dans une mesure variable selon les régions, mais, en tout cas, très utile au but de mettre au jour le matériel cartographique, de recueillir des données statistiques et de les élaborer au point de vue critique et méthodologique.

Aujourd'hui plusieurs régions sont pourvues d'un dossier complet qui permet une connaissance du territoire et du milieu vraiment approfondie, comme d'ailleurs ont été individualisés, d'une façon très nette, les problèmes principaux, en particulier ceux qui concernent les zones sous-développées et qui ont davantage besoin d'interventions. Et

Lombardie et en Piémont et ensuite en Vénétie, Emilie, Ligurie, Latium et enfin en Campanie, Abruzzes, Sicile et Sardaigne. Il faut avant tout préciser que les Comités régionaux d'étude, au but de faciliter l'établissement des plans et leur mise en oeuvre, ont une sphère d'action qui embrasse les régions administratives traditionnelles dont l'Etat Italien se compose, lesquelles, comme en peut aisément comprendre, ne sont pas toujours circonscrites à des territoires qui aient une physionomie particulière et homogénéite de rapports, d'intérêts et de problèmes; de cette façon la nécessité se présente ça et là de faire des restrictions ou bien de dépasser des limites, selon le cas, ce qui entraîne des interférences parfois dangereuses et qui, tout au moins, troublent la continuité du travail. Une autre remarque à faire est celle qui suit: la constitution et la façon de travailler de chaque Comité sont différentes d'une région à l'autre. Dans l'Italie septentrionale qui, au point de vue productif et économique, a des possibilités supérieures que celles de l'Italie centrale, méridionale et insulaire, les Comités tirent leur vie et les moyens financiers soit par l'Administration centrale soit par les Administrations locales, en y comprenant les Administrations des Provinces, celles des Municipalités les plus importantes et celles des Chambres de Commerce, Industrie et Agriculture, elles aussi provinciales. Ces Comités, pourtant, tout en collaborant étroitement avec l'Administration centrale par l'intermédiaire des Bureaux régionaux des Oeuvres Publiques, ne dépendent pas de l'Administration centrale, mais ils ont une certaine liberté d'action, ce qui arrive d'ailleurs d'une façon pareille pour les Comités provinciaux, établis chez les chef-lieux de chaque Province.

des études ayant pour but les accords avec les autres Administrations intéressées.

D'après la loi susmentionnée, le plan territorial de coordination doit établir les mesures générales se rapportant:

a)aux zones à affecter à des usages particuliers et à celles qui sont soumises à de spéciales obligations ou restrictions, selon la loi;

b) aux emplacements à destiner à de nouveaux centres d'habitations ou bien à des installations de nature et d'importance particulières;

c) au réseau des lignes principales de communications routières, des chemins de fer. d'électricité, de navigation déjà existantes ou bien à étudier,

Comme on peut voir, la loi établit peu de règles,mais cependant d'une nature telle à se prêter aux interprétations et aux applications les plus vastes: en tout cas elles sont très importantes car elles confirment le principe de l'organisation de règions entières au point de vue de l'urbanisme.

Quelques années après la seconde guerre mondiale, quand la Nation eut retrouvé son propre équilibre,le problème de l'exécution des plans d'aménagements régionaux parvint à sa maturité. Les Congrès de l'Institut National pour l'Urbanisme et les revues techniques ont fait connaître au juste point cet argument. Le Ministère des Travaux Publics,suivant le désir répandu dans le milieu des urbanistes italiens, et en considération des exigences en augmentation continuelle dans le pays, en 1950 et 1952 commença d'organiser des Comités d'étude dans les différentes régions de l'Italie, d'abord en

On pourrait parler aussi d'autres nombreuses initiatives prises par l'Etat ou par des institution soumises à son contrôle (Autostrades, maisons ouvrières, écoles, installations de sport etc.)

On a remarqué de plusieurs côtés que cet ensemble vraiment considérable de mesures et d'interventions est effectué par secteurs, avec des répartitions, pour ainsi dire, d'un ordre vertical, accentuées à tel point que souvent les programmes en résultent indépendants l'un de l'autre, en quelques cas même discordants entre eux. Nous jugeons donc qu'il est indispensable une coordination en quelque sorte horizontale entre les différentes entreprises de secteur, de façon que chacune d'elles puisse parvenir à des résultats plus efficaces et chaque territoire soit considéré dans sa constitution organique. Nous éprouvons donc la nécessité d'une oeuvre de coordination qui tienne de l'aménagement d'urbanisme, indiquant par urbanisme, ça va sans dire, une branche d'étude pas limitée aux villes, mais étendue à des territoires pris dans leur ensemble.

Cette nécessité de coordination, constatée vraiment pendant plusieures années, mieux, pendant quelques dizaines d'années, eut sa première expression officielle dans la loi sur l'Urbanisation (legge Urbanistica) du 17 août 1942, n. 1150, qui depuis dix-neuf années règle la matière des plans d'aménagement en Italie. Cette loi, très importante à notre effet, dans son article No 5 prévoit la formation et la procédure d'approbation des *plans territoriaux de cordination* et en confie l'initiative au Ministère des Travaux Publics, qui doit pourvoir à l'organisation

chance d'en devenir les propriétaires entre des délais déterminés, constituent un autre des programmes qui à présent sont en cours d'exécution, avec le but d'améliorer le train de vie des territoires déprimés ou sous-développés.

Mais la résolution des problèmes économiques de l'agriculture a montré qu'elle n'est pas suffisante pour modifier substantiellement les conditions de vie des populations. L'agriculture est une activité aux rentes très limitée, et surtout, par l'intervention des machines, réduit chaque jour davantage la possibilité d'emploi de la main d'oeuvre. C'est pour cela qu'on doit penser sérieusement aux développements industriels.

Regardons la carte de transport de l'énergie électrique en Italie, la carte de la position des ports et des aéroports, la carte de distribution des industries, et nous pouvons comprendre les raisons de l'infériorité de l'Italie méridionale à comparaison de l'Italie du Nord.

Et c'est pour cela que les institutions créées avec le but d'améliorer l'avenir du Sud d'Italie, comme, par exemple, la « Cassa del Mezzogiorno » ont pris d'autres tâches outre celles qui concernent l'agriculture.

Des programmes de développement industriel ont été étudiés et réalisés en Italie suivant des décrets gouvernementaux et avec le but de résoudre des problèmes d'ordre régional. Telle a été par exemple la zone industrielle de Venise-Margbera qui a été organisée pour des raisons bien compréhensibles. Un autre exemple est celui de Ravenna, qui concerne une entreprise soumise au contrôle de l'Etat.

canaux principaux et 1700 kilomètres de canaux secondaires, 634 kilomètres de routes principales, les terrains furent subdivisés en fonds ayant superficies de 3 — 4 — 5 hectares, on a bâti 5.000 maisons rurales, on y a établi cinq villes, dix gros bourgs, quelques villages. Comme vous savez, il s'agit d'une œuvre intégrale d'aménagement régional exécutée par l'Etat. Elle fut marquée par un caractère agricole, d'urbanisation et sociale. Bien que du point de vue économique son résultat ne fut pas conforme aux calculs de comptabilité d'une entreprise privée normale, ses conséquences morales et sociales furent à tel point considérables, qu'elles excitèrent partout un grand intérêt à cause de l'exemple qu'elles représentaient.

A la suite des initiatives dont j'ai parlé, d'autres programmes d'interventions de l'Etat ont été acheminés, et à présent ils sont en cours en plusieurs endroits d'Italie; aux institutions pour la réforme agricole et pour l'assainissement, après la seconde guerre mondiale ont été flanquées les institutions pour la réforme foncière, dont nous pouvons observer à grands traits la distribution dans une carte géographique préparée à ce but, qui en indique quelques unes parmi les plus importantes. Particulièrement actives sont ces initiatives qui pourvoient à la réforme de vastes territoires de l'Italie centrale, méridionale et insulaire.

Le fractionnement des vastes propriétés rurales, qui sont encore nombreuses dans l'Italie centrale, méridionale et insulaire, l'assignation des fonds et des nouvelles maisons rurales à des familles de cultivateurs en leur donnant la

nous pouvons le considérer résolu, parce que l'arrangement hydraulique du territoire au moyen d'une série de canaux et d'ouvrages d'élévation des eaux maigres, l'aménagement routier, l'exploitation du terrain et la construction de fermes ont tout à fait transformé l'aspect de cette région dont on a amélioré considérablement la productivité agricole, en la délivrant des fièvres des marais.

Je devrais parler de l'assainissement du lac Fucino dans l'Italie centrale, de celui de la plaine des Pouilles dans l'Italie méridionale, du côté de la mer Adriatique, de celui de la région autour de la ville de Ferrara dans l'Italie septentrionale, entre Bologne et Venise. Mais je ne veux pas profiter de votre patience. Cependant je ne peux pas passer sous silence l'assainissement des marais Pontins, événement que peut-être vous connaissez déjà. Après de nombreux efforts restés inutiles, ce problème eut sa résolution définitive autour de 1930, suivant le principe de l'assainissement intégral ou «bonifica integrale». Ce principe dispose qu'il ne suffit pas d'adopter les mesures d'ordre hydraulique, routier et agricole de valorisation du sol, mais il faut absolument enraciner d'une façon continuelle et définitive les hommes sur la terre reconquise et renouvelée, pour avoir la sûreté que la vie ne subira aucun arrêt ni relâchement et que la cultivation retourne à fleurir et à progresser. La zone d'assainissement des marais Pontins s'étend sur une superficie de 137.000 hectares. entre Rome et Naples, en vue de la mer Tyrrhénienne. C'était une zone presque entièrement marécageuse où l'on quêtait les buffles et où le danger bien sérieux des fièvres éloignait les hommes. On y a construit 230 kilomètres de

pendant l'été, sont arides et tout à fait peu accueillants à cause de la sécheresse; d'autres territoires ont un niveau inférieur à celui des fleuves et même à celui de la mer; d'autres encore, qui étaient sujets par le passé à la fièvre malaria et qui en seraient encore aujourd'hui menacés si les hommes relâchaient même quelque peu leur surveillance continuelle.

Par ce tableau que je viens de tracer à grands traits, on peut aisément comprendre comme les principaux travaux de transformation du milieu sur le territoire italien pendant les siècles passés et en particulier pendant le XIX siècle et de nos jours, ont été dirigés vers l'assainissement hydraulique, forestier, agricole du sol, au moyen d'une série d'initiatives qui ont engagé parfois les propriétaires privés, très souvent l'intervention de l'autorité publique, et aussi fréquemment la collaboration entre cette dernière et des consortiums constitués en ce but.

Les exemples de ces actions, qui ont eu un accroissement remarquable à partir du dernier siècle, sont très nombreux, mais je me tiendrai à rappeler quelque uns des exemples les plus importants.

Je mentionne l'assainissement de la maremme toscane, de ce territoire qui s'étend entre Livourne et Rome, qui comprend la ville de Grosseto et qui, dans les temps anciens, comptait parmi les plus désolés et les plus affligés de notre péninsule. Ce problème préoccupa le Gouvernement du Grand-Duché de Toscane avant que l'Italie fût unifiée et il fut étudié plusieurs fois à partir du dix-huitième siècle. Aujourd'hui

contrées entières, au but de les destiner à une agriculture bien plus riche et plus florissante.

Comme tout le monde sait,la péninsule italienne s'étend du Nord au Sud sur une longueur de 1.500 kilomètres à peu près, à partir des Alpes jusqu'à la Sicile, à partir des montagnes aux neiges perpétuelles jusqu'aux berges de la méditerranée, ensoleillées et embellies en toute saison par une floraison printanière.

La plupart de son territoire est à montagnes ou à collines, qui présentent de grandes zones de bois, de pâturages, de châtaigneraies; les zones de demi-colline sont riches en cultivations qui exigent grand nombre de soins, telles que l'olivier, la vigne et partiellement le blé; la plaine, surtout la vaste plaine autour du fleuve Pô, qui occupe une partie considérable de l'Italie du Nord, est fortement et rationnellement cultivée à blé, à maïs, à fourrage, à betteraves, tomates, tabac, plantes potagères et plantes à fruits, ce qui constitue un revenu précieux pour l'économie de tout le Pays.

Tandis que, heureusement, de vastes étendues de la plaine sont en conditions excellentes, grâce à une exploitation agricole rationnelle, d'autres zones du territoire italien se trouvent en conditions altimétriques et hydrauliques très précaires et exigent des mesures coûteuses pour leur assainissement, et une surveillance continuelle et très diligente. Il s'agit de territoires menacés par les inondations des fleuves, par les alluvions ou par l'étanchement des eaux; de territoires occupés par des collines, qui, à cause du déboisement, sont menacés par des éboulements et qui,

LES PROBLÈMES DES AMÉNAGEMENTS RÉGIONAUX D'URBANISME EN ITALIE

par

Luigi Dodi

Professeur de l'Université
Polytechnique de Milan

L'idée de réaliser les transformations du milieu au moyen de l'organisation de territoires plus ou moins vastes, n'est pas nouvelle en Italie. Elle est au contraire très ancienne. Elle remonte à d'époques bien lointaines, au IX, au VIII siècle avant Jésus Christ, aux colonies grecques de l'Italie méridionale et de la Sicile, aux aménagements agricoles des Etrusques dans l'Italie centrale; elle embrasse aussi les colonisations romaines du Latium, de la plaine du Pô, de la Vénétie, les grands tracés des routes consulaires et impériales, les nouvelles fondations de grand nombre de villes à l'époque de la République et de l'Empire romain; elle embrasse encore les drainages et les défrichements exécutés au XI et au XII siècle par les Bénédictins et par les Cisterciens en plusieurs endroits de notre pénisule et enfin les nombreux essais du XV, du XVI, du XVII et du XVIII siècle dans l'Italie centrale et méridionale qui tendaient à assainir des territoires marécageux ou bien à racheter du maigre pâturage des

Literature

Bischoff, Th. L. W.

Entwicklungsgeschichte des Hundeeies.
Braunschweig 1845.

Kussmaul, A.

Von dem Mangel, der Verkuemmerung und Verdoppelung der Gebaermutter, von der Nachempfaengnis und der Ueberwanderung des Eies.
Würzburg 1859.

❀ ❀ ❀

direct proof of the «internal transmigration» at this kind of uterus is not possible. Contradictory observations were made in human-and veterinary medicine. Clinical findings. however, are not suited to judge physiological processes; systematic animal-experimental investigations were hitherto not carried out.

My experimental investigations were carried out on dogs, as the problem of the internal transmigration of eggs could be solved with absolute safety only at the uterus bicornis of the multiparous animals. In my animal-experiments I applied a method by which Fallopian tube and ovary of one side of the cornu uteri are exstirpated. According to this principle of the one-sided sterility it was to be clearly established after the conception whether an « internal transmigration » takes place, that means, the nidation of the only one-sided fructified eggs also takes place on the sterile opposite side of the cornu uteri.

Hitherto in 63 experiments the internal migration of eggs could he investigated at the uterus bicornis of the dog. In 47 experiments the «internal transmigration» was positive, that means, in both cornua uteri a nidation and foetal development had taken place. Only 16 experiments deviated from this result.

12 th April 1961

the result of the animal-experimental investigation.

By means of the mentioned method in 63 experiments the internal migration of eggs could hitherto be investigated at the uterus bicornis of the dog. In 47 cases of these animal-experiments the «internal transmigration» was positive, that means, in both cornua uteri a nidation and foetal development had taken place (fig. 4 and fig. 5). The larger number of foetuses was always situated in the cornu uteri which was not influenced by the operation. Deviations from these results were observed in 16 experiments. In nine cases the «internal transmigration» was negative, that means, a nidation of the one-sided fructified eggs had not taken place on the sterile opposite side of the cornu uteri. In the remaining seven animal-experiments a pyometra was observed; in three dogs it was developed only in the sterile cornu uteri, while a pregnancy on the opposite side of the uterus remained undisturbed.

Summary

A process is to be designated as internal migration of eggs in which eggs, ejected from one ovary, move within the genital organs to the opposite side of the Fallopian tube or the uterus and the nidation takes place only there. This scientific problem was hitherto frequently investigated. According to publications available statements contradict each other up to the present time.

Anatomically the internal female genital organs of the human being are characterized by the uterus unicollis. A

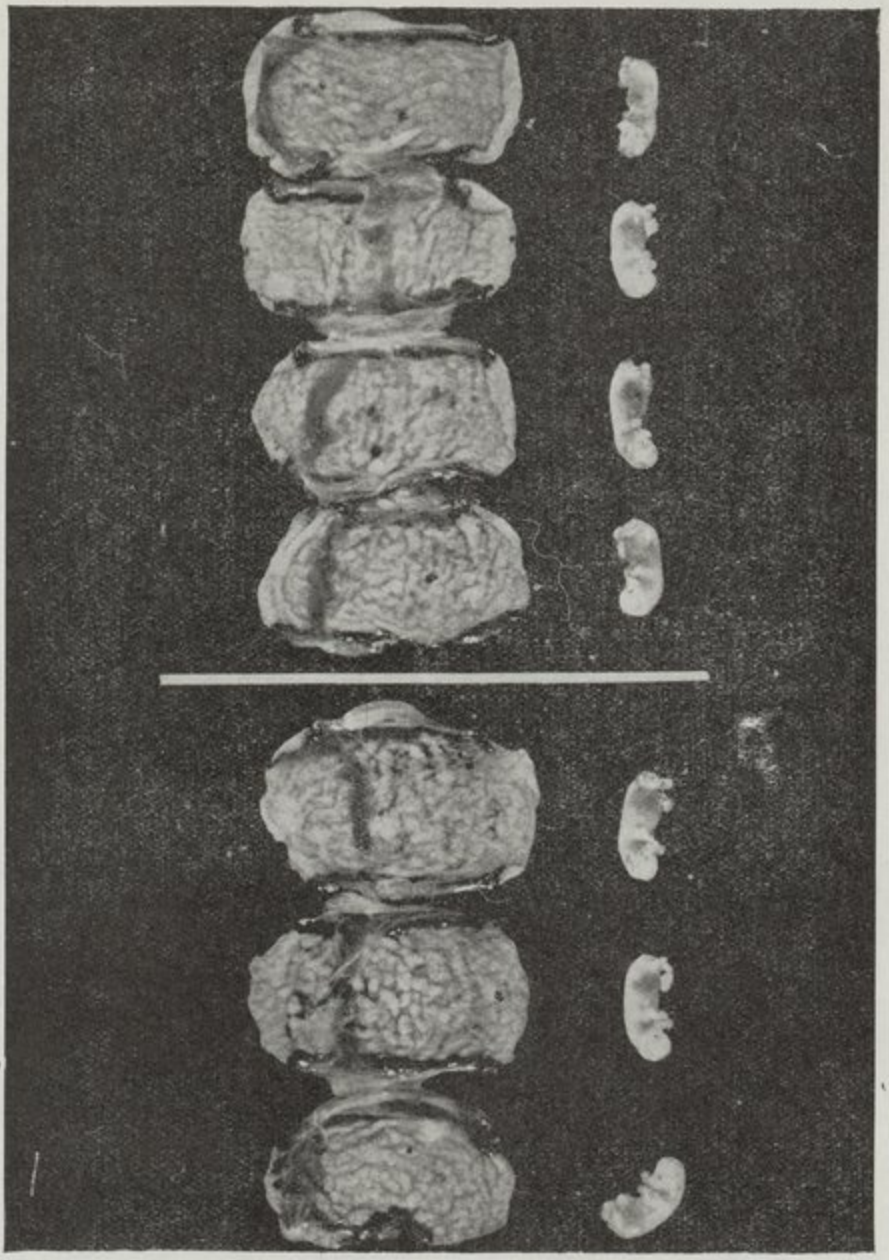

Fig. 5 Total exstirpation of the internal female genital organs of the same dog as in fig. 2.

Operative preparation of the pregnant uterus with ovary and Fallopian tube of the left side.

Foetuses and placentae of both cornua uteri.

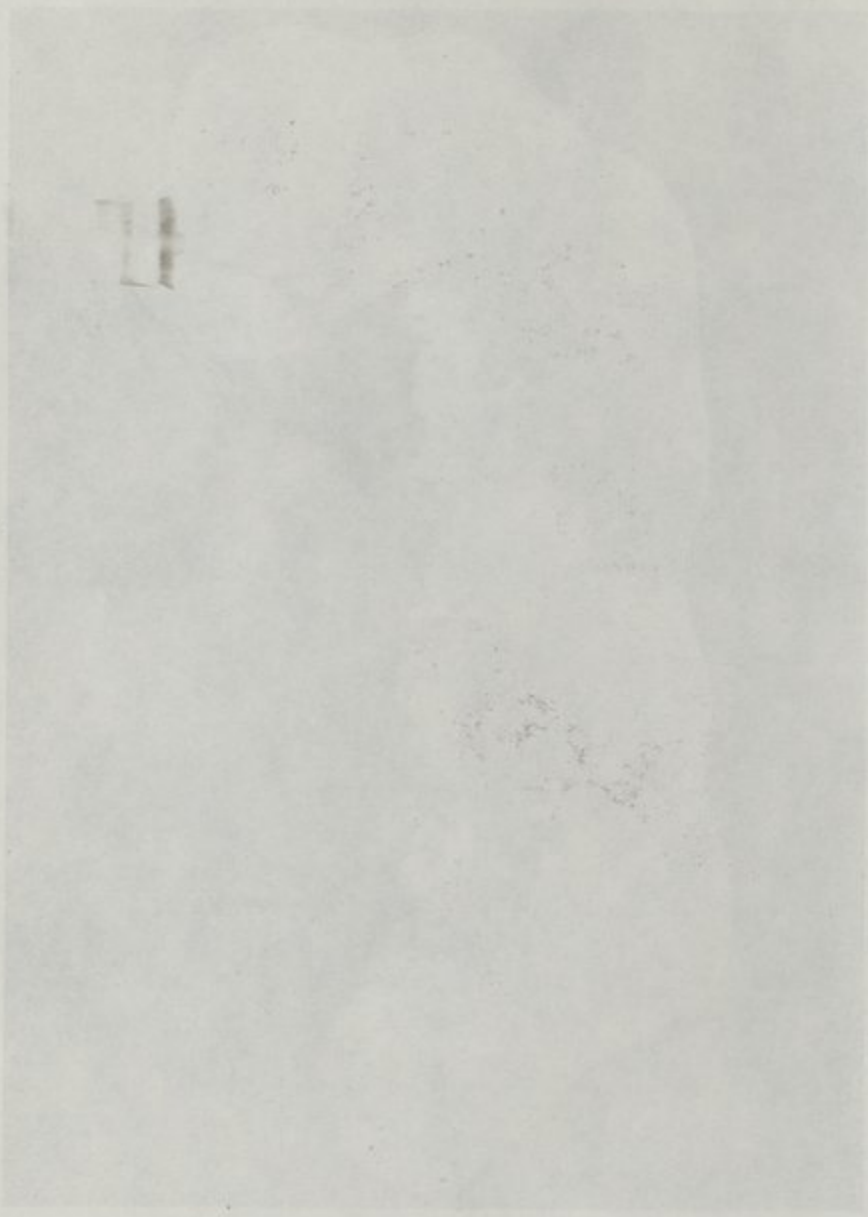

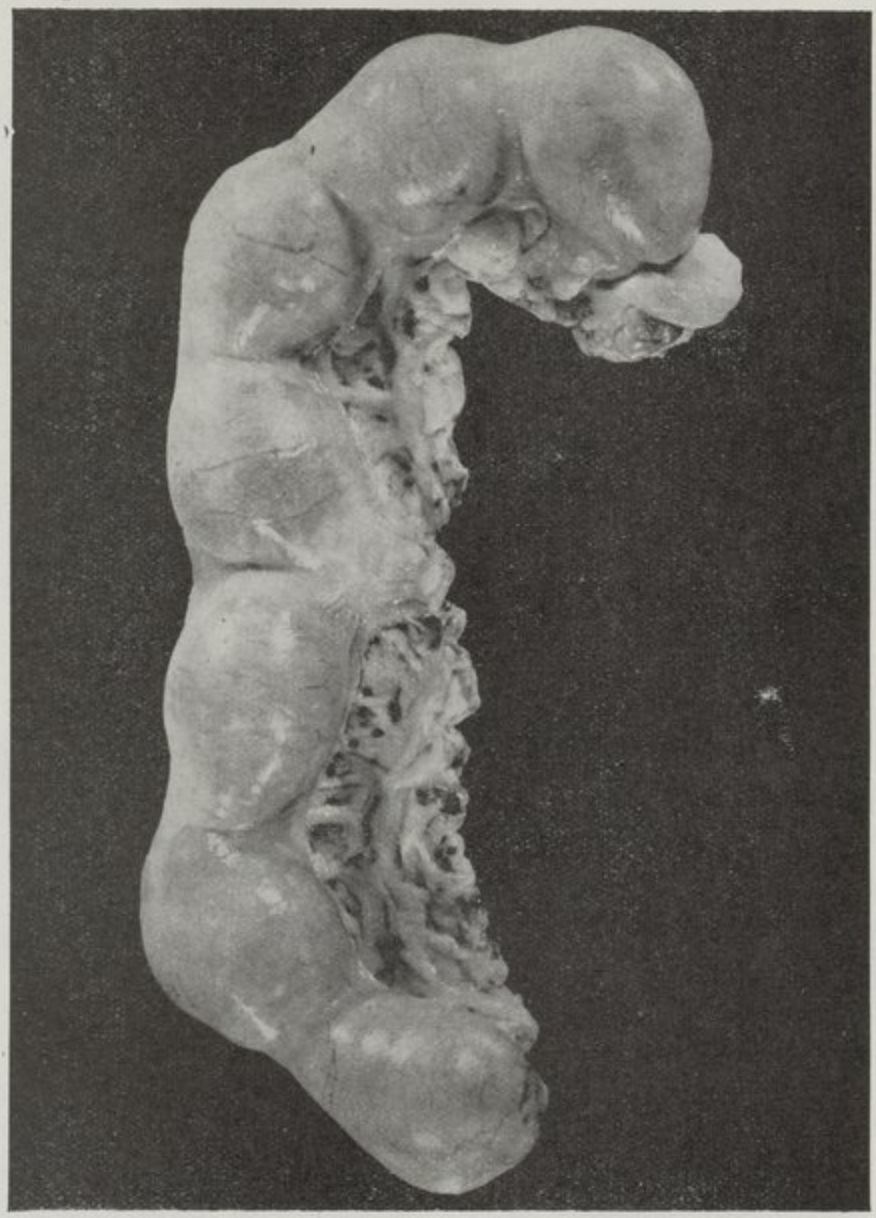

Fig. 4 Total exstirpation of the internal female genital organs of the same dog as in fig. 2.

Operative preparation of the pregnant uterus with ovary and Fallopian tube of the left side.

The ampoules are clearly visible in both cornua uteri.

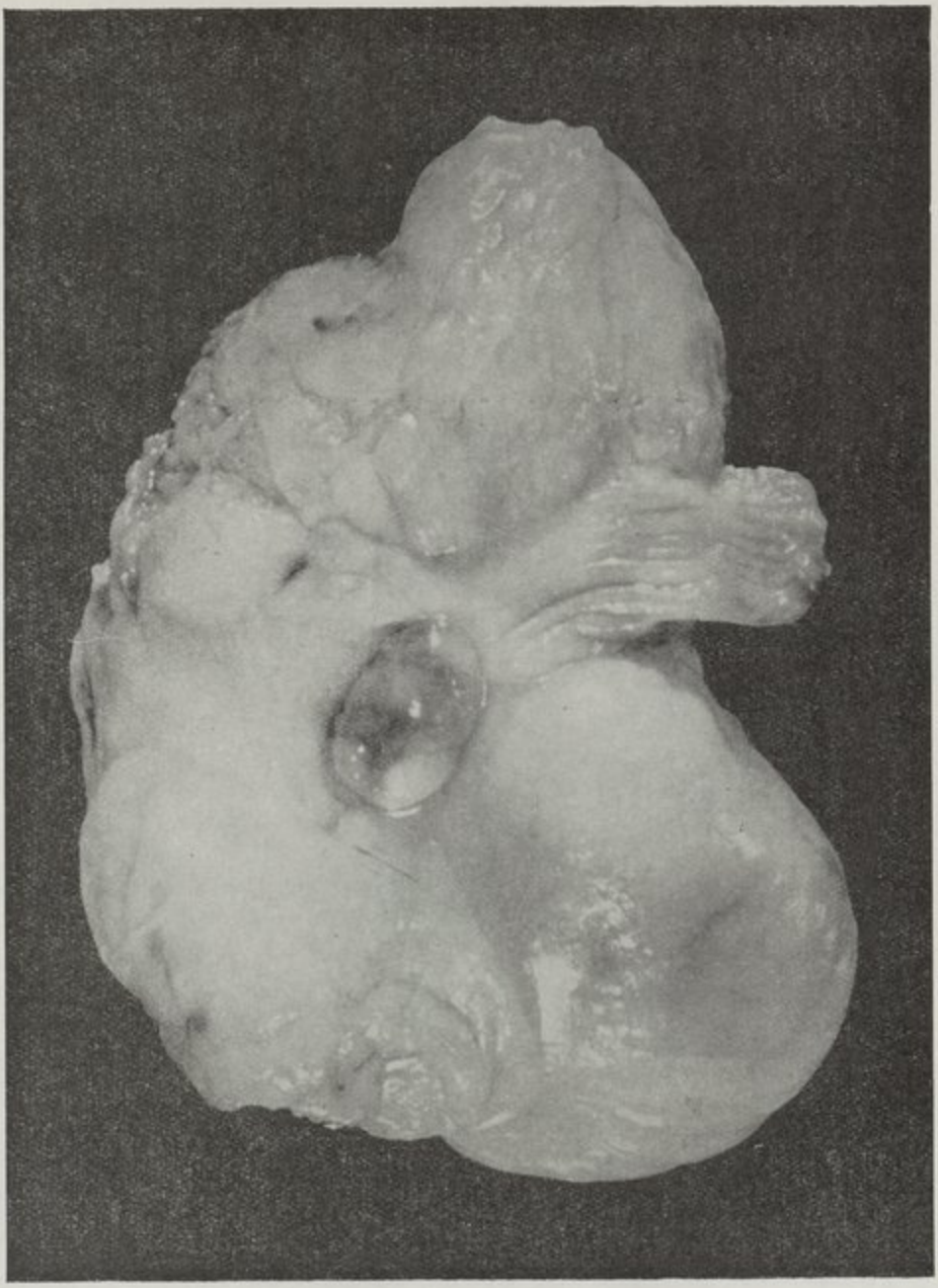

Fig. 3 One-sided sterilisation of the same dog as in fig. 2. Operative preparation of ovary, Fallopian tube and top of the cornu uteri of the right side.

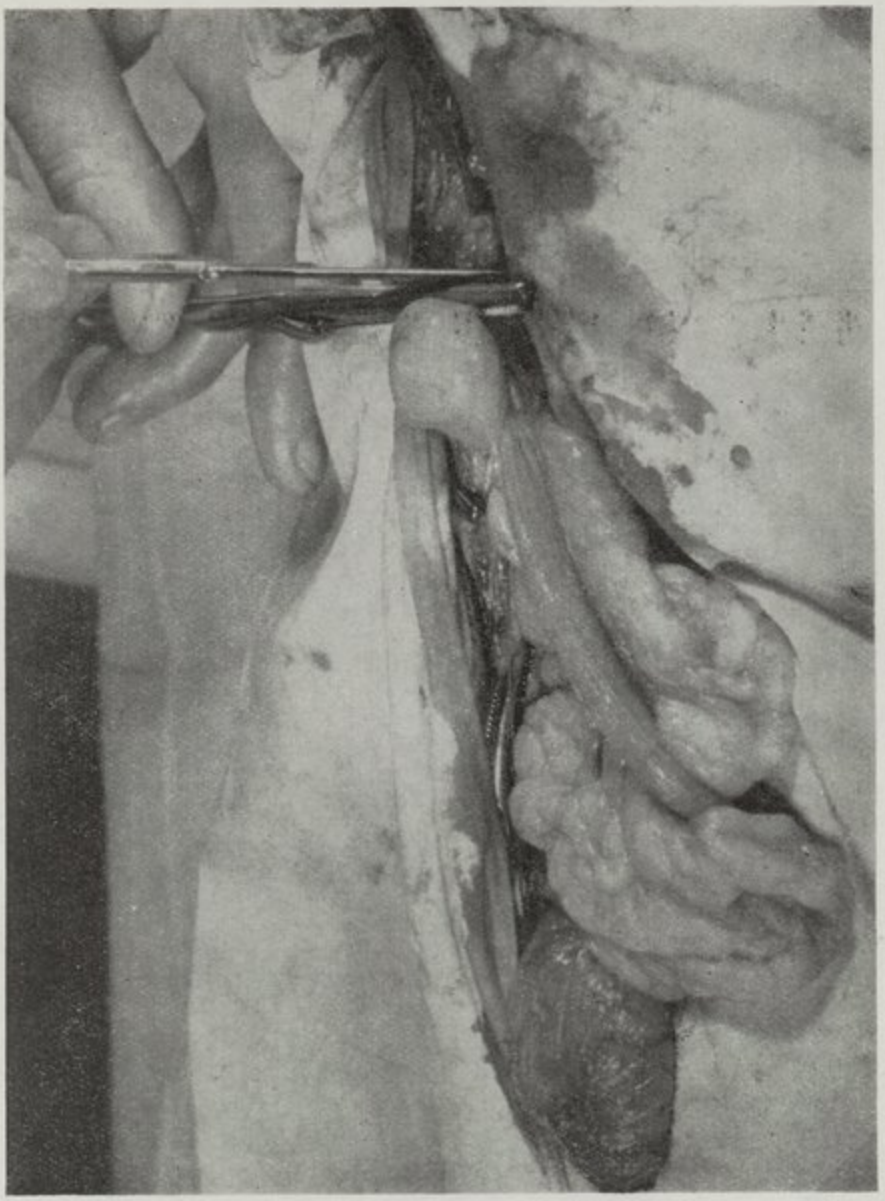

Fig. 2 One-sided sterilisation of a non-pregnant dog.
Ovary, Fallopian tube and top of the cornu uteri of the right side are exstirpated.

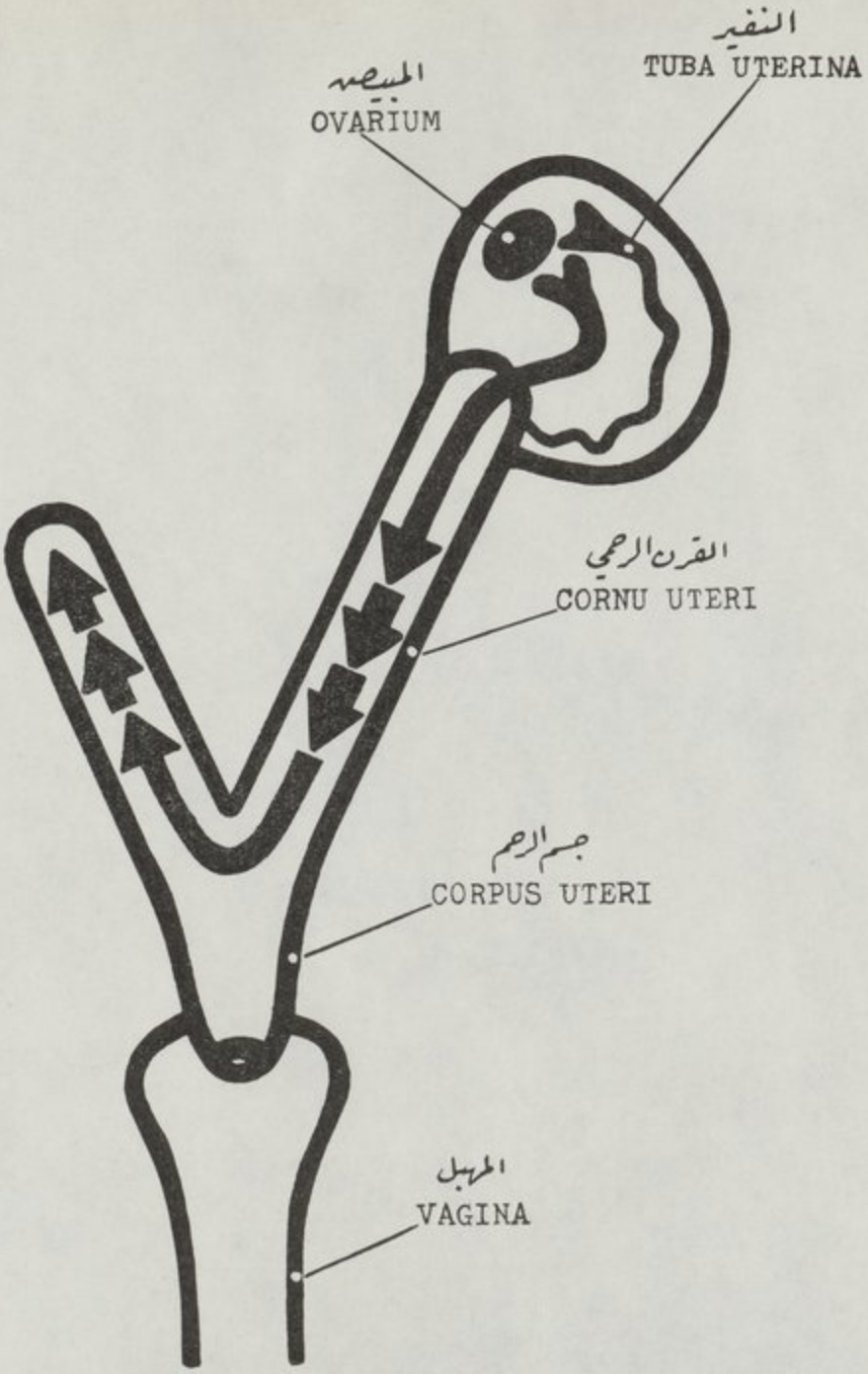

Fig. 1 Schematic presentation of the female genital organs of the dog. Uterus bicornis after the one-sided sterilisation. Marks: Problem of the «internal transmigration».

Afterwards peritoneum. musculature and fascia are individually reunited with catgut continuously or by the Sultan diagonal suture method. The skin-wound is closed by a knotted suture and is treated in the usual manner. Finally the stress-relieving stitches, which are frequently used in veterinary medicine, are applied thus rendering a bandage unnecessary. Three days after the operation the stress-relieving stitches and during the following days the threads of the knotted suture are extracted. In the case of primary wound healing the experimental animals completely recovered after a period of five days; detrimental effects were not observed. The body temperature remained uniform the same as previous to the test; appetite, urine output and excrement discharge remained normal. Oestrus and conception were not affected by this operation.

The fructification in the dog takes place in the Fallopian tube. It is estimated that the transportation of the egg through the Fallopian tube takes six to seven days. During this period the spermovium attains its implantation maturity and reaches usually the endometrium of the uterus prepared for the nidation. In general the period of pregnancy of the dog lasts eight weeks.

In order to prove the «internal transmigration», therefore, a second operation must be carried out in the dog: Four to five weeks after the conception the entire genital organs are removed under the same conditions and by a similar method as previously applied. At the thus obtained preparation the formation of ampoules of the uterus, that means, the distribution of the foetuses and placentae shows

could, therefore, be directly proved. Yet also in the veterinary medicine opinions and observations contradict each other with regard to this problem, lacking systematic animal -experimental investigations.

Own animal-experimental investigations

My experimental investigations were carried out on dogs since the problem of the internal transmigration of eggs could be solved with absolute safety only at the uterus bicornis.

In my animal-experiments I applied a method by which Fallopian tube and ovary of one side of the cornu uteri are exstirpated. According to this principle of the one-sided sterility it was to be clearly established after the conception whether an «internal transmigration» takes place, that means, the nidation of the only one-sided fructified eggs also occurs on the sterile opposite side of the cornu uteri (fig. 1).

In a series of tests a special method was developed by which the following strictly aseptic operation is carried out in a dog out of the oestrus: Narrowly limited median laparotomy between umbilicus and symphysis. After opening the peritoneum the uterus is searched for. The arteria and vena ovarica of one cornu uteri as well as the arteria and vena uterina at the top of this organ are tied up. Then the ovarial cavity together with a small part of the cornu uteri is exstirpated (fig. 2 and fig. 3), and its lumen is closed with a purse-string suture. The now freely movable cornu uteri is again connected with the Ligamentum ovarii proprium.

Comparative anatomical observations

Anatomically the internal female genital organs of the human being are characterized by the uterus unicollis. The two Fallopian tubes which, on their part, are connected with the ovaries, fall into this one corpus uteri. According to the biological task usually only one foetus is developing in the cavity of the corpus uteri. A direct proof of the « internal transmigration» is, therefore, not possible at this kind of uterus. In the human medicine the different opinions about this problem are based on clinical observations of abnormalities of the uterus in complicated cases of parturition. However, pathological processes do not permit any conclusions which could generally be applied to the physiology.

Contrary to the anatomy of the human being our uniparous and multiparous domestic animals have a uterus bicornis or uterus duplex. The separation of the cornua uteri, however, is more marked and deeper or complete with the multiparous animals so that some kind of animals even have two completely separated organs. These long cornua uteri lead to the Fallopian tubes which, similar as with the human being, are connected with the ovaries. With multiparous animals very rarely only one foetus is developing. Their uterus is suited to take up a large number of foetuses up to their maturity. Contrary to the human being the corpus uteri remains completely empty and is appropriately expanding only at expulsion. At the uterus bicornis of the multiparous animals the « internal transmigration »

of eggs to the opposite cornu uteri must have taken place.

The medical term «internal transmigration» is later formed by Kussmaul (1859). In his exclusively theoretical considerations he differentiated the «internal transmigration» from the «external transmigration». He is of the opinion that it would also be possible that the eggs of the ovary of one side could move through the abdominal cavity to the opposite Fallopian tube and from there to the uterus.

Inspired by Bischoff (1845) and Kussmaul (1859) this scientific problem was frequently investigated during the following period of more than one hundred years. According to these publications statements contradict each other with regard to the problem of the «internal transmigration» till today, lacking animal-experimental investigations.

In the literature of the human medicine, for instance, 14 authors give their opinion on this problem. 6 authors reject the transmigratio interna emphatically. These statements, however, were merely based on operative observations of accessory uterus-,stump- and ampullar pregnancies. In these unusual cases a closure of the Fallopian tube on the pregnant side was observed, while the corpus luteum was situated in the ovary of the opposite side.

The same applies to the research in the field of the veterinary medicine. Based on clinical observations 19 out of 28 scientists reject the transmigratio interna. Isolated animal-experimental investigations did not lead to any clear results.

In medicine every process can be designated as *internal migration* in which liquid or solid substances move within the organism from one place to another.

In gynaecology any process is to be designated as *internal transmigration* in which such substances move within the genital organs from one side of the Fallopian tube or the uterus to the opposite side of these organs.

Accordingly the *internal migration of eggs* would be a process in which eggs, ejected from one ovary, move within the genital organs to the opposite side of the Fallopian tube or the uterus and the nidation takes place only there. In this connection the blastocyst is also to be considered as an egg because a placental connection to the endometrium of the uterus does not yet exist.

In the medical language this *internal transmigration of eggs* is briefly called «internal transmigration», transmigratio interna or transmigratio intra-uterina.

Literary survey

On evaluating the literature available to me,all scientific publications were reviewed which refer in opinions, observations and investigations to the internal transmigration of eggs with mammal and human being.

Bischoff (1845) was the first to observe that sometimes in animals the corpora lutea of the ovary of one side did not correspond with the number of foetuses of the cornu uteri of the same side. He concluded from this that a migration

THE MIGRATION OF EGGS OF MAMMALS IN THE ORGANISM

Animal-experimental investigations in connection with the problem of the « internal transmigration»

by

Prof. Dr. med. habil. S. Günther
Faculty of Medicine, Damascus-University

Introduction

No manual of the physiology supplies as comprehensive information on the processes of reproduction as about other fields. While, for instance, circulation, digestion, internal secretion and other chapters have been dealt with in detail, little regard has been given to the physiology of reproduction and embryology. In the literature contradicting data are often stated on the function of the uterus, Fallopian tube and ovary. These contradictions are due to difficulties which are offered by the particular properties of the genital organs as experimental objects.

The physiological processes of conception, gravidity and parturition of the human being have been researched to a great extent. Completely unknown, however, are still the normally proceeding processes of the migration of eggs in the organism.

Yet he leaves a message behind: life after all is not without its amusements and even if it is a little stupid, one would be sorry to have missed it all. While youth lasts,there is gaiety in the mere act of living, and even when the body grows feeble with the passing years, there is still in the mind an ever fresh fragrance of recollected kisses and undying memories of great passions shared together. Life is not a pathetic waste, we must remember, and that every fine frendship or affection is in itself an achivement.

Yes, it is all strangely modern after so many centuries, this poetry of the mystic-astronomer-poet of Persia, with its doubts, despairs, distractions and fears, with its bitternesses and its consolations. It is by this right that Omar has become the one Eastern poet who is really known and really loved in modern Europe.

19th April, 1961

and the spirit lifted above sober restraints. The great secret is to live in the rapture of the moment.

He shows a gallant wave of hand to death and extinction. He marches on as to the drums and fifes, the rhymes come to his lips with a whistle:

Whether at Naishapur, or at Babylon,
The wine of life with sweet or bitter run,
The wine of life, keeps oozing drop by drop,
The leaves of life keep falling one by one,

And then like a defiance hurled at Fate, comes the one gallant cry:

Ah Love, could thou and I with Fate conspire,
To grasp this sorry scheme of things entire,
Would not we shatter it to bits — and then
Remould it nearer to the Heart's desire!

Out of the pessimism and the pantheism of ancient Persia, and the doubts and scepticisms of many revolutions, out of the teachings of Islam and the lessons of many creeds, from the sated quietism of a prosperous age and convulsions of great revolutions, Omar wrought his poetry and filled it with bravery and mirth, as with the sad wistfulness of his own personality. At times he looks mournfully upon the destruction of past glories and weary of doubts does not find any anchorage in understanding. But he again turns to the tavern, and as he tastes the wine and kisses the lip, sorrow departs and his heart is uplifted. So when the hour tolls when he too must pass, he will go away into the darkness which is empty and without a secret.

One moment in annihilation waste,
One moment of the Well of Life to taste
The Stars are setting and the Caravan
Starts for the Dawn of nothing - Oh, make haste.

Man moves from nothingness to nothingness; yes; but if the nerves remain fit and healthy, the wild flowers are sweet for him upon the hedge rows where his path lies. A rosy smile, or a dimple at the corner of a loving lip, can be compensation a thousand times over for those insufficiencies. He makes his heart light with wine and he walks hand in hand with desire. Love is twice blessed as every lover knows for its sufferings are as rich as its delights:

Though you survey, O, my enlightened friend,
The world of vanity form end to end,
You will discover there no other good,
Than wine and rosy cheeks, you may depend.

There is a peculiar essence of the Greek spirit — a not too distant echo both of Aristotle and Plato:

I worship rose-red cheeks with heart and soul.
I suffer not my hand to quit the bowl,
I make each part of me its function do,
Before each part be joined unto the whole.

But if life's day is to be fully enjoyed and the darkness forgotten, Omar thinks one thing more is needed—an intoxication that dissolves the inhibitions of the self and relaxes reason. Only in that state of trance which is induced by love or wine, can the sub-conscious natural man find his freedom

of his national character, there is heard from Omar a melancholy and insisting pessimism which is perhaps the leading motive of the *Rubaiyat*. At one time it resounds with the despair of man, alone in the unfathomed, inscrutable universe:

From mosque an outcast and from church a foe,
Out of what clay did Allah make me so?
Like unfrocked monk or ugly prostitute,
No hopes have I above, no joy delow.

He recalls not without right the noble ode of Sophocles:

Since all we gain in this abode of woe.
Is sorrow's pangs to feel and grief to know,
Happy are they that never came at all,
And they that having come, the soonest go.

He reflects with a delicate and gentle sorrow on the passing of all things that are great and all things that are beautiful :

Iram indeed is gone with all its rose,
And Jemshyd's seven-ringed cup, where, no one knows,
But still the vine her ancient ruby yields,
And still a garden by the water blows.

But man cannot always sit aside in sadness, in gloom. Sensuous pleasures are afforded by life, and it is well to seize them as they come. So pessimism passes to Hedonism and the weariness of thought is dispersed in music and song:

Ah! fill the cup, what boots it to repeat,
How time is slipping underneath our feet;
Unborn tomorrow and dead yesterday,
Why fret about them if Today be sweet!

Khayyam! Why weep you that your life is bad?
What boots it thus to mourn? Rather be glad.
He that sins not, can make no claim to mercy.
Mercy was made for sinners - be not sad.

In regard to knowledge, the last word of Omar was that of scepticism. To him it seemed that agnosticism, uncertainty, eternal doubt were the inevitable rule for all mankind:

Some look for truth in creeds and forms and rules,
Some grope for doubts and dogmas in the schools.
But from behind the veil a voice proclaims,
Your road lies neither here nor there, you fools.

Alike for those who for Today prepare,
And those that after a Tomorrow stare,
A Muezzin from the Tower of Darkness cries,
Fools, your reward is neither Here nor There!

The only thing in the whole world that is certain, is that the creeds are not true. It is not true, it cannot be that man has from the first been predestined to suffer for the pleasure of some « Sultan of the Sky ». But why we live, by what concurrence of atoms or spirit we dream for a moment's space before we again dissolve into the darkness. These are riddles to which the poet can suggest no possible answer:

I studied with the masters long ago,
And long ago did master all they know.
Hear now the end and issue of it all:
From earth I came aud like the wind I go.

Arising from this scepticism, arising from the depths

According to him it was better to breach any rule or commandment — than by abstention to deny the self, and with the self, to deny the permanent and real truth of Universal life. He hesitated to sum up the Universe as beautiful— he found this actual world too often ugly and confusing. He rejected outward conformities of creed and ceremony and laughed in defiance at the main articles of faith. The doctrine of predestination is the target of his sarcasms. The teaching that man is born with his Fate already settled for him was repugnant and abominable to Omar: —

When Allah mixed my clay, he knew full well
My future acts and could each one foretell:
Without his fiat nothing can I do!
Is it then just to Punish me in Hell?

But when he regards it long and deeply, in the end he can see the world for all the talk, nothing but a game without an object, in which men are merely play things, moved by an unseen, unknown and quite unknowable hand:

For in and out, above, about. below,
Tis nothing but a magic shadow-show
Play'd in a Box whose Candle in the Sun,
Round which we Phantom figures come and go.

But this was no ground for gloom or despondency. On the contrary there was every reason for being happy and making the best of what is good:

soul of things. He held and held strongly that the important thing in a man was not what he had or what he did, but quite simply what he thought and felt in life. All would be well if man was moved by a higher motive of Love, by an inner goodness of character, by sympathy with the possible ideal of Love and Beauty in the Universe.

By nature the heart of man longs for Love. Man conceives a God who is more and more a personification of love and sweetness. Love for Beauty, and deliverance through Love, is the essence of Omar's principles. For the attainment of Love he gave freedom to Romance through which one could obtain the reality of Love. After Love snd Beauty, Omar gave preference to Music because music has the power to aid mental concentration and elevate the soul. Music shapes itself as an aid to meditation. Omar points out that Love is the first step towards realisation of the Divine. This concept of spiritual love on the astral plane had been the attempt of Plato to glorifty the relationship between man and woman.

Thus Omar's pilosophy channelled into the waters of Love. Omar imagined that ultimate Truth is a vision of Beauty. This Truth lies concealed, but its manifestation is revealed in the from which finds reflected in the mirror of creation. This manifestation points towards Love. Love is the faculty to comprehend Beauty; it is the ability to offer sacrifice at the altar of Beauty. Love is the power which enables the soul to experience the pang of separation, and inspired by Love, the soul endeavours to mingle with that entity from which it has become abandoned on this turning globe.

The spirit of mysticism was gathering force, the Spirit which reaches towards the Divine through Love and self-abandonment. Only by perfect Love could His presence be obtained; but human Love, the mystics taught, led to Divine Love, and the desire of man for woman was an exampler of the ultimate desire for God. But the pessimism of Persia also touched the spirit of the *sufis* and they contemplated with deep sadness a world of transient illusion. Omar's contemporaries distinguished him carefully from the mystics of the Sufi school; and indeed Omar is far enough from their ecstacies and divine devotion. But like every Sufi — who has thought deep about knowledge and perception — Omar also felt that there must be some one Identity to connect and corelate the different sensations derived from the changing panorama of appearances. There was some Unity, some One and Absolute Being, to give reality and meaning to the diversities. Omar seems to agree with the Neo-Platonists and the Sufis that the Absolute Being expressed Himself through Love. Beauty is real and eternal, and Beauty could be visible only to Love. The attraction of atom to atom, of soul to soul, of each thing in the Universe to the whole, was the eternal Love displaying the Unity: —

«The world is a Body and the Truth its soul.
The Angels are its Senses, they control,
Its limbs — the creatures, elements, spheres;
All *seem* to be, *One* only is the whole,»

But for Omar — scientist as well as poet — there was no ecstasy to be obtained. He aimed at an inner harmony created by a loving heart, of the man's own soul with the

In their religious thought, the Persians combined the scepticism of a lively and vivacious temperament with the observance of a rigid ecclesiatical polity. They indulged in boldest speculations and sought to plumb the Universe by human understanding. Their thinkers reflected and selected from creeds and philosophies of alien countries. The subtle Persian mind had leanings to Greek and Hindu speculations. In Khorassan the followers of the Buddha or of the Hindu Vedanta had existed for centuries. The Vedantic teaching of an illusory world of appearances, and an all pervasive imperceptible Absolute Reality had made way among Persian people. From the west had come the influence of Greek thought, most familiarly in its latest Neo-Platonic form of Pantheism with an unknowable Absolute radiating degrees of divine emanation. Khorassan continued to be a home for the ideas of Pantheism and the dreams of incarnation.

With the speculative mind of the Persians went a temperament deeply pessimistic, passive under the oppression of Destiny which made man its play-thing for a passing moment and tossed him back again from illusion into nothingness :

Think of this battered caravansarai
Whose doorways are alternate night and day
How Sultan after Sultan with his pomp
Abode his hour or two and went his way.

Then to the rolling Heaven itself I cried
Asking: «What Lamp had Destiny to guide
Her children stumbling in the Dark? »
And « A blind understanding!» Heaven replied.

«He brought me here first to my great surprise,
From life I have gathered but a dim surmise,
I go perforce. Why come? why live? why go?
I know the questions but hear no replies.»

The imagery in which Omar has dealt is of course Oriental, Persian to the core. The dark blue firmament, the bulbul and the rose, the breath of Jesus, the chess players and the pawn, the mole on the lovely cheek, the black and scented curls of the beloved, these are as common in the *Rubaiyat* as in other Persian verse. But in Omar they appear fresh, they strike, they are felt. And many of the images are his own: the shattered glass, the potter and the pot, -God and Mankind - Plato's shadow-play; he uses them all well and with originality·

For wine specially the Persians had always a weakness. Nothing could stop their indulgence in the forbidden liquor. But Omar's wine and rose speak of the horrible tragedy of all. To banish a tendency to melancholy was to drink wine with melody, to be merry with one's friends, to occupy oneself with verses, to contemplate running water, gardens, verdure and sweet fresh faces. The practice supplied symbols to the mystics and metaphors to the poets; and the grape juice stood for the spirit of God, and its intoxication for the ecstacies of grace:

Here with a loaf of bread beneath the bough,
A flask of wine, a Book of verse and thou
Beside me singing in the wilderness
And wilderness is Paradise enow.

Ode of Hafiz should be followed by a quatrain of Omar. «To read the Ode without the quatrain was like drinking wine without relish».

Omar gave expression to the eternal passion and eternal pain of the human soul, and the *Rubaiyat* remains the finest specimen of the poetry of pleasure and pessimism. He tried to penetrate the veil of futurity, but realised the futility of human efforts. Omar's meditative melancholy and highly sensitive response to the beauties of life and nature, never allowed him to forget the sadness of life, but never also disturbed our enjoyment of the moment. There is a perfect fusion of artistic rapture with spiritual pang. There is melancholy but there is no distress; there is resignation, but there is no despair! It is an attitude to life in general, it is an attitude to death! It is a pessimism that laughs because everything, even weeping, is futile; a bitter laughter twisted out of suffering, when even the suffering is so unnecessary in this incongruous universe.

His style is extraordinarily flexible, and the touch very light and melodious. The studied simplicity of language gives force and strength, and his quatrains become striking and astonishing. The verse is tempered hard, the steel bites sharp. The lines reflect real feeling, deep thought, sometimes an indignation as savage as Juvenal's. A force and a sincerity, a primary driving power underlies the entire *Rubaiyat*. The directness of Omar, that bold, straight, honest rush of fact, his refined images, remain unparalleled in entire oriental poetry. Who else than this prince of Persian poets could have written :

from whence he has become divorced. These matters have closer relationship with mysticism and accordingly the background of Omar's thoughts and beliefs.

Reality is that glimpse of new ideas, new beliefs and new truths revealing into intuitions, emotions and simple perceptions. But Omar said that after simple observation, it becomes necessary to prove and experiment it upon the anvils of science and logic, because like the other senses of human beings, his simple experience may also be liable to error. The rationalists like Al-Ghazali,Bergson,Iqbal or Hegel believe that reason alone is prone to mistakes; the heart, intuition or experience always remain infallible guides. Reason may have lapses for its aids are logic and argument, and these may be misleading. But simple knowledge to an illuminated mental state, reveals the secrets of truth, and perceives things not in parts but as a complete whole, thus eliminating all chances of error.Reason is that arithmetician which attempts to weigh truth in accordance with the formulas of mathematics. Simple experience is that vision, which comprehends the wholesome truth in a moment without any recourse to analysis.

The *Rubaiyat* captures the elegance and fragrance of an age for ever gone; Omar was the poet of its hey-day, its flippant ease and learned scepticism. He owes his popularity to his direct appeal, the perfect fitness with which he drapes his reflections deeply felt. He is a free-thinker clothing his doubts and disappointed idealism in vigorous words. His verses were most congenial to oriental temperament.In India, Emperor Akbar repeated the common appreciation and even ventured to place him beside Hafiz, exclaiming that every

last beheld the desired Truth in the gleam of his innocent illuminated thinkings. Since then he relinquished the arguments of traditionalists and found inadequacy in the methods of science, philosophy, reasoning or logic. He said we can attain by logic, that which may be comprehensible, but not that which is inscrutable.

Besides, the free thinkers of the period had sown the seeds of Neo-Platonic thoughts of which the harvest was reaped by the sufis. The Neo Platonic thought conceived that the soul having been separated from God suffers the pang of separation and can attain peace only when it shall return unto Him in a blissful union. This very philosophy became the foundation stone of sufism and continued to inspire a thousand streams of fanciful poetry on the pangs of separation.

According to Neo-Platonism, the souls that have turned pure, and that which is no longer attached to the body, shall unite with the Sentient Reality for ever. This in nothing but an echo of the concepts of *Moksha* in the *Upanishads* and the *Nirvana* of *Buddhism*. Also that the entire Nature is pervaded by an Unseen Reality, is a knowledge that had dawned in India of the Vedic times, and later left its impress upon Greece and Iran. God is the image of the Greatest Good and all things of the world emanate from Him. The Universe is the reflection of that conscious awareness which exists in the creation. Therefore the entire Nature is the breath of God. The inert is nothing but a cloak or mantle of the Conscious. The followers of this theory believed that by meditation of a True and Good God, man can arrive at that origin

Europe was riven by barbarian hordes . while cruel nobles and crueller priests struggled for plunder or subsistence, and the amusements of their leisure were but the licentious loves or bloody tournaments, the Universities of Islam and the palaces of her sovereigns had given a home to art and to philosophy. In a word, civilization was barely known outside the Mussalman East. And in such a world Omar lived and died.

The period of Omar saw the emergence of such thinkers and philosophers who were tormented by certain ultimate questings and curiosities. What is the nature of God? What is his relationship with the creation and soul? What is the semblance of the soul, and what do we understand by the Divine Mind? Such interrogations undoubtedly stimulated thoughts and led to the blossoming of philosophies. In fact, Islamic philosophy was the flowering of curiosities awakened with regard to creation, and Omar endeavoured to find the solution of these problems.

There has been a dispute since times immemorial whether Mind and Heart are the same or separate entities. But ordinarily, individual has looked at the creation from two angles. The first is the intellectual perception which led to the development of science; the second angle is of the emotional kind whose aid is sought by saints and philosophers, poets and artists. In the olden times, the emotional types were called *visionary*, for they perceived Truth but could not comprehend it. In Omar this emotional glow lighted up his dark and despairing horizons. The flame of intuition radiated from his sluggish reasonings, and he at

possibilities of an heretical power.

One pictures Omar living in Nishapur, a scholar and a scientist, growing from year to year in honour and renown, sought by great, living in a society that venerated scholarship. He wrote 10 books in all: 3 on natural sciences, 4 on mathematics, 2 on metaphysics, and 1 volume of verses. He was fond of music and song, and wrote quatrains of merit, that have echoed down the ages.

But Omar's fame during his lifetime rested upon his abstract intellectual studies and his researches in mathematics and astronomy. The verses were lightly thrown off in his leisure hours. They are not and were never intended to be a consistent whole. They were not written under any continuous inspiration or with any protracted effort. They are in fact miniatures in which a learned mind sought emotional relief after toilsome traverses at the rarefied altitudes of abstract thought. They are an artistic expression of varied moods and feelings knit in a harmonious design.

To know the man, one has to first analyse the thoughts and desires that moulded those generations of Persia. The Arab civilization carried the embers of Greek spirit and rekindled a flame to warm the whole world. For four centuries power and learning had been the appandages of Islam. In her girdle were the keys of all the world and in her coffers the heritage of East and West. Judea and Chaldea and the fabled wealth of Syria, the pure contours of Greece and the prolific splendour of Rome, the opulence of Byzantine royalty and the renunciation of the Christian saints, all had passed to the civilization of the Oxus and Xaxartes. While

upon. To speak about him is like going to a tavern, and to listen to his quatrains is like getting intoxicated with wine.

Nishapur is today, a broken down dilapidated city, but once it was the capital of Khorassan, the glory of a rich and cultural heritage. In the 11th Century A. D., it was the splendid capital of a prosperous province. The Mongols had not yet come to divastate the land.

In Persian language *Khorassan* means « *the land of the Sun*»; but the sun is tempered, soil fertile with green fields. Round the plains rise bold, bare mountain ranges and the market still trades in shawls, carpets and golden fleece. Nishapur was the first and perhaps the fairest city in the Persian land. It possessed no less than six colleges for the study of theology, science and philosophy, and Nizam -ul-Mulk had built in it a great observatory.

Born not later than A. D. 1040, Omar Khayyam was well over 80 when he died a man of knowledge and learning, surrounded by respect and veneration. *Khayyami* in Arabic means «*maker of tents*», but no legend has been so inconsistent as to make Omar Khayyam a tent-maker. He studied metaphysics and higher mathematics, was an astronomer of repute, and was admitted to the table and fellowship of nobles and princes. He was summoned to reform the calendar.

He travelled extensively over the then civilized world: performed pilgrimage to Mecca, saw Balkh and Bokhara, went to Baghdad and visited the learneds in various colleges and universities. He went to Cairo and probed into the

OMAR KHAYYAM

—his Poetry and Philosophy—

By

DR. Devendra P. Varma, M.A., Ph. D.

Visiting Professor of English

Across the Hyrcanian desert and vasty wilds of wide Arabia, in the province of Khorassan lies a sleepy little village called Nishapur. As night advances, as the moon climbs up the meridian and a solemn stillness holds the neighbouring landscape, an invisible perfume rises from the tomb of the poet buried in grass and weeds. As the wild roses bloom nearby and their soft petals fall in a heap sprinkling themselves upon the tombstone, a voice as though is wafted upon the midnight breeze:

«That even my buried Ashes such a snare
Of perfume shall fling up into the Air
As not a true believer passing by
But shall be overtaken unaware».

In the course of a short lecture it is rather impossible to capture the spirit of the high-piping Pehlavi of Persia. His poetry is for enjoyment and his philosophy to dream

«True I drink wine, like every man of sense,
For I know Allah will take no offence,
Before Time was, He knew that I should drink,
And who am I to flout his prescience? ».

— Rubaiyat of Omar Khayyam*

---

* *Rubai*, of which the Arabic plural is *Rubaiyat*, the name is taken from the Arabic word «*Four*». This pattern of quatrain is a Persian invention of some antiquity. The effect reminds us of Greek epigrams, with its tersity, its point, and its bite.

The oldest manuscript so far discovered is in the Bodlein Library at Oxford and contains 158 quatrains only. One manuscript in the India House, London, contains 362 quatrains while a manuscript with Calcutta Asiatic Society contains 516 in all.

Miss Cadell, a scholar of Persian, writing in 1882 mentioned in *Frazer's Magazine* that she came across nearly 1200 quatrains going about somewhere or other in Omar's name, but felt that between 250 and 300 were genuine.

correctly interpreted. Every Indian can rest assured of his right to equality, his right to freedom, his right against exploitation, his right of freedom of religion, his cultural and educational rights, his right to property and his right to constitutional remedies. We can therefore face our future with equanimity, we can look forward to all the industrialisation in India without fear of any loss to our spiritual conceptions. We have atomic reactors in India, yes. We are making progress in atomic science, yes; but we already stand pledged before the world that whatsoever the circumstance, an atomic bomb will never be manufactured in India.

Damascus Dec. 14, 1960

* * *

because of any new doctrines but because of our own spiritual conceptions. Sometimes our conceptions get distorted but each distortion finds a redeemer. There was for instance at one time an attempt to differentiate between the Hindu Indian from the Muslim Indian. The attempt appeared at one time to succeed. But at this crucial time when Indian spiritualism was put to test we had a redeemer and our redeemer was a firm believer in Indian spiritual conceptions. Rather than live and see one Indian being discriminated against another he preferred to sacrifice his own life. Gandhi's body was consecrated to the fire and his ashes were strewn, as were the ashes of Buddha strewn 2500 years ago, in all the rivers and streams of India. His ashes were not strewn in vain. On the 26th January 1950, representatives from the banks of all those rivers and streams of India assembled in Delhi proclaiming India a Sovereign Democratic Republic and securing to all citizens:

> « Justice, Social, economic and political Liberty of thought, expression, belief, faith and worship
> Equality of status and of opportunity; and to promote among them all
> Fraternity assuring the dignity of the individual and the unity of the Nation».

These conceptions are not new in India and their acceptance involves no search of heart on our part. They have the sanction of our scriptures and we have now men, learned and enlightened men, and not priests believing in dogma, to ensure that the scriptures will continue to be

pantheon, however, women were allotted roles which could be the envy of any modern aspirant to a Cabinet post. We did not have a god of war — but a goddess. Similarly goddesses and not gods were the chief deities of Education and of Wealth — or, in our modern terminology, of Finance. But then India fell into a slumber and with the loss of our dignity the woman in India lost her freedom. A widow was not allowed to remarry. A tortured wife was refused the right of divorce and a daughter the right of her inheritance. But when India reawakened it was but natural that our mothers, sisters and daughters should reawaken with us. I do not know of any struggle for the emancipation of our women. We, both men and women, struggled together for India's emancipation and when our society was emancipated we, men and women, were emancipated together. It is not because of any new social doctrines but because of our own ancient tradition that a widow today remarries, a tortured wife takes her divorce and our daugters inherit our properties as our sons do. It is no wonder therefore that our sisters compete with us today in the public service appointments. It is no wonder that we have today a woman as Deputy Minister of Finance, a woman as Deputy Minister ot Interior, a woman as Deputy Minister of the External Affairs, a woman as the Chief Justice of a State, a woman, who at one time was the President of the United Nations General Assembly, as our High Commissioner in London, and a woman as the Governor of a major State.

All this is happening in India and it is happening not

show striking examples of Indian influence. Indians migrated to these parts in thousands and it is said that Indian States existed at one time in these parts. But there is no record of any general or admiral that conquered those territories, nor that any of the States paid tribute to India or were in any other manner regarded as colonies of India. Our relations with these countries were based on the principles of non-interference in internal matters, non-aggression, respect for their sovereignty, principles which have now been enlarged into the Five Principles which guide our foreign relations with all countries today. When we talk of non-alignment with any power bloc today and of equal friendship with all then for us it is not a matter of expediency but a cardinal belief.

Similarly in our internal affairs also we are not tormented by the new theories, already turning into dogma, governing society and social relationship. We do not feel the necessity of building new temples — our old temples have been thrown open to us. There is with us no conflict between our belief and our practice. The equality of man, the equality of the human being rather, has been established in India as our unalienable right. We could thus for instance with the greatest ease accept the modern position of women in our society.

The emancipation of the women in India had its roots not in any new social doctrine but in our age old traditions, in our Spiritual beliefs. In the mythology of other nations women are allotted roles as goddesses of love and beauty and other feminine and mystic conceptions. In the Indian

reforming and revitalizing the villages of India in a programme which has equal priority in our national planning. And while India is getting accustomed to new sounds of our young industry a man is lonely walking from one village to another covering the length and breadth of India clad in loin cloth and preaching the doctrine of love. When this man, Vinoba Bhave, passes near a big city State Ministers go to meet him and our Prime Minister and our President - and they go to meet not a divine or a saint but a man who believes that an Indian interpretation can be given to values different from those taught in the school of economics, an interpretation other than those contained in the pamphlets of political parties.

It may appear a vainglorious boast to say that our spiritual conceptions can meet the challenge of modern times, but our past and recent history entitle us to this belief. In the past the major part of India was knit into a close empire by an emperor, Ashoka, who fought but one battle only to renounce war for ever. And he succeeded in uniting the people of India by love. It is no wonder that we have chosen as the emblem of our republic the emblem of Ashoka, «the wheel of duty, the dynamism of movement, a promise that India would no more resist change and that she must move and go forward».

About the time of Ashoka Indian culture and Indian influence spread abroad mainly to South East Asia. Sanskrit words form a very high percentage of the Thai language even today and temples in Thailand, Cambodia and Indonesia

not only fought the battle of his life-time but he has paved the way for his successors. Henceforward it will not be the high priests of closed clans that will interpret for our masses our spiritual values but men like Dr. Radhakrishnan who believe in scientific research and in progressive enlightenment.

The fight between free thinking and dogma is a continuous fight with us in India. Our conceptions became blurred from time to time, but time and again we find a redeemer who once again takes us on the straight path. Some of the movements which have plagued mankind like the inquisition in the past and racialism not long ago were based on hatred born of ignorance. The base values in man have often had the upperhand in India also but in India they never had the support of our enlightened intelligentsia and they have always been checked. Some preach hatred and they are heard for a time, but then others preach love and their voices ultimately dominate. We could thus achieve our independence without carrying over in our young republic any hatred for a former adversary - and we can maintain our independence without nurturing hatred towards any country or any movement.

Modern times are putting greater demands on us, on Indian society and on the Indian community. The pace of industrialisation is increasing with the state appearing as the greatest enterprizer of all. This will put great stress on us, but we can be confident. We are not only building atomic reactors and giant steel plants but we are simultaneously

can be achieved in two ways; either by the abandonment of the temple or by cleansing it of unsocial elements as Jesus did in Jerusalem and Luther in Wittenberg. In India it has always been the cleansing approach that has been adopted. The temple was not abandoned to the unsocial elements. Gautama, the Buddha, followed this method six centuries before Christ and Mohandas Gandhi, the Mahatma, followed it nineteen centuries after Christ. Both of them were revolutionaries and both of them turned into revolutionaries because they found that the society of their time had corrupted by a dogma the spiritual conceptions which India acclaims. Both of them, rather than take the downtrodden masses away from the temple, opened the doors of the temple to the masses.

Gandhi's fight would have been incredibly easier if he had started a new religion or created new temples for the millions and millions of Indians, whom a self-interested clergical hierarchy and the vested interests of a feudal landed gentry had condemned as slave labourers and untouchables. But if Gandhi had created new temples he would have lost in his stature both as a man and as an Indian. The harmony of India would then have been lost. There would have been a break in the continuity of Indian thinking, of Indian culture and in all that is of value to India. By throwing open for us the temple gates Gandhi has avoided for us the conflict and contradictions that would otherwise have arisen between our spiritual conceptions and the material conceptions that we learn today in modern schools of economics. Gandhi has

But every religion has to face the problem of man trying to shirk his duty and avoiding to work for his salvation by the continuous observance of the prescribed moral code. People would rather be promised salvation by the performance of some ritual or the incantation of some formula. In the profession of every religion there is thus the difference between theory and practice. Tombs of saints, springs of water, any odd place for that matter becomes a place of pilgrimage where salvation is sought by elaborate rituals through self-appointed priests. Rituals are thus born and with them a dogma and these two, rituals and dogma, dominate the better concepts of pure religion and sometimes become religion itself. This process has been noticed in India also. But in India alongside with this process there has been a continuous fight against the corruption of religion, a corruption which invariably leads to social injustice.

Social justice, in other words, the safeguard that man should not be exploited by his fellow man to serve the interests of one man or a class of self-chosen men, has been a tenet of Indian spiritual belief. We of course have accepted individual merits and the demand for leadership in society at every stage, but we have also accepted that when any self-chosen section of society imposes its will, as birthright, on the rest of mankind then faith itself or Dharma looses its spiritual quality. A corrupt priesthood naturally justifies this debasement of religion and creates a dogma sanctifying the injustice.

In such a contingency the rehabilitation of social justice

India itself is; but for our present purpose we may limit our efforts to enquire into the nature of Indian thought. Indian thinking has been from the earliest times, and remains today, a fusion and evaluation of many ideas and many concepts both native and foreign. Our mind is not closed to any trend. The evaluation of all the ideas and fusing them with our culture is, however, our own affair.

What is known as India today began to take shape at an early period in history. It was born with the birth of our early codified thought, a process spread over a long period after the arrival of the Aryans into India. The fount of Indian spiritual thinking is contained in the *Gita*. The *Gita* has its religious aspect but, at the same time, it is not correct to say that the way of the *Gita* is merely religion. It is much rather the way of duty, — a moral code to which everybody has access. It is not religion in so far that it admits of no set beliefs and it bars no one from its fold. Indeed Shri Krishna says in the *Gita*: « I accept individuals in the particular manner in which they approach me. Whatever may be the path that a man treads, it ultimately leads to and joins my path.» Thus the path of the *Gita* is open to anyone believing whaterver he may, provided only that he is sincere in his belief. He may tread any path provided he is sincere in the path he chooses.

Every religion in the final analysis isa moral code, where the believers are called to perform their duty in accordance with the higher values accepted by man. Pure religions thus differ from each other only in minor details.

MODERN ASPECTS
Of
INDIAN SPIRITUAL CONCEPTIONS

by

A. H. SAFRANI

Consul General of India

The early Indian scriptures are said to be Hindu scriptures, the religious scriptures of Hinduism. This statement is true but it does not contain all the truth. There is no word in these scriptures, or in the Sanskrit language for that matter, for either the word Hindu or the word Hinduism. There is also no word in Sanskrit for religion as we understand it. The word used in Sanskrit for religion is *Dharma* which may best be translated as duty and moral obligation, duty of man towards man and the duty of man towards nature. The early Indian scriptures are thus in their essence a moral code, a code which every Indian may regard as his own early heritage.

We are justified in taking this point of view because Indian spiritual conceptions are the outcome of the efforts neither of one man nor of one generation nor even of one race. In this context it may be pertinent to enquire what

Université de Damas

Conférences Publiques
Année académique 1960-1961

---

page

1. Mr. A. H. SAFRANI
   Modern Aspects of Indian Spiritual Conception 3
2. Dr. Devendra P. VARMA.
   Omar Khayyam: his Poetry and Philosophy 15
3. Dr. med. habil. S. GÜNTHER
   The Migration of Eggs of Mammals in the Organism 33
4. Prof. Ing. Arch. LUIGI DODI
   Les problèmes des aménagements régionaux en Italie 53
5. Mr. Humayun KABIR
   Islam and Modern India 67

UNIVERSITÉ DE DAMAS

CONFÉRENCES PUBLIQUES

Année académique 1960 - 1961

Presses de l'Université de Damas

جامعة دمشق

الخطابان

الملقيان خلال

حفلة التخريج

١٨ شباط ١٩٦١

مطبعة جامعة دمشق

خطاب

الأستاذ الدكتور أمجد الطرابلسي

وزير التربية والتعليم التنفيذي

فرحتنا اليوم فرحتان حين يتاح لنا ، ونحن في غمرة النشوة ، نستقبل الذكرى الثالثة لقيام جمهوريتنا العربية المتحدة وتحقيق وحدتنا القومية ، أن نجتمع في مستهل الفصل الدراسي الجديد للإحتفاء بتخريج هذه الدفعة من شبابنا الجامعي .

وما أحلى أن تتصهر كل أفراحنا في هذه الفرحة القومية الكبرى . ففي مثل هذه الأيام قبل ثلاثة أعوام شاء الله لنا وللعرب جميعاً أن نخلق خلقاً جديداً حين أذن لهذه الدولة العربية الموحدة أن تتلألأ على جبين آسيا وافريقيا لتضم في اشراقتها الأولى ثلاثين مليوناً من العرب .

وليس عسيراً عليّ أن أتخيل أيها السيدات والسادة مدى فرحة هؤلاء الشباب شباب جامعة دمشق وأن أستمع إلى نبضات قلوبهم الفتية حين يرون عرسهم الجامعي وقد غدا لؤلؤة في أكليل عرسنا القومي الكبير . فقد تتفق الجامعات أحياناً في مناهجها وأساليبها ومستوياتها العلمية ثم تبقى بعد ذلك لكل جامعة روحها الخاصة بها يتنسمها المتنسم في كل خلجة من خلجاتها وتتسرب إلى نفوس طلابها وتمتزج بها خلال حياتهم الجامعية فتطبعهم بطابعها .

وروح جامعة دمشق — اذا سئلت عنها — إنما هي العروبة الصافية الوهاجة التي لا تقبل في حقها مساومة أو مهادنة . فما من جامعة كهذه الجامعة نذرت نفسها منذ أنشئت للفكرة العربية فلم تغضّ الطرف فيها عن انحراف ولم تسمح لشعوبية متطفلة أن تندسّ في حرمها المنيع . وإذا كان هناك مثلاً جامعات عربية أخر ما تزال تشك حتى اليوم في مدى جدارة اللغة العربية بأن تكون لغة التعليم العالي ، أو جامعيون آخرون ممن استولت العجمة على ألسنتهم وتطرق القصور إلى بيانهم ، ما يزالون يعتقدون بقصور اللغة العربية عن أن

تتسع للتعبير العلمي ، فقد قالت جامعة دمشق كلمتها الفاصلة في هذا الموضوع ، منذ أكثر من أربعين عاماً حين لم تسمح للغة أخرى غير لغة القرآن أن تكون لغة التدريس في مختلف معاهدها .

أجل هذه هي روح جامعة دمشق : العروبة أولاً والعروبة آخراً . ومن يدري ؟ لعلّ روحها هذه هي التي يسرتها - عن غير ما عمد - لتختار منذ اليوم لمهرجانها الجامعي موعداً في ثنايا مهرجاننا العربي الأكبر .

ومن يدري أيضاً أيها السيدات والسادة ؟ فلعل الجامعة حين تقرن بين حفلتها السنوية وأعياد الوحدة إنما تبغي من وراء ذلك أن تشهدنا على ما كان للوحدة من أثر بيّن في دعم التعليم العالي والنهوض به الى المستوى الذي لا يليق بطموح أمتنا سواه .

وما أزال أذكر ما قاله لي السيّد رئيس الجمهورية ونحن نودّعه في مطار دمشق بعد زيارته للإقليم السوري خلال أعياد الوحدة في العام الماضي من أنه يرجو أن يكون للجمهورية خلال السنوات القليلة المقبلة جامعتان شامختان في كلٍ من دمشق وحلب . وقد كان السيد الرئيس قبيل مغادرته الإقليم آنذاك أصدر قراراً باعتماد ٣٦ مليون ليرة سورية مقسّطة على خمس سنوات ، لمواجهة نفقات برنامج التنمية في جامعتي دمشق وحلب خلال الفترة المذكورة، كما أصدر عدة قرارات أخرى تتضمن الاعتمادات اللازمة لإنشاء عدد من المعاهد العليا التي يحتاج اليها الاقليم السوري .

وننظر الآن بعد مضي ما يقرب من عام على صدور هذه القرارات فنرى الخطوات الأولى في سبيل تنفيذها تتابع تتابعاً يدعو إلى التفاؤل بتحقيق البرنامج كاملاً ان شاء الله في المدة المحددة . فقد أرسيت الأصول القانونية لانشاء جامعة حلب . وبوشر التدريس هذا العام في كليتها الزراعية الجديدة ،

كما أحدث فرع جديد للميكانيك والكهرباء في كليتها الهندسية والعمل جارٍ فيها لشراء الأراضي اللازمة لمبانيها الجديدة . وباشرت جامعة دمشق العمل في بناء صرح جديد لكلية العلوم كما شرعت في رفع قواعد الوحدة السكنية الأولى في مدينتها الجامعية وأخذت تعد العدة لشراء الأرض اللازمة لبناء كليتها الهندسية الجديدة وافتتحت هذا العام في وقت واحد أربعة معاهد جديدة اثنان في دمشق وهما المعهد الزراعي العالي والمعهد العالي للفنون الجميلة ، واثنان في حلب وهما المعهد التجاري العالي ومعهد التدريب الصناعي . والعمل جار لإعداد الأراضي والمباني التي تحتاج اليها بعض هذه المعاهد .

وقد بلغ مجموع ماخصص لجامعة دمشق هذا العام حوالي (١٢,٥) مليون ليرة سورية منها ما يقرب من (٣) ملايين لشراء الأراضي وإقامة المباني . وخصص لجامعة حلب الناشئة هذا العام (٣,٥) ملايين ليرة سورية ، نصفها تقريباً لشراء الاراضي واقامة المباني . كما خصص للمعاهد العليا الأربعة التي مرذكرها مايقرب من (٢,٥) مليون ليرة سورية . وبذلك يكون مجموع ما خصص للتعليم العالي في الاقليم السوري خلال العام المالي ١٩٦٠ — ١٩٦١ حوالي (١٨,٥) مليون ليرة سورية ، مقابل ١١ مليون تقريباً في العام الماضي ومقابل (٨) ملايين ليرة سورية فقط في عام ١٩٥٨/٥٧ ، أي العام السابق لقيام الجمهورية العربية المتحدة .

ولست أدلي بهذه الارقام ايها السيدات والسادة لأظهر تعجبي ، أولأثير تعجبكم فما تحققه الوحدة القومية لن يدهشنا ولو بلغ حد المعجزات ، لأننا من الذين آمنوا قدماً أن الوحدة خير وقوة ومنعة وكرامة وأن يد الله مع الجماعة ، وإنما أحببت أن أقرر أمراً واقعاً وهو أننا في عهد الوحدة لم يكن لنا بد من أن نسمو في برامجنا وتخطيطنا ومشروعاتنا وتطلعنا نحو المستقبل الى المستوى الذي لايجوز لنا ان نقبل بما دونه بوصفنا دولة عربية تقع عليها أضخم

المسؤوليات تجاه الوجود العربي كله ، كما تقع عليها في المحيط الدولي أيضاً أضخم المسؤوليات في نصرة الحق والحرية والسلام .

ولا ريب أن من حق العلم على مثل دولتنا أن يشغل مكانه الممتاز في برامجها وخططها ومشروعاتها فهو سبيلنا لبناء مجتمعنا العربي الاشتراكي على أسس ثابتة من زيادة الانتاج وعدالة التوزيع وهذا ما أشار اليه السيد الرئيس في خطبة له في عيد العلم حين قال :

« إنما يد العلم وحدها هي القديرة على أن تحول أحلام الشعب الى واقع حي وأن تترجم آماله الى خطط واضحة النهج ، كذلك فان جذوة النار المقدسة التي تتوهج في قلوبنا لا تلبث أن تتحول الى رماد مالم يستطع العلم أن يحـــول حرارتها الى طاقة خلاقة بناءة . وإذا كنا نلخص اليوم غايتنا في إقامة مجتمع ديموقراطي اشتراكي تعاوني فلست أرى وسيلة غير العلم تستطيع أن تمضي بنا الى هذه الغايات التي نحقق وجودها » .

بقي علينا أيها السيدات والسادة أن نقرر أن العلم الذي عناه السيد الرئيس وجعل منه الوسيلة الوحيدة التي تستطيع أن تمضي الى غاياتنا الاجتماعية انما هو العلم الحق . والعلم الحق نور في الفكر ويقظة في الضمير في وقت معاً . ولا خير يرجى للمجتمع من علم مات ضميره ونحجر احساسه . « وإن من الحجارة لما يتفجر منه الأنهار ، وإن منها لما يشقق فيخرج منه الماء ، وإن منها لما يهبط من خشية الله » .

وأول درجات يقظة الضمير العلمي أن نخلص للعلم فنطلبه لذات العلم قبل أن نطلبه لذات الشهادة . ومن طلب العلم لذات الشهادة فعنـد الشهادة ينتهي به المطاف ، ثم سرعان مايرتد الى نوع من جهالة الغرور خير منها جهالة المنشأ . وأما من طلب العلم لذات العلم فشعلة خيرة تزداد توهجاً على مر الزمن ، ثم

لاتكون الشهادات في نظره سوى معالم لطريق لاتنتهي عند حد ، كلما تقدم فيها خطوة ازداد قناعة بأنه مايزال في أولها .

وثاني درجات يقظة الضمير العلمي أن نخلص العلم لوجه الله والحق والمجتمع قبل أن نخلصه لمنفعتنا الذاتية . ولشد مايصيبني الذعر أحياناً حين أرى تهافت بعض الشباب المتعلم على الثروة . يريد أن يحوزها من أقرب السبل وفي أقصر وقت وهو بعد في أول الطريق .

وكأن المجتمع هـو المدين لأبنائه حين ييسر لهـم أن ينصرفوا في ظله ورعايته وحنانه إلى التزود من العلم بما يكفيهم، فهم يمنون عليه أن علموا وتثقفوا واشتدت سواعدهم وأصبحوا رجالاً ، فيرهقونه بالطلب ، ويعتـدون بالحق ـ حقهم عليه ـ ويتناسون الواجب ـ واجبهم نحوه ـ . إن للمجتمع دَيناً ثقيلاً في عنق كل متعلم . ويزداد هذا الدين ثقلاً كلما ضعفت امكانيات هذا المجتمع وقل عدد المتعلمين فيه . وما التنكر لهذه الحقيقة ومحاولة قلب الآية بجعل الدائن مديناً والمدين دائناً إلا دليل على تضخم الأنانية بنسبة تضاؤل الضمير .

وثالث درجات يقظة الضمير العلمي أن ينصهر العالم بأمته وينفعل بانفعالاتها ويرتفع معها وبها إلى مستوى الأحداث التي تعيشها ويعيشها العالم من حولها.

إن انصهار العالم في أمته وتمثله بعمق آمالها وطموحها ومبادئها هو الذي يحيل علمه إلى غيث خصب عميم يتلقاه المجتمع بلهفة ومحبة وثقة كما تتلقى الأرض الظمأى قطر السماء . إنه العلم الذي ينبع من الضمير الحي اليقظ . وما ينبع من القلب يحل في القلب .

وبعد أيها الأصدقاء الشباب الحريجون :

إن الضمير العربي في بعثه الجديد ، هذا الضمير الذي يتمثل في جمهوريتكم الصاعدة يستصرخ أول مايستصرخ ضمائركم الحية لتتجاوب معه ، ثم يستصرخ علمكم لتضعوه في خدمة مجتمعكم الطموح على هدى ضميركم المتيقظ . وأنا واثق أن صرخته هذه ستقع من قلوبكم في الصميم .

أهنئكم أيها الأصدقاء وأضرع إلى الله أن يوفقكم لما فيه الخير لأمتكم ولأنفسكم والسلام عليكم ورحمة الله .

خطاب

الأستاذ الدكتور حكمت هاشم

مدير جامعة دمشق

من دواعي السعادة العميقة لهذه الجامعة أن تتقدم كل عام الى الوطن العربي الأكبر بهذه الكتيبة المرصوصة من أبنائها الخريجين . إن هـذه الصفوة من الشباب والشابات الاختصاصيين مابين مرب وطبيب ، وفقيه وأديب ، وممرضة ومهندس ، وصاحب صناعة ، لهم البناة الأمناء الذين تعدهم أمتنا لاشادة صرحها القومي المجيد . واني وأنا أتولى شرف شكركم ، باسم هيئتنا التدريسية الجليلة لمشاركتكم إيانا الحفاوة بهم ، لأعلم مبلغ مايداخلكم من شعور الفخر والفرحة والعزة بأن تروا هذه السواعد القوية ، والقلوب المؤمنة ، والنفوس الخيرة ، تقرع أبواب المستقبل بثقـة وتفاؤل وبشر ، لتلج التاريخ من بابه العريض رافعـة لواء جمهوريتنا العربية المتحدة .

إن من تقاليد هذه الجامعة الراسخة أنها ماتنفك محبوكة العرى مع تاريخ شعبنا ، وأنها لاتني عن شد أواصرها اليه متفاعلة معه تفاعلاً عضوياً . فيوم أن كان الشعب مشغولاً بكفاحه من أجل استقلاله ، كانت الجامعة البؤرة التي ينبعث منها قادة ذلك الكفاح . ويوم أن كان الشعب متجهاً الى تحقيق وحدته ، كانت الجامعة مصدر التفكير السياسي الذي هيأ مقومات تلك الوحدة . واليوم وقد انطلق الشعب بعد تحرره وانصرف إلى توطيد كيانه بالبناء الراسخ المتين ، تجدون الجامعة تثب الوثبة المماردة لكي تلبي حاجات هـذا العهد مستجيبة لمقتضياته ، ناذرة نفسها للمهمة الجبارة التي عليها أن تضطلع بها بأمانة وعزم ويقين .

ولقد تعلمون أيها السادة أن روحاً قدسياً قد سرى الى جسم هـذه الأمة منذ أن نجم فيها الزعيم البطل الرئيس جمال عبد الناصر ، وأن هذه الروح قد

تغلغلت إلى أعماق وجودها فزلزلته من القواعد : تصدت إلى الهمم الفاترة فأحيت مواتها ، ونفخت في النار الخابية فأضرمت أوارها ، ومسّت مكبوت العزائم فاستثارت كوامنها وفجرت قواها . هكذا بدأنا نفتح الأعين على حقبة بطولية من حقب تاريخنا الرائع ، تحفل بالأعمال الانشائية العبقرية علينا أن نبني فيها السدود ، ونقيم المصانع ، ونستنبت الصحراء ، ونستخرج الحامات ، ونولد الطاقات ، ونستكشف الطبيعة ، ونبتكر العقائد والايديولوجيات ، ونضطلع فوق ذلك برسالة لنا في الأخلاق سامية نوجهها على أنفسنا تجاه الانسانية جمعاء . وهكذا عادت أمتنا وعليها ألا تساق بحتمية التاريخ ، بل أن تشارك ايجابياً في سير التاريخ .

ما كان للجامعة إذن أن تبقى غريبة عن وعي الأهمية الكبرى لهذا المنعطف التطوري الفاصل ، ولا كان في مكنتها إلا أن تستجيب الى مقتضيات تلك الأهمية وضروراتها الحيوية . وليت شعري كيف لا تفعل وهي التي إنما خلقت من تمام الوعي ؟ بل إن غاية وجودها أن تبث في الناس الاستزادة من الوعي ! عليها إذن أن تعد عدتها لترتفع الى مستوى الأحداث الكبرى ، وعليها أن تضطلع بمسؤوليتها كاملة لمواجهة التنمية الهائلة التي فرضتها تلك الأحداث فرضاً .

ولكم تشعر جامعة دمشق بالزهو أيها السادة حين تطالعكم بما مضت فيه من هذا الشأن الجلل خلال عامها المنصرم وماهي بسبيل تحقيقه من أعمال ضخمة ثقيلة في عامها هذا !

لقد كان فاتحة الأمر أن ابتدأت بدراسة مشكلاتها قبل أن تشرع بالتخطيط . ولقد استبان لها بنتيجة تلك الدراسة أن هناك ثغرات ضخمة لابد من سدها . ونقطة الانطلاق في تلك الثغرات التزايد الواسع السريع في أعداد الطلبة . ويكفيكم لإدراك مدى هذه المعضلة أن تعلموا على سبيل المثال أن جامعتنا خلال الثلاث السنوات من عهد الوحدة قد ضاعفت أعداد طلابها : فقد كان

فيها يومئذ زهاء ثمانية آلاف، واليوم فيها خمسة عشر ألفاً أو يزيدون. بل إن طلاب الجامعة هذه السنة وحدها قد زادوا بنحو خمسين بالمائة عما كانوا عليه خلال السنة الفائتة. والواقع أن هذا التزايد في أعداد الطلاب يطرح علينا معضلات عصيبة. فالرقعة المكانية التي إنما تكاد تكفي لألف تضيق عن استيعاب الألفين بله الألوف. والمعامل والمخابر والاجهزة الفنية والمدرجات وقاعات الصفوف - فضلاً عن الهيئة التدريسية والإدارية - لها طاقات لا يمكن أن تكلف إلا وسعها. ناهيك أن تشعب الاختصاصات وضروب الخدمة التعليمية وتنوع المهمات التثقيفية والاجتماعية بلغت من الاختلاف حداً تتقاصر دونه الاستعدادات الموفورة، فما بالك بالقائم منها على صورته البسيطة الحاضرة ؟

إن مجرد التأمل في هذه المشكلات يوحي على التفيئة بوسائل حلولها النظرية. فإذا كان من المقرر أن يحتفظ للتعليم الجامعي بمستوى محترم رفيع، وجب أن توفر له مقوماته الأساسية. ومعنى هذا أن الرقعة المكانية ينبغي لها أن تنبسط وتمتد، وأن العدة المادية ينبغي أن تستجمع وتستجد، وأن الأداة التدريسية يجب أن تستفيض وتشتد. ومعنى هذا أيضاً أنه لابد لنا من مزيد من المساحات والأبنية، ومزيد من الأدوات والآلات والمختبرات، ومزيد من الاختصاصيين والأساتذة والباحثين، بما يترتب على كل أولئك من زيادة في اعتمادات الميزانيات التي تترجم بعشرات الملايين.

من واجبي أن أبادر فأقول لكم أيها السادة إن جامعة دمشق لم تضع وقتها خلال السنة الماضية وإن خطة تفصيلية واسعة للتنمية قد رسمت لمواجهة هذه المصاعب. وإن أبرز ما في هذه الخطة برنامج للسنوات الخمس بلغت تكاليفه ستة وثلاثين مليوناً من الليرات اعتمده السيد رئيس الجمهورية دون أن ينقص من أرقامه قرشاً واحداً، فلأنتهز هذه الفرصة لأزجي الى

سيادة الرئيس العظيم ولوزرائه القائمين على مصير العلم في هذا البلد عظيم شكر الجامعة وعرفانها ليده الطولى ولأياديهم على الفكر والمعرفة والثقافة .

ولقد تضمن برنامج السنوات الخمس هذا في كل من دمشق وحلب شراء أراضي للأبنية الجامعية وللمدينة الجامعية على السواء ، وكذلك تشييد أبنية لهذه المدينة ولتلك الكليات (لاسيما لكلية الهندسة التي ستنشأ في دمشق بعد أن استقلت جامعة حلب) . هذا بالاضافة الى تجهيزات تكنيكية تبلغ قيمتها عُشر تكاليف البرنامج . ولسوف تداخلكم الغبطة الأكيدة أيها السادة حين تعلمون أن النجم الاول من هذا البرنامج الخُمسي قد نفذ بالفعل وأننا استطعنا بفضله :

أولاً — أن نضم الى رقعة الجامعة بطريق التملك القطعي تسعة وتسعين الف متر مربع من الأراضي المعدة للبناء . وبذلك تكون أرض الجامعة قد انبسطت بنسبة ثلاثمائة في مقابل كل مائة .

ثانياً — أن نغني معاهدنا ومختبراتنا ومعاملنا بالأجهزة العلمية الحديثة الدقيقة ، وعلى رأسها مستشفى المواساة الملحق بكلية الطب الذي استكمل عدته الفنية والمادية على مستوى لم يعرفه قبله مستشفى جامعي آخر في عالمنا العربي .

ثالثاً — أن نتمم عمليات التلزيم لأكبر جناح كيمياء في أية كلية للعلوم بالشرق الأوسط وهذا الجناح يتسع لألفين اثنين من الطلاب .

رابعاً — أن نخرج أخيراً إلى حيز الوجود أول ناطحة سحاب في مدينة دمشق لتؤوي في أدوارها الأحد عشر نيفاً وأربعمائة من الطلاب سيكونون طليعة السكان في مدينة هذه الجامعة .

ذلك ، ولكي تكون الصورة كاملة في مجموعها لابد من الإشارة الى أن الهيئة التدريسية — ونقص العدد فيها واضح لاينكر — هي بسبيل الزيادة والتطوير المستمرين . ولئن كنا عاجزين إلى أمد عن أن نُلحق بملاكنا الثابت

العناصر الكافية للاستغناء الذاتي ، وكنا نلجأ إلى سد النقص بطريق ندب المحاضرين واستعارة الاساتذة واستزارتهم، لنحن آملون أن تنفرج الأزمة في بضع سنين بعودة الموفدين في مختلف التخصصات العلمية . وللجامعة الآن من هذه البعوث في الخارج ما ينيف على المائة والستين يضاف إليهم قرابة خمسين ما يزال ايفادهم يتوالى عاماً بعد عام .

هكذا ترون — أيها السيدات والسادة — أن التنمية في جامعة دمشق جاءت مساوقة لمطالب الحقبة التاريخية الرائعة التي نحياها في ظل جمهوريتنا العربية المجيدة . وهكذا ترون أنها كانت في مستوى الثورة الديمقراطية الاشتراكية التعاونية التي طلع بها على دنيا العروبة الرئيس جمال عبد الناصر . فقد اقترنت في هذه التنمية الفياضة بالأمل الإنجازات العلمية والتكنيكية المحضة بالإنجازات الاجتماعية . ونحن في نفس الوقت الذي نعد فيه لطلابنا المختبرات والأجهزة والأدوات والمكتبات وأمكنة البحث والدرس والعمل، إنما نعد لهم إلى جانب ذلك المسكن الوثير، والمعاش القرير، والجو الهانيء، والرياضة المرحة، واللهو البريء، والمتعة الفنية، والأفراح الرفيعة للفكر وللنفس. ولقد كنا دائماً نستلهم في عملنا الدائم الحكمة الذهبية التي أوصانا بها السيد الرئيس : « نكافح بيد ، ونبني بيد » . فإنه لا معنى للحياة في ظل طمأنينة كسول تنام على الماضي وترضى بالحاضر ، وليس يكتسب الوجود معناه العميق إلا بفتح الأعين على المستقبل والسعي الحثيث نحو التقدم .

إن الجيل الصاعد من أبنائنا ينبغي له أن يتبوأ محله اللائق بين لداته . ومن حق هذا الجيل علينا أن نؤتيه كل الامكانيات التي يستطيع معها أن يبرهن على كفاءته وكرامته . ولئن كان العربي رسولاً للحضارات بطبعه ، فإن من شأن الرسالة الحضارية ألا تتم إلا مع التأهيل الكامل . ولا جناح علينا أن نواجه الحقائق فنقول : إننا لانزال في بداية طريق التأهيل، وما انفك يعوزنا جيوش من العمال العقليين واليدويين في كل ميدان من الميادين . فنحن بحاجة لفيزيويين

وكيميويين ورياضيين وجيولوجيين وبيولوجيين وأطباء ومهندسين واقتصاديين، بل نحن بحاجة لفقهاء وفلاسفة وفنانين وشعراء وأدباء ولكن لا على الطريقة التقليدية بل بالمفهوم الذي يساير عصراً بدأت سفن الفضاء فيه تتخذ سبيلها إلى الكواكب . ووسيلتنا إلى كل هذا أن نشق الطرق ـ ما وسعنا ـ إلى مصادر المعرفة، وأن نغذ السير ـ ماوسعنا ـ في تلك الطرق دون ونىً أو تراخ أوتلفت إلى خلف (فلقد طالما سئمنا الوقوف على الدمن والاطلال) وبكلمة واحدة : سبيلنا إلى كل هذا دعمُ مراكز العلم وتنميةُ معاهده ومؤسساته .

والآن أيها الشباب الخريجون ، أنتم على عتبة الحياة تستعدون لخوض غمارها . وإن الجامعة إذ تواكب خطاكم وأنتم تبرحون الدار لأداء الواجب لتتلفت اليكم بقلب الأم الخافق بالمحبة والرجاء . إنها لا تستطيع أن تودعكم دون أن تلقي إليكم بموعظة أخيرة قد تجدون أنفسكم في غير حاجة اليها لأنكم ـ شأنَ عمرو ـ قد شببتم عن الطوق .

اذكروا أنكم قد أصبحتم رجالاً ذوي مسؤولية ، واذكروا أن هذه المسؤولية تستلزم منكم أن تظلوا أمناء على عهد وطنكم وقومكم وانسانيتكم .

اذكروا أن هذه المسؤولية تستلزم منكم أن تنقلوا الشعلة من السلف الى الخلف مؤتلقة بالإيمان ، مفعمة بالعطاء ، متأججة بالنور ، فياضة بالاشعاع .

اذكروا أن العلم يُبتغى للسلام ، وأن السلام هو الخير ، وأن في الخير السعادة .

اذكروا اخيراً قول رائدكم وقائدكم رئيسنا الملهم : « إذا كنا قد أدركنا وجوب وضع العلم في مكانه العالي، فإن العلم هو الذي يضعنا بعد ذلك في مكاننا من العالم » .

UNIVERSITÉ DE DAMAS

CONFÉRENCES PUBLIQUES

Année académique 1960 - 1961

Presses de l'Université de Damas

LIBRARY
OF
PRINCETON UNIVERSITY

Princeton University Library
32101 073578781